

المجلّد الثالث

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية
رحمه الله تعالى

الناشر
مؤسسة النّور للطباعة والتجليد
بالتعاون مع
مكتبة دار السلام

الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩

سُورَةُ الأَنْعَامِ

ترتيبها ٦ — آياتها ١٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]. فعدل المشرك من: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

(٢)**قوله** تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلون﴾ أي: يعدلون به غيره في العبادة(٣)، التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون: عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي؛ إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه؛ كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت. ونحو ذلك.

...(٤)**قوله** سبحانه: ﴿الحمدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلُون به غيره، فيجعلون له من خَلقِه عَدْلاَ وشبهًا. قال ابن عباس: «يريد: عدلوا به مِنْ خَلْقِي الحجارَةَ والأصنامَ، بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي».

وقال الزجاج: «أعلمَ الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأنَّ خالقهـا لا شيء مثله، وأعلم أنَّ الكفار يجعلون له عديلاً» والعَدْلُ: التسويةُ، يقال: عدَل الشيء بالشيء؛ إذا سَوَّاه به. ومعنى يعدلون به: يشركون به غيرَهُ.

قال مجاهد: قال الأحمر: «عدَلَ الكافرُ بربه عدلاً، وعدولاً؛ إذا سَوّى به غيره فعبَده». وقال الكِسائي: «عدلت الشيء بالشيء، أعدِله عدولاً؛ إذا ساويته به».

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين، إنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿تاللَّهِ إن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٧-٩٨]

---

(١) ١٧٨ الجواب الكافي.

(٢) ٢١ مدارج جـ٣.

(٣) وعدلوا به في الطاعة والتشريع.

(٤) ٢٢٩ إغاثة جـ٢.

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه؛ إذ جعلوا لله شِبهاً وعَدْلاً من خلقه سَوَّوهم به في العبادة والتعظيم.

(١)**الرب** تعالى هو الخالق للنور والظلمة، كما استفتح سبحانه سورة الأنعام بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السمٰوَاتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَروا بِرَبِّهِم يَعْدِلونَ﴾ [الأنعام: ١]. فاستفتح السورة بإبطال قول أهل الشرك أجمعين؛ من الثنوية المجوس القائلين: بأن للعالم نورين: نور، وظلمة. فأخبر أنه وحده رب النور والظلمة وخالقهما، كما أنه وحده خالق السمٰوات والأرض.

والله تعالى جعل الموجودات: عاليًا، وسافلاً، ومتوسطًا بينهما. وجعل لسافلها الظلمة، وهي مسكن أهل الظلمات من خلقه، وجعل لعاليها النور، وهو مسكن أهل النور منهم، وجعل هذه الأرض وما فوقها إلى العلو متوسطاً بينهما، فكلما كان أقرب إلى العرش والكرسي؛ كان أعظم نوراً؛ ولهذا كان فضل نور العرش والكرسي؛ على ما تحته؛ كفضل نور الشمس والقمر على أخفى الكواكب، وكلما كان أقرب إلى السفلي المطلق؛ كان أشد ظلمة؛ ولهذا لما كان محبس أهل الظلمات سجين؛ كانت سوداء مظلمة لا نور فيها بوجه، فكلما كان أقرب إلى الرب تعالى؛ كان أعظم نوراً ظاهراً وباطناً، وكلما بعد عنه؛ كان أشد ظلمة بحسب بعده عنه.

وذكر الإمام أحمد في كتاب: (الزهد): أن موسى أقام أياماً لا يحدث بني إسرائيل إلا متبرقعاً؛ من النور الذي غشي وجهه حين كلمه ربه فلم يكن أحد ينظر إليه.

فنسبة الأنوار كلها إلى نور الرب، كنسبة: العلوم إلى علمه، والقوى إلى قوته، والغنى إلى غناه، والعزة إلى عزته، وكذلك باقي الصفات. والعبد إذا سما بصره صعوداً إلى نور الشمس؛ غشي دون إدراكه، وتعذر عليه غاية التعذر، وأي نسبة لنور الشمس إلى نور خالقها ومبدعها؟! وإذا كان نور البرق يكاد يلتمع البصر ويخطفه ولا يقدر العبد على إدراكه فكيف بنور الحجاب؟! فكيف بما فوقه؟! والأمر أعظم من أن يصفه واصف أو يتصوره عاقل؛ فتبارك الله رب العالمين،

---

(١) ٢٠٣ مختصر الصواعق جـ٢.

الـذي أشرقت الـظلمات بنور وجهه، وعجزت الأفكار عن إدراك كنهه، ودلت الآيات وشهدت الفطر باستحالة شبهه. فلولا وصف نفسه لعباده؛ لما أقدموا على وصفه. فهو كما وصف نفسه وأثنى على نفسه. وفوق ما يصفه الواصفون.

(١)**ومما** يدخل في هذا الباب: جمع الظلمات، وإفراد النور، وجمع سبل الباطل، وإفراد سبل الحق، وجمع الشمائل، وإفراد اليمين.

أما الأول فكقـوله: ﴿**الحمدُ للّهِ الذي خلَقَ السموات والأرضَ وجعَلَ الظلماتِ والنورَ**﴾ [الأنعام: ١].

وأما الثاني فكقوله: ﴿**وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفَرَّقَ بكُم عَنْ سَبيلِه**﴾[الأنعام: ١٥٣].

وأما الثالث فكقوله: ﴿**يتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمآئِلِ**﴾[النحل: ٤٨].

والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة؛ وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن طريق الحق واحـد، وهـو علـى الواحـد الأحـد كما قـال تعالى: ﴿**هـذا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: «الحق طريقه على الله ويرجع إليه، كما يقال: طريقك علي».

ونظيره قوله: ﴿**وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾[النحل: ٩]. في أصح القولين.

أي: السبيل القصد، الذي يوصل إلى الله، وهي طريق عليه، قال الشاعر:

فهـن المنـايـا أي واد سلكنـه   عليها طريقي أو عليّ طريقها

وقد قررت هذا المعنى، وبينت: شواهده من القرآن، وسر كون الصراط المستقيم على الله، وكونه تعالى على الصراط المستقيم، كما في قول هود: ﴿**إنَّ رَبِّي عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[هود: ٥٦] في كتاب (التحفة المكية)(٢).

والمقصود: أن طريق الحق واحد؛ إذ مَرَدُّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها؛ بل هي بمنزلة بنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي وإن تنوعت؛ فأصلها طريق واحد.

---

(١) ١١٩ بدائع جـ١.

(٢) المقصود به «مفتاح دار السعادة» كما أشرت في المقدمة (ج).

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ بل هما هما؛ أفرد النور وجمعت الظلمات.

وعلى هذا جاء قوله: ﴿**الله وليُّ الَّذين آمنُوا يُخرجُهم من الظلماتِ إلى النُّورِ والَّذين كَفَرُوا أولِيَاؤُهم الطَّاغُوتُ يُخرجُونَهم من النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ**﴾[البقرة: ٢٥٧]. فوحد: ولي الذين آمنوا؛ وهو الله الواحد الأحد، وجمع: الذين كفروا؛ لتعددهم وكثرتهم، وجمع الظلمات؛ وهي طرق الضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها، ووحد(١) النور؛ وهو دينه الحق وطريقه المستقيم، الذي لا طريق إليه سواه.

ولما كانت اليمين جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون؛ أفردت، ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال؛ جمعت في قوله: ﴿**عن اليمين والشمائل**﴾ [النحل: ٤٨].

فإن قيل: فهلا كذلك في قوله: ﴿**وأَصحَابُ الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ**﴾[الواقعة: ٤١] وما بالها جاءت مفردة؟.

قيل: جاءت مفردة؛ لأن المراد أهل هذه الجهة، ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة، وهي جهة الشمال، مستقر أهل النار، والنار من جهة الشمال؛ فلا يحسن مجيئها مجموعة؛ لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم، وهي جهة الشمال. وكذلك مجيئها مفردة في قوله: ﴿**عَن اليَمِينِ وعن الشِّمالِ قَعِيدٌ**﴾[ق: ١٧]. لما كان المراد: أن لكل عبد قعيدين: قعيداً عن يمينه، وقعيداً عن شماله؛ يحصيان عليه الخير والشر؛ فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة، فلا معنى للجمع ههنا.

وهذا بخلاف قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿**ثُمَّ لآتِينَّهم مِن بينِ أيْدِيهم ومِن خَلْفِهِم وعَنْ أيْمانِهِم وعَنْ شَمَائِلِهِمْ**﴾[الأعراف: ١٧]. فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة من يريد إغواءهم، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد: من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله. ولا يحسن هنا: عن يمينهم، وعن شمالهم؛ بل الجمع ههنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد.

---

(١) يأتي ص ١١٣ما هو شبيه بهذا البحث على قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا..﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ج.

ونظيره ﴿**فَاغْسِلُوا وُجوهَكُم وأيْدِيَكُم إلى المَرافِقِ**﴾[المائدة: ٦].

وقد قال بعض الناس: إن الشمائل إنما جمعت في الظلال، وأفرد اليمين؛ لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول، يبدو كذلك ظلًّا واحداً من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال؛ فإنه يتزايد شيئاً فشيئاً، والثاني منه غير الأول، فكلما[1] زاد منه شيئاً؛ فهو غير ما كان قبله؛ فصار كل جزء منه كأنه ظل؛ فحسن جمع الشمائل في مقابلة تعدد الظلال. وهذا معنى حسن....

[2]**وأما** الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق. والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿**وجعلَ الظلماتِ والنورَ**﴾ [الأنعام: ١].

والثاني: أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله ﴿**إنَّا جَعَلْناه قُرْآنًا عربيًّا**﴾[الزخرف: ٣].

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأ من الحَرثِ والأنعَامِ نَصِيبًا**﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وغالب ما يستعمل؛ في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛ حيث لا يكون له صنع في المجعول كقوله: ﴿**وجعلُوا الملائكَةَ الَّذِين هُم عِبادُ الرَّحمٰنِ إنَاثًا**﴾[الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿**قُل أرأيتُم ما أنزَلَ الله لَكُم مِن رِزْقٍ فجعلتُم مِنْه حَرامًا وحَلالًا**﴾[يونس: ٥٩]. وهذا يتعدى إلى واحد، وهو جعل اعتقاد وتسمية.

وأما الفعل والعمل فإطلاقه على العبد كثير ﴿**لبِئْسَ ما كَانُوا يَفْعَلُون**﴾[المائدة: ٧٩]. ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانوا يعْمَلون**﴾ [المائدة: ٦٢] ﴿**بِما كُنتُم تَعْمَلُون**﴾ [الزخرف: ٧٢]. وأطلقه على نفسه فعلًا واسمًا:

فالأول: كقوله: ﴿**ويَفْعَلُ اللّهُ ما يشاءُ**﴾ [ابراهيم: ٢٧]. والثاني كقوله: ﴿**فعَّال لما يُريد**﴾[البروج: ١٦]، وقوله: ﴿**وكُنَّا فَاعِلين**﴾ في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله: ﴿**وسَخَّرنا مع داود الجِبَالَ يُسَبِّحنَ والطَّير وكُنَّا فَاعِلين**﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والثاني قوله: ﴿**يومَ نَطْوي السَّماءَ كطَيِّ السجِل للكُتُبِ كما بدأنا أوَّلَ خَلقٍ نعيدُه وعدًا علينا إنا كُنَّا فَاعِلينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) في النسخة (فلما) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع. (٢) ١٣٣ شفاء العليل.

فتأمل قوله: ﴿كنا فاعلين﴾ في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة، كيف تجده: كالدليل على ما أخبر به؟! وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة، أي: شأننا الفعل، كما لا يخفى الجهر والإسرار بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد. وقد وقع الزجاج على هذا المعنى بعينه فقال: ﴿وكنا فاعلين﴾ قادرين على فعل ما نشاء.

(١)**وتأمل** كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: ﴿وهو اللَّهُ في السَّموات وفي الأرض يَعْلمُ سِرَّكُم وجَهْركُم﴾[الأنعام: ٣]. فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية.

فالمعنى: وهو الإله، وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات، ففي كل واحدة من هذا الجنس؛ هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا؛ أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة؛ فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على السموات، ثم يبتدىء بقوله: ﴿وفي الأرض يعلمُ﴾ وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك، وهو قول محققي أهل التفسير.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿ألَم يرَوا كَمْ أهْلَكْنَا من قَبْلِهم مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهم في الأرض ما لَم نُمكِّن لَكُم، وأرسَلْنا السَّماء عليْهم مِدْرارًا، وجَعَلْنَا الأنهارَ تَجْري مِن تَحْتِهم، فأهْلَكْنَاهم بِذُنُوبِهم، وأنشأنَا مِنْ بَعْدهم قرنًا آخرين﴾[الأنعام: ٦] فذكر سبحانه إهلاك مَن قبلنا من القرون، وبَيَّنَ أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك؛ فهذا محض قياس العلة.

...(٣)**فإن** المشركين قالوا تعنتاً في كفرهم: ﴿لَوْلَا أُنْزل عَلَيْهِ مَلكٌ﴾[الأنعام: ٨] يعنون: مَلَكا نُشاهده ونراه، يشهد له ويصدقه؛ وإلا فالملك كان ينزل عليه بالوحي من الله.

---

(١) ١١٦ بدائع جـ١. (٢) ١٣٤ أعلام جـ١. (٣) ٣٩٢ مدارج جـ٣.

فأجاب الله تعالى عن هذا، وبيَّن الحكمة في عدم إنزال الملك على الوجه الـذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكاً ـ كما اقترحوا ـ ولم يؤمنوا ويصدقوه؛ لعوجلوا بالعذاب. كما جرت واستمرت به سنته تعالى مع الكفار في آيات الاقتراح، إذا جاءتهم ولم يؤمنـوا بها. فقـال: ﴿**وَلَوْ أَنْزَلنا مَلَكاً لَقُضِي الأمرُ ثُمَّ لا يُنظَرون**﴾ [الأنعام: ٨]. ثم بين سبحـانـه: أنـه لو أنـزل ملكـاً ـ كما اقترحوا ـ لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا على التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون على مخاطبة الملك ومباشرته، وقد كان النبي، ﷺ ـ وهو أقوى الخلق ـ، إذا نزل عليه الملك: كُرِب لذلك، وأخذه البُرَحاء، وتَحَدَّر منه العرق في اليوم الشاتي. وإن جعله في صورة رجل: حصل لهم لبس: هل هو رجل، أم ملك؟ فقال تعالى: ﴿**وَلَـو جَعَلْنَـاه مَلَكـا لَجَعَلْنَـاه رَجُـلاً ولَلَبَسْنَـا عَلَيْهِم**﴾ في هذه الحـال ﴿**مـا يلبِسُون**﴾[الأنعام: ٩] على أنفسهم حينئذ. فإنهم يقولون ـ إذا رأوا الملك في صورة الإنسان ـ:هذا إنسان، وليس بملك. فهذا معنى الآية. . .

...[1]**قالوا**[2] ﴿**لولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلكٌ؟**﴾ [الأنعام: ٨]. أي: نعاينه ونراه. وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه. فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه. فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها: لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، ولا أنزل ملكاً يرونه؛ فقال: ﴿**ولَوْ أنزلْنا ملَكًا لَقُضِي الأمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُون**﴾ [الأنعام: ٨] أي: لوجب العذاب، وفُرِغ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب.

وهذا نظير قوله في سورة الحجر: ﴿**وقَالُوا يَا أيُّها الَّذِي نُزِّل عَليهِ الذِّكرُ إنَّك لَمجْنُون لَو مَا تأْتِينَا بالملاَئِكَة إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الحجر: ٦، ٧]. قال الله عز وجل: ﴿**ما نُنزِّل الملائِكَةَ إلَّا بالحَقِّ ومَا كَانُوا إذًا مُنْظَرِينَ**﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» ههنا العذاب. ثم قال: ﴿**ولَوْ جعلْنَاه مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**﴾ [الأنعام: ٩]. أي: لو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة آدمي؛ إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها؛ وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم؛ . لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

---

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١ .   (٢) قالوا: أي الكفار.

وقوله: ﴿ما يلبسون﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لَبْسهم على ضعفائهم. والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولَبَّسوا عليهم الحق بالباطل؛ فشُبِّه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

والثاني: أنه لبس عليهم ما لَبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم، ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولاً ملكيًا يعاينوه. وهذا تلبيس منهم على أنفسهم. فلو أجبناهم إلى ما اقترحوه؛ لم يؤمنوا عنده؛ وللبسنا عليهم لَبْسهم على أنفسهم.

(١)**الرضى** بالله ربًا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى: يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿**قل أغير الله أبغي ربًا وهو رب كل شيء**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا. يعني: كيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿**قُل أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأرضِ**﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني: معبوداً وناصراً ومعينا وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أبتغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَن يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؛ وقد أنزله مفصَّلا، مبيناً كافياً شافياً؟!.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد، ﷺ، رسولاً؛ ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًّا منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًا، ولا يبغى ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصراً؛ بل يوالى من دونه أولياء؛ ظنًّا منه: أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد؛ أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

---

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً: يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًا، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضى بالله ربًا: أن يسخط عبادة مادونه. هذا هو الرضى بالله إلهاً. وهو من تمام الرضى بالله ربًا. فمن أعطى الرضى به ربًا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا؛ لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**قُلْ أيُّ شيْءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهيدٌ بَيْني وبَيْنَكُم**﴾ [الأنعام: ١٩] المراد بالآية: شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين قالوا لرسول الله، ﷺ : من يشهد لك على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات: شهادته له، وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به؛ فقال تعالى: ﴿**قُلْ كفَى باللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتاب**﴾ [الرعد: ٤٣] أي: ومن عنده علم الكتاب يشهد لي وشهادته مقبولة؛ لأنها شهادة بعلم.

قال الله تعالى: ﴿**لكِن اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أنْزلَ إلَيْكَ أنْزَلَه بعِلْمِه، والمَلاَئِكَةُ يَشْهَدون، وكَفَى بالله شَهيداً**﴾ [النساء: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شيْءٍ أكبَرُ شَهادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْني وبَيْنَكُم**﴾، فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً. فإن قيل: وما شهادته لرسوله؟

قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه، بعد العلم بها ضرورة، فدلالتها على صدقه؛ أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله: أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به. فهذا وجه. ووجه آخر: أنه: صدقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه. فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً...

...**ونظير** هذا استشهادهم بقوله تعالى: ﴿**وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أنْتُم ولا**

---

(١) ٣٣٨ طريق الهجرتين.

آباؤكم قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[الأنعام: ٩١] حتى رتب على ذلك بعضهم: أن الذكر بالاسم المفرد وهو «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وهذا فاسد مبنيّ على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً، ولا مفيد شيئًا، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان، ولا ثواب، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله» من أول عمره إلى آخره؛ لم يصر بذلك مسلمًا؛ فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر؛ أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة، المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناء الهائر.

وأما فساد المبني عليه؛ فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: ﴿قُلِ اللّهُ﴾ أي: قل هذا الاسم، فقل: الله، الله. وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا؛ جواب لقوله: ﴿قُلْ مَن أنزَلَ الكِتابَ الذِي جاءَ به مُوسَى نُورًا وهُدًى للنَّاس، تَجعلُونَه قَراطِيسَ تُبدُونها وتُخْفُون كَثِيراً﴾ [الأنعام: ٩١] إلى أن قال: ﴿قُلِ اللّهُ﴾ أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب فيتضمنه؛ فيحذف اختصاراً كما يقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله. أي: الله خلقهما، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه. فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره[1]

[2]**الخامس** والأربعون: أن الله سبحانه؛ إنما أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله، فقال تعالى: ﴿تبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلى عَبدِه ليَكونَ لِلعَالمين نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إلَيَّ هذا القُرآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه هذا القرآن؛ فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله.

وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاس عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وما كُنا مُعَذِّبينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿كُلَّما أُلقِي فيها فَوْجٌ سَأَلهم خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ قَالُوا

(١) تطرق لهذه المسألة في آخر رسالته العبودية بما يزيدها وضوحًا (ج). (٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلْنا ما نزَّل الله من شيءٍ إن أنتُم إلاَّ في ضلالٍ كبيرٍ وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١]. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض له؛ فأي حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل؟ وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله بكتابه من كل وجه؟!.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إليَّ هذا القُرآنُ لأُنذِرَكُم به وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذر به. والأحاديث التي رويت في امتحان الأطفال والمعتوهين والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام، فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم: لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام.

ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة. وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ؛ لايدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة، وهذا القول هو المحكي عن أبي حنيفة وأصحابه، وهو في غاية القوة.

(٢)**قال** تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يُخْفُون من قبلُ ولو ردُّوا لعادوا لما نهو عنه وإنَّهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا. فراجع أقوالهم؛ تجدها: لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ومعناها أجلّ وأعظم مما فسروها به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدالهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿ما كانوا يخفون من قبلُ﴾؛ قدروا مضافاً محذوفاً، وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل؛ فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم؛ بل كانوا يظهرونه، ويدعون إليه، ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا: ﴿واللّهِ ربنا ما كنا مشركين﴾

---

(١) ١٧٩ التحفة.	(٢) ١٩٨ عدة الصابرين.

[الأنعام: ٢٣]. فلما وقفوا على النار؛ بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا؛ فإن السياق والإضراب ببل، والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿**والله ربِّنا ما كنا مشركين**﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم؛ إذ خفيت عليهم مضرته.

ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم؛ لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب؛ ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهراً له قبل.

هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم، الذي كانوا ينادون به على رءوس الأشهاد، ويدعون إليه كل حاضر وباد؛ بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقَتْلَ النفوسِ والسعي في الأرض بالفساد: أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها؛ تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله.

فأخبر سبحانه: أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان؛ بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا؛ لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم: أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها؛ تبين لك معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿**يا ليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنا**﴾ [الأنعام: ٢٧]. فالقوم كانوا يعلمون: أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه؛ ولكنهم أخفوه ولم يظهروه

بينهم؛ بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان؛ معرفة مالم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم: أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق؛ فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا؛ لما سمحت نفوسهم بالإيمان؛ ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل؛ وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باجتياله. وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة؛ تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك؛ وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد؛ لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قالت الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا؛ بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه. والله أعلم.

(١) **قالوا**: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار؛ أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿**يا ليتنا نُردُّ ولاَ نُكذبَ بآياتِ ربِّنا وَنَكُونَ من المُؤمنين بل بدَا لَهُم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولَو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهوا عنْهُ وإنَّهُم لكَاذِبُونَ**﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. فأي علم أبينَ من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم لو رُدَّ إلى الدنيا؛ لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أنَّنا نزلنا إليهم المَلاَئكةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنَا عَلَيْهِم كلَّ شيْءٍ قُبُلًا ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ ولَكِن أكْثَرَهُم يَجْهَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١١١]. فهل بعد: نزول الملائكة عيانًا، وتكليم

---

(١) **٩٣** مفتاح جـ١.

الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم؛ من بيان وإيضاح للحق وهدى؟! ومع هذا: فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول. ومن نظر في سيرة رسول الله، ﷺ، مع قومه ومع اليهود؛ علم أنه كانوا جازمين بصدقه، ﷺ، لا يشكون أنه صادق في قوله: إنه رسول الله؛ ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبي جهل ـ وكان خاله ـ: أي خال! هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى ـ: يا ابن أخي، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى: الأمين. ما جربنا عليه كذباً قط؛ فلما وخطه الشيب؛ لم يكن ليكذب على الله. قال: يا خال! فلم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أخي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي. فمتى ندرك هذه؟

وهذا أمية بن أبي الصلت كان ينتظره يوماً بيوم، وعلمه عنده قبل مبعثه. وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معًا معروفة، وأخباره برسول الله، ﷺ. ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال: لا أؤمن بنبي من غير ثقيف أبداً.

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله، ﷺ، ولم يشك فيه؛ وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه.

ولما سأله[1] اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها؛ قبلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكم أن تتبعوني؟» قالوا: إن داود عليه السلام دعا: أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود.

فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

فقيل: لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة: أن محمداً رسول الله، ﷺ، حتى يشهد لله بالوحدانية، وقيل: يصير بذلك مسلماً، وقيل: إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود؛ صار مسلماً بذلك. وإن كان كفره بالشرك مع ذلك؛ لم

---

(١) الهاء هنا عائد على الرسول ﷺ.

يصر مسلماً إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره . . .

(١)**فصل** وأما الفتون؛ فهو مصدر فتنه يَفْتِنُه فُتُوناً. قال الله تعالى: ﴿**وفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾[طه: ٤٠] أي: امتحنَّاك واختبرناك. والفِتْنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار ومنه قوله تعالى: ﴿**إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُك**﴾[الأعراف: ١٥٥] أي: امتحانك واختبارُك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فِتْنَة فلان أي: افْتِتانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿**واتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً**﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال: أَصَابته الفِتْنة، وفَتَنَته الدنيا، وفتنته المرأةُ وأفتنته، قال الأعشى:

لئـن فَتَنَتْني لَهْيَ بالأمسِ أفتنت سعـيداً فأَضْحى قد قَلىٰ كل مسلم

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتـون به نفسـه، يُسمى فتنـةً، قال الله تعـالى: ﴿**إنَّما أَمْوَالُكُم وأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن: ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهم إلاَّ أَنْ قَالُوا واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: لم تكن عاقبة شركهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُم**﴾ [الذاريات: ١٤] فقيل: المعنى: يحرقون، ومنه: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جَوْدَته؟، ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتْن: الإحراق؛ قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ هُم عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ**﴾ وورقٌ فَتِينٌ، أي: فضةٌ مُحْرَقَة. وافْتُتِن الرجل، وفُتِن؛ إذا أَصَابته فتنةٌ؛ فذهب مالُه أو عقلُه. وفتنتْـهُ المـرأةُ إذا ولَّهته، وقوله تعالى: ﴿**فإنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُون مَا أَنْتُم عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] أي: لا تفتنون عَلَى عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم. فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه. وأما قوله تعالى: ﴿**فَسَتُبْصِرُ ويُبْصِرُونَ بِأَيِّكُم الْمَفْتُونُ**﴾[القلم: ٥، ٦] فقيل: الباء زائدة.

وقيل: المفتون مصدر: كالمعقول، والميسور، والمحلوف، والمعسور.

---

(١) ٤٧ روضة.

والصواب: أنّ يُبْصر؛ مُضمَّنٌ معنى يَشْعُر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بخَلْقِهِنَّ بقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المُؤْمِنُ أَخُو المُؤمِنِ يَسَعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ ويتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفتَّانِ» يُروى بفتح الفاء وهو واحدٌ، وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجّار، والمقصود: أن الحب موضع الفتون، فما فُتن من فتن؛ إلا بالمحبة.

(١)**وقال** تعالى لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إنَّه ليَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإنَّهُم لا يُكَذِّبُونَكَ ولكِنَّ الظَّالِمِين بآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] يعني: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنك غير كاذب فيما تقول؛ ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون. قال قتادة: يعلمون أنك رسول؛ ولكن يجحدون. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهم ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللّهِ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ*يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وَتَكْتُمون الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون: بصحته، وبأنه الحق. فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وخفاء.

وقال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَن اشْتَرَاه مَالَه في الآخرَةِ مِنْ خلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا من أخذ السحر وقبلَهُ؛ لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة؛ فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه.

وقال تعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب: في القبلة كما في سورة البقرة.

وفي التوحيد، كقوله في الأنعام: ﴿أَئِنَّكُم لَتشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إنَّما هُوَ إلهٌ واحِدٌ وإنَّني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَعْرِفُونه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠]. وفي الكتاب أنه منزل من عند الله، لقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالْحَقِّ﴾[الأنعام: ١١٤]. . . (٢)

---

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

(٢) يأتي أصل هذا البحث في سورة طه بكامله إن شاء الله تعالى. ج.

...[١] **قال** تعالى: ﴿**أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللّهُ المَلِكُ الحَقُّ**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان؛ فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا؛ فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنَزِّلَ آيَةً ولكِنَّ أكْثَرهُم لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧] وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها؛ كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

ومن[٢] ذلك قوله: ﴿**وقَالُوا لوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيةٌ من ربِّه قل إنَّ اللّهَ قادرٌ على أن ينزِّلَ آيةً ولكنَّ أكْثرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون**﴾ أي: لا يعلمون حكمته تعالى، ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء. وليس المراد: أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر؛ فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه؛ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

[٣]**قوله** سبحانه: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمَمٌ أمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرُونَ والذينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩] وقد قال النبي ، ﷺ: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم؛ لأمرت بقتلها**» وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخباراً عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة لا

= وهو موجود في سورة البقرة، والقصص بتفصيل موسع حول خطاب الله لأهل الكتاب ذمًّا ومدحًا.

(١) ٣٥ بدائع جـ٢. (٢) ١٩٧ شفاء.

(٣) ٧٧ شفاء.

يمكن إفناؤها؛ لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض؛ لأمرت بقتلها.

والثاني: أن يكون مثل قوله: «**أَمِنْ أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح**» فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة؛ فإعدامها وإفناؤها؛ يناقض ما خلقت لأجله. والله أعلم بما أراد رسوله.

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿**إلا أمم أمثالكم**﴾ يريد: يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني مثل قوله تعالى: ﴿**وإن مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤] ومثـل قولـه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ [النور: ٤١].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ والشَّمْسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوآبُّ**﴾ [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿**ولِلّهِ يسجدُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ مِنْ دَآبَّةٍ**﴾ [النحل: ٤٩] ويدل عليه قولـه تعـالى: ﴿**يَـا جِبَـالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيرِ**﴾ [سبأ: ١٠]. ويدل عليه قوله: ﴿**وأوحى ربُّـكَ إِلَى النَّحْـلِ**﴾[النحـل: ٦٨] وقـولـه: ﴿**قَـالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَـا النَّمْلُ**﴾[النمل: ١٨] وقول سليمان: ﴿**علِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**﴾[النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة، تعرف بأسمائها.

وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في: طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

وقـال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي؛ إلا وفيه شبه من البهائم: فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب. ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب؛ عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه؛ ولغت فيه. فلذلك تجد من الأدميين من لو سمع خمسين حكمة؛ لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره؛ وجب المصير إلى باطنه.

وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودآبة، وذلك ممتنع من جهة: الخلقة، والصورة، وعدم من جهة: النطق، والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع؛ فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك. انتهى كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالاً، وبعضها متوكلًا غير محتالٍ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لاتزال تعرفه وتعطف عليه . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[الأنعام: ٣٨].

وقد اختلف في الكتاب ههنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين:

فقالت طائفة: المراد به: القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص: أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: ﴿**وَنَزَّلْنَا عليك الْكِتَاب تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩]. ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه، والمراد: إن كل شيء ذكر فيه مجملاً ومفصلاً، كما قال ابن مسعود، وقد لعن الواصلة والمستوصلة،: مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه(٢) قال تعالى: ﴿**مَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧] ولعن رسول الله ﷺ، الواصلة والمستوصلة. وقال الشافعي: ما نزل بأحدٍ من المسلمين نازلة؛ إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكان هذا القول أظهر في

---

(١) ٤٠ شفاء.

(٢) في المطبوعة «وجدته» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. وهذا يتضمن: أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى؛ بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه.

ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إلى ربِّهم يُحشَرُونَ﴾ فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿ما فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: كلها قد كتبت وقدّرت وأحصيت، قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي؛ وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول؛ أن يجيب عن هذا: بأن في ذكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به فلم نفرط فيه من شيء؛ بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن: إجمالاً، وتفصيلاً.

ويرجحه أمر آخر وهو: أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لولاَ نُزِّلَ عَلَيهِ آيةٌ من ربِّه قلْ إنَّ اللّهَ قادرٌ عَلَى أن يُنزِلَ آيةً ولكنَّ أكثرَهُم لا يعلمون﴾ [الأنعام: ٣٧].

فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله، ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السموات والأرض، وهذا يتضمن؛ التعريف: بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه، وكثرة جنوده، والأمم التي لا يحصيها غيره، وهذا يتضمن: أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه رب العالمين. فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه. ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين؟!

وشهد لهذا أيضاً قوله: ﴿وقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَات مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ وَإِنَّمَا أنا نَذِيرٌ مُبِين٭أو لم يكفِهِم أنا أَنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولمن نصر: أن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ؛ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك؛ فإنه قادر على ذلك؛

وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم؛ إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم؛ لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة، التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها؛ كيف يعجز عن إنزال آية؟!

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه: بأن هؤلاء الأمم قد: أحصاهم، وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم؛ في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يميتهم، ثم يحشرهم إليه ﴿**والـذين كذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام: ٣٩]. عن النظر والاعتبار، الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق رسله.

ثم أخبر أن الآيات؛ لا تستقل بالهدى؛ ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر؛ بل الأمر كله له ﴿**مَنْ يَشَأ اللَّهُ**(١) **يُضْلِلهُ وَمَنْ يَشَأ يَجْعَلهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٣٩] فهو أظهر القولين. والله أعلم.

...(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أَمَمُ أَمْثَالُكُمْ**﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال: منهم: من يكون على أخلاق السباع العادية. ومنهم: من يكـون على أخـلاق الكـلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير. ومنهم: من يتطوس في ثيابه، كما يتطوس الطاووس في ريشه. ومنهم: من يكون بليداً كالحـمار. ومنهم من يؤثـر على نفسـه كالديك. ومنهم: من يألف ويؤلف كالحمام. ومنهم الحقود كالجمل. ومنهم: الذي هو خير كله كالغنم. ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها.

وقـد شبـه الله تعـالى أهـل الجهل والغي: بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة. وتقوى هذه المشابهة باطنًا؛ حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًا يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد. ولا يزال يقوى؛ حتى تعلو الصورة فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعـالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير. . .

---

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالنسخة. وقد أثبتناه من المصحف.
(٢) ١٦٠ الجواب الكافي.

(١)**قال** الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان: حدثنا رشدين(٢) بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ، ﷺ، قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب؛ فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ الآية. [الأنعام: ٤٤].

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور. وطبع النفس الأمارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج(٤) والشيطان الغرور، والنفس المغترة؛ لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه، في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف؛ حتى هجم الأجل؛ فأخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرور بربه من إذا مسَّه الله برحمة منه وفضل ﴿**لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: ﴿**وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ يعني: الجنة والكرامة. فهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك؛ حتى يتردى في آبار الهلاك.

(٥)**وقد** أخبر تعالى أن تسليط الشيطان؛ إنما هو على الذين يتولونه، والذين

---

(١) ٢١٧ عدة الصابرين.
(٢) بالنسخة (رشد) والصواب ما أثبتناه من المسند. المراجع.
(٣) ٢٩٨ الروح.
(٤) لعله المحجاج.
(٥) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

هم به مشركـون. فلما تولـوه دون الله وأشركوه معه؛ عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم. وكانت هذه الأولوية والإشراك؛ عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنـابـة العـاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان؛ لأن فعل السيئات توجب العذاب. فإخلاص القلب لله؛ مانع له من فعـل ما يضـاده، وإلهـامه البر والتقوى؛ ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته. وإلهام الفجور؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًا فكيف يعاقب على العدم؟

قلت[1]: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه؛ بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة على الأمر العدمي؛ هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان: إحداهما: جعله خاطئاً مذنباً لا يحس بألمها ومضرتها؛ لموافقتها شهوته، وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات. والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. فهذه العقوبة الأولى. ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان إحداهما على الأخرى؟ لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به. وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لولم تشهده القلوب وتعرفه؛ لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده؛ من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له؟ أم ذلك محض جعله في

(١) في النسخة: (وقلت) بالواو، والصواب بحذفها كما أثبتناه. المراجع.

قلوبهم؟ قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم؛ عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلماً، ولزمك القول: بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟ قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالماً؛ وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقًا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًا له؛ بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالماً بمنعه.

فإن قلت: فإذا كان العطاء والبذل والتوفيق؛ إحساناً ورحمة وفضلاً؛ فهلا كانت الغلبة له، كما أن رحمته تغلب غضبه؟

قيل: المقصود من هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة؛ ليس بظلم. وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا ساوى بين العباد في الفضل؟

وهذا السؤال حاصله: لم تفضل على هذا ولم يتفضل على هذا؟

وقد تولى سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة: ٤]. وقوله: ﴿**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢٩]. وليس في الحكمة اطلاع فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه.

بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد؛ حتى أبصر طرفاً يسيراً من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتأمل أحوال محال ذلك، واستدل بما علمه على مالم يعلمه وتيقن أن مصدر ما علم ومالم يعلمه، لحكمة بالغة لا توزن بعقول المخلوقين؛ فقد وفق للصواب.

ولما استشكل المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ فقال لهم الله مجيباً لهم: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهذا جواب شاف كاف، وفي ضمنه أنه سبحانه؛ أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر؛ من المحل الذي لا يصلح لغرسها؛ فلو غرست فيه

لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١)**قال** تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لَا نُرِيدُ مِنكُم جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩]. فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة.

كما في مستدرك الحاكم، وصحيح ابن حبان، في الحديث المرفوع: عن النبي، ﷺ: أنه كان يدعو: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**». فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية: لا وجه له سبحانه ولا ينظر إليه، فضلاً أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هَبْ أن له وجهاً، أفتلتذ بالنظر إليه؟

(٢)**قال** تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بينِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من

(١) ٢٣ مدارج جـ٣ . (٢) ١٢٨ مدارج جـ١ .

أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه؛ من يليق به التقريب والهدى والإكرام؛ بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه. . .

...[1] **ولو** علم في الكفار: خيراً، وقبولاً لنعمة الإيمان وشكرًا له عليها، ومحبة له، واعترافاً بها؛ لهداهم إلى الإيمان؛ ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ أجابهم بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته. وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص؛ رآه عين الحكمة. وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس:

أحدها: أنها مطابقة علمه لمعلومه، وإرادته ومشيئته لمراده. هذا تفسير الجبرية، وهو في الحقيقة نفي حكمته؛ إذ مطابقة المعلوم والمراد؛ أعم من أن يكون «حكمة» أو خلافها، فإن السفيه من العباد، يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده، مع كونه سفيها.

الثاني ـ مذهب القدرية النفاة ـ: أنها مصالح العباد، ومنافعهم العائدة عليهم؛ وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة، وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.

الثالث ـ قول أهل الإثبات والسنة ـ: إنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقَدَّر وخلق لأجلها؛ وهي صفته القائمة به كسائر صفاته: من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا. والله أعلم.

[2] **قوله** تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور، وهو امتحان

---

(١) ٤٨١ مدارج جـ٢. (٢) ١٩١ شفاء.

بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيراً وسعادة؛ ما سبقنا هؤلاء إليه. فهذا القول منهم؛ هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على: إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به. وهذا وإن كان علة؛ فهو مطلوب لغيره.

والعلل الغائية: تارة تطلب لنفسها، وتارة تطلب لغيرها؛ فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ماقالوه وما يترتب عليه هذا القول؛ موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار: عدله، وحكمته، وعزه، وقهره، وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع ولا يليق به غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم، من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض؛ لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه: شكر هؤلاء، وكفر هؤلاء.

(١)**أما** استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم؛ قد أودع الله قلوبهم سرًّا من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل؛ فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم، فازدروهم واحتقروهم، وقالوا للرسول: «اطرد هؤلاء عنك؛ حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ من بَيْنِنا**﴾ [الأنعام: ٥٣]، فقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿**ولا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أعلمُ الغَيْبَ ولَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِين تَزْدَرِي أَعْيُنُكُم لَنْ يُؤْتِيهم الله خَيراً الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [هود: ٣١]. قال الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادى الرأي وظاهره؛ فليس عَلَيَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله؛ عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

---

(١) ١٧٠ مدارج جـ٣.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم؛ إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم من بَيْنِنا أَلَيْس اللَّهُ بِأَعلَمَ بِالشَّاكِرِين**﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه: أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم؛ كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

(1)**وقد قرن** تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر: خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعَونا عليهما. قال تعالى: ﴿**فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم واشكُرُوا لي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكرو وآمنوا به، فقال: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُم إن شَكَرْتُم وآمَنْتُم**﴾ [النساء: ١٤٧]. أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا؟

وأخبر سبحانه: أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعلَمَ بِالشَّاكِرِين**﴾ [الأنعام: ٥٣] وقسم الناس إلى: شكور، وكفور. فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله. قال تعالى في الإنسان: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً**﴾ [الإنسان: ٣]. وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿**هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أم أَكفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَنْ كَفرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿**وإذ تأذن ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿**إِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنْكُم وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر:٧] وهذا كثير في القرآن. يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده.

---

(١) ١٢٢ عدة الصابرين.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِين﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان؛ فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغنِيكُم الله مِنْ فَضْلِهِ إنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إليه إن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقوله في الرزق: ﴿يرزقُ مَن يشاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿يغفرُ لمن يشاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، والتوبة: ﴿ويتوبُ اللّهُ على من يشاءُ﴾ [التوبة: ٩]. وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا؛ حيث ذكر كقوله: ﴿وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَين أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِم وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أكثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وذكر الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه سمع رجلا يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَليلٌ من عِبَادِيَ الشَّكُور﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿إلاَّ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُم﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إنَّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته؛ إشارة إلى الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَتَه هُمُ البَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فأمر

الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ﴿إنَّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

وقد أخبر سبحانه: إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَاشكُرُوا للّهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما أتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه؛ بالشكر له وللوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّينا الإنسانَ بوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أنِ اشْكُـر لِي ولِـوَالِدَيْكَ إليَّ المَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وأخبر: أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿وإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكـر نعمه فقال: ﴿إنَّ إبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه: بأنه، أمة أي: قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتا لله. والقـانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات: بأنه شاكر لأنعمه؛ فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه: أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿واللّهُ أخرجكم من بطونِ أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغـاية الأمـر، فقـال: ﴿وَلَقَـدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُم أذِلَّـةٌ فاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تَشْكُرُونِ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾؛ تعليلاً لقضـائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كَمَا أرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُـونُـوا تَعْلَمونَ فَاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لإفضاله وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي، ﷺ، أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

وثبت في المسند والترمذي: أن النبي، ﷺ، قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل: حدثنا أبومعاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة: قال: كان من دعاء النبي، ﷺ: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

قال: وحدثنا محمود بن غيلان: حدثنا المؤمل بن إسماعيل: حدثنا حماد بن سلمة: حدثنا حميد الطويل، عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله، ﷺ، قال: «**أربع من أعطيهن؛ فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في ماله**».

وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة، عن النبي، ﷺ، قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله؛ إلا كتب الله له شكرها. وما علم الله من عبد ندامة على ذنب؛ إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبته؛ حتى يغفر له**».

وقد ثبت في صحيح مسلم: عنه، ﷺ، أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة؛ فيحمده عليها، ويشرب الشربة؛ فيحمده عليها**» فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾» [التوبة: ٧٢]. في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبوزهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لا يرزق اللهُ عبداً الشكر؛ فيحرمه الزيادة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾**».

وقال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ماشاء، فإذا لم يشكر عليها؛ قلبها عذاباً؛ ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، فإنه الذي يحفظ النعم

الموجودة؛ والجالب فإنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال لرجل من همدان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن. فلن ينقطع المزيد من الله؛ حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبدالعزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله، وكان يقال: الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبدالله: لأن أعافى فأشكر؛ أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وقال الحسن: أكثروا ذكر هذه النعم، فإن ذكرها؛ شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿**وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: ١١].

والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعد: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله؛ فأوحى الله إليه: ياداود أتعبت الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز، لم نره عليه قبل ولا بعد فقال: إن رسول الله، ﷺ، قال: «**إذا أنعم الله على عبد نعمة؛ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي، ﷺ، قال: «**كلو واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله، ﷺ، وأنا قشف الهيئة، فقال: «**هل لك من مال؟**» قال: قلت: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قلت: من كل المال قد آتاني الله من: الإبل، والخيل، والرقيق، والغنم. قال: «**فإذا آتاك**(١) **الله مالاً فلير عليك**».

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في: مأكله، ومشربه**».

---

(١) في النسخة: «آتاني» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وروى عبدالله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبدالله رفعه: «**من أعطي خيراً فرؤي عليه سمي: حبيب الله، محدثاً بنعمة الله. ومن أعطي خيراً فلم ير عليه سمى: بغيض الله: معادياً لنعمة الله**».

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه؛ لم يستتم ذلك؛ حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧]...

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فأجابهم بأن حكمته وعلمه؛ يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة؛ لم يكن في هذا جواب(٢). بل كان الجواب: إن أفعاله لا تعلل وهو يرجح مثلاً على مثل بغير مرجح والأمر عائد إلى مجرد القدرة كما يقوله المنكرون.

وكذلك قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله، وأنكروا ذلك؛ أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته، وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون لمشيئته. ولو كان الأمر عائداً إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب.

ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم؛ حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل مما يقتضي تخصيصه وتفضيله، وهو الذي جعله أهلاً لذلك كما قال تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر: تخصيصه سليمان بتسخير الريح له، وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

ومنه قوله: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ**

---

(١) ٢٠٣ شفاء العليل.

(٢) في النسخة (جواباً) وهو خطأ، والصواب الرفع لأنه اسم كان مؤخر. المراجع.

وَالهديَ وَالقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرض وأَنَّ الله بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]. فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان وهذا الزمان بأمر اختصا به؛ دون سائر الأمكنة والأزمنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فأنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِه وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَألْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكَانُوا أحَقَّ بهَا وأهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]. فأخبر: أنه وضع هذه الكلمة عند أهلها ومن هم أحق بها، وأنه أعلم بمن يستحقها من غيرهم. فهل هذا وصف من يخص بمحض المشيئة لا بسبب وغاية؟

(١)**وبالجملة** فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه. والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله: ﴿اللَّهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أهَؤلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ألَيْسَ اللَّهُ بِأعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحالِّ التخصيص، ومحال الحرمان. فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن ردَّه المنع إلى الافتقار إليه، والتذلل له، وتملقه؛ انقلب المنع في حقه عطاء. ومن شغله عطاؤه وقطعه عنه؛ انقلب العطاء في حقه منعاً.

فكل ماشغل العبد عن الله؛ فهو مشؤوم عليه، وكل ماردَّه إليه؛ فهو رحمة به.

والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل؛ حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه. فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائماً، واتخاذ السبيل إليه، وأخبرنا: أن هذا المراد لا يقع؛ حتى يريد من نفسه: إعانتنا عليها، ومشيئته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه؛ ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أنْ يَشَاءَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فإن كان مع العبد روح أخرى، نسبتها إلى روحه؛ كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه؛ أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلاً، وإلا فمحله غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء؛ رجع بالحرمان، ولا يلومنَّ إلا نفسه...

---

(١) ٣٣ زاد المعاد جـ٢.

قاعدة جليلة[1]

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تعالى قد بيَّن في كتابه: سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء.

وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما، وأوضحهما وبينهما غاية البيان؛ حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه؛ عرفوا: سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية؛ فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للسالك: الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة؛ وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشؤوا في: سبيل الضلال والكفر والشرك، والسبل الموصلة إلى الهلاك؛ وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول؛ فأخرجهم من تلك الظلمات إلى: سبيل الهدى، وصراط الله المستقيم؛ فخرجوا: من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر؛ فعرفوا: مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا: رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه. وكانوا: أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

---

(١) ١٠٧ فوائد.

(١)**المثال** السابع: مما ادعى المعطلة مجازه الفوقية، وقد ورد به القرآن: مطلقاً بدون حرف، ومقترنًا بحرف.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨ ـ ١٦] في موضعين.

والثاني: كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي حديث الأوعال لما ذكر: السموات السبع، وذكر البحر الذي فوقها، والعرش فوق ذلك كله، والله فوق ذلك؛ لا يخفى عليه أعمالكم.

وحقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره، فادعى الجهمي: أنها مجاز في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال: الذهب فوق الفضة والأمير فوق نائبه، وهذا وإن كان ثابتًا للرب تعالى؛ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز؛ باطل من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز على خلاف الأصل.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لابد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب تعالى؟

الرابع: أن القائل إذا قال: الذهب فوق الفضة؛ قد أحال المخاطب على مايفهم من هذا السياق، والعهد(٢)، فأمرين: عهد تساويهما في المكان، وتفاوتهما في المكانة؛ فانصرف الخطاب إلى ما يعرفه السامع ولا يلتبس عليه، فهل لأحد من أهل الإسلام وغيرهم عهد بمثل ذلك في فوقية الرب تعالى حتى ينصرف فهم السامع إليها؟!.

الخامس: أن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة؛ على خلاف ذلك، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية. . .(٣)

. . . (٤)**قوله** تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِنْ فَوقِكُم أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُم﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال عند

(١) ٢٠٥ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) في النسخة: (والمعتد) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.
(٣) أوصلها المختصر إلى ١٧ وجهاً في عدة صحائف.(ج). (٤) ٩٩ تبيان.

نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك»(١). ولكن قد ثبت عنه، ﷺ، أنه لابد أن يقع في أمته خسف؛ ولكن لا يكون عامًّا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضاً، وهذا عذاب من فوق. فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال؛ فهو من القدرة على مالا يريده.

وقد صرح سبحانه: بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله، في غير موضع من كتابه.

كقوله: ﴿**وَلَوْ شاء رَبُّك لآمن مَنْ في الأرْض كُلُّهم جميعاً**﴾. [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿**وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها**﴾. [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله. وإن الصواب: التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقاً؛ خطأ. والله أعلم.

(٢)**وقد** ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله؛ فقال تعالى: ﴿**قُلْ أندعُو من دُونِ اللّهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا ولاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَه إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُل إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٧١].

(٣)**والمقصود**: أن هؤلاء كفروا بالأصلين، اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء، من أولهم إلى آخرهم:(٤)

أحدهما: عبادةُ الله وحده لا شريك له، والكفر بما يُعبد من دونه من إله.

---

(١) روى البخاري في باب التفسير من سورة الأنعام عن جابر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ قال رسول الله، ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» قال: ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال رسول الله، ﷺ: «**هذا أهون ـ أو هذا أيسر**» اهـ. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٢٠٣/٨): وقد روى ابن مردويه: من حديث ابن عباس ما يفسر به حديث جابر. ولفظه عن النبي، ﷺ: «**دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعًا، فرفع عنهم اثنتين، وأبي أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء، والخسف من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعًا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين**». (٢) ٨٥ مفتاح جـ١.

(٣) ٢٥٣ إغاثة جـ٢. (٤) تقدم أول البحث في سورة البقرة عند ذكر الله تعالى الصابئين.

والثاني: الإيمان برسله وما جاءوا به من عند الله؛ تَصديقًا وإقراراً، وانقياداً وامتثالاً. وليس هذا مختصًا بمشركي الصابئة، كما غلط فيه كثيرٌ من أرباب المقالات؛ بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم؛ لكن شركُ الصابئة كانَ من جهة الكواكب والعُلويَّات؛ ولذلك ناظرَهُم إمام الحنفاء، صلوات الله وسلامه عليه، في بُطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام (الآيات ٧٤ ـ ٨٣) أحْسن مناظرةٍ وأبينَهَا، ظهرت فيها حجَّته ودُحِضَتْ حجتُهم. فقال بعد أن بَينَّ بطلان إلهيَّةِ الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأنَّ الإله؛ لا يليق به أن يغيبَ ويأفل؛ بل لا يكونُ إلا شاهداً غيْرَ غائب، كما لا يكون إلا: غالباً قاهراً، غير مغلوب ولا مقهور، نافعاً لعباده، يملك لعابده الضرَّ والنفع، فيسمعُ كلامَهُ، ويَرَى مكانه، ويَهْدِيهِ ويُرْشِده، ويَدفَع عنه كلَّ ما يضُرُّه ويُؤذِيهِ. وذلك ليس إلا لله وَحده. فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ.

فلما رأى إمامُ الحنفا: أن الشمسَ والقمرَ والكواكبَ؛ ليستْ بهذه المثابة؛ صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومُبدِعها، فقال: ﴿**إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموَاتِ والأرْضَ حَنِيفاً**﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالِّها التي هي مفتقرة إليها، ولا قِوام لها إلا بها. فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويَرُبُّها. والمحتاجُ المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهاً. فحاجَّه قومه في الله. ومن حاجَّ في عبادة الله فحجته داحضة، فقال: إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**أتُحَآجُوني فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ**﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتُشكِّكُوني فيه؛ وقد أرشدني وبينَّ لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبينَّ لي بطلان الشركَ وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشركَ به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة؛ إنما فائدتها؛ طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومِن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار. ومجادلتكم إيَّاي في الإله الحق الذي كلُّ معبود سواه باطل؛ تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلٰه الذي يألهه مع الله ؛ أن يناله بسوء ؛ فقال الخليل : ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ**﴾ [الأنعام : ٨٠]. فإن آلهتكم أقلُّ وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم ردَّ الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يُخاف ويُرجَى. فقال : ﴿**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا**﴾ [الأنعام : ٨٠]. وهذا استثناء منقطع. والمعنى : لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة ؛ لكن إن شاء ربي شيئاً ؛ نالني وأصابني، لا آلهتُكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئاً، وربي له المشيئة النافذة، وقد وَسِعَ كل شيء علماً، فمن أولَى بأن يُخاف ويعبد : هو سبحانه، أم هي ؟.

ثم قال : ﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الأنعام : ٨٠]. فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من : لا مشيئة له، ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة والعلم التام.

ثم قال : ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً**﴾ [الأنعام : ٨١].

وهذا من أحسن قَلْب الحجة ؛ وجعل حجة المبطل بعينها دالة على : فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم يُنزل الله عليهم سُلطاناً بعبادتها. وقد تبين بطلانُ إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى ؛ فأيُّ الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف : فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل، الذي لا حكم أصحُّ منه، فقال : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ أي : بشرك ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام : ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية ؛ شَقَّ أمرها على الصحابة، وقالوا : يا رسول الله وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال : «**إنما هو الشرك : ألم تسمعوا قول العبد الصالح** : ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1]﴾؟» [لقمان : ١٣].

فحكم سبحانه للموحدين ؛ بالهدى والأمن، وللمشركين ؛ بضدِّ ذلك، وهو الضلالُ والخوفُ، ثم قال : ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ**

(١) رواه أحمد والبخاري : عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. والعبد الصالح هو لقمان.

دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال أبومحمد بن حزم: وكان الذي ينتحله الصابئون؛ أقدم الأديانِ على وَجْهِ الدَّهْرِ، والغالب على الدنيا، إلى أن أحْدَثوا الحوادث، وبدَّلوا شرائعه؛ فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام، الذي نحن عليه اليوم، وتَصحيح ما أفسدوه، وبالحنيفيَّة السَّمحة، التي أتانا بها محمد رسول الله، ﷺ، من عند الله تعالى. وكانوا في ذلك الزمان وبعده يُسَمون الحنفاء.

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حُنفاء. وبينهم مناظرات. وقد حكى الشِّهْرِسْتَانيُّ بعض مناظراتهم في كتابه.

(١)**الوجه** الثالث والعشرون: أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة، فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: ﴿**وتِلكَ حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة.

(٢)**فإن** قيل: فما الفرق بين الحجج والبينات؟ قيل: الفرق بينهما: أن الحجج هي الأدلة العلمية، التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن. قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ**﴾ قال ابن زيد: بعلم الحجة.

وقال تعالى: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسلَمْتُ وَجْهِي للّهِ وَمَن اتَّبَعَن**(٣)﴾ [آل عمران: ٢٠].

. . . (٤)**وأنكر** على مَنْ فهم من قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون**﴾ أنه ظُلْم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك، وذكر قول لقمان لابنه: ﴿**إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ**﴾ مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل؛ يبين ذلك؛ فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١. (٢) ١٤٤ مفتاح جـ١.

(٣) تتمة الكلام يأتي على قول الله تعالى: ﴿والذين يحاجّون في الله﴾ [الشورى: ١٦].

(٤) ٣٥١ أعلام جـ١.

أنفسهم، بل قال: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولَبْسُ الشيء بالشيء: تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به، ويلبسه إلا الكفر. ومن هذا قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأَحَاطَتْ به خطيئته فأولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبداً، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة الخطيئة به، ومع أن سياق قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتم وَلَا تَخافُونَ أَنَّكُم أَشْرَكْتُم بِالله مَالَم يُنَـزِّلْ به عَلَيْكُم سُلْطَاناً، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأَمْنِ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]. ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه: أن مَنْ آمن ولم يلبس إيمانه بظلم؛ فهو أحق بالأمن والهدى، فدل على أن الظلم الشرك.

وسأله عمر بن الخطاب عن الكلالة، وراجعه فيها مراراً، فقال: «**تكفيك آية الصَّيْف**» واعترف عمر بأنه خَفِيَ عليه فهمها، وفهمها الصديق.

وقد نهى النبي، ﷺ، عن لحوم الحمر الأهلية ففهم بعض الصحابة من نهيه: أنه لكونها لم تخمس، وفهم بعضهم: أن النهي لكونها كانت حمولة القوم وظهرهم، وفهم بعضهم: أنه لكونها كانت جوَّال القرية، وفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وكبار الصحابة؛ ما قَصده رسول الله، ﷺ، بالنهي وصرح بعلته: من كونها رجساً.

وفهمت المرأة من قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً﴾ [النساء: ٢٠]: جواز المُغالاة في الصَّداق، فذكرته لعمر؛ فاعترف به.

وفهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿والوالداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهن حولين كاملين﴾. [البقرة: ٢٣٣]: أن المرأة قد تلد لستة أشهر، ولم يفهمه عثمان؛ فَهمَّ برجم امرأة ولدت لها؛ حتى ذكره به ابن عباس؛ فأقر به.

ولم يفهم عمر من قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»: قتال مانعي الزكاة؛ حتى بَيَّنَ له الصديق؛ فأقر به.

وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّـالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذا مَا اتَّقوا وآمنوا﴾ [المائدة: ٩٣]: رفع الجناح عن الخمر؛ حتى بَيَّن له عمر: أنه لا يتناول الخمر، ولو تأمل سياق الآية؛ لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجُنَاح عنهم فيما طعموه مُتّقين له فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حَرَّمه من المطاعم؛ فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما.

وقد فهم من قوله تعالى: **﴿وَلَا تُلقُوا بِأَيْدِيكُم إِلَى التَّهلُكَةِ﴾** [البقرة: ١٩٥]: انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبوأيوب الأنصاري: أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة؛ بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضات الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة؛ هو ترك الجهاد والإقبالُ على الدنيا وعمارتها.

وقال الصديق رضي الله عنه: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُم لَا يَضرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُمْ﴾** [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ أو شك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**» فأخبرهم: أنهم يضعُونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلافَ ما أريد بها.

وأشكل على ابن عباس أمْرُ الفِرْقَةِ الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عُذِّبُوا أو نَجوا؟ حتى بين له مولاه عِكْرِمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكتين: **﴿وإذ قالت أمة منهم لِمَ تَعِظُونَ قومًا اللّهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾**[الأعراف: ١٦٤].

فأخبر: أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي؛ فقد واجههم به مَنْ أدَّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فرض كفاية، فلما قام به أولئك؛ سقط عن الباقين؛ فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضا: فإن الله سبحانه إنما عذب الذين نَسُوا ماذكروا به وعتوا عما نُهُوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعًا، فلما بيَّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كسَاه بُرْدَة وفرح به.

...[1]**ولما** نزل قوله تعالى: **﴿الذين آمَنُوا وَلَمْ يَلبِسوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله

(١) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.

وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «**ذاك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح**: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾؟» فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمنًا ولا مهتديًا؛ أجابهم، ﷺ: «**إن الظلمَ الرافعَ للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك**». وهذا والله هو الجواب، الذي يشفي العليل ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام؛ هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها، والأمن والهدى المطلق؛ هو الأمن في الدنيا والآخرة والهدى إلى الصراط المستقيم.

. . .[1] **ماحكاه** سبحانه من محاجة إبراهيم عليه السلام قومه بقوله: ﴿**وحَآجَّهُ قومُهُ، قَالَ أَتُحَآجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ به إلاَّ أن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أفلاَ تتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّه مَالَمْ يُنزِّل به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأيُّ الْفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢] فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر، الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة؛ بل خرج في صورة كلام خبري يشتمل على مبادىء الحِجَاج، ويشير إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها، والغرض منه: أن إبراهيم قال لقومه متعجباً مما دعوه إليه من الشرك: ﴿**أتُحَاجُّونِي فِي اللهِ**﴾ وتطمعون أن تستزلوني عن توحيده بعد أن هداني، وتأكدت بصيرتي واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم: أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمراً من الأمور عن بصيرة، لا يعارضه فيها ريْب؛ فلا سبيل إلى استزلاله عنها.

وأيضا: فإن المحاجة بعد وضوح الشيء وظهوره؛ نوع من العبث بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس، وقد رآها من يحاجه بعينه. فكيف يؤثر حجاجكم له أنها لم تطلع، ثم قال: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً**﴾ فكأنه، صلوات الله وسلامه عليه، يذكر أنهم خوفوه آلهتهم: أن يناله منها معرة، كما قاله قوم هود: ﴿**إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾[هود: ٥٤] فقال إبراهيم: إن

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ١.

أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله، وهي أقل من ذلك؛ فإنها ليست ممن يرجى أو يخاف؛ بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال، الذي يفعل ما يشاء، بيده الضر والنفع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام؛ منبهاً على موقع احتراز لطيف وهو: أن لله تعالى علمًا في وفيكم وفي هذه الآلهة لا يصل إليه علمي، فإذا شاء أمراً من الأمور؛ فهو أعلم بما يشاؤه؛ فإنه وسع كل شيء علماً، فإن أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي: من أي جهة أتاني؟ فعلمه محيط بما لم أعلمه. وهذا غاية التفويض والتبرىء من الحول والقوة وأسباب النجاة وأنها بيد الله لا بيدي.

وهكذا قول شعيب، ﷺ، لقومه: ﴿**قَد افترينا على اللّهِ كَذِباً إنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكونُ لَنَا أنْ نَعُود فِيهَا إلاَّ أن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوكَّلْنَا رَبَّنَا افتَحْ بَيْنَنَا وَبيْنَ قَوْمِنَا بالحَقِّ وَأنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٩] فردت الرسل بما يفعله الله، وأنه إذا شاء شيئاً فهو أعلم بما يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه.

ثم رجع الخليل إليهم مقرراً للحجة، فقال: ﴿**وَكَيْفَ أخَافُ مَا أشْرَكتُمْ وَلا تَخَافُونَ أنَّكُمْ أشْرَكْتُمْ بالله**﴾ يعني في إلهيته: ﴿**مَالَمْ يُنزِّل به عَلَيكُمْ سُلْطَانًا فأيُّ الفَريقَين أحَقُّ بالأمْن إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْمٍ أولَئِكَ لَهُمَ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢] يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست موضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجة عليكم. والذي أشرك بخالقه وفاطره فاطر السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه؛ آلهة لا تخلق شيئاً، وهي مخلوقة، ولا تملك لا نفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وجعلها ندًّا له ومثلاً في الإلهية؛ أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر؛ بل وحده وأفرده: بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء. فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿**الَّذين آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئك لَهُمْ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه؛ بحيث لم يبق لطاعن مطعن ولا سؤال، ولما كانت بهذه المثابة؛ عظمها بإضافتها إلى نفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣] وكفى بحجة يكون الله تعالى ملقيها لخليله؛ أن تكون: قاطعة لموارد العناد، وقامعة لأهل الشرك والإلحاد.

(١)**المناظرة** في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل.

والأول يشبه السباق والنضال. والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار.

وقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾[الأنعام، ٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه. فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذِينَ أوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أولي الأيدِي والأَبْصَارِ**﴾[ص، ٤٥].

فالأيدي القوى التي يقدرون بها على: إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه؛ ولهذا يسمي سبحانه الحجة سلطاناً.

قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن: فهو الحجة، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ للّهُ بها مِن سلطان**﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَانًا فهو يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم: ٥١]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه. فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه؛ وإن كان عاجزًا عنه بيده.

وهذا أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ**﴾

---

(١) ٢٧ فروسية.

[غافر: ٥١]. فإذا كانت المسابقة شرعت؛ ليتعلم المؤمن القتال، ويتعوده، ويتمرن عليه. فمن المعلوم: أن المجاهد قد يقصد دفع العدو؛ إذا كان المجاهد مطلوبًا والعدو طالباً. وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء؛ إذا كان طالباً والعدو مطلوباً، وقد يقصد كلا الأمرين.

فالأقسام ثلاثة يؤمر المؤمن فيها بالجهاد. وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب؛ فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل؛ ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ [الحج: ٣٩]. وقال النبي، ﷺ: «**من قتل دون ماله؛ فهو شهيد، ومن قتل دون دمه؛ فهو شهيد**».

لكن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة، ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة؛ فإن قتل فيه؛ فهو شهيد. فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوباً؛ ولهذا يتعين على كل أحد: يجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن أبويه، والغريم بدون إذن غريمه. وهذا جهاد المسلمين يوم أحد، والخندق.

ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد: أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون؛ فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، وكان الجهاد واجباً عليهم؛ لأنه جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار. ولهذا تباح صلاة الخوف بحسب الحال في هذا الموضع، وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته؟ فيه قولان للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم: أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالباً مطلوباً؛ أوجب من الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب، والنفوس فيه أرغب من الوجهين. وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد الرجلين: إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فيكون الدين كله لله، وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد، ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعاً وعقلاً. وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين.

وأما الجهاد الذي يكون فيه طالباً مطلوباً، فهذا: يقصده خيار الناس لإعلاء كلمة الله ودينه، ويقصده أواسطهم للدفع ومحبة للظفر.

(١)**قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبـرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِـهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِم قَالَ أَسلَمتُ لِربِّ العَالَمِينَ﴾** [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهًا لا أسفه منه. ورشيدًا.

فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولاً وعمـلاً وحالاً. فكان قوله توحيداً. وعمله توحيداً. وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين ـ من أولهم إلى آخرهم ـ.

...(٢)**والوكالة** يراد بها أمران. أحدهما: التوكيل. وهو الاستنابة والتفويض. والثاني: التوكل. وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل. وهذا من الجانبين. فإن الله تبـارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وَكَّله فيه. والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله تعالى: **﴿فَإِنْ يَّكفُر بِهَا هؤلاءِ فَقَد وَكلنا بِهَا قَومًا لَّيسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾** [الأنعام: ٨٩] قال قتادة: وكَّلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم ـ يعني قبل هذه الآية ـ وقال أبو رجاء العطاردي: معناه إن يكفر بها أهـل الأرض، فقـد وكلنـا بها أهـل السماء وهم الملائكة. وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار أهل المدينة.

والصـواب أن المراد من قام بها إيماناً، ودعوة وجهادًا ونصرة. فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها. فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟.

قلت: لا. فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة. والله عز وجل لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف عبده، كما قال النبي، «**اللهم أنت الصاحب في السفر. والخليفة في الأهل**». **على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به.**

وأمـا توكيل العبـد ربـه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته لأهله ووليه. ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية، وقيامها

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٣.		(٢) ١٢٦ مدارج جـ١.

بالعبودية. وهذا معنى كون الرب وكيل عبده. أي كافيه، والقائم بأموره ومصالحه. لأنه نائبه في التصرف.

فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له، وخلعة منه عليه، لا عن حاجة منه، وافتقار إليه كموالاته. وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته، وقيام بعبوديته.

وقوله(١) وهو: «من أصعب منازل العامة عليهم» لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم. ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة. وهي التي تشهد التوكيل فهم في رق الأسباب. فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلو القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبب وحده.

وأما كونه: «أوهى السبل عند الخاصة» فليس على إطلاقه. بل هو من أجل السبل عندهم وأفضلها، وأعظمها قدراً. وقد تقدم في صدر الباب: أمر الله رسوله بذلك. وحضه عليه هو والمؤمنين.

ومن أسمائه: ﴿المتوكل﴾ وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له: **﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾** [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: **﴿وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا؟﴾** [إبراهيم: ١٢]. فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدين: من أوهى منازل الخاصة. أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق. فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة؟.

قوله: «لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها».

---

(١) أي صاحب المنازل. ذكرناه لما اشتمل عليه الجواب من فوائد. رحم الله الجميع. ج.

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسباً وفعلاً، وإقداراً، واختياراً، وأمراً ونهياً، استعبدهم به. وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه. وأمر بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به. وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

(1)**الوجه** الخامس والثلاثون بعد المائة: أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه، وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عضيمة.

قال تعالى ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله، ﷺ. وقيل: كل مؤمن. هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه: كقول من قال هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر، الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية. قال: وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبراً عنهم؛ أولى وأحق بأن يكون خبراً عن غيرهم، فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها؛ فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها؛ ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها.

قلت: السورة مكية، والإشارة بقوله: ﴿**هؤلاء**﴾ إلى: من كفر به من قومه أصلاً، ومن عداهم تبعاً؛ فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة.

والقوم الموكلون بها هم: الأنبياء أصلاً، والمؤمنون بهم تبعاً؛ فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها.

---

(١) ١٦١ مفتاح جـ١.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً، وللمؤمنين بهم تبعاً، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكلون بها: وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية. وأما قول من قال: إنهم الملائكة؛ فضعيف جدًّا، لا يدل عليه السياق وتأباه لفظة ﴿قوماً﴾؛ إذ الغالب في القرآن؛ بل المطرد تخصيص (القوم) ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قوم منكرون﴾ [الذاريات: ٢٥] فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضاً: فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده؛ ولهذا لو أظهر ذلك، وقيل: فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة، فإنهم لا يكفرون بها؛ لم نجد[1] منه من: التسلية، وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم؛ لكونهم أحق بها وأهلها[1]. والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء.

وأيضا: فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها؛ فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً ومستحقًّا سواهم. فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على: محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من: احتقارهم، وازدرائهم، وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها؛ فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك: عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره؛ فنظر إليهم، وقال:

(١) لتمام المعنى لابد أن يكون هناك مفعولاً للفعل (نجد) ـ يكون بعد كلمة (وأهلها) وتقديره: لم نجد منه من التسلية. . . وأهلها؛ ما نجده في كونهم بشرا. المراجع.

إن يكفر هؤلاء بنعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي ؛ فإن لي عبيداً سواهم وهم أنتم : تطيعـون أمـري ، وتحفظون عهدي ، وتؤدون حقي ؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من : الفرح والسرور، والنشاط وقوة العزيمة ؛ ما يكون موجباً لهم : المزيد من القيام بحق العبودية ، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم . وهذا أمر يشهد به الحس والعيان .

وأما توكيلهم بها ؛ فهـو يتضمن : توفيقهم للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ومراعاتها ، والذب عنها ، والنصيحة لها ، كما يوكل الرجل غيره بالشيء ؛ ليقوم به ، ويتعهده ، ويحافظ عليه . و(**بها**) الأولى متعلقة بـ(**وكلنا**) ، و(**بها**) الثانية متعلقة بكافرين ، والباء في (**بكافرين**) لتأكيد النفي .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين : إنه وكيل الله ، بهذا المعنى ، كما يقال : ولي الله؟ قلت : لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما ؛ أن يصـاغ منه اسم فاعل مطلق ، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد ؛ أن يقال : خليفة الله ، لقوله : ﴿**ويستخلفكم في الأرض**﴾ .

وقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذين آمنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [النور: ٥٥] . فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم : إنه خليفة الله ؛ لأنه استخلاف مقيد .

ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ؛ قال : لست بخليفة الله ؛ ولكني خليفة رسـول الله ، وحسبي ذلـك ؛ ولكن يسوغ أن يقال : هو وكيل بذلك ، كما قال تعالى : ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا**﴾ .

والمقصـود: أن هذا التـوكيل خاص بمن قام بها : علماً وعمـلاً ، وجهاداً لأعـدائهـا ، وذبًّـا عنهـا ونفياً : لتحـريف الغـالـين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجـاهلين . وأيضـا : فهـو توكيل رحمـة وإحسان وتوفيق واختصاص ، لا توكيل حاجة ، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه .

ولهذا قال بعض السلف : ﴿**فقد وكلنا بها قوماً**﴾ يقول : رزقناها قوماً ؛ فلهذا لا يقـال لمن رزقهـا ورحم بها : إنه وكيل لله ، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة ؛ فإنها المحبة والقرب ، فكما يقال : عبدالله وحبيبه ، يقال : وليه . والله تعالى

يوالي عبده: إحساناً إليه، وجبراً له، ورحمة؛ بخلاف المخلوق؛ فإنه يوالي المخلوق؛ لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته. وأما العزيز الغني فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للّه الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ ولَداً ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ من الذلِّ وكبِّرْه تكبيراً﴾ [الإسراء: ١١١]. . . .

...(١)**لاريب** أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم: علما، ومعرفة، وحالاً؛ تفاوتًا لا يحصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم؛ أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم(٢): نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأكملهم توحيداً: الخليلان: محمد، وإبراهيم، صلوات الله وسلامه عليهما. فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما: علمًا، ومعرفة، وحالا، ودعوة للخلق، وجهاداً.

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه؛ ولهذا أمر الله سبحانه نبيه، ﷺ، أن يقتدي بهم فيه. كما قال سبحانه، ـ بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك، وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته، ثم قال: ﴿أولئك الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوةَ. فإن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاءِ فقد وكَّلْنا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بكَافِرِينَ أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُداهم اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أُمر رسول الله، ﷺ، أن يقتدي بهم. ولما قاموا بحقيقته: علماً، وعملاً، ودعوة، وجهاداً؛ جعلهم الله أئمة للخلائق: يهدون بأمره، ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعًا لهم: يأتمرون بأمرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده. وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً قال وَمِنْ ذُرِّيَتِي قال لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. أي: لا ينال عهدي بالإمامة مشرك؛ ولهذا أوصى نبيه محمداً، ﷺ، أن

---

(١) ٤٨٠ مدارج جـ٣.

(٢) في مخطوطتنا: وهم: محمد، نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى فإنهما. . . والمطبوعة أصح، إلا أنه سقط منها ذكر (عيسى). ج.

يتبع ملة إبراهيم. وكان يُعَلِّم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، ﷺ، ومِلّة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلمًا. وما كان من المشركين**» فملة إبراهيم؛ التوحيد، ودين محمد؛ ما جاء به من عند الله: قولاً، وعملاً، واعتقاداً. وكلمة الإخلاص؛ هي شهادة: أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام؛ هي ما فطر الله عليه عباده من: محبته، وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له: عبودية وذلاً، وانقياداً، وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه؛ فهو من أسفه السفهاء.

(١)**الوجه** الثاني: أن دعوة محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، هي دعوة جميع المرسلين قبله، من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته؛ مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب؛ فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق، وأنه كاذب مفتر على الله، وهذا في غاية الوضوح، وهذا بمنزلة شهود شهدوا بحق فصدقهم الخصم، وقال: هؤلاء كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهادتهم سواء، فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً، ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهادتهم، وأنها شهادة حق مع قوله: إن الشاهد بها كاذب فيما شهد به. فكما أنه لو لم يظهر محمد، ﷺ، لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق؛ لم يمكن تصديق نبي من الأنبياء قبله.

الوجه الثالث: أن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه؛ أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به؛ إلا ولمحمد، ﷺ، مثلها أو ما هو في الدلالة مثلها؛ وإن لم يكن من جنسها. فآيات نبوته؛ أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي: لقرب العهد، وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب.

فالعلم بآيات نبوته؛ كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا تمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت، كالمكابرة في وجود ما

---

(١) ١٨٥ هداية.

يشاهده الناس، ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار، فإن جاز القدح في ذلك كله؛ فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما؛ أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما؛ فامتناعه في محمد، ﷺ، وآيات نبوته؛ أشد.

ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب: أن الإيمان بموسى لايتم مع التكذيب بمحمد أبداً؛ كفر بالجميع، وقال: ﴿**ما أنزل اللّهُ على بَشَرٍ من شيءٍ**﴾. كما قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدرِه إذْ قَالُوا مَا أنْزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شيْءٍ قُلْ مَنْ أنْزَلَ الكِتابَ الّذي جَاء به مُوسى نُوراً وهُدًى لِلنَّاس تَجْعلُونه قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَموا أنتُم وَلاَ آباؤكُم قُلْ اللّهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام: ٩١].

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي، ﷺ: «**أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة: إن الله يبغض الحبر السمين؟!**» وكان حبراً سميناً؛ فغضب عدو الله، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك ولا موسى فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية [الأنعام: ٩١]. وهذا قول عكرمة.

قال محمد بن كعب: جاء ناس من اليهود إلى النبي، ﷺ، وهو محتب، فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى، ألواحاً يحملها من عند الله عز وجل؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿**يَسْألُكَ أهْلُ الْكِتَابِ أنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ سَألُوا مُوسَى أكبرَ مِنْ ذٰلِكَ**﴾ الآية. [النساء: ١٥٣].

وجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك، ولا على موسى، ولا على عيسى، ولا على أحد؛ شيئاً، ما أنزل الله على بشر من شيء، فحل رسول الله، ﷺ، حبوته، وجعل يقول: «**ولا على أحد؟!!**».

وذهب جماعة، منهم؛ مجاهد: إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسل، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى، وهذا اختيار ابن جرير، **قال**: وهو أولى الأقاويل بالصواب؛ لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم

ذكر يكون هذا به متصلاً، مع ما في الخبر عن من أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره: أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود؛ بل المعروف من دين اليهود؛ الإقرار: بصحف إبراهيم، وموسى، وزبور داود. والخبر من أول السورة إلى هذا الموضع؛ خبر عن المشركين من عبدة الأوثان، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ موصول به غير مفصول عنه.

قلت: ويقوي قوله؛ إن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب، المنكرين لأصل النبوة. ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم؛ بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾؟! [الأنعام: ٩١] ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب؛ مالا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم: بأنه خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه. وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان؛ إلى جحد ما أقر به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر؛ إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟

ثم احتج عليهم: بأنهم قد علموا بالوحي مالم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله؛ لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله أن يجيب عن هذا السؤال، وهو قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ فقال: ﴿قل الله﴾ أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه؛ فصدقْ به أنت، وأقرَّ بِهِ: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] [الأنعام: ٩١].

جواب هذا السؤال أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي: إن جحدتم أصل النبوة، وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً؛ فهذا كتاب موسى تقر به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم؛ فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

---

(١) تقدم في أول السورة الكلام على قوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ ماله علاقة بهذا فليرجع إليه (ج).

والمعنى: إنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك؛ فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ فمن قرأها بالياء؛ فهي إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بلفظ التاء للخطاب؛ فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك. أي: تجعلونه يامن أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته: أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله. ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجْعَلُونَه قَرَاطِيسَ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ما أنزل اللّهُ على بَشرٍ من شيءٍ﴾ بل هذا استطراد من الشيء إلى: نظيره، وشبهه، ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] إلى آخر الآيات فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين، وهو آدم؛ إلى النوع المخلوق من النطفة، وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد.

ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تغشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّت به، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا له شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر الآيات.

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولن خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليمُ الَّذي جَعل لَكُم الأَرْض مَهْداً وَجَعَل لَكُم فِيها سُبلاً لعلَّكُم تَهْتَدونَ والَّذي نَزَّل مِنَ السَّماء مَاءً بِقَدرٍ فأَنْشَرْنَا به بَلْدَةً مَيْتاً كذلك تُخْرَجُونَ والَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ٩-١٢] إلى آخر الآيات.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي، ﷺ، ومكابرتهم؛ إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته؛ ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي؛ وجحد نبوة مَنْ نبوته؛ أظهر، وآياتها؛ أكثر وأعظم ممن أقروا به. وأخبر سبحانه أن من جحد: أن يكون قد أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا

يليق به؛ بل يتعالى ويتنزه عنه. . .

...[1]**ودار** بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: لا يتم لكم القدح في نبوة نبينا، ﷺ، إلا بالطعن في الرب تبارك وتعالى، والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. فقال: كيف يلزمنا ذلك.

قلت: بل أبلغ من ذلك: لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبي صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقول عليه مالم يقله، ثم يتم الله له ذلك، ويستمر؛ حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك؛ حتى يفتح الأرض، وينسبَ ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به، ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله: يؤيده وينصره، ويُعْلِي أمره، ويُمَكِّنَ له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر.

وأعجب من ذلك: أنه يجيب دعوته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب؛ بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه، ﷺ، ومع ذلك: يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويَعِدُه كلَّ وَعْدٍ جميل، ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها. هذا، وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى في رفعها من الأرض وتبديلها بما يريد هو، وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً؛ والله تعالى في ذلك كله يقره، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوَتين، وهو يخبر عن ربه: أنه أوحى إليه أنه لا ﴿**أظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أو قال أوحِيَ إليَّ، ولم يُوحَ إلَيهِ شَيْءٌ ومَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أنْزَلَ الله**﴾ [الأنعام: ٩٣]. فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين، لابد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير

---

٨٩ زاد المعاد جـ٣.

حكيم؛ لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للظالمين؛ إذ لا يليق بالملوك غير هذا. فكيف بَملِك الأرض والسموات وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نسبة الرب إلى مالا يليق به من: الجور والسَّفَه والظلم، وإضلال الخلق دائماً أبد الآباد؛ لا بل نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعوته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة، قرنًا بعد قرن على رءوس الأشهاد في كل مجمع ونادٍ. فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟ فلقد قَدَحْتُم في رب العالمين أعظم قَدْح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم له أمر، ولم تطل مدته؛ بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واسْتَأْصَلُوا شَأْفَتَهُ. هذه سنته في عباده منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومَن عليها.

فلما سمع مني هذا الكلام قال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب؛ بل كل منصف من أهل الكتاب يقر: بأن من سلك طريقه، واقتفى أثره؛ فهو من أهل النجاة والسعادة في الأخرى.

قلت له: فكيف يكون سالك طريق الكذاب ومقتفي أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بُدًّا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم.

قلت: فقد لزمك تصديقه، ولابد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين: كتابيِّهم، وأميهم. ودعا أهل الكتاب إلى دينه، وقاتل من لم يدخل في دينه منهم، حتى أقروا بالصغار والجزية، فبُهت الكافر ونهض من فَوره[1].

والمقصود: أن رسول الله، ﷺ، لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلهم إلى أن تُوفي. وكذلك أصحابه من بعده. وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة. وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة. وأعدل

(١) ساق الشيخ هذه المناظرة في التبيان من ١١٣/ ١١٤ قريباً من هذا السياق وفيه زيادة. ج.

السيوف؛ سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته.

(١)**قال** تعالى: ﴿**قل من أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للنَّاس تجْعَلُونَه قَراطِيس تبدونَها وتُخفون كثيراً وعُلِّمتم مالم تعْلموا أنتم ولا آباؤكم قل اللّهُ**﴾ يعني: الذي أنزله. جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة. والله الموفق للرشاد.

(٢)**وقد** احتج أبوعبدالله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال: حدثنا محمد بن الحسين بن الحسن: ثنا محمد بن يزيد النيسابوري: ثنا حماد بن قيراط: ثنا محمد بن الفضل، عن يزيد بن عبدالرحمن الصائغ البلخي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد؛ تلا هذه الآية: ﴿**وَلَوْ تَرى إذ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ**﴾ الآية. [الأنعام: ٩٣] قال: «**والذي نفس محمد بيده؛ ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار**»، ثم قال: «**فإذا كان عند ذلك؛ صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون**(٣) **إليكم، مع كل منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمناً؛ بشروه بالجنة، وقالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته؛ فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها، فلا يزالون يبشرونه ويحفون به، فَلَهُم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يسلّون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، ويموت الأول فالأول ويهون عليه، وكنتم ترونه شديداً؛ حتى تبلغ ذقنه، قال: فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرها كل ملك منهم: أيهم يقبضها؟ فيتولى قبضها ملك الموت**» ثم تلا رسول الله، ﷺ ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىَ رَبِّكُم تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة: ١١] «**فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه؛ فلهو أشد لزومًا لها من المرأة إذا ولدتها، ثم يفوح**

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١. (٢) ٦٠ الروح. (٣) هكذا في المنقول عنه ـ والظاهر ـ أنه ينظر إليكم ـ ح.

منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحها ويتباشرون بها ويقولون: مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحاً وعلى جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها ولله عز وجل خلق في الهواء لا يعلم عدتهم إلا هو، فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون، ويفتح لهم أبواب السماء، فيصلى عليها كل ملك في كل سماء مربهم؛ حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار، فيقول الجبار جل جلاله: مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه، وإذا قال الرب عز وجل للشيء: مرحباً؛ رحب له كل شيء ويذهب عنه كل ضيق، ثم يقول لهذه النفس الطيبة: أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، واعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض، فإني قضيت: أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فوالذي نفس محمد بيده؛ لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول: أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟ قال: فيقولون: إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه؛ فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه».

فدل هذا الحديث على: أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان، وهذا عود غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن، وهو نوع آخر، وغير تعلقها به حال النوم، وغير تعلقها وهي في مقرها؛ بل هو عود خاص للمساءلة.

قال شيخ الإسلام: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط؛ لم يكن للقبر بالروح اختصاص.

وهذا يتضح بجواب المسألة، وهي قول السائل: هل عذاب القبر على النفس والبدن، أو على النفس دون البدن، أو على البدن دون النفس، وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟.

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال:

بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة: تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

وفي المسألة أقوال شاذة، ليست من أقوال أهل السنة والحديث: قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من: المعتزلة، وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان؛ لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور، لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة؛ عذبت الروح والبدن معًا، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من: أهل الكلام والحديث، وغيرهم؛ وهو اختيار ابن حزم وابن مرة.

فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة؛ بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح.

ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط. وقد يضم إلى ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة، ويجعل الشاذ: قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة؛ فالقول الثاني الشاذ: قول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب؛ وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من: المعتزلة؛ والأشعرية: كالقاضي أبي بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، وقد خالف أصحابه أبوالمعالي الجويني وغيره؛ بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة: أن الروح تبقى بعد فراق البدن،

وأنها منعمة أو معذبة. **والفلاسفة** الإلهيون يقرون بذلك، لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان، لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام؛ بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب؛ بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه؛ بناء على: أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ؛ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى.

فصل فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة؛ فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة. وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل له معها النعيم أو العذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى؛ أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

(١)**فصل** وأما المسألة الثامنة: وهي قول السائل: ما الحكمة في كون عذاب القبر؛ لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

فالجواب من وجهين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده: الإيمان بهما، والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة. وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ويعلمهم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢]. وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب: ٣٤]. والكتاب؛ هو القرآن؛ والحكمة؛ هي السنة باتفاق السلف، وما

---

(١) ٩٢ الروح.

أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إني أوتيت الكتاب ومثله معه**».

وأما الجواب المفصل؛ فهو: أن نعيم البرزخ وعذابه؛ مذكور في القرآن في غير موضع. فمنها قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو**[1] **أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم اليوم تُجْزَونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَذَرْهُم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُم الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ، يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُم كَيْدُهُم شَيْئًا وَلَا هُم يُنْصَرُونَ، وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الطور: ٤٥ - ٤٧].

وهذا يحتمل: أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال - وهو أظهر -: إن من مات منهم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم: في الدنيا، وفي البرزخ.

ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبدالله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة

فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر. فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿**من العذاب الأدنى**﴾. ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله.

وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها**». ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها؛ فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره. والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا، بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه...

(١)**وأما** المسألة العشرون وهي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك: فمن قائل: إن مسماهما واحد وهم الجمهور.

ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور:

أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبوخراش:

نجا سالمًا والنفس منه بشدقه　　ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أي: بجفن سيف ومئزر.

والنفس: الدم. يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «**مالا نفس له سائلة؛ لا ينجس الماء إذا مات فيه**».

والنفس: الجسد. قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم أدخلوا　　أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور: الدم.

والنفس: العين. يقال: أصابت فلانًا نفس، أي: عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع؛ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها: كقوله تعالى: ﴿**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم**﴾ [النور: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم**﴾

(١) ٢٦٤ الروح.

[النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عن نَفْسها﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس.

وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿يُلقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِه على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمْرِه عَلى مَنْ يَشَاءُ مِن عبادِه أن أَنذِروا أَنَّه لا إِلهَ إِلَّا أَنا فاتَّقونِ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البهيم؛ خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً؛ لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح؛ لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبَّت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها.

وسميت نفساً: إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن؛ سميت نفساً.

ومنه النفَس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح؛ فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفساً؛ لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، ولأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس؛ فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا		وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي: الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض: إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض: إذا اندفع قسراً وقهراً. فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**إن اللّهَ فالقُ الحبِّ والنوى يُخرجُ الحيَّ من المَيِّتِ ومُخْرجُ المَيِّتِ من الحَيِّ ذلكم اللّهُ فأنّى تُؤفَكون فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمسَ وَالقمرَ حُسْبانًا ذَلك تَقْديرُ العَزيز العَليم وهُو الَّذي جَعَلَ لَكُم النُّجومَ لِتَهتَدُوا بهَا في ظُلُمَات البَرِّ وَالبَحر قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوم يَعْلَمون وهُو الذي أَنشأَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقرٌّ وَمُستودَعٌ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقوم يَفْقَهون وَهو الَّذي أنزَل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأَخرجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شيْءٍ فأَخْرَجْنَا مِنه خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتراكِباً ومِن النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّات مِن أَعْنَابٍ والزَّيْتُون وَالرُّمَّان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِه انظرُوا إلى ثَمَره إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

فأمر سبحانه بالنظر إليه: وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه. يقال: أينعت الثمار إذا نضجت وطابت؛ لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها ثم تلا: ﴿**انْظُروا إلى ثَمَره إذَا أَثْمر وَيَنْعِه**﴾.

ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله: بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر، ولا ألطف؛ لعجزنا نحن والأولون والآخرون، عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن مالا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك، وهذا حين الشروع في الفصول. . .(٢)

(١) ٢٠٥ مفتاح جـ١.   (٢) سرد المصنف فصولاً نافعة جدًا، فمن أرادها فليرجع إليها. ج.

(١)**فصل** الدليل السادس قوله عز وجل: ﴿لا تُدْرِكُه الأبْصارُ وَهو يُدْرِكُ الأبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة. وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله؛ إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية؛ أدل منها على امتناعها. فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به.

وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمراً وجوديًّا كتمدحه: بنفي السِّنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته؛ ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتيًّا؛ فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه. فلو كان المراد بقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أنه لا يرى بحال؛ لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذًا المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، كما كان المعنى في قوله: ﴿ومَا يَعْزُب عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ١٦٩]. أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب﴾ [ق:٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿وَلَا يَظلم ربُّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كامل العدل. وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿لَا تُدْرِكه الأبْصَار﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل

---

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فلما تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى إنَّا لمدركون قال كلا﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]. فلم ينف موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إنَّا لَمُدْرَكُون﴾: إنا لمرئيون؛ فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه؛ نفى إدراكهم إياهم بقوله ﴿كلا﴾ وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَد أوْحَيْنَا إلى مُوسَى أنْ أسْرِ بِعِبَادِي فاضْرِبْ لَهُم طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَركاً وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر، وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. قال ابن عباس: ﴿لَا تُدْرِكُه الأبْصَار﴾. لا تحيطُ به الأبصار. قال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال عطية: ينظرون إلى الله، ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُه الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً، ولا تدركه أبصارهم بمعنى: أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئاً يحيط به وهو بكل شيء محيط.

وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه.

وهكذا يعلم الخلق ما علمهم ولا يحيطون بعلمه.

ونظير هذا؛ استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١ وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كما له ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض؛ أولى بهذا المدح منه.

مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته؛ فاق أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه.

فقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته، وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلى

العرْش يَعْلمُ ما يَلجُ في الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وَمَا يَنْزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعْرُجُ فِيها وهو مَعَكم أينما كنتم واللَّهُ بِمَا تعْمَلونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته؛ بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه: فيراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا.

وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: **﴿لَا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرِكُ الأبصَارَ﴾** فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه، فهو: العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير[1].

...[2]**ومن** ظن من القوم أن «كشف العين» ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة؛ فقد غلط أقبح الغلط، وأحسن أحواله؛ أن يكون صادقاً ملبوساً عليه؛ فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟. فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً من الصحابة. فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية؛ فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي، بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي، ﷺ: **«اعبد الله كأنك تراه»** فهذا حق. وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم قد يظهر له نور عظيم فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضاً؛ فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء؛ ساخ الجبل وتدكدك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **﴿لَاتُدْرِكُهُ الأبْصَارُ﴾** قال: «ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يقم له شيء».

---

(١) بسط المؤلف رحمه الله البحث في الرؤية وأدلته في كتابه هذا في الباب الخامس والستين.

(٢) ٢٢٩ مدارج جـ٣.

وهذا النور الذي يظهر للصادق: هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: «مثل نوره في قلب المؤمن» فهذا نور يضاف إلى الرب. ويقال: هو نور الله. كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه. والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقاً وتكويناً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله له نُوراً فَما له مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]. فهذا «النور» إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه؛ فاض على الجوارح. فيُرَى أثره في الوجه والعين. ويظهر في القول والعمل. وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عياناً. وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس.

والعين شديدة الارتباط بالقلب، تظهر ما فيه. فتقوى مادة النور في القلب ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه؛ بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان...

(1)**الفعل** أو القول المُفْضِي إلى المفسدة قسمان:

أحدهما: أن يكون وضعه للإفضاء إليها: كشُرْب المسكر المُفْضي إلى مفسدة السكر، وكالقَذْف المُفْضِي إلى مفسدة الفِرْيَة، والزنى المُفْضِي إلى اختلاط المياه وفساد الفراش، ونحو ذلك؛ فهذه أفعال وأقوال وضعت مفضية لهذه المفاسد، وليس لها ظاهر غيرها.

والثاني: أن تكون موضوعة للإفضاء إلى أمر جائز أو مستحب، فيتخذ وسيلة إلى المحرم: إما بقصده، أو بغير قصد منه.

فالأول: كمن يعقد النكاح قاصداً به التحليل، أو يعقد البيع قاصداً به الربا، أو يخالع قاصداً به الحنث، ونحو ذلك.

والثاني: كمن يُصَلي تطوعاً بغير سبب في أوقات النهي، أو يسب أرباب المشركين بين أظهرهم، أو يصلي بين يدي القبر لله، ونحو ذلك.

ثم هذ االقسم من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن تكون مصلحة الفعل أرجَحَ من مفسدته.

---

(١) ١٤٨ أعلام جـ٣.

والثاني: أن تكون مفسدته راجحة على مصلحته؛ فههنا أربعة أقسام:

الأول: وسيلة موضوعة للإفضاء إلى المفسدة.

الثاني: وسيلة موضوعة للمُبَاح قصِد بها التوسلُ إلى المفسدة.

الثالث: وسيلة موضوعة للمباح لم يُقْصَد بها التوسل إلى المفسدة؛ لكنها مُفضِية إليها غالبًا، ومفسدتها أرجح من مصلحتها.

الرابع: وسيلة موضوعة للمباح وقد تُفْضِي إلى المفسدة، ومصلحتها أرجح من مفسدتها، فمثال القسم الأول والثاني قد تقدم.

ومثال الثالث: الصلاة في أوقات النهي ومَسَبَّة آلهة المشركين بين ظَهْرَانيهم، وتزين المتوفَّى عنها في زمن عِدَّتها، وأمثال ذلك.

ومثال الرابع: النظر إلى المخطوبة والمُسْتَامة والمشهود عليها ومَنْ يطؤها ويعاملها، وفعل ذوات الأسباب في أوقات النهي، وكلمة الحق عند ذي سلطان جائرٍ ونحو ذلك؛ فالشريعة جاءت: بإباحة هذا القسم، أو استحبابه، أو إيجابه بحسب درجاته في المصلحة، وجاءت بالمنع من القسم الأول: كراهة، أو تحريماً بحسب درجاته في المفسدة، بقي النظر في القسمين الوسط: هل هما مما جاءت الشريعة بإباحتهما أو المنع منها؟ فنقول: الدلالة على المنع من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فحرم الله تعالى سَبَّ آلهة المشركين - مع كون السب غيظاً وحَمية لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز؛ لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجُلِ وإن كان جائزا في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سَمْع الرجال صوتَ الخلخال؛ فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُم الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم، والذين لَمْ يَبْلُغُوا الحلم مِنْكم، ثَلاثَ مَرَّاتٍ**﴾ الآية [النور: ٥٨]. أمر تعالى مماليكَ المؤمنين، ومَنْ لم يبلغ منهم الحلم؛ أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم

هجمًا بغير استئذان فيها؛ ذريعةً إلى اطلاعهم على عَوْرَاتهم وقت إلقاء ثيابهم: عند القائلة، والنوم، واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة؛ لنُدُورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤]. نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة - مع قصدهم بها الخير - ؛ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبيَّ، ﷺ، ويقصدون بها السبَّ، يقصدون فاعلاً من الرعونة، فنهي المسلمون عن قولها؛ سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي، ﷺ، تشبهاً بالمسلمين يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون.(١)

وأما(٢) التزيين فقال تعالى: ﴿**كَذَلِك زَيَّنَّا لِكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهم**﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال: ﴿**أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنا فإنَّ اللَّهَ يضلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ**﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون**﴾ [الأنعام: ٤٣] فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقاً ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة. وهذا التزيين من الله(٣) سبحانه حسن؛ إذ هو ابتلاء واختبار للعبد؛ ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿**إنَّا جَعَلْنَا مَا على الأرْضِ زِينةً لها لِنبلُوهم أيُّهم أحسنُ عملاً**﴾ [الكهف: ٧] وهو من الشيطان قبيح.

وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيء؛ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثار سي العمل على حسنه، فإنه لابد أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه؛ زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه؛ ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنًا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة

---

(١) أوصلها المؤلف إلى تسعة وتسعين وجهاً تضمنت علماً جمًّا جزاه الله خيرا (ج). (٢) ١٠٣ شفاء.

(٣) (من الله) ليست موجودة بالنسخة، وقد أثبتناه لإتمام المعنى. المراجع.

الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه؛ ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم. ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته ولو شاء لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

(1)**قال** تعالى: **﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وأَبْصَارَهُم كَمَا لم يُؤمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرهم فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾** [الأنعام: ١١٠] وهذا عطف على **﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤمِنُونَ﴾** أي: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: **﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾**، فقال كثير من المفسرين: المعنى: نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: **﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ﴾** حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله: **﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾**[الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون المعنى: **﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾** لتركهم الإيمان به أول مرة؛ فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن؛ فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله: **﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾** [القصص: ٧٧] وقوله: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُم الكِتابَ والحِكمةَ ويُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونُوا تَعْلمُون فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم﴾** [البقرة: ١٥٢]. والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه؛ الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر. والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا؛ أن يؤمنوا إذا جاءتهم لأنهم رأوها عيانًا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبًا لقلوبهم

---

(١) ٩٩ شفاء.

وأبصارهم عن وجهها، الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه: من حديث عبدالله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها؛ بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**» ثم قال رسول الله، ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**».

وروى الترمذي: من حديث أنس، قال: كان رسول الله، ﷺ، يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم. إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**» قال[1]: هذا حديث حسن.

وروى حماد، عن أيوب وهشام ويعلى بن زياد، عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دعوة كان رسول الله، ﷺ، يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقلت: يا رسول الله دعوة كثيراً ما تدعو بها، قال: «**إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله؛ فإذا شاء أن يقيمه؛ أقامه وإذا شاء أن يزيغه؛ أزاغه**». وقوله: ﴿**وَنَذَرهم فِي طُغْيَانِهم يَعْمَهُونَ**﴾ قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون.

...[2]**وأما** العقوبة الأولى فلا يلزم أن تكون على ذنب؛ بل هي جارية مجرى تولد الآلام عما يأكله ويشربه ويتمتع به؛ فتولدت تلك الذنوب بعد البلوغ عن تلك الأسباب المتقدمة قبله، وهذا القول الوسط في العقوبة على العدم، وهو الذي دل عليه القرآن. قال الله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وأَبْصَارهُم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأنعام: ١١٠] فأخبر سبحانه عن عقوبتهم على عدم الإيمان بتقليب أفئدتهم وأبصارهم.

فإن قلت: هذه عقوبة على أمر وجودي، وهو تركهم الإيمان بعد إرسال الرسول ودعائه لهم.

قلت: الموجب لهذه العقوبة الخاصة؛ هو عدم الإيمان، ولكن إرسال

---

(١) (قال): أي الترمذي. المراجع. (٢) ٣٣٠ مختصر الصواعق جـ١

الرسول وترك طاعته؛ شرط في وقوع العذاب، فالمقتضي قائم وهو عدم الإيمان؛ لكنه مشروط وقوعه بشرط وهو إرسال الرسول ففرق بين انتفاء الشيء لانتفاء موجبه ومقتضيه، وانتفائه؛ لانتفاء شرطه بعد قيام المقتضى.

(١)**حذار** حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأساً، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى: ﴿**ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرة**﴾ فعاقبهم على رد الحق أول مرة: بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره؛ عقوبة لك. قال تعالى: ﴿**فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنهم فاستأذَنُوكَ للخُرُوجِ فَقُل لنْ تَخْرُجوا مَعِيَ أبداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُم رَضِيتُم بِالقُعُودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مَعَ الخالِفِين**﴾ [التوبة: ٨٣] فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين؛ فليهنه السلامة.

(٢)**الوجه** الحادي والثلاثون: أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ أكْثَرُهم يَجْهَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١١١] وقال: ﴿**وَلَكِنَّ أكْثرهم لا يَعْلَمون**﴾ [الأنعام: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿**أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسْمَعُون أو يَعْقلون إن هم إلَّا كالأنْعَام بل هم أضلُّ سَبيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤].

فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم.

وقال: ﴿**إنَّ شَرَّ الدَّوآبِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِين لا يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢]. أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها: من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب، فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال؛ بل هم أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه: ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**أعُوذُ بالله أن أكون مِنَ**

---

(١) ١٨٠ بدائع جـ٣. (٢)٥٣مفتاح جـ١.

الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وقال لأول رسله نوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حال الجاهلين عنده، والأول حال أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه: أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه، فقال تعالى: ﴿وَإذَا قَرأتَ القرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَك وَبَيْنَ الَّذينَ لاَ يُؤمِنُون بالآخِرَة حِجَاباً مَسْتُوراً وجَعَلْنَا على قُلوبهم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهم وَقْراً﴾ [الإسراء: ٤٥،٤٦].

وأمر نبيه بالإعراض عنهم فقال: ﴿وأعرضْ عن الجاهلين﴾[الأعراف: ١٩٩].

وأثنى على عباده المؤمنين بالإعراض عنهم ومتاركتهم، كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عنْه وَقَالُوا لَنَا أعْمَالُنَا وَلَكُم أعْمالُكُم سَلاَمٌ عَلَيكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس، فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه.

(١)**قبول** التأويل له أسباب:

منها: أن يأتي به صاحبه: مموهاً بزخرف من القول، مكسوًّا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة؛ فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء؛ بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، ويغتر به الأغمار وضعفاء العقول. فذكر السبب الفاعل وهو ما يغر السامع من زخرف القول. فلما أصغت إليه ورضيته؛ اقترفت ما تدعو إليه من الباطل: قولاً، وعملاً.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها.

وإذا تأملت مقالات أهل الباطل؛ رأيتهم قد كسوها من العبارات المستحسنة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، فيسمون أم الخبائث:

(١) ٨٧ مختصر الصواعق جـ١.

أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة التي هي الحشيشة: لقيمة الذكر والفكر التي تثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ...

(١) **أكثر** الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجنِّ يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفاً وهو القول الباطل؛ لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به. والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن: أن يدخل فيها ما يضر العبد، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه. وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه.

(٢)**فصل** وأما اللام في قوله: ﴿**ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ [الأنعام: ١١٣] فهي على بابها للتعليل؛ فإنها إن كانت تعليلاً لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض؛ فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفًا على قوله: ﴿**غروراً**﴾ فإنه مفعول لأجله: أي: ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغى إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه ويعمل بموجبه، فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدوًّا؛ فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها؛ لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**أفَغَيْرَ اللهِ أبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أنْزَلَ إلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهذا يبين أن الحكم بين الناس؛ هو الله وحده بما أنزل من الكتاب المفصل. كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُم فِيه من شَيْءٍ فحكمُه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) ١٣٤ الجواب الكافي.
(٢) ١٩٣ شفاء العليل
(٣) ٢١٧ مختصر الصواعق جـ١.

وقال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُم الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيماً**﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿**أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً**﴾ [الأنعام: ١١٤] استفهام إنكار، يقول: كيف أبتغي حكمًا غير الله وقد أنزل كتابا مفصلًا؟ فإن قوله: ﴿**وَهُوَ الذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ جملة في موضع الحال.

وقوله: ﴿**مفصَّلاً**﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين؛ ضد ما يصفه به من يزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه خيلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها. فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق. ثم قال: ﴿**والذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلَا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ**﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه؛ علم علمًا يقينيًا أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لاسيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة من ذلك، ليس هو المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم؛ بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه. ولهذا لم ينكر النبي، ﷺ، عليهم ما في التوراة من الصفات، ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهاً وتجسيماً أو تمثيلاً، كما فعل كثير من النفاة، وقال: اليهود أئمة التشبيه والتجسيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم قرءوا ما في التوراة. فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل؛ لم يعبهم به المعطلة، بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله على نبوة رسوله، ﷺ، به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات؛ عابوهم به ونسبوهم إلى التشبيه والتجسيم. وهذا ضد ما عليه الرسول وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيماً وتشبيهاً؛ صدقهم عليه وأقرهم ولم ينكره، كما

صدقهم في خبر الحبر الذي ثبت من حديث ابن مسعود وضحك تعجباً وتصديقاً له، وفي غير ذلك، ثم قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]. فما أخبر به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل. وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به لا نعارضه ولا نعرض عنه. ومن عارضه بعقله؛ لم يصدق به، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به؛ لم يكن مؤمناً. ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو صرفه إلى معان أخر غير ما أريد به؛ لم يكن مصدقاً؛ بل هو إلى التكذيب أقرب.

(١)**الرضى** بالله ربًّا: أن لا يتخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره. وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا، وهو رَبُّ كُلِّ شيءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلهاً» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُل أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّمَوَاتِ والأرض﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ، وهو من المولاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أَنْزَل إِلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟

(٢)**الوجه** الخامس عشر: أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله، فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهوَ الَّذي أَنْزَل إِلَيْكم الكِتَاب مُفَصَّلاً والَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ ربِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

(٣)**وقد** ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَر مَن في الأَرْض يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وإِنَّ كَثِيراً مِن الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهم عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.	(٢) ٥٠ مفتاح جـ١.	(٣) ١٤٧ مفتاح جـ١.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك، دليل على صدق الطلب.

مت بداء الهـوى وإلا فخاطر   واطـرق الحي والعيون نواظـر
لا تخف وحشة الطريق إذا سر   ت وكن في خفـارة الحق سائـر

(١)**وسألته**، ﷺ، عائشة رضي الله عنها، فقالت: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكِرَ اسمُ الله عليه أم لا؟ فقال: «**سمُّوا أنتم وكلوا**» ذكره البخاري.

وسأله ﷺ رجل فقال: أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿**ولا تأكلُوا مِمَّا لم يُذكرِ اسمُ اللّهِ عليه**﴾[الأنعام: ١٢١] إلى آخر الآية، هكذا ذكره أبـوداود، وأن الـذي سأل هذا السؤال هم اليهود، والمشهور في هذه القصة أن المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال، وهو الصحيح، ويدل عليه كون السورة مكية، وكون اليهود يحرمون الميتة كما يحرمها المسلمون، فكيف يوردون هذا السؤال وهم يوافقون على هذا الحكم؟

ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿**وإنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلىٰ أولِيَائِهم لِيُجَادِلُوكُم**﴾ [الأنعام: ١٢١]. فهذا سؤال مجادل في ذلك، واليهود لم تكن تجادل في هذا، وقد رواه الترمذي بلفظ ظاهره؛ أن بعض المسلمين سأل هذا السؤال، ولفظه: أتى ناسٌ إلى النبي، ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أنأكل مما نقتل ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله تعـالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَإنْ أطَعْتُمُوهُم إنَّكُم لَمُشْرِكُونَ**﴾[الأنعام: ١١٨: ١٢١]. وهذا لا يناقض كون المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال؛ فسأل عنه المسلمون رسولَ الله ﷺ . ولا أحسب قوله: «**إنَّ اليَهُودَ سألُوا عَنْ ذَلِكَ**» إلا وَهَماً من أحد الرواة، والله أعلم.

وسـأله، ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عَلَيَّ اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿**يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أحَلَّ الله لَكُم، وَلاَ تَعْتَدُوا، إنَّ الله لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله حَلاَلاً طَيِّباً**﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨] ذكره الترمذي.

---

(١) ٣٨٠ أعلام حـ٤.

وسأله، ﷺ، أبوثعلبة الخُشَني رضي الله عنه، فقال: إن أرضنا أرضُ أهل كتاب، وإنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، فكيف نصنع بآنيتهم وقدورهم؟ فقال ﷺ: «**إن لم تجدوا غيرَها فارْحَضُوها واطبخوا فيها واشربوا**» قال: قلت: يا رسول الله ما يحل لنا وما يحرم علينا؟ قال: «**لا تأكلوا لحم الحمرِ الإنسية، ولا يحل كل ذي ناب من السباع**» ذكره أحمد.

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة؛ أنه قال: «**أكلُ كل ذِي ناب من السِّباع حرام**» وهذان اللفظان يبطلان قول من تأول نهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع: بأنه نهيُ كراهةٍ؛ فإنه تأويل فاسد قطعاً، وبالله التوفيق.

وسئل ﷺ: أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللَّبَّة؟ فقال: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**» ذكره أبوداود، وقال: هذا ذكاة المتردي، وقال يزيد بن هارون: هذا للضرورة، وقيل: هو في غير المقدور عليه. . .

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**أو مَن كَان ميتاً فأحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٢]. استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدًّا. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان؛ فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بَدَنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات.

ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال: ﴿**أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فأحْيَيْنَاهُ**﴾. **وقال تعالى**: ﴿**إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمَّ الدعاءَ**﴾ [النمل ٨٠] **وسمى وحيه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى**: ﴿**وكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرنَا. مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ ولَكِنْ جَعَلنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِه مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿**يُنَزِّل المَلائِكة بالرُّوحِ مِنْ أمْرِه عَلى مَنْ يَشاء مِنْ عبَادِهِ أنْ أنذِرُوا أنَّه لا إلهَ إلَّا أنا فاتَّقُونِ**﴾ [النحل: ٢].

---

(١) ٢٥٨ مدارج جـ٣.

وقال تعالى: ﴿**رفيعُ الدرجاتِ ذو العرشِ يلقي الروحَ من أمرِهِ على من يشاءُ من عبادِهِ لينذرَ يوم التلاقِ**﴾ [غافر: ١٥] . فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن؛ ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته . . .

(١) **الجاهل** ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض. قال الله تعالى: ﴿**أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فأحْيَيْنَاه وَجَعَلْنَا له نُوراً يَمشي بِه فِي النَّاسِ كَمن مثلُه في الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿**إن هُو إلاَّ ذِكْرٌ وقرآن مُبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَان حَيًّا وَيَحِقَّ القَولُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿**إنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾ [النمل: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿**إنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢].

وشبههم ـ في موت قلوبهم ـ بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبوراً لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء. وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له؛ كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن؛ بل ذلك موت القلب والروح . . .

(٢) **قوله** تعالى: ﴿**وإذَا جَاءَتْهم آية قَالوا لَنْ نُؤمِنَ حَتَّى نُؤتى مثل ما أوتيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أعْلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه**﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأجابهم: بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها، وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة؛ لم يكن في هذا جواب؛ بل كان الجواب: أن أفعاله لا تعلل وهو يرجح مثلاً على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة كما يقوله المنكرون، وكذلك قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهم بِبَعضٍ لِيقُولُوا أهؤلاءِ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَينِنَا أَلَيسَ اللّهُ بِأعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلما سألوا عن

---

(١) ٢٦٢ مدارج جـ٣.		(٢) ٢٠٣ شفاء العليل.

التخصيص بمشيئة الله وأنكروا ذلك؛ أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم فهؤلاء يصلحون لمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب؛ ولهذا يذكر سُبحانه صفة العلم حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل، مما يقتضي تخصيصه وتفصيله وهو الذي جعله أهلاً لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر تخصيصه سليمان بتسخير الريح له وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

الباب الرابع(١)

في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر فيه

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُه فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة؛ تكون: قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته؛ قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته؛ ضعفت فيه هذا الصفات. وحياؤه من القبائح؛ هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عرضت عليه القبائح؛ نَفَر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها؛ بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «هلك من لم يكن له قلب: يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

---

(١) ٢٠ إغاثة جـ١.

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك؛ بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره، وإشراقه؛ انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، **فاستبان حسنَ الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.**

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه؛ فقال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]. فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، للأمرين، فهو روح تحيىٰ به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾** [الأنعام: ١٢٢] أي: أومن كان كافراً ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل؛ فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله: بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدُف الظلام(١)، كما قيل:

ليلي بوجهك مُشرقٌ		وظلامُه في الناس ساري
الناس في سُدُف الظلا		م ونحن في ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

أما الأول فكما قال في سورة الرعد: **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ**

---

(١) يأتي في سورة الأنفال بحث جيد حول هذه الآية إن شاء الله (ج).

زَبدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَب جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء؛ لما يحصل به من الحياة، وبالنار؛ لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها: فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشبَّهة بالأودية: فقلب كبير يسع علماً كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمارته لما فيها من ذلك؛ بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوقَدَ نَارًا، فلمَّا أَضَاءَتْ مَا حَولَه ذَهبَ اللَّهُ بنُورِهم وتَركَهُم فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ فهذا المثل الناري. ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ﴾ [البقرة: ١٧، ١٩] فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم؛ في كتاب المعالم وغيره(١).

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه؛ موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

---

(١) في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) كلام قيم عن هذين المثلين. قلت: وفي أعلام الموقعين ذكر هذا المثل وغيره من أمثال القرآن. وما ذكره من كتاب المعالم فلم نعثر عليه. ج.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم؛ فقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت، موت لأهله ... وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ

وأرواحهم في وَحْشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [غافر: ١٥] في موضعين من كتابه[1]، وقال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢] لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة؛ هي التي خص بها سبحانه مَنْ قَبلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿**وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود: ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذه الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾ [النحل: ٣٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ**﴾ [الزمر: ١٠].

فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ**

(١) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ من عباده﴾ [النحل: ٢].

عَلَى الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان؛ لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال؛ لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان؛ في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال؛ في الظلمة وضيق الصدر. وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته؛ مادة كل خير فيه، وموته وظلمته؛ مادة كل شرّ فيه.

(١)**فصل**: وأما تضييق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان؛ فقال تعالى: ﴿فمن يرد اللّهُ أن يهديه يشرحْ صدرَه للإسلام ومن يردْ أن يضلَّه يجعلْ صدرَه ضيقاً حرجاً كأنما يصعدُ في السماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والحرج هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حَرَجٌ وحَرِجٌ أي: ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حَرِجُ الصدرِ ولا عنيفُ

وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحَرَجَة فيكم؟ قالوا: الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر.

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتوني رجلاً من كنانة واجعلوه راعياً فأتوه به فقال عمر: يافتى ما الحَرَجَةُ فيكم؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة، فلا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير.

قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقاً حرجاً: إذا سمع ذكر الله؛ اشمأز قلبه، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام؛ ارتاح إلى ذلك.

ولما كان القلب محلاً للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد؛ وسع صدره وشرحه

---

(١) ١٠٦ شفاء.

فدخلت فيه وسكنتـه، وإذا أراد ضلاله؛ ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلاً يدخل فيه؛ فيعدل عنه ولا يساكنه.

وكل إنـاء فارغ إذا دخـل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق؛ إلا القلب اللين فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم؛ اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى.

وفي الترمذي وغيره: عن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم: «**إذا دخل النور القلب؛ انفسح وانشرح**» قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**».

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال.

كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصـدر منفسحـه في هذه الـدار على ما نالـه من مكروهها، وإذا قوي الإيمان وخـالـطت بشـاشتـه القلوب؛ كان على مكارهها أشرح صدراً منه على شهواتها ومحابها، فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته مالانسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية؛ فهو: أصل كل نعمة، وأساس كل خير.

وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه: أن يشرح له صدره، لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره، وقد عدد سبحانه من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه: أنه شرح صدورهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرح الصدر والتي تضيقه؟

قلت: السبب الـذي يشرح الصدر؛ النور الذي يقذفه الله فيه. فإذا دخله ذلك النور؛ اتسع بحسب قوة النور وضعفه، وإذا فقد ذلك النور؛ أظلم وتضايق.

فإن قلت: فهل يمكن اكتساب هذا النور أم هو وهبي؟

قلت: هو وهبي وكسبي، واكتسابه أيضاً مجرد موهبة من الله تعالى: فالأمر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيء ألبتة؛

بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، وجاعلها أسبابًا، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، إذا أراد بعبده خيراً؛ وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق. فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب؛ يحصل التوفيق.

فإن قلت: فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد.

قلت: نعم والله، وهما مجرد فضله ومنته، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما، ويحبسهما عمن لا يصلح لهما.

فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟

قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح؛ لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره، فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب العمى على الهدى، وكان كفر المنعم عليه بصنوف النعم وجحد إلهيَّته والشرك به، والسعي في مساخطه؛ أحب إليه من شكره وتوحيده، والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه.

وأي ذنب فوق هذا، فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه؛ كان قد عدل فيه وانسدت عليه أبواب الهداية وطرق الرشاد؛ فأظلم قلبه فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالاً وكفراً.

وإذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام والإيمان هذه الآية وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر(١) والعدل وعظمة شأن الربوبية؛ صار لقلبه عبودية أخرى ومعرفة خاصة، وعلم: أنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب تعالى رب كل شيء ومليكه من الأعيان والصفات والأفعال، والأمر كله بيده والحمد كله له، وأزمة الأمور بيده ومرجعها كلها إليه.

ولهذه الآية شأن: فوق عقولنا، وأجل من أفهامنا، وأعظم مما قال فيها المتكلمون، الذين ظلموها معناها وأنفسهم كانوا يظلمون.

---

(١) في المطبوعة «العذر» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(١)فصل في أسباب شرح الصدر وحصولها على الكمال له، ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصدر؛ التوحيد. وعلى حسب كماله وقوته وزيادته؛ يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد؛ من أعظم أسباب شرح الصدر.

والشرك والضلال؛ من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من القلب ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في جامعه: عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**إذا دخل النور القلب؛ انفسح وانشرح**»، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**». فنصيب العبد من انشراح صدره؛ بحسب نصيبه من هذا النور.

وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

ومنها: العلم فإنه يشرح الصدر ويوسعه، حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد؛ انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول، ﷺ، وهو العلم النافع. فأهله أشرح الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحياناً: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذاً في عيش طيب.

---

(١) ٣١٦ زاد المعاد جـ١.

وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه؛ إلا من له حِس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر؛ أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قَذَى عينه، ومخالطتهم حُمَّى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عُذِّب به، وسجنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنْكد عيشاً، ولا أتعب قلباً. فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها. وهي محبة الله وحده في القلب، وانجذاب قُوَى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن.

فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب. وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلى الخلق، ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان. فإن الكريم المحسن: أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً. والبخيل الذي ليس فيه إحسان: أضيق الناس صدراً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم همًّا وغمًّا.

وقد ضرب رسول الله، ﷺ، في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق: «**كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، كلما هَمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويُعْفِيَ أثره. وكلما هَمَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه**» فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة. فإن الشجاع: منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدراً، وأحصرهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم؛ إلا من جنس ما للحيوان البهيم.

وأما سرور الروح ولذتها، ونعيمها وابتهاجها: فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره.

وإن هذا النعيم والسرور؛ ليصير في القبر رياضاً وجنة. وذلك الضيق والحصر؛ ينقلب في القبر عذاباً وسجناً. فحال العبد في القبر؛ كحال القلب في الصدر: نعيماً وعذاباً، وسجناً وانطلاقاً. ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها؛ وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان. والله المستعان.

ومنها ـ بل من أعظمها ـ: إخراج دَغَل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البُرْء.

فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه؛ لم يحظ من انشراح صدره بطائل. وغايته؛ أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النظر والكلام، والاستماع والمخالطة، والأكل والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب تحصره وتحبسه، وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها.

فلا إله إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم! وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه!!

ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها!! فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]. ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الفُجَّار لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]. وبينهما مراتب متفاوتة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسول الله، ﷺ، كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها: انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح؛ فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين، مع ما خص به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له: أكملهم انشراحاً ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته؛ ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه؛ ما ينال، فهو، ﷺ، في ذروة الكمال من: شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر. ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه. والله المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيب: من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعـزازه لهم، ونصره لهم؛ بحسب نصيبهم من المتابعة: فمستقل، ومستكثر. فمن وجد خيراً: فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

(1)**ولما** كان «السلام» اسماً من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل ـ كالكلام والعطاء ـ بمعنى السلامة؛ كان الرب تعالى أحقَّ به من كل ما سواه؛ لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فإن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك والسلام يتضمّن:

سلامة أفعاله من العبث، والظلم، وخلاف الحكمة. وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين. وسلامة ذاته من كل نقص وعيب. وسلامة أسمائه من كل ذم. فاسم «السلام» يتضمّن: إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه. **وهذا** معنى: «سبحان الله، والحمد لله».

ويتضمن: إفراده بالألوهية، وإفراده بالتعظيم.

وهذا معنى: «لا إله إلا الله، والله أكبر».

فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات التي يثنى بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفـاصيل ذلك أنه: الحيّ الذي سلمت حياته من: الموت، والسِّنَـةِ، والنوم، والتغير. القادر الذي سلمت قدرته من: اللغوب، والتعب، والإعياء، والعجز عما يريد. العليم الذي سلم علمه أن: يعزب عنه مثقال ذرة، أو يغيب عنه معلوم من المعلومات؛ وكذلك سائر صفاته على هذا.

---

(1) ١٩٣ أحكام جـ١.

فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب. وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام. وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه. وقدرته سلام أن ينازعها العجز. ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها. وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم؛ بل تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً. ووعده سلام أن يلحقه خُلْفٌ.

وهو سلام أن يكون: قبله شيء، أو بعده شيء، أو فوقه شيء، أو دونه شيء؛ بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء.

وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه. ومغفرته سلام: أن يبالي بها، أو يضيق بذنوب عباده، أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة الناس. ورحمته وإحسانه، ورأفته وبره وجوده، وموالاته لأوليائه، وتحببه إليهم وحنانه عليهم، وذكره لهم وصلاته عليهم؛ سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم، أو تكثر بهم.

وبالجملة فهو السلام من كل ما ينافي كماله المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كل الخطإ من زعم أنه من أسماء السُّلُوب، فإن السلب المحض لا يتضمن كمالًا بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضادّه، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه؛ وجدته مستلزماً: لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقدر، وعلوّ الرب تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعلانياتهم، وتفرّده بتدبيرهم، وتوحده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو السلام الحق من كل وجه، كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولما كان سبحانه موصوفاً بأن له يَدَين؛ لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حُسْنَى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال.

وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا، وتحيتهم يوم لقائه.

ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى قال الله له: **«اذهب إلى أولئك النفر من**

الملائكة، فاستمع ما يحيّونك به؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك».

وقال تعالى: ﴿لَهُم دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وقال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إلى دارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. وقد اختلف في تسمية الجنة «بدار السلام»:

فقيل: السلام هو الله، والجنة داره. وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص. وقيل: سميت «دار السلام»؛ لأن تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها.

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلّم عليه بسلامته من: غيلة المسلم، وغشه، ومكْره، وَمَكروهٍ يناله منه، فيردّ الرادّ عليه مثل ذلك: أي فعل الله ذلك بك، وأحلَّه عليك. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول؛ أنه: في الأول خبر، وفي الثاني طلب.

ووجه ثالث: وهو أن يكون المعنى: اذكر الله الذي عافاك من المكروه، وأمَّنك من المحذور، وسلّمك مما تخاف، وعاملنا من السلامة والأمان بمثل ما عاملك به، فيرد الرادّ عليه مثل ذلك. ويستحب له أن يزيده، كما أن من أهدى لك هدية يستحب لك أن تكافئه بزيادة عليها؛ ومن دعا لك؛ ينبغي أن تدعو له بأكثر من ذلك.

ووجه رابع: وهو أن يكون معنى سلام المسلّم وردّ الراد؛ بشارة من الله سبحانه، جعلها على ألسنة المسلمين لبعضهم بعضاً بالسلامة من الشر وحصول الرحمة والبركة، وهي دوام ذلك وثباته، وهذه البشارة أعطُوها لدخولهم في دين الإسلام، فأعظمهم أجراً أحسنهم تحية، وأسبقهم في هذه البشارة، كما في الحديث: «**وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

واشتق الله سبحانه لأوليائه للتحية[1] بينهم اسماً من أسمائه، واسم دينه الإسلام الذي هو دين أنبيائه ورسله وملائكته. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ووجه خامس: وهو أن كل أمة من الأمم؛ لهم تحية بينهم من: أقوال،

---

(١) في المطبوعة «من تحية» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وأعمال: كالسجود، وتقبيل الأيدي، وضرب الجُوك، وقول بعضهم: أنعم صباحاً، وقول بعضهم: عِش ألف عام، ونحو ذلك؛ فشرع الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وكانت أحسن من جميع تحيات الأمم بينها؛ لتضمّنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدّم على كل شيء؛ وانتفاع العبد بحياته إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير. والسلامة من الشر؛ مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، فإن الإنسان بل وكل حيوان إنما يهتم بسلامته أولاً وغنيمته ثانياً.

على أن السلامة المطلقة تتضمَّن حصول الخير، فإنه لوفاته؛ حصل له الهلاك والعطب أو النقص، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة: نجاة العبد من الشر، وفوزه بالخير، مع اشتقاقها من اسم الله.

والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكرٌ له، كما في السنن: أن رجلاً سلَّم على النبي ﷺ، فلم يَرُدَّ عليه حتَّى تيمَّم وردّ عليه وقال: «**إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة**».

فحقيق بتحية هذا شأنها: أن تُصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يُحَيَّ بها أعداء القُدُّوس السلام؛ ولهذا كانت كتب النبي ﷺ، إلى ملوك الكفار: «**سلامٌ على من اتبع الهدى**» ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلاً، فلهذا قال في أهل الكتاب: «**لا تبدءوهم بالسلام**».

فصل(١)

ومن تلاعبه، تلاعبه بعباد الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبدُ الجن، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُول لِلْمَلَائِكَة أهؤلاء إيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدونَ قَالوا سُبحَانَك أنت وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُم يَابَني آدمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين وأنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إلاَّ مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس، ومُجاهد، والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيراً» فيُجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض﴾ يَعْنُون اسْتِمْتَاعَ كلِّ نَوْعٍ بالنَّوع الآخر. فاسْتِمْتاعُ الجنِّ بالإنْس: طَاعَتُهم لهم فيما يأمُرونهم به: من الكفرِ، والفسوقِ، والعِصْيان. فإنَّ هذا أكثرُ أغراضِ الجنِّ من الإنسِ. فإذا أطاعوهم فيه؛ فقد أعْطَوْهُم مُناهُمْ. واستمتاع الإنسِ بالجنِّ: أنهم أعَانُوهُم عَلَى مَعْصِيةِ الله تعالى، والشِّركِ به بكلِّ ما يقدرون عليه: من التَّحسينِ، والتَّزيينِ، والدعاء، وقَضاء كثير من حوائجهم، واسْتخدامِهم بالسِّحْرِ والعزائم، وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يُرضيهم: من الشِّرْكِ، والفواحش، والفجور. وأطاعَتْهُم الجن فيما يُرضِيهم: من التأثيرات، والإخبار بِبعض المغَيَّباتِ. فتمتع كلٌّ من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية، الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني. فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنَّما هُم من أولياءِ الشيطان. أطاعوه في: الإشراك، ومعصيةِ الله، والخروج عمَّا بَعث به رُسلَه، وأنزل به كُتبه.

(١) ٢٣٥ إغاثة جـ٢.

فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغترَّ بهم مَن قلَّ حظُّه من العلم والإيمان فوالى أعداء الله، وعادَى أولياءه، وحَسَّنَ الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظنّ بمن اتبع سُنة الرسول، وما جاء به، ولم يَدَعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشَطَحات المارقين، وتُرَّهات المتصوفين.

والبصيرُ الذي نوّر الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرَف حقيقة ما عليه أكثرُ هذا الخلق، وكان ناقداً، لا يروجُ عليه الزَّغلُ؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسقُ يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في: قبوله منه، وطاعته له؛ فيَسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يَسْتمتعُ به الشيطان: بشركه به، وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في: قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يُحط علماً بهذا؛ لم يَعلم حقيقة الإيمان والشرْك، وسرَّ امتحان الربِّ سبحانه كلًّا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَغْنَا أجلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهو يتناول أجلَ الموتِ، وأجلَ البعث. فكلاهما أجلٌ أجَّله الله تعالى لعباده. وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَى أجلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَه﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا ـ والله أعلم ـ إشارةٌ منهم إلى نوع اسْتعطاف وتوبة؛ فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت. وانقطع بانقطاع أجله، فلم يستمرّ، ولم يدُم. فبلغ الأمرُ الذي كان أجَله، وانتهى إلى غايته، ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] فإنَّه وإن انقطع زمنُ التمتع وانقضى أجلُه؛ فقد بقي زمن العقوبة؛ فلا يتوهَّم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض؛ أنَّ مفسدته زالتْ بزواله، وانتهت بانتهائه(١). والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين؛ حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿وَيوم يَحْشُرُهُم جميعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرتُم مِنَ

---

(١) يأتي في سورة هود بحث على هذه الآية ـ إن شاء الله تعالى ـ في آخر البحث في أبدية النار. (ج)

(٢) ٤٢٠ طريق الهجرتين.

الإنس وَقالَ أوْلِياؤهُمْ مِنَ الإنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبلغْنا أجلَنا الَّذِي أجَّلْتَ لَنا﴾ إلى قوله: **﴿إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾** [الأنعام: ١٢٨].

وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا: يستوحونهم ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض. ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة ـ وقد جمع العابدين والمعبودين ـ: **﴿أهؤلاء إيَّاكُم كانُوا يَعْبُدُون قالوا سُبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكْثرهم بهم مُؤمِنون﴾** [سبأ: ٤٠، ٤١].

فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به؛ لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر.

وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون في القيامة: **﴿رَبَّنا اسْتَمْتَع بَعضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أجلَنا الَّذِي أجَّلْتَ لَنا﴾**. قال الله تعالى: **﴿النَّارُ مَثْواكُم خالِدين فِيها إلاَّ ما شَاء اللهُ﴾** [الأنعام: ١٢٨]. فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن.

ومما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنْسِ أَلَم يَأتِكم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي﴾** إلى قوله تعالى: **﴿كَافِرِينَ﴾** [الأنعام: ١٣٠] فلما اعْترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشَهدوا على أنفسهم بِالكفر؛ دل ذلك على: تكليفهم، وتوجه الخطاب إليهم.

...[1]**وكثير** من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها[2] ثابت

---

(١) ٢٣٢ مدارج جـ١.

(٢) يأتي إن شاء الله في سورة الأعراف بحث على قول الله تعالى: **﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾** الآية (ج).

بالعقل. والعقاب؛ متوقف على ورود الشرع. وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبوالخطاب من الحنابلة. وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة نصًا. لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دلَّ القرآن: أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل، وأن الفعل نفسه حسن وقبيح. ونحن نبين دلالته على الأمرين.

أما الأول: ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وفي قوله: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٩]. وفي قوله: ﴿**كُلَّما أُلقِيَ فِيها فَوْجٌ سأَلَهُم خزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ قالوا بَلَى قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ فكَذَّبْنا وَقُلْنَا ما نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ**﴾ [الملك: ٨، ٩]. فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل، بل للنذُر. وبذلك دخلوا النار.

وقال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ ألم يأتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقصُّونَ عَلَيكُم آياتي، وَيُنْذِرونكُم لِقَاءَ يومكُم هذا قالوا شَهِدْنَا عَلى أنفسِنَا وغَرَّتهُم الحَيَاةُ الدُّنْيَا وشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وفي الزمر: ﴿**أَلَمْ يَأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَتْلونَ عَلَيْكُم آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُم هَذَا**﴾ [الزمر: ٧١]. ثم قال في الأنعام بعدها: ﴿**ذَلِكَ أن لم يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا غَافِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣١].

وعلى أحد القولين ـ وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل ـ فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشِركهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال. وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين؛ نظير الآية التي في القصص: ﴿**وَلَولاَ أن تصيبهُم مُصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم فيقولوا ربَّنا لَولاَ أَرْسَلْت إِلَيْنا رَسُولاً فنتَّبع آياتِكَ وَنكونَ مِنَ المُؤمِنِينَ**﴾ [القصص: ٤٧]. فهذا يدل على أن ما قَدَّمت أيديهم سببٌ لنزول المصيبة بهم. ولولا قبحه لم يكن سبباً، لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم؛ فمذ جاء الرسول؛ انعقد السبب، ووجد الشرط؛ فأصابهم سيئات ما عملوا؛ وعوقبوا بالأول والآخر.

(١) **قوله** تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بعدكم ما يَشاءُ كَما أَنْشاكم من ذُرِّيَةِ قوم آخرينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] فهذا قياس جَليٌّ، يقول سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفتُ غيرَكُم، كما أذهبتُ مَنْ قبلَكم واستخلفتكم فذكر أركان القياس الأربعة: علة الحكم: وهي عموم مشيئته وكمالها، والحكم: وهو إذهابه بهم(٢) وإتيانه بغيرهم، والأصل: وهو مَنْ كان من قبل، والفرع: وهم المخاطبون.

(٣) فصل في قدوم وفد خولان

وقدم عليه، ﷺ، في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن على من وراءها من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وقد ركبنا حُزون الأرض وسهولها. والمِنَّة لله ولرسوله علينا. وقَدِمْنَا زائرين لك، فقال رسول الله، ﷺ: **«أما ماذكرتم من مسيركم إليَّ؛ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعيركم حسنة، وأما قولكم زائرين؛ فإنه من زارني بالمدينة؛ كان في جواري يوم القيامة»**.

قالوا: يا رسول الله، هذا السفر الذي لا تَوى عليه. ثم قال رسول الله، ﷺ: **«ما فعل عمُّ أنس؟»** ـ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ـ قالوا: بشر، أبدلنا الله به ما جئت به. وقد بقيت منا بقايا: من شيخ كبير، وعجوز كبيرة متمسكون به. ولو قدمنا عليه لهدمناه، إن شاء الله. فلقد كنا منه في غرور وفتنة. فقال لهم رسول الله، ﷺ: **«وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟»** قالوا: لقد رأيننا أسْنتنا حتى أكلنا الرِّمة، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا به مائة ثور، ونحرناها لعم أنس قُرْبَاناً في غدوة واحدة، وتركناها تَردُها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا العُشْب يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعمَ علينا عم أنس. وذكروا لرسول الله، ﷺ، ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من

---

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

(٢) كذا بالأصل. ولعله: لهم

(٣) ١٠٦ زاد المعاد جـ٣.

أنعـامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم. قالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسَطه، فنسميه له، ونسمى زرعًا آخر حِجَرة لله، فإذا مالت الريح: فالذي سميناه لله؛ جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح فالذي جعلناه لعم أنس؛ لم نجعله لله. فذكر لهم رسول الله، ﷺ، : أن الله أنزل عليه في ذلك: ﴿وَجَعلُوا لله مِمَّا ذَرأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ [الأنعام: ١٣٦]. قالـوا: وكنـا نتحـاكم إليه، فيتكلم، فقال رسول الله، ﷺ : «**تلك الشياطين تكلمكم**». وسألوه عن فرائض الدين؟ فأخبرهم. وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا وأن لا يظلموا أحداً. قال: «**فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة**». ثم ودعوه بعد أيام، وأجازهم. فرجعوا إلى قومهم، فلم يحلوا عقدة؛ حتى هدموا عم أنس.

(١)**فصل**: وأمـا تحريم بيع الخنزير: فيتناول جملته وجميع أجزائه الظاهرة والبـاطنـة. وتـأمـل كيف ذكر لحمه عند تحريم الأكل، إشارة إلى تحريم أكله، ومعـظمـه اللحم؟ فذكـر اللحم تنبيهـاً على تحريم أكله دون ما قبله. بخلاف الصيد، فإنه لم يقل فيه: وحرم عليكم لحم الصيد، بل حرم نفس الصيد؛ ليتناول ذلـك أكله وقتله. وههنـا لما حرم البيع ذكر جملته، ولم يخص التحريم بلحمه؛ ليتناول بيعه: حيًا، وميّتاً.

فصل: وأما تحريم بيع الأصنام؛ فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك: على أي وجه كانت، ومن أي نوع كانت، صنماً أو وثناً أو صليباً. وكذلك الكتب المشتملة على الشرك وعبادة غير الله، فهذه كلها؛ يجب إزالتها وإعدامها، وبيعها، ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها. فهي أولى بتحريم البيع من كل ما عداها. فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها. والنبي، ﷺ، لم يؤخر ذكرها لخفة أمرها، ولكنه تدرج من الأسهل إلى ما هو أغلظ منه. فإن الخمر أخف حالاً من الميتة؛ فإنها قد تصير مالاً محترماً، إذا قلبها الله سبحانه ابتداء خلاً، أو الآدمي بصنعته عند طائفة من العلماء، وتضمن إذا أتلفت على الذمي عند طائفة بخلاف

---

(١) ٤٧٢ زاد المعاد جـ٤.

الميتـة. وإنما لم يجعل الله في أكل الميتة حدًّا؛ اكتفاء بالزاجر الذي جعله الله في الطباع من: كراهتها، والتنزه عنها، وإبعادها عنها بخلاف الخمر.

والخنزير أشد تحريماً من الميتة؛ ولهذا أفرده الله تعالى بالحكم عليه أنه رجس في قوله: ﴿**قُل لا أجد فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يطعَمه إلاَّ أن يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزِيرٍ فإنَّه رِجْسٌ أو فِسْقاً**﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم: فإنه يترجح اختصـاص الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره، دون قولـه: «فـإنها رجس» والثالث: أنه أتى بالفاء و«إن» تنبيهًا على علة التحريم؛ لتنزجر النفوس عنه. ويقابل هذه العلة؛ ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفى عنه ذلك. وأخبر أنه «رجس» وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجساً؛ أمر مستقر معلوم عندهم. ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها.

ثم ذكر بعد ذلك؛ تحريم بيع الأصنام، وهو أعظم تحريماً وإثماً، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير.

(١)**وسألته**، ﷺ، ميمونة عن شاة ماتت فألقوا إهَابَها، فقال: «**هلا أخَذْتُم مَسْكها**» فقالت: نأخذ مسْك شاة قد ماتت؟ فقال لها، ﷺ: «**إنما قال تعالى: ﴿قُل لَا أجدُ فِيما أوْحِيَ إليَّ مُحَرَّماً عَلى طَاعِمٍ يطْعمه إلاَّ أن يكُون مَيتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ وإنكم لا تطعمونه. إن تدبغوه تنتفعوا به**» فأرسلت إليها فسلخت مَسْكها فَدبَغته، فاتخذت منه قِرْبة حتى تخرقت عندها، ذكره أحمد.

وسئل، ﷺ، عن جلود الميتة، فقال: «**ذكاؤها دِباغها**» ذكره النسائي.

فصـل(٢)

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه. ونسوا: أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٤.

وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق. . .

(١)**وأما** القدرية الإبليسية والشركية؛ فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسله، ولا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿**سَيَقُول الَّذِين أشْرَكُوا لو شَاءَ الله ما أشْرَكْنَا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا مِن شيْءٍ كذَلك كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهم حَتَّى ذَاقُوا بَأسَنَا، قُلْ هَلْ عِندكُم مِنْ عِلمٍ فتخْرجُوهُ لَنا إن تَتَّبعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ أنْتُم إلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿**وقال الَّذِينَ أشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله ما عَبَدْنَا مِنْ دُونِه مِنْ شيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آباؤنا ولا حَرَّمْنا من دونـه من شيَءٍ، كَذلك فَعَل الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهم فَهَل عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ البَلاَغُ المُبين**﴾ [النحل: ٣٥] وقال تعالى: ﴿**وقالُوا لَوْ شاء الرَّحمن ما عَبَدْناهُم ما لَهم بذَلِك مِنْ عِلْمٍ، إنْ هُم إلاَّ يَخْرُصُـونَ**﴾ [الزخرف: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿**وإذا قيلَ لَهم أنْفقُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله قال الَّذين كفروا لِلَّذين آمنُوا أنُطْعِمُ مَنْ لَو يَشاءُ الله أطْعَمَهُ إنْ أنتُم إلاَّ في ضَلاَلٍ مُبِـين**﴾ [يس: ٤٧]. فهـذه أربعة مواضع في القرآن، بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفـرقـة الأولى: جعلت هذه الحجـة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله. ثم افترق هؤلاء فرقتين:

فـرقـة كذبت بالأمـر والـوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً.

وفـرقة صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده؛ إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهـزاء منهم، ولـو قالـوهـا اعتقـاداً للقضاء والقدر وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم. ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه

---

(١) ٨٧ طريق الهجرتين.

حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء، فيكون للمشركين على الله الحجة، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً[١].

...[٢]**وأيضا** فإن الله سبحانه نوَّع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرّف الآيات وضرب الأمثال: ليقيم عليهم حجته البالغة ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه؛ بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّى بينهم في الهداية كما قال تعالى: ﴿**فلله الحُجَّة البالِغةُ فلو شَاء لَهَداكُم أجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب، وخالطت العقل، واتحدت به فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها. ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ولكن حكمته تأبى ذلك...

وقد[٣] أنكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين لمحبته ورضاه. فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً؟!

قال الله تعالى: ﴿**سَيَقُول الَّذينَ أشْرَكُوا لَو شَاءَ الله مَا أشْرَكْنَا وَلاَ آباؤنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأسَنَا قل هَل عِنْدَكُم مِنْ عِلْم فَتخرِجُوه لَنا إنْ تتبعون إلا الظَّن وإن أنتُم إلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿**وقَالَ الَّذين أشْرَكُوا لَوْ شَاء الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونه مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونه مِنْ شَيْءٍ كذلك فَعل الَّذين مِنْ قَبلِهم**﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَو شَاءَ الرَّحمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ**﴾ [الزخرف: ٢٠]. فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه[٤].

...[٥]**وقد** أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة الأنعام، والنحل، والزخرف فقال تعالى: ﴿**سيقولُ**

---

(١) استمر المؤلف في ذكر الفرق وتفرقها، وأطال في الموضوع ببيان شافٍ لمن أراده (ج).

(٢) ١٢٢ طريق الهجرتين. (٣) ١٩١ مدارج جـ٢.

(٤) **هنا فصل المؤلف** بين المشيئة والمحبة تفصيلاً واضحاً يحسن الرجوع إليه. (ج) (٥) ١٢٦ شفاء العليل.

الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيءٍ كذلك كذَّب الذين من قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا قلْ هلْ عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتبعونَ إلا الظنَّ وإن أنتمْ إلا تَخْرُصُون﴾[الأنعام: ١٤٨].

وكذلك حكى عنهم في النحل، ثم قال: **﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ﴾** [النحل: ٣٥].

وقال في الزخرف: **﴿وقَالوا لَو شَاء الرَّحمنُ مَا عَبدْنَاهم مَالَهم بِذَلِك مِن عِلْمٍ إن هُم إلا يَخرُصُون﴾**[الزخرف: ٢٠].

فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به؛ بكونه أقرهم عليه، وأنه لولا محبته له ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذك أمره ونهيه ودعوة الرسل، قالوا: كيف يأمر بالشيء قد شاء منا خلافه، وكيف يكره منا شيئاً قد شاء وقوعه، ولو كرهه لم يمكنا منه ولحَالَ بيننا وبينه، فكذبهم سبحانه في ذلك وأخبر: أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويبغضه ويمقته، وأنه لولا بغضه وكراهته لما أذاق المشركين بالله عذابه؛ فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه، ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدراً لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي، محبوباً له مرضيًّا. ثم أخبر سبحانه: أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب. ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية: إرسال رسله وإنزال كتبه وتمكينهم من الإيمان والإسلام ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعهما لكمال عدله وقطعاً لعذرهم من جميع الوجوه؛ ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي: قد بلغت غاية البيان وأقصاه؛ بحيث لم يبق معها مقال لقائل، ولا عذر لمعتذر. ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله. ثم ختم الآية بقوله: **﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الأنعام: ١٤٩]. وأنه

لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة. فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته؛ لزم وجوده عند مشيئته، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده . . .

...[1]**وتأمل** قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم: بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿**قُلْ فَلِله الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فأخبر سبحانه: أن الحجة له عليهم: برسله وكتبه وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول؛ فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه.

ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿**فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أجْمَعِينَ**﴾ فإن هذا يتضمن: أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهاً غيره، فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل، فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد؛ فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة وحجتهم هي الداحضة وبالله التوفيق.

[2]**قاعدة** شريفة: الناس قسمان: علية وسفلة. فالعلية من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه: ﴿**وَمَنْ يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه. قال الله تعالى: ﴿**وأنَّ هذا صِراطِي مُستَقِيماً فاتَّبِعوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) ١٧ شفاء العليل.   (٢) ١٧٧ طريق الهجرتين.

فوحد سبيله؛ لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي، ﷺ، خط خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**». ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وأنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتفرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه**﴾[الأنعام: ١٥٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**الله وليُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ، والَّذِينَ كَفرُوا أوْلِيَاؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلَى الظلُمَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فوحد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان.

ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿**الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّور**﴾ [الأنعام: ١]. مع أن فيه سرًّا ألطف من هذا، يعرفه من يعرف منبع النور، ومن أين فاض وعما ذا حصل؟ وأن أصله كله واحد، وأما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها، وهي كثيرة جدًّا، لكل حجاب ظلمة خاصة، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي، جل جلاله: أصلاً، لا وصفاً، ولا ذاتاً، ولا اسماً، ولا فعلاً؛ وإنما ترجع إلى مفعولاته، فهو جاعل الظلمات، ومفعولاتها متعددة مُتكثرة، بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه. ذكره الدارمي عنه. وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر: يارسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «**نور، أنى أراه؟!**».

والمقصود: أن الطريق إلى الله واحد، فإنه الحق المبين. والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء: أن الطريق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها؛ رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق. وكشف ذلك وإيضاحه: أن الطريق هي

واحدة جامعة لكل ما يرضى الله، وما يرضيه متعدد متنوع فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة؛ بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته. فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا؛ لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها؛ لم يسلكها إلا واحد بعد واحد؛ ولكن لما اختلفت الاستعدادات؛ تنوعت الطرق؛ ليسلك كل امرىء إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها، مع رجوعها كلها إلى دين واحد، مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «**الأنبياء أولاد عَلات دينهم واحد**»، فأولاد العلات: أن يكون الأب واحداً والأمهات متعددة. فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها إلى أب واحد كلها.

وإذا علم هذا؛ فمن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله؛ طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم؛ حتى: يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه؛ فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى الله وَرَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُه على اللّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل، وهو حريص، طالب للقرآن، أنه رؤى بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس: من يكون سيد عمله؛ الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر؛ رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه؛ الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها؛ أظلم عليه وقته، وضاق صدره.

ومن النـاس: من يكـون طريقه؛ الإحسان والنفع المتعدى[1]: كقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومن الناس: من يكون طريقه؛ الصوم، فهو متى أفطر؛ تغير عليه قلبه وساءت حاله. ومن الناس: من يكون طريقه؛ تلاوة القرآن، وهي الغالب على أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومنهم: من يكون طريقه؛ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه، ونفذ منه إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه؛ الحج والاعتمار.

ومنهم: من يكون طريقه؛ قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم: جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه، ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجـدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت، وأين كانت؛ جالبـة ما جلبـت، مقتضية ما اقتضت؛ جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذهـا، والقيام بأدائهـا؛ مراقبـاً له فيها، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمتُ إليه المبيع منتـظراً منـه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ اللهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليه: أن يتصل به قلبه، ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه؛ فيسلو به عن جميع المطالب سواه...

الباب[2] السادس عشر في توحد طريق الجنة، وأنه ليس لها إلا طريق واحد.

---

(١) في النسخة: (المعتدى) والصواب: (المتعدى) المراجع (٢) ٥٧ حادي الأرواح.

هذا ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى؛ ولهذا يوحد سبحانه سبيله ويجمع سبل النار: كقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ**﴾ [النحل: ٩]. أي: ومن السبيل جائر عن القصد، وهي سبيل الغي.

وقال: ﴿**هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**﴾[الحجر: ٤١]. وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله، ﷺ، خطًا، وقال: «**هَذا سبيل الله**» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «**هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ الآية.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِين يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجتمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد، والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا.

وقد روى البخاري في صحيحه: عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي، ﷺ، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقالوا: مثله مثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان: الدار الجنة، والداعي محمد، فمن أطاع محمداً؛ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً؛ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس».

ورواه الترمذي عنه، ولفظه: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه**:

اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك؛ دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام؛ دخل الجنة ومن دخل الجنة؛ أكل ما فيها».

(١)**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿هَل يَنْظُرُونَ إلاَّ أن تَأْتِيَهُم الْمَلاَئِكَةُ أوْ يَأتِيَ رَبُّك أوْ يَأتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فلما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد: إتيان بعض آياته؛ أزال هذا الوهم ورفعه بقوله: ﴿أوْ يَأتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًا صريحاً في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأملت أحاديث الصفات، رأيت هذا لائحاً على صفحاتها بادياً على ألفاظها: كقوله، ﷺ: «إنكم ترون ربكم عياناً، كما نرى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب».

وقوله، ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجب يحجبه». فلما كان كلام الملوك قد يقع بواسطة الترجمان، ومن وراء الحجاب؛ أزال هذا الوهم من الأفهام.

وكذلك لما قرأ، ﷺ: ﴿وَكَانَ الله سَمِيعاً بَصِيراً﴾[النساء: ١٣٤] وضع إبهامه على أذنه وعينه؛ رفعاً لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين، وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة، كما في الحديث الصحيح أنه قال: «يقبض الله سمواته بيده، والأرض بيده الأخرى» ثم جعل رسول الله، ﷺ، يقبض يده ويبسطها؛ تحقيقاً لإثبات اليد، وإثبات صفة القبض.

ومن هذا إشارته إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه بلغهم ؛ تحقيقاً لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم، مستو على عرشه.

وهذه أمثلة يسيرة ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة منها: ما يقبل التأويل، وما لا يقبله. والله المستعان.

---

(١) ٧٢ مختصر الصواعق جـ١.

فصل

في بيان أنه لا يأتي المعطل للتوحيد العلمي الخبري بتأويل؛ إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العملي أن يأتي بتأويل من جنسه.

وقد اعترف حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم ؛ فقال أبوالوليد بن رشد في (كتاب الكشف عن مناهج الأدلة) : القول في الجهة.

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله سبحانه وتعالى؛ حتى نفتها المعتزلة، ثم اتبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية: كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله.

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة: مثل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]. ومثل قوله: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ومثل قوله تعالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٧]. ومثل قوله: ﴿**يُدبر الأمر مِن السَّماء إلى الأرض ثُمَّ يَعْرُج إليه في يوم كان مِقْداره ألْفَ سَنَة مِمَّا تعدُّونَ**﴾ [السجدة: ٥]. ومثل قوله: ﴿**تَعْرُج الملائكة والروح إليه**﴾ [المعارج: ٤]. ومثل قوله: ﴿**أأمِنتُم مَن في السَّماءِ**﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها؛ عاد الشرع كله متأولاً.

وإن قيل فيها: إنها من المتشابهات؛ عاد الشرع كله متشابهاً؛ لأن الشرائع كلها مبينة أن الله في السماء، ومنه تنزل الملائكة إلى النبيين بالوحي، وأن من السماء نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي، ﷺ، حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك...

(1)**الوجه** الثالث عشر: أن أعلم الخلق بالله وأنصحهم للأمة وأقدرهم على العبارة التي لا توقع لبساً؛ قد صرح بالنزول مضافاً إلى الرب في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة؛ بل يؤكدها. فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة منتفية؛ لزم القدح في علمه أو نصحه أو بيانه كما تقدم تقريره.

الرابع عشر: أنه لم يقتصر على لفظ النزول العاري عن قرينة المجاز المذكور معه ما يؤكد إرادة الحقيقة؛ حتى نوع هذا المعنى، وعبر عنه بعبارات متنوعة:

(١) ٢٢٤ مختصر الصواعق جـ٢.

كالهبوط، والدنو، والمجيء، والإتيان، والطواف في الأرض قبل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَجَاء رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقال: ﴿هَل يَنظرون إلاَّ أن تَأتيَهم الملائكةُ أو يأتي ربُّك أو يأتي بعضُ آيات رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان أمره وإتيان نفسه. وقال محمد بن جرير الطبري. في تفسير قوله: ﴿هَل ينظُرونَ إلاَّ أن يأتِيهُم الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلائِكة﴾ [البقرة: ٢١٠]: **وقد** ورد في هذا حديث عن النبي، ﷺ، وهو المرجع والمعتمد عليه في ذلك، ثم ساق الحديث ولفظه: «**إذا كان يوم القيامة تقفون موقفاً واحداً مقدار سبعين عاماً، لا ينظر إليكم ولا يقضي بينكم، فتبكون؛ حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً، وتعرقون حتى يبلغ منكم العرق الأذقان، ويلجمكم؛ فتضجون وتقولون: من يشفع لنا عند ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بهذا من أبيكم آدم؟! جبل الله تربته، وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه الله قبلاً؛ فيؤتي آدم فيطلب ذلك إليه، فيأبى، ثم يستقرئون الأنبياء كلما جاءوا نبيًّا؛ يأبى حتى يأتوني فيسألوني فآتي الفحص قدام العرش؛ فأخر ساجداً فلا أزال ساجداً**».

(١)**وقال** رزين بن معاوية صاحب (تجريد الصحاح)، وهو من أعلم أهل زمانه بالسنن والآثار، وهو من المالكية اختصر تفسير ابن جرير الطبري. وعلى كتابه التجريد اعتمد صاحب كتاب (جامع الأصول) وهذبه، قال في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أنْ تَأتِيَهُم الْمَلاَئِكَةُ أوْ يَأتِي ربُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. قال مجاهد: ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ عند الموت حين توفاهم ﴿أو يأتي ربك﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله، وعن قتادة مثله. وقال محمد بن جرير الطبري: حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة؛ فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح، ويحتمل أن يكون نزولهم بعذاب الكفار وإهلاكهم.

وأما إتيان الرب عز وجل؛ فهو يوم القيامة لفصل القضاء لقوله: ﴿هل ينظُرونَ إلاَّ أنْ يأتِيهُم الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمام وَالمَلاَئِكَة﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿وجَاء رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢].

قال رزين: قال بعض المتبعين لأهوائهم، المقدمين بين يدي كتاب الله

(١) ٢٢٥ مختصر الصواعق جـ٢.

لأرائهم من المعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم من أشياعهم ؛ فيمتنعون من وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من قوله: ﴿هَل يَنْظُرُون إلَّا أن يأتِيهُم الله في ظُلل مِنَ الغَمَام وَالمَلَائِكَة﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وقوله: ﴿الرَّحمٰنُ عَلى العَرْش اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إلى أن قال: وأهل العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف؛ يثبتون جميع ذلك ويؤمنون به بلا كيف ولا توهم، ويمرون الأحاديث الصحيحة كما جاءت عن رسول الله، ﷺ، انتهى.

والاتيان والمجيء من الله تعالى نوعان:

مطلق ومقيد. فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه؛ كان مقيداً كما في الحديث: «**حتى جاء الله بالرحمة والخير**». **ومنه قوله تعالى**: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾ [الأعراف: ٥٢]. وقوله: ﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِم**﴾ [المؤمنون: ٧١]. وفي الأثر: «**لا يأتي بالحسنات إلا الله**».

النـوع الثـاني: المجيء والإتيان المطلق كقوله: ﴿**وجاء ربك والملك**﴾. وقوله: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾.

وهـذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقاً فكيف إذا قيد بما يجعله صريحاً في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿**إلَّا أنْ تَأتِيَهم الملائكة أو يأتِيَ رَبُّكَ أوْ يَأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه، ومن المجيء المقيد قوله: ﴿**فأتَى الله بُنْيَانَهم مِنَ القواعِد**﴾ [النحل: ٢٦]. فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد؛ دل ذلك على مجيء ما بينه؛ إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه؛ لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي أخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهم لأوَّل الحَشْرِ ما ظننتُم أن يَخرجُوا وَظَنُّوا أنَّهم ما نِعتُهم حُصُونُهم من الله فأتاهم الله من حيث لَم يَحْتَسِبُوا**﴾ [الحشر: ٢].

فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم؛ فكان في هذا السياق ما يدل على المراد، على أنه لا يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته، ويكون ذلك دنواً ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا

يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة؛ بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، وهو فوق عرشه إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء. ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السموات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء؛ فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق؛ لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضاً؛ فهو سبحانه يدنو ويقرب ممن يريد الدنو والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه.

وقد قال النبي، ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» فهذا قرب الساجد من ربه، وهو فوق عرشه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**». فهذا قربه من داعيه، والأول قربه من عابديه، ولم يناقض ذلك كونه فوق سمواته على عرشه.

وإن عسر على فهمك اجتماع الأمرين فإنه يوضحه لك: معرفة إحاطة الرب وسعته، وأنه أكبر من كل شيء، وأن السموات السبع والأرضين في يده كخردلة في كف العبد، وأنه يقبض سمواته السبع بيده والأرضين باليد الأخرى، ثم يهزهن، فمن هذا شأنه كيف يعسر عليه الدنو ممن يريد الدنو منه وهو على عرشه، وهو يوجب لك فهم اسمه الظاهر والباطن، وتعلم أن التفسير الذي فسر رسول الله، ﷺ، به هذين الاسمين؛ هو تفسير الحق المطابق: لكونه بكل شيء محيط، وكونه فوق كل شيء، ومما يوضح لك ذلك: أن النزول والمجيء والإتيان والاستواء والصعود والارتفاع؛ كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد، وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك؛ لم يكن فعالا ولا موصوفاً بصفات كماله، فنزوله ومجيئه واستواؤه وارتفاعه وصعوده ونحو ذلك؛ كلها أفعال من أفعاله التي إن كانت مجازاً؛ فأفعاله كلها مجاز، ولا فعل له في الحقيقة؛ بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله.

وإن كان فاعلاً حقيقة فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين.

وبإثبات أفعاله وقيامها به؛ تزول عنك جميع الإشكالات، وتصدق النصوص بعضها بعضاً، وتعلم مطابقتها للعقل الصريح.

وإن أنكرت حقيقة الأفعال وقيامها به سبحانه؛ اضطرب عليك هذا الباب أعظم اضطراب، وبقيت حائراً في التوفيق بين النصوص وبين أصول النفاة؛ وهيهات لك بالتوفيق بين النقيضين والجمع بين الضدين.

يوضحه: أن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة، لما فهمت من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه؛ ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكاناً ويشغل مكانًا؛ نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه، ومحذور التعطيل.

ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولاً ليس كمثله نزول فكيف تنفى حقيقته؟! فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه؛ لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً.

(١)**فائدة** قوله تعالى: ﴿**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ أنث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية: ﴿لَا تَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] بالتاء، والفعل مسند إلى الإيمان؛ لكنه طاعة وإنابة في المعنى.

(٢)**الرضى** بالله ربًا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى: يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿**قُل أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وَهوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلهاً» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة: ﴿**قُل أَغَيْرَ الله أَتَّخِذ وليًا فَاطِرِ السَّموات والأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن: الحب، والطاعة. وقال في وسطها: ﴿**أفغَيرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أَنْزَل إِلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَن

(١) ٢٠٩ البدائع جـ٤. (٢) ١٨١ مدارج جـ٢.

يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصَّلاً، مبيناً كافياً شافياً!!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد، ﷺ، رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه؛ لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصراً؛ بل يوالي من دونه أولياء. ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضى بالله ربًّا: أن يسخط عبادة مادونه. هذا هو الرضى بالله إلهاً، وهو من تمام الرضى بالله ربًّا. فمن أعطى الرضى به ربًّا حقه؛ سخط عبادة ما دونه قطعاً؛ لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

بهذا تم مايسر الله جمعه من سورة الأنعام والحمد لله.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون**﴾ [الأعراف: ١-٣]، فأمر سبحانه باتباع ماأنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا: اتباع المنزل، أو اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتبع الوحي؛ فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

. . . (٢)**وكذلك** الحرج الذي في الصدور منه فإنه:

تارة يكون حرجًا من إنزاله، وكونه حقًا من عند الله. وتارة يكون من جهة التكلُّم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لايكفي العباد؛ بل هم محتاجون معه إلى: المعقولات، والأقيسة، أو الآراء، أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وماأريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعًا في دينه قط، إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته. كما أنك لاتجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

(٣)**وأما** الفاء فهي موضوعة للتعقيب وقد تكون للتسبيب والترتيب، وهما

---

(١) ٣٥ الرسالة التبوكية.　　(٢) ٨١ فوائد.

(٣) ١٩٥ بدائع جـ٢.

راجعان إلى معنى التعقيب؛ لأن الثاني بعدهما أبدًا إنما يجيء في عقب الأول. فالسبب نحو: ضربته فبكى، والترتيب: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤]، دخلت الفاء لترتيب اللفظ لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر؛ لأن الاهتمام به أولى، وإن كان مجيء البأس قبله في الوجود، ومن هذا: أن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده؛ دخلت ثم لترتيب الكلام لا لترتيب المعنى في الوجود، وهذا معنى قول بعض النحاة: إنها تأتي للترتيب في الخبر لا في المخبر.

وعندي في الآية تقديران آخران أحسن من هذا أحدهما: أن يكون المراد بالإهلاك إرادة الهلاك، وعبر بالفعل عن الإرادة وهو كثير، فترتب مجيء البأس على الإرادة ترتب المراد على الإرادة.

والثاني: وهو ألطف أن يكون الترتيب ترتيب تفصيل على جملة؛ فذكر الإهلاك ثم فصّله بنوعين:

أحدهما: مجيء البأس بياتًا أي: ليلاً. والثاني: مجيئه وقت القائلة، وخصّ هذين الوقتين؛ لأنهما وقت راحتهم وطمأنينتهم؛ فجاءهم بأس الله أسكن ماكانوا وأروحه؛ في وقت طمأنينتهم وسكونهم على عادته سبحانه في أخذ الظالم؛ في وقت بلوغ آماله وكرمه وفرحه وركونه إلى ماهو فيه.

وكذلك قوله: ﴿حتى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنهُم قَادِرُونَ عَلَيْها أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

والمقصود أن الترتيب هنا ترتيب التفصيل على الجمل، وهو ترتيب علمي لا خارجي. فإن الذهن يشعر بالشيء جملة أولاً، ثم يطلب تفصيله بعد ذلك، وأما في الخارج؛ فلم يقع إلا مفصلاً.

فتأمل هذا الموضع الذي خفي على كثير من الناس؛ حتى ظنَّ أن الترتيب في الآية كترتيب الأخبار، أي: إنَّا أخبرناكم بهذا قبل هذا.

(١)**الطبقة** الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا: فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرِّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم

---

(١) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه فَأُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، قال حذيفة، وعبدالله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف، وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته. فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته...

...(١)**والقرآن** والسنة، قد دلَّا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، ولايرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعلَ أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف: (٨ ـ ٩) والأنبياء (٤٧)، والمؤمنين (١٠١ ـ ١١١) والقارعة، والحاقة (١٩ ـ ٣٧).

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيْعُوا اللهَ وأَطِيْعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُم﴾ [محمد: ٣٣] وتفسير الإبطال هاهنا بالردة؛ لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذيْنَ آمنوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فهذان سببان عَرضَا بعدُ للصدقة فأبطلاها. شبَّه سبحانه بطلانها: بالمنِّ وَالأَذىٰ؛ بحال المتصدق رياءً في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا لاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعْضٍ أَنْ تَحبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُم لاتَشعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وفي الصحيح عن، النبي، ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله».

وقالت عائشة رضي الله عنها، لأم ولد زيد بن أرقم، وقد باع بيع العِينة: «أخبري زيدًا: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ، إلا أن يتوب».

وقد نصَّ أحمد على هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف

(١) ٢٧٨ مدارج جـ١.

على نفسه، فيستدين ويتزوج، لايقع في محظور؛ فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة: أن من السيئات مايحبط الحسنات بالإجماع، ومنها مايحبطها بالنص؛ جاز أن يحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن؛ فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما؛ فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دلَّ القرآن، والسنة، وإجماع السلف؛ على الموازنة. وفائدتها: اعتبار الراجح؛ فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح.

قال ابن مسعود: «يُحَاسب الناس يوم القيامة: فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة؛ دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة؛ دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينه فَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيُنه فَأولَئِكَ الَّذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]. ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح»، قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته؛ كان من أصحاب الأعراف».

وعلى هذا: فهل يُحبط الراجحُ المرجوحَ، حتى يجعله كأن لم يكن، أو يحبط ماقابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة ينبني عليهما: أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلاً، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة؟ فيثاب على الحسنات كلها، أو يسقط من الحسنات ماقابل السيئات، فلا يثاب عليه، ولايعاقب على تلك السيئات، فيبقى القدر الزائد لا مقابل له، فيثاب عليه وحده؟. وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة.

وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل، أو بكل السيئات التي رجحت؟ على القولين. هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم...

فصل[1]

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية[2]. وعلى كل تقدير فلا تدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج

---

(١) ٢١١ الروح. (٢) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]. ج.

صورهم وأمثالهم في صور الذر، واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم؛ إن صحّ الخبر بذلك.

والذي صحّ إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى: شقي، وسعيد.

وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ [الأعراف: ١١] فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته؛ لترتيب الأمر بالسجود لآدمٍ على خلقنا وتصويرنا، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخر عن خلق آدم؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ**﴾ يعني آدم ﴿**ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾ لذريته، ومثال هذا ماقاله مجاهد: ﴿**خلقناكم**﴾ يعني آدم و﴿**صورناكم**﴾ في ظهر آدم؛ وإنما قال: ﴿**خلقناكم**﴾ بلفظ الجمع وهو يريد آدم، كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد؛ لقوله تعالى بعد: ﴿**ثم قلنا للملائكة اسجدوا**﴾ وكان قوله تعالى للملائكة: اسجدوا؛ قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام، وثم توجب التراخي والترتيب. فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في الأرحام؛ يكون قد راعىٰ حكم ثم في الترتيب؛ إلا أن يأخذ بقول الأخفش؛ فإنه يقول: ثم هاهنا في معنى الواو. قال الزجاج: وهذا خطأ لايجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه، قال أبو عبيد: وقد بيَّنه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره، ثم أمر بعد ذلك بالسجود. قال: وهذا بيِّن في الحديث، وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ**﴾ [الحج: ٥]، فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم؛ إذ هو أصلهم. والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمراد: آباؤهم، كقوله تعالى: ﴿**وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**﴾ [البقرة: ٥٥]...[1]

---

(١) وهذا طرف من البحث على المسألة الثامنة عشرة. وفيها مناقشات طويلة، مفادها: هل الروح مخلوقة قبل الأبدان أم بعدها؟ وهي أكثر من كراسة تبدأ من ص (١٩٢) وتنتهي ص (٢١٦) لمن أرادها. ج.

[(١)] **قال** الله تعالى إخبارًا عن عدوه إبليس، لَـمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنه خيرٌ منه، وإخراجه من الجنة: أنه سأله أن يُنظِره، فأنظَره، ثم قال عدو الله: **﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾** [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف: «على» فانتصب الفعل، والتقدير: لأقعدنَّ لهم على صراطك، والظاهر؛ أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنَّه، ولأرْصُدَنَّه، ولأعَوِّجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح»، وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله»، وقال جابر: «هو الإسلام»، وقال مجاهد: «هو الحق».

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدَّم حديث سَبْرة بن الفاكه: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها**...» الحديث. فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس في رواية عطية[(٢)] عنه: «مِنْ قِبَل الدنيا»، وفي رواية عليٍّ[(٣)] عنه «أُشككهم في آخرتهم».

وكذلك قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيبًا بالبعث والجنة والنار». وقال مجاهد: «**﴿من بين أيديهم﴾**: من حيث يبصرون». **﴿ومن خلفهم﴾**، قال ابن عباس: «أرغبهم في دنياهم»، وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزيِّنها لهم وأشهِّيها لهم».

وعن ابن عباس رواية أخرى: «من قِبَل الآخرة». وقال أبو صالح: «أُشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم». وقال مجاهد أيضًا: «من حيث لايبصرون». **﴿وعن أيمانهم﴾** قال ابن عباس: «أُشَبِّه عليهم أمر دينهم». وقال

---

(١) غاثة جـ١.

(٢) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي ـ بفتح العين المهملة وإسكان الواو، أبو الحسن الكوفي، يروي عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ضعفه الثوري وهشيم وابن عدي، وحسّن له الترمذي أحاديث مات سنة ١١١.

(٣) هو علي بن أبي طلحة ـ سالم ـ الهاشمي مولاهم أبو الحسن الجزري، يروي عن ابن عباس مرسلًا. له في مسلم حديث واحد. وعن أبي داود والنسائي وابن ماجه حديث آخر. مات سنة ١٤٣.

أبو صالح: «الحق أشككهم فيه». وعن ابن عباس أيضًا: «من قبل حسناتهم». قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها». وقال أبو صالح أيضًا: «من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: أُنفِّقه عليهم وأُرَغِّبهم فيه». وقال الحسن: «﴿وعن شمائلهم﴾ السيئات يأمرهم بها، ويَحثُّهم عليها ويزينها في أعينهم».

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: «ولم يقل: من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم». قال الشعبي: «فالله ـ عز وجل ـ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم». وقال قتادة: «أتاك الشيطان ياابن آدم من كل وجه؛ غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله».

قال الواحدي: وقول من قال: «الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات؛ حَسَنٌ، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولاتجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدمين عندك، ولاتجعلني من المؤخَّرين، وأنشد لابن الدُّمَيْنَة:

أَلُبْنَى، أفي يُمْنَى يَديك جعلتني فأَفـرحَ، أم صَيّرتني في شمالـك؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين: أي بمنزلةٍ حسنة، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رأيت بني العَـلَّات لما تظافروا يَحُوزون سهمي بينهم في الشمائل(١)

أي: ينزلوني بالمنزلة السيئة. وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: «لأُغْـوِيَنَّهُمْ حَتَّى يُكَـذِّبُـوا بِمَا تَقَـدَّمَ مِنْ أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، أي: لأضلنهم فيما يعملون؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئًا؛ لأنهما الأصل في التصرُّف، فجعلتا مثلاً لجميع مايعمل بغيرهما».

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق، والزمخشري ـ واللفظ لأبي إسحاق: «ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي. لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة ـ والله

(١) بنو العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. وسهمي، أي حظي ونصيبي.

أعلم - أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم».

وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ماأمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهذا يوافق ماحكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك» وهذا القول أعم فائدة، ولا يناقض ماقال السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين. قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي؛ فيقول: لاتخف فإن الله غفوررحيم، فأقرأ: ﴿وإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وأما من خلفي فيخوفني الضيّعَة على من أخلِّفه، فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ومن قِبَل يميني، يأتيني من قبل النساء، فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ومن قِبَل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبيْنَ مَايَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قلت: السُّبل التي يسلكها الانسان أربعة لاغير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيُّ سبيل سلكها من هذه؛ وجد الشيطانَ عليها رصَدًا له، فإن سلكها في طاعة؛ وجده عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه، أو يعُوقه ويبُطِّئه، وإن سلكها لمعصية؛ وجده عليها حاملاً له وخادمًا ومعينًا ومُمَنِّيًا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك...

فصل(١)

وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِيْنَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِيْنَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

(١) ١١١ إغاثة جـ١.

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، وبه سمى صوت الحُلِيِّ وسواسًا، ورجل موسوس بكسر الواو، ولايفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه، قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عَوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر مابين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهَتَك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة؛ ولهذا رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم، وهكذا إذا رؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة؛ فإنه يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

إني كأني أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط الناس عريانًا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسًا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسًا باطنًا من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع مايسترها.

ثم قال: ﴿مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] أي: إلا كراهة أن تكونا ملَكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كَيْدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه: استعان به على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لايخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامّ عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم؛ فعلم أنه لايدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبدالله بن عباس يقرؤها ملِكين بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن

يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك» ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولاتشرب، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه والملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولاسيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرّهما، وخدعهما بأن سمّى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أختها[1] بلقيمة الراحة، وسموا الربا: بالمعاملة، وسموا المكوس: بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه: شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب: تنزيهًا، وسموا مجالس الفسوق: مجالس الطيبة؛ فلما سماها شجرة الخلد قال: مانهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولاتموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لايموتون، ولم يكن آدم ـ عليه السلام ـ قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه: أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر فأخذتهما سِنَةُ الْغَفْلَة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم		لينفذ القَدَر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾.

فيقال: الماكر المخادع لابد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل مايدل على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله، والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك رَاجَ عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا مَلَكين، وإنما ردَّد الأمر بين أمرين: أحدهما:

---

(١) بالنسخة (أخاها)، والصواب ما أثبتناه. والمقصود بها الحشيشة. المراجع.

ممتنع، والآخر: ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر؛ ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن؛ جزم له به؛ ولم يردده. فقال: ﴿يَاآدمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَيَبْلَى﴾ فلم يُدْخِل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله: ﴿إلَّا أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ فتأمله.

ثم قال: ﴿وقاسَمَهُما إنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، فتضمن هذا الخبر أنواعًا من التأكيد: أحدها: تأكيده بالقسم. الثاني: تأكيده بإنَّ. الثالث: تقديم المعمول على العامل، إيذانًا بالاختصاص، أي: نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليَّ. الرابع: إثباته باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد. أي: النصح صفتي وسَجِيَّتِي، ليس أمرًا عارضًا لي. الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم. السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا، وأنا من جملة من يشير عليك به.

سعى نحوها حتى تجاوز حدّه ... وكَثَّر فارتابت، ولو شاء قللا

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله، ﷺ، إذا جاءوه: ﴿نشهد إنَّك لرسول الله﴾ [المنافقون: ١] فأكدوا خبرهم بالشهادة، وبإنَّ، وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قال أبو عبيدة: خذلهما وخلَّاهما، من تَدْلِيَةِ الدَّلْوِ، وهو إرسالها في البئر. وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين:

أحدهما قال: أصله الرجل العطشان يتدلَّى في البئر لِيَرْوَى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تَدَلَّى فيها بالغرور، فوُضِعَتْ التدلية موضع الإطماع فيما لايُجْدِي نفعًا، فيقال: دَلَّاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جُنْدَب الهُذَلي:

أُحص، فلا أجير ومن أجره ... فليس كمن تَدلَّى بالغرور

أحص: أي أقطع. الثاني: فدلَّاهما بغرور، أي: جَرَّأهما على أكل

الشجرة، وأصله: دللهما من الدلال والدالة(١) وهي الجراءة، قال شَمَّر: يقال: مادلَّلك عليَّ، أي: ماجَرَّأَكَ عليَّ، وأنشد لقيس بن زهير:

أظن الحلم دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُستجهل الرجل الحليم

قلت: أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق، يقال: دلَّى الشيء في مِهْوَاةٍ، إذا أرسله بتعليق. وتدلَّى الشيء بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ**﴾ [يوسف: ١٩]، قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلىٰ دلوه إذا أرسلها في البئر، ودلاَّهَا بالتخفيف، إذا نزعها من البئر، فأدلىٰ دلوه يدليه إدلاءً إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا؛ إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر؛ الدلالة، وهي: التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه.

ومنه الدلُّ وهو مايدل على العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله ﷺ، في هَدْيه ودَلِّه وسَمْتِه، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدلُّ مايدل من ظاهره على باطنه، والسَّمْت هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود: ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين. قال مُطَرِّفُ بن عبدالله: قال لهما: إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرْشِدْكما وحلف لهما، وإنما يُخدع المؤمن بالله، قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا»، فالمؤمن غر كريم، والفاجر خَبٌّ لئيم. وفي الصحيح: أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلاً يسرق، فقال: «**سرقت؟**» فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو، فقال المسيح: «**آمنت بالله، وكذَّبت بصري**».

وقد تأوَّله بعضهم على أنه لما حلف له؛ جَوَّز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة؛ وهذا تكلف، وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلب المسيح عليه السلام أجلَّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار

---

(١) قال أبو حيان في البحر: فأبدل من المضاعف الأخير حرف علة، كما قالوا: تظنيت. وأصله: تظننت، ومن كلام بعض العلماء: «خدع الشيطان آدم فانخدع ونحن من خدعنا بالله انخدعنا له» ا هـ. وروى ابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر: «أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، وكان عبيده يفعلون ذلك؛ طلبًا للعتق، فقيل له: يخدعونك. فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له».

الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين، كما ظنّ آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل، وقال: «ماظننت أحدًا يحلف بالله تعالى كاذبًا» . . .

. . . (١) **قال** تعالى: ﴿فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المُسْتَقيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] فردَّ أمر الله بقدره، واحتجَّ عَلَى ربه بالقدر، وانقسم أتباعه أربعَ فِرَق كما رأيت.

فإبليس وجنوده أُرسلوا بالقدر إرسالاً كونيًّا، فالقدَرُ دينهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، فدينُهم القَدَر، ومصيرُهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر، وأمرهم أن يحاربوا به أهل القَدَر، وشرَع لهم من أمره سُفُنًا، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعُهم في بحر القدَر، وخَصَّ بالنجاة من ركبها، كما خَصَّ بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آيةً للعالَمين، فأصحابُ الأمر حربٌ لأصحاب القَدَر؛ حتى يرُدُّوهم إلى الأمر، وأصحاب القدَر يحاربون أصحابَ الأمر؛ حتى يخرجوهم منه، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيمِ الأمر عليه، وإبليسُ وأتباعُه دينهُم القدَر ودفعُ الأمر به.

فتامل هذه المسألة في القدر والأمر، وانقسامِ العالَم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة. وبالله التوفيق.

(٢) فصل

في بيانِ كَيْدِ الشيطانِ لنفسِه، قبلَ كَيْدِه للأبوين، ثم لم يَقْتَصِرْ على ذلك، حتى كَادَ ذُرِّيَةَ نفسه، وذرِّية آدم، فكان مشئومًا على نفسه وعلى ذرِّيته وأوليائِه وأهلِ طاعتِه من الجنِّ والإِنْسِ.

أما كيده لنفسه فإنَّ اللهَ سبحانه لما أمَرَه بالسجودِ لآدَمَ عليه السلام، كان في امتثالِ أمرِه وطاعتِه: سعادتُه وفلاحُه، وعِزُّهُ ونجاتُه، فَسَوَّلَتْ له نفسُه الجاهلَة الظالمة: أنَّ في سجوده لآدم عليه السلام غَضاضةً عليه، وهَضْمًا لنفسه؛ إذ يَخْضَعُ ويقعُ ساجدًا لمن خُلِقَ من طِينٍ، وهو مخلوقٌ من نار، والنارُ ـ بزَعْمِه ـ أشرفُ من

(١) ٧٣ روضة المحبين.
(٢) ٢٠٠ إغاثة جـ٢.

الطين، فالمخلوقُ منها خَيْرٌ من المخلوق منه، وخضوعُ الأَفْضَلِ لمن هو دونه غَضَاضَةٌ عليه، وهَضْمٌ لمنزلته. فلما قام بقلبه هذا الهوَسُ، وقارَنهُ الحسَد لآدمَ، لِـمَا رأى رَبَّهُ سبحانه قد خَصَّه به من أنواع الكرامة، فإنه خَلَقه بيدِه، ونفخَ فيه من رُوحِه، وأسْجَدَ له ملائكته، وعَلمه أسماء كلِّ شيء، ومَيَّزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جَنَّته، فعند ذلك بلغ الحسَدُ من عَدُوِّ الله كلَّ مبلغ.

وكان عَدوّ الله يُطِيفُ به وهو صَلْصَالٌ كالفَخَّار، فيتعجبُ منه، ويقول: لأمر عظيم قد خُلق هذا، ولئِن سُلِّط عليَّ لأعْصينه، ولئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكمُلتْ محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربُّه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتمِّ صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد أُلبس رِداء الجمالِ والحسنِ، والمهابة والبَهاء، فرأتِ الملائكة منظرًا لم يُشاهدوا أحسنَ منه وَ لا أجمل؛ وقعوا كلُّهم سجودًا له، بأمْر ربهم تبارك وتعالى، فَشَقَّ الحسود قَميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبه نيران الحَسَد المتين، فعارضَ النصَّ بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبْطلين وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْته مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فأَعْرَضَ عن النصِّ الصريحِ، وقابَلَهُ بالرأي الفاسدِ القبيحِ، ثم أرْدَفَ ذلك بالاعتراضِ على العليمِ الحكيمِ، الذي لاتجدُ العقولُ إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً. فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كَرَّمته عليَّ؟ وغَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي؛ لأن المفضول يخضع للفاضل، فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردَف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿أنا خير منه﴾. ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم ـ عليه السلام ـ وأصله، فأنتجت له هذه المقدمات: إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيتَه الرب المعبود، فجمع بين الجهل والظلم، والكِبْرِ والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد

رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مَضَرَّته لم يبلغ منه ذلك المبلغ، ومن كان هذا غشُّه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟ قال تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

فصل(١)

وأما كيده للأبوين فقد قَصَّ اللهُ سبحانه علينا قِصَّته معهما: [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢] وأنه لم يزَلْ يَخْدَعهما، ويَعِدُهما، ويُمَنِّيهما الخلودَ في الجنةِ، حتى حَلَفَ لهما بالله جَهْد يَمينه: إنه ناصحٌ لهما، حتى اطمأنَّا إلى قوله، وأجاباه إلى ماطلبَ منهما، فجرَى عليهما من المِحْنة والخروج من الجنة ونزْع لباسهما عنهما ماجَرى، وكان ذلك بكَيْده ومَكره الذي جَرَى به القلمُ، وسَبَق به القَدَر، وَرَدَّ الله سبحانه كَيْدَه عليه، وتدارَكَ الأبوين برحمته ومَغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبةُ مكره عليه: ﴿ولَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

وظن عدوُّ الله بجهله أنَّ الغلَبة والظَّفَر له في هذه الحرب، ولم يعلم بكَمِين جَيش: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولا بإقبال دَوْلَة: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعينُ بجهله أن الله سبحانه يتخلَّى عن صَفِيِّه وحَبيبه الذي خَلقه بيده، ونفخَ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكتَه، وعَلَّمه أسماء كل شيء، من أجل أكْلَةٍ أكلَها. وما علم أنَّ الطبيبَ قد عَلَّم المريضَ الدواء قبلَ المرض، فلما أحَسَّ بالمرض بادَرَ إلى استعمال الدَّواء، لـمَّا رماهُ العدُوُّ بسَهْمٍ وقعَ في غير مَقْتَل، فبادَر إلى مُداواة الجُرْحِ، فقام كأنْ لم يكُنْ به قَلَبَةٌ...(٢).

---

(١) ٢٠٢ إغاثة جـ٢.

(٢) ما به قلبه ـ بالتحريك ـ أي داء وعلة، ومنه حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه البخاري وغيره في رقيته رئيس القبيلة بالفاتحة: «فانطلق يمشي وما به قلبة» قال الفراء: ما به علة يخشى عليه منها. وهو مأخوذ من قولهم: قلب الرجل، إذا أصابه وجع في قلبه، ليس يكاد يفلت منه. وقال ابن الأعرابي: أصل ذلك في الدواب. أي: ما به داء يقلب حافره. وما بالمريض قلبة. أي علة يقلب منها. ا هـ. من تاج العروس.

[(١)] **وفيها**: عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي، ﷺ، وعليَّ أطمار فقال: «**هل لك من مال؟**» قلت: نعم قال: «**من أيّ المال؟**» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاه، قال: «**فلترِ نعمته وكرامته عليك**» فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال؛ أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم. فقال: ﴿**يَابَنِي آدم قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُوَارِي سوْآتِكُم وَرِيْشًا وَلَبَاسُ التَّقْوى ذلِكَ خيرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿**وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَـزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّـة وَحَـرِيْـرًا**﴾ [الإنسان: ١١، ١٢] فجمل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله.

[(٢)] **وقد** جمع سبحانه بين الجمالين، أعني: جمال الظاهر وجمال الباطن؛ في غير موضع من كتابه:

منها: قوله تعالى: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُواري سَوْءآتِكُم وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خيرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦].

ومنها: قوله تعالى في نساء الجنة: ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾ [الرحمن: ٧٠]، فهن حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**ولَقَّاهُم نَضْرَةً وسُرُورًا**﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة جمال الوجوه، والسرور جمال[(٣)] القلوب.

ومنهـا: قولـه تعـالى: ﴿**وُجُـوهٌ يَوْمَئِـذٍ نَّاضِرَةٌ إلىٰ رَبِّهـا نَاظِـرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فالنضرة تزين ظواهرهم، والنظر يجمل بواطنهم.

---

(١) ١٨٣ فوائد وفيها: أي في السنن. (٢) ٣٠٠ مدارج جـ٣.

(٣) في النسخة: (وجمال) بزيادة الواو. والصواب حذفها. المراجع.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فالأساور جملت ظواهرهم، والشراب الطهور طهر بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنيا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصآفات: ٦، ٧] فجمل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين.

فصل(١)

ومما يبين أنَّ هذه الفواحش أصلُها المحبة لغير الله تعالى، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة، أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثرُ منها في المخلصين، ويوجدُ فيهم منها ما لا يوجدُ مثله في المخلصين.

قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْها آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بها قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَق وأن تشركُوا باللهِ مالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا وَأَن تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُون﴾ [الأعراف: ٢٧ - ٣٣].

فأخبر سبحانه أنه: جعل الشياطين أولياء للذين لايؤمنون، وهو قوله: ﴿أفتتخذونه وذريته أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمِينَ بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالى في الشيطان: ﴿إنما سُلطانه على الذين يتولَّوْنَهُ والذينَ هُمْ به مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] وأخبر عنه أنه أقسم بعِزَّة ربه أنه يُغوي عباده أجمعين، واستثنى أهل الإخلاص منهم. وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان، أنهم إذا فعلوا فاحشةً احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتَّبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل.

قال شيخنا: وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة

---

(١) ١٥٥ إغاثة جـ٢.

من: الصوفية، والعباد، والأمراء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامة، وغيرهم، يستحلُّون من الفواحش ماحَرَّمه الله ورسوله: ظانين أنَّ الله أباحه، أو تقليدًا لأسلافهم. وأصله العشقُ الذي يُبغضه الله، فكثيرٌ منهم يجعله دينًا، ويرى أنه يتقرَّب به إلى الله:

إما لزعمه أنه يُزَكِّي النفسَ ويُهَذِّبها.

وإما لزعمه أنه يجمعُ بذلك قلبه على آدميٍّ، ثم ينقلُه إلى عبادة الله وحده.

وإما لزعمه أن الصورَ الجميلة مظاهر الحقِّ ومشاهدهُ، ويسميها: «مظاهر الجمال الأَحديِّ»

وإما لاعتقاده حلول الرب فيها، واتحاده بها؛ ولهذا تجد بين نُسَّاك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم؛ توافقًا وتآلفًا على اتخاذ أنداد من دون الله يحبونهم كحبِّ الله: إما تَدَيُّنًا، وإما شهوة، وإما جمعًا بين الأمرين؛ ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطاني، الذي يهيج الحب المشترك، فيُهَيِّج من كل قلب مافيه من الحب.

وسبب ذلك: خلوُّ القلب مما خُلق له من عبادة الله تعالى التي تجمع: محبته وتعظيمه، والخضوع والذلِّ له، والوقوف مع أمره ونهيه ومحاَبِّه ومساخطه، فإذا كان في القلب وُجدان حلاوة الإيمان وذَوْق طعمه؛ أغناهُ ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها، وإذا خلا القلب من ذلك؛ احتاج إلى أن يستبدل به مايهواه، ويتخذه إلـهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فِطْرة الله التي فَطَرَ عليها عباده، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فطرة اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليْها لاتبدْيل لِخَلْقِ الله**﴾ [الروم: ٣٠]. أي: نفسُ خلق الله لاتبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشَّقِّ والقطع، ولا تبديل لنفس هذ الخلق.

ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبيُّ، ﷺ: «**كل مولود يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنصِّرانه، ويُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بهيمة جَمْعاء، هل تُحسُّون فيها من جَدْعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟**»(١).

---

(١) رواه البخاري في باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ =

فالقلوب مفطورة على حب إلـهها وفاطرها وتأليهه، فصرفُ ذلك التألُّه

من كتاب الجنائز. وفي تفسير سورة الروم من كتاب التفسير، عن أبي هريرة. ورواه مسلم كذلك، بلفظ: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة. . .**» الحديث. ثم يقول: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمِ**﴾ [الروم: ٣٠]. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة. فمنهم: الأسود بن سريع التميمي، رواه الإمام أحمد بلفظ: «**كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها**»، ورواه النسائي في كتاب السير، ومنهم: جابر بن عبدالله الأنصاري، رواه الإمام أحمد. بلفظ: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه: إما شاكرًا، وإما كفورًا**»، ومنهم ابن عباس، أخرجه الشيخان بلفظ: سُئل رسول الله، ﷺ، عن أولاد المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم**»، ومنهم عياض بن حمار المجاشعي. رواه الإمام أحمد بلفظ: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال في خطبته: «**إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مانحلته عبادي حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين؛ فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ماأحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجميهم وعربيهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لايغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا. ثم إن الله عز وجل أمرني أن أحرق قريشاً. فقلت: يارب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. فقال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك. وأنفق عليهم ننفق عليك، وابعث جندًا نبعث خمسة مثله. وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق. ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى مسلم. ورجل فقير عفيف متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف لا زبر له الذين هم فيكم تبعًا، أو تبعاء -** شك يحيى - **لايبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لايخفى عليه طمع وإن دق؛ إلا خانه، ورجل لايصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفاحش**» انفرد بإخراجه مسلم. ا هـ. ببعض تصرف.

وقوله: «**تنتج**» بضم التاء وسكون النون وفتح التاء - أي تلد. يقال: نتجت - بضم النون وكسر التاء - الناقة، إذا ولدت. فهي منتوجة. وأنتجت: إذا حملت، فهي نتوج. وقوله: «**جمعاء**» أي: سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها. فلا جدع فيها ولا كي. والجدعاء: المقطوعة الأنف والأذن مشقُوقتها. والمراد منها هنا: التي ليست ناقصة شيئًا من أعضائها. قال ابن الأثير ومعنى الحديث: أن المولود يولد على نوع من الجبلة، وهي فطرة الله تعالى، وكونه متهيئًا لقبول الحق طبعًا وطوعًا، لو خلته شياطين الإنس والجن ومايختار؛ لم يختر غيرها. فضرب لذلك الجمعاء والجدعاء مثلاً. يعني أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق سوية الأطراف سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة ا هـ.

وقوله في رواية أحمد ومسلم: «**فأضلتهم الشياطين**» وفي رواية: «**فاجتالتهم**» أي: حولتهم وحرفتهم، وثلغ الرأس ضربها؛ حتى تنشدخ، و«**الشنظير**» الفحاش السيء الخلق.

والمحبة إلى غيره؛ تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فِطَرُ الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خُلقت عليها، فمن استجاب لهم، رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم، استمر على تغيير الفطرة وفسادها.

(١)**وأما** الأصل الثاني(٢)؛ وهو: دلالته على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح؛ فكثير جدًّا. كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا فعلوا فاحشةً قَالوا وَجدْنَا عَلَيها آباءَنَا واللهُ أمَرَنا بها قُل إنَّ الله لَا يأمُرُ بالفحشاءِ أتقولون على اللهِ مَالا تَعْلمُونَ قُلْ أَمَر ربِّي بالْقِسط وأقيموا وجوهَكُم عِندَ كُلِّ مَسجدٍ وادعوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدأكُم تعودونَ فَريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة إنَّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دُونِ اللهِ، ويحسبون أنهم مهتدون يابني آدَمَ خُذُوا زينتَكُم عندَ كُلِّ مسجدٍ وكُلوا واشرَبُوا ولا تُسرفوا إنَّهُ لَا يُحبُّ المُسْرفينَ قُلْ من حرَّم زينة الله التي أَخْرَجَ لعباده والطيبات من الـرزق قُلْ هيَ للذين آمنُـوا في الحياةِ الدُّنْيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يعلمون قل إنَّما حرَّم ربي الفواحِشَ ماظهرَ منها ومابطَنَ والإِثْمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللهِ مالم ينزلْ به سُلطانًا وأن تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٢٨ - ٣٣].

فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة، و «الفاحشة» هـهنا هي طوافهم بالبيت عُراة - الرجال والنساء - غير قريش.

ثم قال تعالى: **﴿إن الله لَايأمُرُ بالفحْشَاءِ﴾** [الأعراف: ٢٨] أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما عُلم كونه فاحشة بالنهي، وأنه لامعنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به؛ لصار معنى الكلام: إن الله لايأمر بما ينهى عنه. وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام العزيز الحكيم.

وأي فائدة في قوله: «إن الله لايأمر بما ينهى عنه»؟ فإنه ليس لمعنى كونه: «فاحشة» عندهم إلا أنه منهيٌّ عنه، لا أن العقول تستفحشه.

---

(١) ٢٣٣ مدارج جـ١.

(٢) تقدم الأصل الأول في سورة الأنعام على قوله تعالى: **﴿يامعشر الجن والإنس﴾**. (ج).

ثم قال تعالى: ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ والقسط عندهم: هو المأمور به، لا أنه قِسْط في نفسه. فحقيقة الكلام: قل أمر ربي بما أمر به. ثم قال: ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة. ثم قال: ﴿**قُلْ إنَّما حرَّم رَبي الفَواحِشَ ماظَهَر منها ومابطَنَ**﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك؛ لكان حاصل الكلام: قل إنَّما حرَّم ربي ماحرم، وكذلك تحريم الإثم والبغي، فكون ذلك فاحشة وإثمًا وبغيًا بمنزلة كون الشرك شركًا، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

فمن قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركاً بعد النهي، وليس شركًا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحًا إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحًا عند العقل بنهى الرب تعالى عنها، وذَمَّه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر؛ حسن في نفسه، وازداد حسنًا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله. **بل** من أعلام نبوة محمد ﷺ؛ أنه: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به؛ لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم مايحرم عليهم وأي فائدة في هذا؟! وأي عَلَم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يُظَن به ذلك، وإنما المدح والثناء والعَلَم الدال على نبوته: أن مايأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنهُ وكونه معروفًا، ومانيهىٰ عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، ومايحله تشهد كونه طيبًا ومايحرمه تشهد كونه خبيثا.

وهذه دعوة جميع الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى مايوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم، لما عرف دعوته، ﷺ ـ: عن أي شيء أسلمت؟ ومارأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ماأمر بشيء، فقال العقل: ليته نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلَّ شيئًا. فقال العقل: ليته حرَّمه، ولا حرَّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه».

فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ماحسن في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث: مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهىٰ، ويبيح ويحرم، وأي دليل في هذا؟

كذلك قوله تعالى: ﴿**إنَّ الله يأمُرُ بالعدلِ والإحسان وإيتآءِ ذِي القُرْبىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾[النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلمًا نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرًا ممكنًا مقدورًا لو فعله لكان ظلمًا، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه، والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم: هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضًا، قال الله تعالى: ﴿**قَال قرينُه ربنا ماأطغيْتُهُ ولكن كَان في ضَلال بعيدٍ قَالَ لا تختصِمُوا لديَّ وقد قدَّمت إليكم بالوعيد مايُبدَّلُ القولُ لَدَيَّ وما أنا بظلَّام للعبيدِ**﴾ [قٓ: ٢٧ ـ ٢٩]. أي: لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ماعمله من صالح. ولهذا قال قبله: ﴿**وقد قدَّمت إليكم بالوعيد**﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا

آخذتكم بعد التقدم؛ فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدُّم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمل من الصَّالِحَاتِ وهو مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلمًا ولا هَضْمًا**﴾ [طه: ١١٢]. يعني: لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ماعمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لايمكن وجوده؛ لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿**مَنْ عمل صالحاً فلنفسِهِ ومَن أساء فعليها ومارَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦]. أي: لا يحمل المسيء عقاب مالم يعمله، ولايمنع المحسن من ثواب عمله.

(١)**ومن** هذا قوله تعالى: ﴿**وَإِذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءَنا والله أمرنا بها قُلْ إنِ الله لا يأمُرُ بالفحشَاءِ أتقُولُونَ على اللهِ مَالاَ تعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقوله: ﴿**قل إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لايأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدَّس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة؛ كان بمنزلة أن يقال: إن الله يأمر بما ينهى عنه. وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين؟!

ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿**قُلْ أَمَرَ ربي بِالْقِسْطِ وَأَقِيْمُوا وُجُوهَكُم عِندَ كُلِّ مسجد وادْعُوه مُخْلِصِينَ لهُ الدِّين**﴾ [الأعراف: ٢٩]

فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء؛ بل أوامره كلها: حسنة في العقول، مقبولة في الفطر؛ فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن مايأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده، وأنه لايليق به تعالى. ﴿**ومن أحسنُ دِيْنًا مِّمَّن أَسْلَم وَجْهه لله وَهُوَ مُحسنٌ واتَّبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا واتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلاً**﴾ [النساء: ١٢٥].

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام، وأنه لاشيء أحسن منه؛ بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو: إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه،

---

(١) ٩ مفتاح جـ٢.

والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن، لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله؛ بل هو مخلص لربه، محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول، وتشهد به الفطر، وأنه بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد؛ بل هو دليل على أن ماكان كذلك؛ فحقيق بأن يأمر به عباده ولايرضى منهم سواه.

فصل[1]

والأدب هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته، للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال تعالى: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١]. فعلَّق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذانًا بأن العبد ينبغي له؛ أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ماوقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا. ومن الأدب؛ نهي النبي، ﷺ، المصلي أن يرفع بصره إلى السماء.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا، خافضًا طرفه إلى الأرض، ولايرفع بصره إلى فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل على[2] أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه، كما أخبر به عن نفسه، واتفقت عليه

---

(١) ٣٨٤ مدارج جـ٢.
(٢) (على) غير موجودة بالأصل، وأثبتناها لتمام المعنى. المراجع.

رسله، وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم؛ بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول، ﷺ، على نقيض قولهم؛ إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه؟

وسمعته يقول في نهيه، ﷺ، عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لايقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله: أن لايستقبل بيته ولايستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي، ﷺ، في حديث أبي أيوب، وسلمان، وأبي هريرة، وغيرهم، رضي الله عنهم.

والصحيح: أن هذا الأدب؛ يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة؛ وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك: عن سهل بن سعد: «أنه من السنة»، و«كان الناس يؤمرون به». ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة، وهو الدوام، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**الذيْنَ هُمْ عَلىٰ صَلاَتِهِم دائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٢٣]، قال عبدالله بن المبارك، عن ابن لهيعة: حدَّثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران: الدوام عليها، والمداومة عليها، فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِيْن هُمْ عَلىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون**﴾ [المعارج: ٣٤]. وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي، ويعظم الله تعالى، حتى لايكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه: ظاهرًا، وباطنًا.

ولايستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته. ومعرفته بدينه وشرعه، ومايحب ومايكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق: علمًا، وعملاً، وحالاً. والله المستعان.

(١) **قوله** تعالى: ﴿**يَابَني آدم خُذُوا زِيْنَتكُم عند كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسِرفوا إنَّه لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]. جمعت أصول أحكام الشريعة كلها؛ فجمعت: الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(٢) فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه؛ إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة؛ مادته، والحرارة؛ تنضجها، وتدفع فضلاتها، وتصلحها، وتلطفها؛ وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه.

وكذلك الرطوبة؛ هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة؛ لأحرقت البدن، وأيبسته، وأفسدته. فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها، وقوام البدن بهما جميعًا، وكل منهما مادة للأخرى. فالحرارة؛ مادة للرطوبة، تحفظها، وتمنعها من الفساد والاستحالة. والرطوبة؛ مادة للحرارة، تغذوها، وتحملها. ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى؛ حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائمًا؛ تحلل الرطوبة؛ فيحتاج البدن إلى مابه يُخلِف عليه ماحللته الحرارة ـ لضرورة بقائه ـ وهو الطعام والشراب.

ومتى زاد على مقدار التحلل؛ ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته، فاستحالت مواد رديئة، فعاثت في البدن، وأفسدت، فحصلت الأمراض المتنوعة

---

(١) ٧ بدائع جـ٤.		(٢) ٢٨٢ زاد المعاد جـ٣.



بحسب تنوع موادها، وقبول الأعضاء واستعدادها، وهذا كله مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فأرشد عباده إلى إدخال مايقيم البدن من الطعام والشراب عِوَض ماتحلل منه، وأن يكون بقدر ماينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك؛ كان إسرافًا، وكلاهما: مانع من الصحة، جالب للمرض ـ أعني: عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه ـ فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلـهيتين. ولا ريب أن البدن دائمًا في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإن كثرة التحلل؛ تفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة؛ وإذا ضعفت الحرارة ضعف الهَضْم، ولايزال كذلك؛ حتى تفنى الرطوبة، وتنطفيء الحرارة جملة، فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه. فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره؛ حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار. وإنما غاية الطبيب: أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها. ويحمي الحرارة عن مضاعفاتها. ويعدِّل بينهما بالعدل في التدبير، الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السموات والأرض. وسائر المخلوقات إنما قوامها بالعدل.

ومن تأمَّل هدي النبي، ﷺ، وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها؛ موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن، والهواء والنوم واليقظة، والحركة والسكون، والمنكح والاستفراغ، والاحتباس.

فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة؛ كان أقرب إلى دوام الصحة، أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولما كانت الصحة والعافية من أجلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة؛ أجل النعم على الإطلاق. فحقيق بمن رزق حظًّا من التوفيق: مراعاتها، وحفظها، وحمايتها عما يضادها.

وقد روى البخاري في صحيحه: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»**.

وفي الترمذي وغيره: من حديث عبدالله بن محصن الأنصاري قال: قال

رسول الله، ﷺ: **«من أصبح معافىً في جسده، آمنًا في سِرْبه، عنده قُوت يومه؛ فكأنما حِيزتْ له الدنيا»**.

وفي الترمذي أيضًا: من حديث أبي هريرة، عن النبي، ﷺ؛ أنه قال: **«أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُرْوِكَ من الماء البارد؟»**، ومن ههنا؛ قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ**﴾ [التكاثر: ٨]. قال: عن الصحة.

وفي مسند الإمام أحمد: أن النبي، ﷺ، قال للعباس: **«ياعباس، ياعمَّ رسول الله، سَلِ الله العافية في الدنيا والآخرة»**.

وفيه عن أبي بكر الصديق قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: **«سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد ـ بعد اليقين ـ خيراً من العافية»**.

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا. ولايتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية. فاليقين؛ يدفع عنه عقوبات الآخرة. والعافية؛ تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه. وفي سنن النسائي: من حديث أبي هريرة يرفعه: **«سلوا الله العفو والعافية والمعافاة. فما أوتي أحد ـ بعد يقين ـ خيراً(١) من معافاة»**.

وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمَّن المداومة والاستمرار على العافية. وفي الترمذي مرفوعًا: **«ماسُئل الله شيئًا أحبَّ إليه من العافية»**. وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: «يارسول الله، لأنْ أُعافَىٰ فأشكرْ أحبُّ إليَّ من أن أُبْتَلَىٰ فأصبر. فقال رسول الله، ﷺ: **«ورسول الله يحب معك العافية»**.

ويذكر عن ابن عباس؛ أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله، ﷺ، فقال له: ماأسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: **«سل الله العافية»**. فأعاد عليه. فقال له في الثالثة: **«سل الله العافية في الدنيا والآخرة»**.

(٢) **أكمل** الناس لذة؛ من جمع له بين: لذة القلب والروح، ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لاينقص حظه من الدار الآخرة، ولايقطع عليه

---

(١) في الأصل (خير) والصواب نصبها. المراجع. (٢) ١٤٩ فوائد.

لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه، فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حرَّم زِينة اللهِ التي أَخرج لِعبادِه والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هي لِلَّذِيْن آمنُوا في الحياة الدُّنيا خالصةً يوم القيامة﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسهم حظًّا من اللذة؛ من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة؛ فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذهَبْتُمْ طيباتِكُم في حَياتِكُم الدُّنيا واستمتعتم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع: فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه، أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة؛ فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب؛ فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة، بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لابحكم مجرد الشهوة والهوى.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها؛ فليجعل مانقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون؛ لمن صح طلبه لله والدار الآخرة، وكانت همه لما هناك، وبئس القاطع؛ لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا؛ نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة؛ فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لاينقص حظه من الآخرة، ظفر بهما جميعًا، وإلا خسرهما جميعًا.

فصل (١)

وقد حرَّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ ربي الفَواحِشَ مَاظَهَرَ مِنْها وَمَابَطَنَ وَالإثـمَ وَالبَغي بِغيرِ الحقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتب المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم.

وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في: أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه، وشرعه.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولوا لِمَا تَصِفُ ألسنَتُكُم الكَذِبَ هٰذَا حَلاَلٌ وَهٰذَا حَرامٌ لِتفتروا على اللهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذِب لاَيُفْلِحونَ مَتاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ [النحل ١١٦، ١١٧]. فتقدَّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه؛ أنه لايجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام؛ إلا بما علم أن الله سبحانه أحَله وحرمه...

(١)**قوله** تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّم رَبِّيَ الفواحِشَ ماظهر منها ومابَطن والإِثمَ والبغي بِغير الحقِّ وأن تُشْرِكُوا باللهِ مالَم يُنزِّل به سُلْطانًا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لاتستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها. فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق؛ يدل على أنه هو العلة المقتضية له.

وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها؛ فدلَّ على أنه حرمها؛ لكونها فواحش، وحرم الخبيث؛ لكونه خبيثًا وأمر بالمعروف؛ لكونه معروفًا، والعلة يجب أن تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًّا عنه، وكونه خبيثًا هو معنى كونه محرمًا؛ كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمَّله.

وكذا تحريم الإثم والبغي؛ دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلاَتقربُوا الزِّنَىٰ إنَّه كَانَ فاحِشَةً وَسَاءَ

---

(١) ٧ مفتاح جـ٢.

سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي؛ لكان تعليلاً للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنىٰ فإنه يقول لكم: لا تقربوه أو فإنه منهي عنه وهذا محال من وجهين. **أحدهما**: أنه يتضمَّن إخلاء الكلام من الفائدة، والثاني: أنه تعليل للنهي بالنهي.

فصــــل (١)

وأما القول على الله بلا علم؛ فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا؛ ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولاتباح بحال؛ بل لاتكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال. فإن المحرمات نوعان: محرَّم لذاته لايباح بحال، ومحرَّم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت. قال الله تعالى في المحرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأعراف:٣٣]. ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾. ثم انتقل منه إلى ماهو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. ثم انتقل منه إلى ماهو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ﴾ فهذا أعظم المحرَّمات عند الله وأشدها إثمًا. فإنه يتضمن: الكذب على الله، ونسبته إلى مالا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ماأثبته وإثبات مانفاه، وتحقيق ماأبطله وإبطال ماحققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ماأبغضه وبغض ماأحبه، ووصفه بما لايليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفـر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذَّروا فتنتَهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك مالم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش،

(١) ٣٧٢ مدارج جـ١.

والظلم والعدوان؛ إذ مَضَرَّة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له؛ أشد.

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله. فقال: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسنتكم الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ**﴾ الآية [النحل: ١١٦]. فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ماوصف به نفسه؟

قال بعض السلف: لِيَحْذَرْ أحدكم أن يقول: أحلَّ الله كذا. وحرَّم الله كذا. فيقولَ الله: كذبتَ. لم أُحِلَّ هذا، ولم أُحَرِّم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر؛ هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودًا من دون الله: يقرّبه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم، دون العكس؛ إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله، ﷺ، موجبًا لدخول النار...

...[1]**الفائدة** الحادية عشرة: إذا نزلت بالحاكم أو المفتي النازلة:

فإما أن يكون: عالمًا بالحق فيها، أو غالبًا على ظنه؛ بحيث قد استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته، أو لا، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ولا غَلَبَ على ظنه؛ لم يحل له أن يفتي، ولا يقضي بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك؛ فقد تعرَّض لعقوبة الله.

ودخل تحت قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّما حرَّم رَبيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ مالم يُنَزِّلْ به سُلطانًا وَأَنْ تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُون**﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر. ودخل تحت قوله تعالى: ﴿**ولا تتبعوا حطوات الشيطان إِنَّهُ لكم عَدُوٌّ مبينٌ إنما يأمُرُكُم بالسُّوءِ والفحشاءِ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

---

(١) ١٧٣ أعلام جـ٤.

ودخل في قول النبي، ﷺ: «**من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه**». وكان أحد القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم في النار.

وإن كان قد عَرَف الحق في المسألة: علمًا، أو ظنًا غالبًا؛ لم يحل له أن يفتي ولايقضي بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة. وإذا كان مَنْ أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبًا لأعظم الكبائر، فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه؟

فالحاكم والمفتي والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله؛ فالحاكم مخبر منفذ، والمفتي مخبر غير منفذ، والشاهد مخبر عن الحكم الكوني القدري المطابق للحكم الديني الأمري؛ فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه؛ فهو كاذب على الله عمدًا: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِيْنَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ**﴾ [الزمر: ٦].

ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه، وإن أخبروا بما لم يعلموا؛ فقد كذبوا على الله جهلاً، وإن أصابوا في الباطن، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم في الإخبار به، وهم أسْوَأ حالاً من القاذف إذا رأى الفاحشة وَحْده فأخبر بها؛ فإنه كاذب عند الله وإن أخبر بالواقع؛ فإن الله لم يأذن له في الإخبار بها؛ إلا إذا كان رابع أربعة، فإن كان كاذبًا عند الله في خبرٍ مطابقٍ لمخبره حيث لم يأذن له في الإخبار به؛ فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به ولم يأذن له في الإخبار به؟

قال الله تعالى: ﴿**ولا تقولوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هذا حَلالٌ وهذا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِب إنَّ الذيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَيُفْلِحُوْنَ مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. وقال تعالى: ﴿**فَمَن أَظْلَمُ ممن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جَاءَهُ**﴾ [الزمر: ٣٢]. والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق والصدق. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْترىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا، أولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيقُولُ الأشهادُ هؤلآءِ الَّذين كذبوا على ربهم ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ**﴾ [هود: ١٨].

وهؤلاء الآيات وإن كانت في حق المشركين والكفار؛ فإنها متناولة لمن كذب على الله في توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطيء المأجور إذا

بذل جهده، واستفرغ وُسْعَهُ في إصابة حكم الله وشرعه، فإن هذا هو الذي فرضه الله عليه، فلا يتناول المطيع لله وإن أخطأ، وبالله التوفيق.

الفائدة الثانية عشرة: حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسِنَة: لسان الراوي، ولسان المفتي، ولسان الحاكم، ولسان الشاهد.

فالراوي يظهر على لسانه لفظ حكم الله ورسوله. والمفتي يظهر على لسانه معناه وماستنبطه من لفظه. والحاكم يظهر على لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه. والشاهد يظهر على لسانه الإخبار بالسبب الذي يُثْبِت حكم الشارع.

والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم، فيكونوا عالمين بما يخبرون به، صادقين في الإخبار به، وآفة أحدهم الكذب والكتمان، فمتىٰ كتم الحق أو كذب فيه؛ فقد حادّ الله في شرعه ودينه، وقد أجرى الله سنته أن يَمْحق عليه بركةعلمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك.

كما أجرى عادته سبحانه في المتبايعين إذا كَتَما وكذبا؛ أن يمحق بركة بيعهما، ومن التزم الصدقَ والبيان منهم في مرتبته؛ بورك له في علمه ووقته ودينه ودنياه، وكان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا، فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه، وبالكذب يقلبه عن وجهه، والجزاء من جنس العمل، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم، الذي يلبسه أهل الصدق والبيان، ويلبسه ثوب الهوان والمَقْت والخِزْي بين عباده، فإذا كان يوم القيامة جازىٰ الله سبحانه مَنْ يشاء من الكاذبين الكاتمين بطَمْس الوجوه ورَدِّها على أدبارها، كما طَمَسُوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه؛ جزاء وفاقًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

(١)**وقال** تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أو كَذَّب بآياتِه أولَٰئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الكِتَابِ﴾[الأعراف: ٣٧].

قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي ماسبق لهم في الكتاب من الشقاوة

---

(١) ٤٢ شفاء.

والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿فريقًا هدىٰ وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾.

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ماكتب لهم من الشقاوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء. قال: يريد ماسبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول؛ الكتاب الأول. ونصيبهم؛ ماكتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد والقرطبي والربيع بن أنس: ينالهم ماكتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه؛ جاءتهم رسلنا يتوفونهم. ورجح بعضهم هذا القول؛ لمكان «حتى» التي هي للغاية. يعني: أنهم يستوفون أرزاقهم وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول: حتى في هذا الموضع؛ هي التي تدخل على الجمل، وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء كما في قوله:

* فياعجبا حتى كليبٌ تسبني *

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين:

فهو نصيبهم من الشقاوة ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه. هذا على القول الصحيح، وأن المراد: ماسبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب: ماأخبر الله من جزائهم: نحو قوله: ﴿فَأَنْذَرتُكُم نارًا تَلظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿يسلكه عذابًا صعدا﴾.

قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر؛ لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع، ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح: القول الأول، وهو: نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا، ولهذا القول وجه حسن وهو: أن نصيب المؤمنين منه الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء منه العذاب والشقاء: فنصيب كل فريق منه مااختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظَّ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه

الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به. . . .

قال الحسن: تجعلون حظَّكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لايكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به.

(١)**قال** تعالى: ﴿**فَمَن أظْلَمُ مِمَّن افْترىٰ على اللهِ كذِبًا أو كَذَّبَ بآياته أولٰئك ينـالهم نَصيبهم من الكتاب حتى إذَا جَاءَتهم رُسُلُنَا يَتوَفَّونَهُم قَالُوا أيْنَ مَاكُنْتم تَدعون من دُونِ الله قالوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلىٰ أنْفُسِهم أنَّهُم كانوا كَافِرِيْن قَالَ ادخلُوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُم مِّنَ الجِنِّ والإِنْسِ في النَّار كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُختهَا حَتى إذا ادَّارَكُوا فِيْها جَمِيْعًا قَالَتْ أُخْراهم لأُولاهُم رَبَّنا هٰؤُلآءِ أضلُّونا فَآتِهم عَذابًـا ضِعْفًـا من النَّارِ قَالَ لكل ضِعفٌ ولكن لاتعلمُون وقَالَتْ أُولاهم لأخـراهم فَما كانَ لكُمْ عَلَيْنـا من فضـلٍ فَذُوقُـوا العَذَابَ بِما كُنْتُم تَكْسِبوْنَ**﴾ [الأعراف: ٣٧ - ٣٩]. فليتـدبـر العـاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر، وقوله: ﴿**افترىٰ على الله كذبًا أو كذب بآياته**﴾، ذكر الصنفين المبطلين.

أحدهما: منشيء الباطل والفرية، وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق. فالأول كفره بالافتراء وإنشاء الباطل. والثاني كفره بجحود الحق. وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق؛ استحق تضعيف العذاب لتضاعف كفره وشره؛ ولهذا قال الله تعالى: (٢)﴿**الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سبيلِ اللهِ زِدْنَاهُم عَذابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِما كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل: ٨٨]، فلما كفروا وصدُّوا عباده عن سبيله؛ عذبَّهم عذابين: عذابًا بكفرهم، وعذابًا بصدِّهم عن سبيله. وحيث يذكر الكفر المجرد لايعدد العذاب كقوله: ﴿**والكَافِرُونَ لَهُم عَذَابٌ شَدِيْدٌ**﴾(٣) [الشورى: ٢٦] وقوله: ﴿**أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**﴾ يعني: ينالهم ماكتب لهم في الدنيا

---

(١) ٣٦ الرسالة التبوكية.　　(٢) في المطبوعة هكذا ﴿إن الذين . .﴾ والصواب حذف [إن]. المراجع.

(٣) في المطبوعة ﴿عذاب أليم﴾ والصواب ما أثبتناه. المراجع.

من الحياة والرزق وغير ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُم رُسُلُنَا يَتَوفَّونَهُم قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُم تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أين ما كنتم توالون فيه وتعادون فيه وترجونه وتخافونه من دون الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهُم كَانُوا كافِرِينَ قَال ادْخُلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ربنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدُّونا عن طاعة رسلك، ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿لكل ضعف﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره: ﴿ولكن لاتعلمون﴾ لاتعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتِّباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين؟ فأي فضل كان لكم علينا؟ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ فلله ماأشفاها من موعظ! وماأبلغها من نصيحة! لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر.

(1)**الطبقة** السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعًا لهم يقولون: إنَّا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم؛ ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار؛ وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا مايحكى عن بعض أهل البدع؛ أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة

(١) ٤١١ طريق الهجرتين.

المسلمين: لا الصحابة، ولا التابعين، ولا من بعدهم؛ وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صحّ عن النبي، أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربى والمنشأ على ماعليه الأبوان.

وصح عنه أنه قال، ﷺ: «**إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة**»، وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لايخرج عن الإسلام أو الكفر، وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين. وقد تقدَّم الكلام عليهم.

والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل، فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهّال غير معاندين، وعدم عنادهم لايخرجهم عن كونهم كفّارًا، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله: إما عنادًا، أو جهلاً وتقليدًا لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند؛ فهو متبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿**رَبَّنا هٰؤلاَءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذابًا ضِعْفًا مِنَ النَّار قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لاتَعْلَمُون**﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَتحاجُّونَ في النَّار فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلذينَ اسْتَكبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ قالَ الَّذِينَ استَكْبروا إِنَّـا كُلٌّ فيهـا إن الله قد حَكَمَ بَيْنَ العِبـادِ**﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إذ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ القَوْلَ يَقُولُ الَّذِين استضعفُوا لِلَّذين استكبروا لولا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين قال الذين اسْتَكْبروا للذِينَ استُضْعِفُوا أَنحنُ صددناكُم عَنِ الهُدَى بعد إِذْ جاءَكُم بلِ كُنتمْ مُجْرمِين وقال الذين استُضعِفوا لِلذِين اسْتكبروا بل مَكْرُ الليلِ والنَّهار إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ باللهِ وَنَجْعَلَ له أَنْدادًا**﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبعوا وَرَأَوا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ وَقالَ الَّذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فنتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّءوا مِنَّا**﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وصح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لاينقص من أوزارهم شيئًا**» وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم؛ إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله. وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لايتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما: مريد للهدى، مؤثر له، محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه؛ لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولايحدث نفسه بغير ماهو عليه.

فالأول يقول: يارب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ماأنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ماأنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه، لايؤثر غيره عليه ولاتطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لايجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق.

فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به؛ فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً.

والثاني كمن لم يطلبه؛ بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله،

ولايعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا؟ فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه؛ بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب.

وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة، وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَماكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿**كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مانَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الملك: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿**يامَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ ويُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنا عَلَى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول، وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالى: ﴿**وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ [الزخرف: ٧٦].

والظالم من عرف ماجاء به الرسول أو تمكّن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ماجاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض،

والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لايفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لايسمع شيئًا ولايتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لايخل بها، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة، وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف مافي كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿**لايُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وهُم يُسأَلُون**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿**لا يسأل عما يفعل**﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد ولكن، لايريد أن يفعل إلا ماهو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته؛ لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاتُفَتَّحُ لَهُم أَبْوابُ السَّمَآءِ**﴾ [الأعراف: ٤٥]، وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا

---

(١) ٢٣٥ الروح.

التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت كما تقدَّم في الأحاديث المستفيضة: أن السماء تفتح لروح المؤمنين حتى يُنتهى بها إلى بين يدي الرب تعالى. وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولاتفتح لجسده أبواب الجنة.

(١) **روى** مسلم في صحيحه. من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: عن النبي، ﷺ، قال: «**ينادي منادٍ أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**» وذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَنودوا أن تِلْكُمُ الجنَّة أُورِثْتُمُوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ الأعراف: ٤٣].

قال عثمان بن أبي شيبة: حدَّثنا يحيى بن آدم: حدثنا حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن الأغر، عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن النبي، ﷺ: ﴿**ونُودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ قال: «**نودوا أن صحوا فلا تسقموا أبدًا واخلدوا فلا تموتوا أبدًا، وأنعموا فلا تبأسوا أبدًا**».

. . .(٢) **وأحسن** مايقع هذا الاعتراض إذا تضمَّن تأكيداً أو تنبيهًا أو احترازًا، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَنُكَلفُ نَفْسًا إلاَّ وُسعَهَا أُوْلَئِكَ أصْحَابُ الجنَّةِ هُم فِيْها خَالِدُوْنَ**﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿**لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا**﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿**لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسعَهَا**﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر. فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لايخص الذين آمنوا؛ بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسًا منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلوْنَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانه وَلَهُم مَّايَشْتَهُون**﴾ [النحل: ٥٧]، فاعترض بقوله: ﴿**سبحانه**﴾ بين الجعلين، وفوائد

---

(١) ١٦٥ الروح. (٢) ١٣٨ تبيان.

الاعـتراض تختلف بحسب قصـد المتكلم وسياق الكـلام، ومن قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدَّر وغير ذلك.

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن البـاخلين ـ وأنت منهم ـ		رأوك تعـلمـوا منـك المـطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجـره يبدو ـ وفي اليأس راحة ـ		ولا وصـله يصفـو لنـا فنكـارمـه

فقوله: وفي اليأس راحة؛ جواب لتقدير سؤال سائل ومايغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعـمـت بنـو جعـد بأني		ـ وقـد كذبـوا ـ كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت ـ ولم أخلق من الطير ـ إن بدا		سنـا بارق نحـو الحجـاز أطـير

فقوله: ولم أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير، فيقال له: وهل خلقت من الطير، فاحترز بهذا الاعتراض، وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه فتأمَّله.

ومن مواقع الاعتراض: الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنـت أبـكـي وأنـت راضية		حذار هذا صدود والـغـضـب

إن تم ذا الهـجـر ياظلوم ـ ولا		تم ـ فما لي في العيش من أرب

(١)**المـرتبـة** الـرابعـة الهـداية في الآخـرة إلى طريق الجنـة والنـار. قال

---

(١) ٨٥ مفتاح جـ١.

تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُم وَمَاكَانُوا يَعبُدونَ مِنْ دُونِ الله فاهْدُوهم إلى صِرَاطِ الجَحِيْم﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿الحَمْد لله الَّذِي هَدَانا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتدي لَوْلَا أَنْ هَدانَا الله﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل: أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ.

. . .(١)**الصنف** الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لايقوم بالرب، ولايرجع إليه؛ بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ونُودوا أنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورِثْتُمُوهَا بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿ادْخلوا الجنَّة بما كُنْتُم تَعْمَلُون﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿هل تجزون إلا ماكنتم تعملون﴾ [النمل: ٩٠]. وقوله، ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل: «**ياعبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**». وقوله تعالى: ﴿إنَّما يُوفَّى الصَّابِرُوْن أجرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا؛ لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل؛ لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلُّق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى، وقد قال تعالى: ﴿والْوَزْنُ يومَئِذٍ الحقُّ فمن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ومَنْ خفَّتْ مَوازِيْنُه فأُولَئِكَ الَّذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم بما كَانوا بِآياتنا يَظلمون﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة، وجوزت أن يعذب الله من

---

(١) ٩٢ مدارج جـ١.

أفنى عمـره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضـل درجـات، والكـل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقـدرية أوجبت على الله سبحـانـه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله، ماأجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه مايعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له؛ من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب. وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنِّه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحَبَّبها إليه، وزَيَّنها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصْحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها؛ فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم؛ لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي، ﷺ.

ولهذا نفى النبي، ﷺ، دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عملُه**». وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». وفي لفظ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

و أثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ادْخُلوا الجَنَّة بما كُنتم تَعْمَلون﴾ [النحل: ٣٢] ولاتنافي بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفيُّ استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا، وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة، ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِنَّته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلَّب أحد قط إلا في منته؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسْلَمُوا، قُلْ لاتَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكُم لِلإيْمانِ إنْ كُنْتم صَادِقِيْنْ﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال مِنة المخلوق؛ إنما كانت نقصًا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلَى عليه، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله، ﷺ، المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أَمَنُّ» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلَّب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم؛ بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على مافيها؟ وهذا هو المعنىٰ الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بما كنتم تعملون﴾. فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك، وأدلة المعقول

والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبينً لمن له قلب ولب؛ مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلًا وآجلًا، وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل؛ بل أنواعًا، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**الطبقة** الثانية عشرة: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة. **فهؤلاء** هم أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف ـ بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار ـ فقال تعالى: **﴿وبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الأَعْرافِ رجالٌ يعرفون كُلًّا بسيماهُمْ ونادَوْا أَصْحاب الجَنَّةِ أَنْ سلامٌ عليكم لم يدخلُوها وهم يطمعون وإذا صُرِفَتْ أبصارُهُم تلقاء أصحابِ النار قالُوا رَبَّنا لاتجْعلنا مع القوم الظالمين﴾** [الأعراف: ٤٦، ٤٧]. فقوله تعالى: **﴿وَبَيْنَهُما حِجابٌ﴾** أي: بين أهل الجنة والنار حجاب.

قيل: هو السور الذي يضرب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب: باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهتهم العذاب، والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبدالله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك

---

(١) ٣٨١ طريق الهجرتين.

حتى يقضي الله فيهم مايشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته.

قال عبدالله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدِّث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة؛ دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة؛ دخل النار، ثم قرأ قوله تعالى: **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينه فأولـئك هُمُ المُفْلِحون ومَنْ خَفَّت موازينهُ فأولـئك الـذين خَسِرُوا أنْفُسهم﴾** [الأعراف: ٨، ٩]. ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: **﴿سلام عليكم﴾**، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: **﴿رَبَّنا لاتَجْعَلنا مع القوم الظّالمين﴾** [الأعراف: ٤٧]، فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: **﴿رَبَّنا أَتْمِم لَنا نُورَنا﴾** [التحريم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من أيديهم، فيقول الله: **﴿لَمْ يدخلُوها وهم يَطْمعون﴾** [الأعراف: ٤٦] فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً. يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار. **وقيل**: هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا، فأعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم، وهذا من جنس القول الأول. **وقيل** هم قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة. وهي من جنس ماقبله فلا تناقض بينهما. **وقيل**: هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين.

وقيل: هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعًا.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم. والثابت عن الصحابة هو القول الأول.

وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها، وآثار الصحابة في ذلك؛ المعتمدة. وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين: الأول: اختيار أبي عبدالله الحاكم، والثاني هو الصواب، ولا نقول على رسول الله، ﷺ، ما لم نعلم أنه قاله.

وقوله تعالى: ﴿**وعلى الأعراف رجال**﴾ صريح في أنهم من بني آدم، ليسوا من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿**يعرفون كُلًّا بسيماهُمْ**﴾ يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم. ﴿**ونَادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكُمْ**﴾ أي: نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام، وقوله تعالى: ﴿**لم يَدْخُلوها وهُمْ يَطْمَعون**﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم.

وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى مايطمعون، وفي هذا رد على قول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة، وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿**وإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا رَبَّنا لا تَجعلنا مع القوم الظالمين**﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة؛ نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها. وإذا أشرفوا على أهل النار؛ سألوا الله أن لايجعلهم معهم. ثم قال تعالى: ﴿**ونادىٰ أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونَهُم بِسِيماهُم**﴾ يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿**ماأَغْنَىٰ عَنكُم جَمْعُكم وما كُنْتُمْ تَستكبِرون**﴾ [الأعراف: ٤٨]. يعني مانفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولااستكباركم، وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم، ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفّار يسترذلونهم في الدنيا ويزعمون أن الله لايختصهم دونهم بفضله كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿**أهؤلآء الذين أَقْسَمتُم**﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لاينالهم برحمة، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿**ادخلوا الجنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم ولا**

أَنْتُم تَحْزَنُون﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لاينالهم برحمة، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار؛ فتقول لهم الملائكة حينئذ: ﴿أَهٰؤُلآءِ الَّذِين أَقْسَمْتُمْ لايَنالُهُمُ الله بِرَحْمَة ادْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُون﴾ والقولان قويَّان محتملان والله أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكُم الله الَّذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ في سِتَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العرش يُغشِي الَّليْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثًا والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجوم مسخرات بأمره ألا له الخَلْق والأَمْر تبارك الله ربُّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها متنقلاً.

قيل: إنها لو كانت كلها راتبة؛ لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها، ولو كانت كلها منتقلة؛ لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها؛ لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختل نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها: ولتشبث المعطل بذلك وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختارًا؛ لم تكن على وجه واحدٍ وأمر واحد وقدر واحد. فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

(٢)**قوله**: ﴿الرَّحْمٰنُ على العرش اسْتَوىٰ﴾ [طه: ٥] في سبع آيات من القرآن حقيقة عند جميع فرق الأمة. إلا الجهمية ومن وافقهم فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه، والمشهور عنهم ماحكاه الأشعري عنهم وبدَّعهم وضلَّلهم فيه: بمعنىٰ استولى أي: ملك، وقهر.

وقالت فرقة منهم: بل معنى قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر وجهًا، كلها

---

(١) ٢١١ مفتاح جـ١. (٢) ١٢٦ مختصر الصواعق جـ٢.

لايعلم أيها المراد، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل.

هذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهًا.

أحدها: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان مطلق، ومقيد.

فالمطلق: مالم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿ولمَّا بلَغَ أشدَّه واستوىٰ﴾ وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوى النبات، واستوى الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها مقيد بإلى كقوله: ﴿ثُمَّ استوى إلى السَّماء﴾ واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي خلق لكم مافي الأرض جميعًا ثُمَّ استوى إلىٰ السَّماء﴾ [البقرة: ٢٩]، والثاني في سورة فصلت[1]: ﴿ثُمَّ استوى إلى السَّماء وهي دُخَان﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف كما سنذكره، ونذكر ألفاظهم بعد إن شاء الله.

والثاني: مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَووا علىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿واسْتَوت عَلَى الجُودِي﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فاسْتَوَى عَلىٰ سُوقِهِ﴾ [الحجرات: ٢٦]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو (مع) التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة بمعنى: ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنى استولى ألبتة ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية يوضحه:

الوجه الثاني أن الذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلاً فإنه مجاهرة بالكذب؛ وإنما قالوه استنباطًا وحملاً منهم للفظة استوى، على استولى واستدلوا بقول الشاعر.

قد استوى بشر على العراق — من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب كما سيأتي بيانه.

---

(١) في المطبوعة «السجدة» والصواب ماأثبتناه. المراجع.

الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب. قال ابن الأعرابي، وقد سئل: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك، وهذا هو من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع: ماقاله الخطابي في كتابه: شعار الدين. قال: القول في أن الله مستوٍ على عرشه. ثم ذكر الأدلة في القرآن ثم قال: فدل ماتلوته من هذه الآي: أن الله تعالى في السماء مستوٍ على العرش. وقد جرت عادة المسلمين خاصهم وعامهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه، ويرفعوا أيديهم إلى السماء؛ وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن المدعو في السماء سبحانه(١).

. . .(٢)**الوجه** الخامس والعشرون: أنه لو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر؛ لجاز أن يقال: استوى على ابن آدم، وعلى الجبل، وعلى الشمس والقمر، وعلى البحر والشجر والدواب، وهذا لايطلقه مسلم.

فإن قيل: هذا جائز وإنما خصص العرش بالذكر؛ لأنه أجل المخلوقات وأرفعها وأوسعها فتخصيصه بالذكر، تنبيه على مادونه.

قيل: لو كان هذا صحيحًا لم يكن ذكر الخاص منافيًا لذكر العام. ألا ترى أن ربوبيته لما كانت عامة للأشياء لم يكن تخصيص العرش بذكره منها كقوله: ﴿**رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [المؤمنون: ٨٦] مانعًا من تعميم إضافتها كقوله: ﴿**رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤] فلو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر؛ لكان لم يمنع إضافته إلى العرش إضافته إلى كل ماسواه، وهذا في غاية الظهور.

الوجه السادس والعشرون: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر؛ عاد معنى هذه الآيات كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض، ثم غلب العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه، أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراده بقوله: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ أي: اعلموا ياعبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت

---

(١) استمر المؤلف في سردها في المختصر لمن أرادها، وسنذكر منها ما سيمر بك قريبًا، هدى الله الجميع إلى الصراط المستقيم. ج.

(٢) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

عرشي وقهرته واستوليت عليه.

الوجه السابع والعشرون: أن أعلم الخلق به قد أطلق عليه أنه فوق، عرشه كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: «**الله فوق العرش**» وفي حديث عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، الذي صححه ابن عبدالبر وغيره.

وأن العرش فوق الماء طاف		وفوق العرش رب العالمين

وهذه الفوقية هي[1] تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة.

والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والمعنى عندهم: أنه أعلم الأمة بأن الله خير وأفضل من العرش.

فيا للعقول أين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أو كناية واستعارة بعيدة أن يقال: استوى على كذا إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل، هذا من لغة الطماطم، لا من لغة القوم الذين بعث فيهم رسول الله، ﷺ، وكتاب الله لايحتمل هذا التأويل الباطل الذي تنفر عنه العقول...

...[2]**الوجه** الثلاثون: أن الاستيلاء الذي فسروا به الاستواء:

إما أن يراد به الخلق أو القهر أو الغلبة أو الملك أو القدرة عليه ولايصح أن يكون شيء منها مرادًا.

أما الخلق فلأنه يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف مادلَّ عليه القرآن والسنة وإن أدَّعىٰ بعض الجهمية المتأخرين: أنه خلق بعد خلق السموات والأرض، وادَّعىٰ الإجماع على ذلك.

وليس العجب من جهله؛ بل من إقدامه على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم، ولايصح أن يراد به بقية المعاني للوجوه التي ذكرناها وغيرها، فلا يجوز تفسير الآية به؛ ولهذا لم يقله عالم من علماء السلف؛ بل صرَّحوا بخلافه كما قال أبو العالية: علا وارتفع، وقال مجاهد: استقر، وقال مالك: الاستواء معلوم. وقال يزيد بن هارون: من زعم أن الرحمن فوق العرش استوى، على خلاف مايقر في

---

(١) في المطبوعة «هو» والصواب ما أثبتناه. المراجع.		(٢) ١٤٣ الصواعق جـ٢.

قلوب العامة فهو جهمي، وقد تقدَّم حكاية قول من قال: استوى بذاته، واستوى حقيقة، فأوجدونا عمن يقتدى بقوله في تفسير، أو عن رجل واحد من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو عن إمام له في الأمة لسان صدق أنه فسر اللفظ باستولىٰ، ولن تجدوا إلى ذلك سبيلاً. . .

. . .[1]**وقد** صرَّح أئمة العربية: بأن الشيء إنما يجوز حذفه؛ إذا كان الموضع الذي ادَّعىٰ فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، فلابد أن يكون موضع ادِّعاء الحذف قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، حتى إذا جاء ذلك محذوفًا في موضع علم بكثرة ذكره في نظائره أنه قد أزيل في هذا الموضع فحمل عليه، فهذا شأن من يقصد البيان، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر.

مثال ذلك قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿ثم استوى على العرش﴾ [يونس: ٣]، في جميع موارده من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ، فتأويله باستولىٰ باطل، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ استولىٰ، ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى، فتفطن لهذا الموضع، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم، ويجوز تأويله.

ونظير هذا اطِّراد النصوص بالنظر إلى الله تعالى هكذا: «ترون ربكم»، «تنظرون إلى ربكم»، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، ولم يجيء في موضع واحد: ترون ثواب ربكم، فيحمل عليه ماخرج عن نظائره.

ونظير ذلك اطِّراد قوله: ﴿ونَادَيْنَاهُ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿يُنَادِيهِم﴾ [القصص: ٦٢، ٦٥] ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾[الأعراف: ٢٢] ﴿وَمَا كُنْتَ بجانِبِ الطُّور إِذْ نادينا﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّه﴾ [النازعات: ١٦]، ونظائرها، ولم يجيء في موضع واحد: أمرنا من يناديهم، ولا: ناداه ملك، فتأويله بذلك عين المحال.

ونظير ذلك قوله، ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول» في نحو ثلاثين حديثاً. كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب تعالى. ولم يجيء موضع واحد بقوله: ينزل ملك ربنا، حتى يحمل ماخرج عن نظائره عليه.

---

(١) ٦٨ مختصر الصواعق جـ١.

وإذا تأمَّلت نصوص الصفات التي لاتسمح الجهمية بتسميتها نصوصًا، وإذا احترموها قالوا: ظواهر سمعية، وقد عارضها القواطع العقلية، وجدتها كلها من هذا الباب. ومما يقضي منه العجب أن كلام شيوخهم وتصنيفهم عندهم نص في مرادهم لايحتمل التأويل وكلام الموافقين عندهم نص لايجوز تأويله، حتى إذا جاءوا إلى كلام الله ورسوله وقفوه على التأويل. . .

(١)**قوله** عز وجل: ﴿**ادعُوا ربَّكُم تَضرُّعًا وخُفية إنَّه لايُحبُّ المُعْتَدين ولاتُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوْفًا وطَمَعاً إن رَحمَةَ اللهِ قريبٌ منَ المحسنين**﴾ [الأعراف: ٥٥ - ٥٦]. هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعها، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو: طلب ماينفع الداعي، وطلب كشف مايضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًا، والمعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر.

ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لايملك ضرًا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لايضرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ**﴾ [يونس: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُون الله**(٢) **مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَ لاَيَضرُّكَ**﴾ [يونس: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أتعبدونَ من دُونِ اللهِ مَا لاَ يَملِكُ لَكُم ضَرًا ولا نَفعًا والله هو السميعُ العليمُ**﴾ [المائدة: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿**أَفتعبدُونَ مِن دُونِ الله ما لا يَنْفعُكُم شيئًا ولا يَضرُكم أُفٍّ لَكُم ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله**﴾. [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿**وَآتلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتَعْبُدونَ قَالُوا نَعْبُد أصنامًا فنظلُّ لها عاكفينَ قَال هل يسمعونَكُم إذ تَدْعُون أو ينفعونَكُم أو يَضرُّون**﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿**واتَّخذوا مِنْ دُونه آلهةً لاَّ يخلقُونَ شَيئًا وهُمْ يُخْلقونَ وَلاَ يَمْلِكونَ لأَنْفُسِهِم ضرًا ولا نفعًا ولايملكون موتًا وَلاَ حياةً ولانُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣]. وقال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُوْنَ مِنَ دُونِ اللهِ مَالاَ**

(١) ٢ بدائع جـ٣.

(٢) في المطبوعة (ولاتدع من دونه) والصواب ماأثبتناه. المراجع.

يَنْفَعُهم وَلاَ يَضرُّهُم وكان الكَافِرُ علىٰ ربِّهِ ظَهيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدِّي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير تبين أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله تعالى: **﴿وَإذا سأَلَك عِبادي عَنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له.

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدًا هي من هذا القبيل.

ومثال ذلك قوله: **﴿أقِمِ الصَّلاة لِدُلوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليل﴾** [الإسراء: ٧٨] فسر الدلوك بالزوال، وفسر بالغروب، وحُكيا قولين في كتب التفسير، وليسا بقولين؛ بل اللفظ يتناولهما معًا فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهىٰ فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه.

ومثاله أيضًا ماتقدَّم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وأن ذلك ليس باختلاف؛ بل يتناولهما لتلازمهما؛ فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله عز وجل: **﴿قُلْ مَايَعْبَأُ بكم ربي لَولا دُعاؤُكُم﴾** [الفرقان: ٧٧]. قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته؛ فيكون المصدر مضافًا إلى المفعول، وعلى الأول مضافًا إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين؛ وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر أي: مايعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجِب لكم﴾** فالدعاء

يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿**إِنَّ الذين يَسْتَكِبرون عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلون جَهَنَّم دَاخِرِيْنَ**﴾ [غافر: ٦٠]، فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وقد روى سفيان، عن منصور، عن ذر[1]، عن نسيع الكندي، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول على المنبر: «**إنَّ الدعاء هو العبادة** ثم قرأ: ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وأما قوله تعالى: ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له**﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقوله: ﴿**إن يدعون من دونه إلا إناثًا**﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿**وضلَّ عنهم ماكانوا يدعون من قبل**﴾ [فصلت: ٤٨] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها أنهم قالوا: ﴿**ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ [الزمر: ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخر بأنه العبادة كقوله: ﴿**وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**﴾ [الشعراء: ٩٢] وقوله: ﴿**إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله: ﴿**قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون**﴾ [الكافرون: ١، ٢] وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث أنهم كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله تعالى: ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [غافر: ١٤] هو دعاء العبادة والمعنى: اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته، لاتعبدوا معه غيره، وأما قول إبراهيم الخليل، ﷺ: ﴿**إن ربي**

---

(١) هكذا بالنسخة، وفي تفسير البغوي، عن أبي ذر. ج.

لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول: دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقيًا﴾ [مريم: ٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا، فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا وقضىٰ حاجته، وهذا ظاهر ههنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ماسأله.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيًّا مَّاتدعوا فله الأسماءُ الحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول. قالوا: كان النبي، ﷺ، يدعو ربه فيقول مرة: «ياالله» ومرة: «يارحمن» فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: سمع المشركون النبي، ﷺ، يدعو في سجوده: «يارحيم» فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وادعه بعبد الله ونحوه. والمعنى: سموا الله، أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: ﴿أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فإن المراد بتعدده معني أي وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنىٰ، أي: فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى. والضمير في له يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل

المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب؛ بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب؛ فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في تدعوا معنى: تسموا فتأمله.

والمعنى أيًا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿**إنَّا كُنَّا من قبلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيمُ**﴾ [الطور: ٢٨] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنَّا كنا من قبل نخلص له العبادة؛ وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره؛ فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿**ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ لن نَّدْعُوَا من دُونِهِ إلـهًا**﴾ [الكهف: ١٤] أي: لن نعبد غيره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**أتدعون بعلاً وتذرون أحسنَ الخالقين**﴾ [الصافات: ١٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿**وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ [القصص: ٦٤] فهذا من دعاء المسألة، يبكتهم الله عزوجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لايستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿**ويومَ يقولُ نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم**﴾ [الكهف: ٥٢]وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة، وأنها: هل نقلت عن مسماها في اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي؟ أو هي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط؟ وعلى ماقررناه لا حاجة إلى شيء من ذلك. فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لاينفك عن دعاء إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله. إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعًا وخفية**﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء؛ لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا

أمر بإخفائه وإسراره. قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ومايسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿**ادعوا ربكم تضرعًا وخفية**﴾، وأن الله ذكر عبدًا صالحاً ورضي بفعله فقال: ﴿**إذ نادى ربه نداء خفيًا**﴾ [مريم: ٣] وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ ولهذا لاتخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار مايسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ولله المثل الأعلىٰ. فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرُّع والخشوع الذي هو روح الدعاء. ولبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل الضارع، إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه وذلت جوارحه، وخشع صوته حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لايتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته؛ كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًا: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنىٰ سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿**إذ نادى ربه نداء خفيًا**﴾ فكلما استحضر القلب؛ قُرْبَ الله تعالى منه وأنَّه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك؛ أخفى دعاءه ماأمكنه،

ولم يتأتَ له رفع الصوت به بل؛ يراه غير مستحسن كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت؛ استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي، ﷺ، إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح؛ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر فقال: «**أربعوا على أنفسكم إنكم لاتدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**» وقال تعالى: ﴿**وَإذا سَألكَ عِبادِي عَني فإني قريبٌ أُجيب دعوة الدَّاع إذا دَعانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا يارسول الله: ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لايحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادى، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده. وأقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه؛ بل هو قرب خاص من الداعي والعابد.

كما قال النبي، ﷺ، راويًا عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً**». فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالى: ﴿**وَإذَا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الدَّاع إذا دَعانِ**﴾. وقوله: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وخُفيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب (التحفة المكية)[1] على أن العبارة تنبو عنه، ولاتحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا؛ لكن بحسب قوة المحبة وضعفها؛ يكون تصديق العبد بهذا القرب.

وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها؛ فتزل قدم بعد ثبوتها. وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء

---

(١) المؤلف يطلق التحفة المكية على مفتاح دار السعادة وعلى روضة المحبين انظر ص٤٧ من المفتاح (ج).

تعبيرهم؛ فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح.

وقابلهم من غلظ حجابه؛ فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء في كتاب (التحفة) أكثر من مائة طريق[1]، والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية.

وسابعها: أنه أدعىٰ إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لايمل، والجوارح لاتتعب بخلاف ماإذا رفع صوته؛ فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته، فإنه لايطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد؛ فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس؛ فشوشت عليه ولابد ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه؛ أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم: الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لايقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿**لَاتقصُص رُؤياكَ عَلى إخْوَتِك فَيكيدُوا لَكَ كَيْدًا إنَّ الشَّيْطَان للإنسَان عَدُوٌّ مُّبِين**﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدَّث بها وأخبر بها. فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه؛ ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لايطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

---

(١) هذه الإحالة تنطبق على روضة المحبين (ج).

من سارروه فأبدى السر مجتهدا		لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعـــدوه فلم يظفـــر بقـربهم		وأبـدلـوه مكان الأنس إيحاشًا
لايأمنـون مذيعًا بعض سرهم		حاشـا ودادهم من ذلكم حاشا

والقـوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتديء والسالك فإذا تمكَّن أحدهم وقوي، وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبـه، بحيث لايخشى عليه من العواصف؛ فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الـدعـاء المـأمور بإخفائه، يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب.

كما قال النبي، ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**» فسمي الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن: الحب، والثناء.

والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما.

فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ماقيل: إن الذاكر متعرِّض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرُّض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكـــر حاجتي أم قد كفـــاني		حبـــاؤك إن شيمتـــك الحبـاء
إذا أثـنىٰ عليك المـــرء يومًـــا		كفـــاه من تعـــرضـــه الثنـــاء

وعلى هذه الـطريقـة التي ذكـرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة؛ بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر؛ يتضمن الآخر ويدخل فيه.

وقد قال تعالى: ﴿**وَاذكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضرُّعًا وَخِيفَةً ودُون الجَهر من القـول**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد، وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرُّع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح.

وقـد تقـدَّم حديث أبي موسى: كنـا مع النبي، ﷺ، في سفر فارتفعت أصـواتنا بالتكبير فقال: «**يأيها الناس أربعوا**[1] **على أنفسكم؛ فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿**وَاذْكر ربَّك في نفسِكَ تضرُّعًا وخِيفَةً**﴾.

وفي آية الدعاء: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ فذكر التضرُّع فيهما معًا وهو التذلُّل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف؛ فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته.

والمحبـة مالم تقـرن بالخوف؛ فإنها لاتنفع صاحبها، بل قد تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط. وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات: إنَّما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود؛ فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدَّثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه، فقال له: بلىٰ. فقال له: فقلب المريد أعزعليه من ضياع عشرة دراهم، أو كما قال، وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه؛ عذر مسقط للجمعة في حقه، فقال له: هذا غرور؛ بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعىٰ حفظ قلبه، أو كما قال.

---

(١) أربعوا: أي: أرفقوا.

فتأمل هذا الغرور العظيم. كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك؛ انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة. وسبب هذا؛ عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: من عبدالله بالحب وحده: فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده؛ فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف فهذه طريقة عباده وأوليائه. وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول المحب لايضره ذنب.

وصنف بعضهم في ذلك مصنفًا، وذكر فيه أثراً مكذوباً: إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب. وهذا كذب قطعًا مناف للإسلام؛ فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن.

ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ؛ وأما عن رسول الله، ﷺ، فمعاذ الله من ذلك، فله[1] محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إيَّاه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبًّا لله، وإذا لم يصر على الذنب؛ بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يمحا أثره ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب إلى الله؛ زال عنه أثر الذنب وضرره. فهذا المعنىٰ صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف؛ يوقع في هذه المعاطب؛ فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته؛ لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت

---

(١) هذا جواب (لو) في قوله: ولو أن هذا الكلام... إلخ.

عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف؛ خرجت عن الطريق وضلَّت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة؛ فسد فسادًا لايرجىٰ صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه؛ ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء، ومع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا، فإنه قال: ﴿**اذكرْ ربَّك في نَفْسِكَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول خفية، وقال في الدعاء: ﴿**وادعوه خوفًا وطمعًا**﴾ [الأعراف: ٥٦] فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعًا وخيفة فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلَّت على ذلك أكمل دلالة، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه؛ لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، كما تقدَّم، فذكر في كل آية ماهو اللائق بها والأولىٰ بها من الخوف والطمع.

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدًى ورحمة للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿**إنَّهُ لَايُحِبُّ المُعْتدين**﴾ [الأعراف: ٥٥]، قيل: المراد أنه لايحب المعتدين في الدعاء، كالذي يسأل ما لايليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث حمَّاد بن سلمة، عن سعيد الجريري[١] عن أبي نعامة أن[٢] عبدالله بن مغفل[٣] سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يابني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في: الطهور والدعاء**». وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل مالايجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات. وتارة بأن يسأل مالايفعله الله،

(١) في نسخة (الحريري).
(٢) في نسخة عن أبي معاوية.
(٣) وفي نسخة ابن معقل.

مثـل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة. أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب. أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين. أو يسأله أن يهب له ولدًا من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمَّن خلاف ماأخبر به؛ فهو اعتداء لايحبه الله ولايحب سائله.

وفسـر الاعتـداء برفـع الصـوت أيضًا في الدعاء. قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادًا بها؛ فهو من جملة المراد، والله لايحب المعتدين في كل شيء: دعاءً. كان أو غيره، كما قال: ﴿**ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين**﴾ [البقرة: ١٩٠، المائدة: ٨٧].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لايحب أهل العدوان وهم الذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لابد أن يكون داخلاً في قوله: ﴿**إنه لايحب المعتدين**﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العـدوان أن يدعوه غير متضرع؛ بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكـين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرِّع خائف؛ فهو معتد.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب. وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى، مرضي له وهو الدعاء تضرُّعًا وخفية.

والثـاني: مكـروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذَّر مما يبغضه، وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لايحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأي خير يناله؟

وفي قوله: ﴿إنَّه لا يُحبُّ المُعْتَدِيْنَ﴾ عقب قوله: ﴿ادْعُوا ربكُمْ تضرُّعًا وخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين، الذين لا يحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعًا وخفية، ومعتد بترك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به؛ هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيدي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض؛ فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر؛ فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم؛ أجدبت الأرض، وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته؛ فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض: برسوله، ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به، وبمخالفة رسوله.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم، وفتنة، وبلاء، وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبَّر هذا حق التدبُّر، وتأمَّل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين؛ وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عمومًا وخصوصًا ولا وقوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَّطَمَعًا﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه

من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرُّعًا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضًا: خوفًا وطمعًا. وفصل بين الجملتين بجملتين، إحداهما: خبرية، ومتضمنة للنهي، وهي قولـه: ﴿إنـه لايُحِبُّ المُعْتَـدِينَ﴾ والثـانية: طلبية، وهي قولـه: ﴿ولاتُفْسِـدُوا في الأرضِ بَعْدَ إصْلاَحِهَا﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان مايضادها ويناقضها أمر بدعائه: خوفًا وطمعًا.

ثم قرر ذلك وأكَّد مضمونه بجملة خبرية، وهي قوله: ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِّن المُحْسِنِيْنَ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله: وادعوه خوفًا وطمعًا، كتعلق قوله: ﴿إنه لايحب المعتدين﴾ بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرُّعًا وخفية﴾

ولما كان قوله تعالى: ﴿وادْعُوهُ خَوْفًا وَّطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان وهي: الحب، والخوف، والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي: إنما يقال من دعاه خوفًا وطمعًا، فهو المحسن، والرحمة قريب منه، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرُّع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿إنه لايحب المعتدين﴾.

وانتصاب قوله: تضرُّعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا. قيل: هو على الحال، أي: ادعوه متضرعين مخفين، خائفين طامعين. وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له، وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر، وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا، إليه تضرعًا وأخفوا خفية.

الثاني: أنـه منصـوب بالفعـل المذكور نفسه. لأنه في معنى المصدر فإن الداعي متضرع طامع في حصول مطلوب، خائف من فواته. فكأنه قال: تضرَّعوا تضرعًا.

والصحيح في هذا أنه: منصوب على الحال، والمعنى عليه فإن المعنى: ادعوا ربكم متضرعين إليه: خائفين طامعين. ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ، ﴿وَلكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وقولهم: رجل عدل، ورجل صوم.

قال الشاعر: فإنما هي إقبال وإدبار.

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين وأبلغ.

والذي حسَّنه أن المأمور به هنا شيئان: الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة وهي صفة: التضرُّع، والخوف، والطمع. فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها، فأتىٰ بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته لأن يكون صفة للفاعل، وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة؛ فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرُّعًا، فإنك تريد اذكره متضرِّعاً إليه، واذكره ذكر تضرُّع، فأنت مريد للأمرين معًا، ولذلك إذا قلت ادعه طمعًا أي: ادعه دعاء طمع، وادعه طامعًا في فضله.

وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعونَ في الخيرَاتِ وَيَدعونَنا رَغَبًا ورَهبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] كان المراد: ادعه راغبًا وراهبًا، وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه بالمصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة؛ وعلى تقييد الفاعل بها، تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا، أنك تجد مثل هذا صالحًا وقوعه جوابًا لكيف، فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعًا وخفية. وتجد اقتضاء كيف لهذا أشد من اقتضاء لم. ولو كان مفعولاً له لكان جوابًا للم، ولايحسن هنا، ألا ترى أن المعنى ليس عليه، فإنه لايصح أن يقال: لِمَ أدعوه؟ فيقول: تضرعًا وخفية. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لايتقيد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جوابًا لكيف.

وبالجملة؛ فالمصدرية في هذا الباب لاتنافي الحال؛ بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد مايفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال؛ فهو أتم معنى، ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾، فيه تنبيه ظاهر، على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله: هو رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ماأمروا به من دعائه: خوفًا

وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم: وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم: وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم؛ فإن الله هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه.

فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان.

ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان؛ فهو السبب في قرب الرحمة منهم.

ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدًا ببعد، وقربًا بقرب. فمن تقرَّب بالإحسان تقرَّب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله ـ سبحانه ـ يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ههنا هو: فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس، أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالاً، ومهابة، وحياء، ومحبة، وخشية. فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان، فقال: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**.

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته للذين: يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون رسوله. فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان: و﴿**هَل جَزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحْسَانُ**﴾ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن

عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ثم قال: «**هل تدرون ماقال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**».

(١)**قوله** سبحانه: ﴿**وهو الذي يُرْسِلُ الرياح بُشرىً بينَ يدي رحمته حتى إذا أقلَّت سحابًا ثقالاً سُقناه لبَلَدٍ مَّيِّتٍ فأنزلنا به الماءَ فأخْرَجنا به مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ كَذٰلِكَ نُخرِجُ الْمَوْتىٰ لعلكم تذكَّرون والبلَدُ الطَّيِّبُ يخرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ رَبِّه وَالَّذِي خَبُثَ لايَخْرُجُ إلا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٧، ٥٨]. فأخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر، مَقِيس عليه، ثم ذكر قياسًا آخر: أن من الأرض مايكون أرضًا طيبةً؛ فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتَهَا بإذن ربها، ومنها ماتكون أرضًا خبيثة، لاتخرج نباتها إلا نَكِدا، أي قليلاً غير منتفع به، فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ماأخرجت الأرض الطيبة، فشبه ـ سبحانه ـ الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء؛ الذي أنزله على الأرض بحصُول الحياة بهذا وهذا، وشَبَّه القلوبَ بالأرض إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لاينتفع بالوحي، ولايزكوا عليه، ولايؤمن به: كالأرض التي لاتنتفع بالمطر، ولاتخرج نباتها به؛ إلا قليلاً لاينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي، وزكا عليه، وعمل بما فيه: كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر؛ فالمؤمن إذا سَمِعَ: القرآن، وعَقَله، وتَدَبَّرَه، بانَ أثرهُ عليه، فشُبِّه بالبَلَدِ الطيب، الذي يمرع، ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه فينبت من كل زوج كريم، والمعرضُ عن الوحي عَكْسهُ، والله الموفق.

(٢)**ويكفي** اللَّبيبَ موعظةً واستبصارًا، ماقصّه الله ـ سبحانه ـ وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المَذموم تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ ـ سبحانه وتعالى ـ بهوىٰ إبليس، الحاملِ له على التكبُّر عن طاعة الله ـ عز وجل ـ في أمره

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.	(٢) ٢٠٥ روضة المحبين.

بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابُه بها عَلَىٰ أن عصىٰ أمره، وتكبَّر عَلَىٰ طاعته، فكان من أمره ما كان. ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في ٱلخلود في ٱلجنة، وحمله هواه عَلَىٰ أن أكل [من] الشجرة ٱلتي نُهِيَ عنها، وكان ٱلحامل له عَلَىٰ ذلك هو ى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبةُ ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب والنَّصَب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحوّاءَ، فحمله حبُّه لها أن أطاعها، ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوه من طريقها ودخل عليه من بابها، فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر [سبحانه] فتنة الكفار، الذين أشركوا به مالم ينزل به سلطانًا، وابتدعوا في دينه مالم يشرعه، وحرموا زينته التي أُخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها، واتَّخَذُوا الشياطين [أَولِيَآءَ] من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أَنفسَهم وأَموالهم وأَهليهم دونه حتى خسروا الدُّنيا والآخرة.

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ قصة [قوم] نوحٍ، وما أَصارهم إِليه ٱلهوى من الغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة. ثم ذكر قصة عادٍ، وما أَفضىٰ إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة. ثم قصة قوم صالح كذلك. ثم قصة العشاق، أئمة الفساق، وناكحي الذُّكران، وتاركي النسوان، وكيف أخذهم: [وهم] في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم؛ وهم في سكر عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أُمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفًا لإخوانهم اللُّوطية من المتقدمين والمتأَخرين، ولما تجرَّأوا على هذه المعصية ومردوا، ونهجوا لإخوانهم طريقًا، وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجًا، وعجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أَقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو ـ سبحانه تعالى ـ قد حكم أنه لايأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم، يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذَّن رسول الله ﷺ بالدعوة على رءوس الملأ منهم

والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد، وقال، فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿أتأتونَ الفاحشة ماسبقكم بها من أحدٍ مِنَ العالمين﴾ [الأعراف: ٨٠]. ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا، وهم في سكرة عشقهم لايعقلون: ﴿إنَّكُمْ لَتَأْتونَ الرِّجال شهوةً من دُونِ النساء بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ [الأعراف: ٨١]. فأجابَ العُشّاق جواب من أركِسَ في هواه وغيه؛ فقلبه بعشقه مفتون: و﴿قالوا أخرِجُوا آل لوطٍ من قريتكم إنَّهم أناسٌ يتطهَّرون﴾ [النمل: ٥٦]. فلما أن حانَ الوقت المعلوم، وجاءَ ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرَّحمن ـ تبارك وتعالى ـ لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكةً في صورة البشر، وأجمل مايكون من الصوَر، وجاءوه في صورة الأضياف، النزول بذي الصدر الرحيب، فـ: ﴿سيءَ بهم وضَاقَ بهم ذرعًا وقال هذا يومٌ عصيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وجاء الصريخ إلى اللوطية أن لوطًا قد نزل به شبابٌ لم ينظر إلى مثل حسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراؤون، فنادى اللوطية بعضهم بعضًا أن هلُمّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونيلُ أكبر اللذات: ﴿وجآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم، وقلبه بالحزن عميد: ﴿ياقوم هَؤُلآءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فاتَّقوا الله ولاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُم رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] فلما سمع اللوطية مقاله، أجابوه جوابَ الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بناتِكَ مِنْ حَقٍّ وإنَّكَ لَتَعْلَمُ مانُريدُ﴾ [هود: ٧٩] فقال لهم لوطٌ مقالة المضطهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فلما رأت رسل الله مايقاسي نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فسُرَّ نبي الله سرورَ المحب، وافاه الفرج بغتةً على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فأسْرِ بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ولايَلْتَفِتْ مِنكُم أحدٌ إلا امرأتَكَ إنَّهُ مُصِيبُهَا مآأَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨٠] ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه، ولم يرعوا حقَّ الجار، ضربَ جبريل بجناحه على وجوههم، فطمس منهم الأعينَ، وأعمىَ الأبصار، فخرجوا من عنده عُمْيانًا، يتحسسون ويقولون: «ستعلم غدًا مايحل بك أيها المجنون» فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند

رب الأرباب: أن اخسف بالأمة اللوطية، وأذقهم أليم العذاب، فاقتلع القويُّ الأمين جبريل مدائنهم على ريشةٍ من جناحه، ورفعها في الجو، حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، وصياح ديكهم، ثم قلبها، فجعل عاليها سافلَها، وأُتبعوا الحجارة من سجيل وهو: الطين المستحجر الشديد، وخوَّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سافِلَهَا وأَمْطَرْنا عَلَيْهَا حجارةً من سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مسوَّمَةً عند ربِّكَ وما هِيَ مِنَ الظالِمِين بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] فهذه عاقبة اللوطية عُشَّاق الصور، وهم السلف، وإخوانهم بعدهم على الأثر...

...**وكذلك** قومُ شعيب، إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرطُ محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم، حتى أصابهم العذاب.

وكذلك قومُ فرعونَ، حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى؛ حتى آل بهم الأمر إلى ما آل.

وكذلك أهل السبت، الذين مُسِخُوا قردةً، إنما أُتُوا من جهة محبة الحيتان، وشهوة أكلها، والحرص عليها.

وكذلك الذي آتاه الرب تبارك وتعالى آياته: ﴿فانسَلَخَ مِنهَا فأَتْبَعَهَ الشَّيطانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ولو شِئْنَا لَرَفَعْنَاه بِهَا ولكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتأمل قوله تعالى: ﴿آتيناه آياتنا﴾ فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو ثم قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنها﴾ ولم يقل فسلخناه بل أضاف الإنسلاخ إليه وعبر عن برآءته منها بلفظة الإنسلاخ الدَّالَّة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأنُ الكافر. وأما المؤمن ولو عصى الله [تبارك وتعالى] ما عصاه فإنه لاينسلخ من الإيمان بالكلية، ثم قال: ﴿فأَتبعه الشيطان﴾ ولم يقل فتبعه فإن في أَتبعه إعلامًا بأنه أدركه ولحقه، كما قال تعالى: ﴿فأَتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء: ٦٠] أي لحقوهم ووصلوا إليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ ففي ذلك دليل [على] أن مجرد العلم لايرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة

بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرد تعلمه، ثم أخبر الله ـ عز وجل ـ عن السبب الذي منعه أن يُرفع بها؟ فقال: ولكنه أخلد إلى الأرض، واتَّبع هوَاهُ، وقوله: أَخْلد إلى الأرض، أي: سكن إليها، ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه: أرضية سفلية، لاسماوية علوية، وبحسب مايُخلد العبد إلى الأرض يهبط من السمآء.

قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل عضوٍ منه حظًا فإذا مال عضوٌ منها إلى الهوى رجع ضررُه إلى القلب، وللنفس سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية، فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا؛ سما قلبه سماء سماء، فإذا دفن النفس تحت الثرى، وصل القلب إلى العرش.

ثم ذكر سبحانه مثل المتبع لهواه كمثل الكلب الذي لايفارقه اللهث في حالتي تركه والحمل عليه، فهكذا هذا لايفارقه [اللهث] على الدُّنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوى أصلُ كل بلية . . . . .

. . . (١)**قوله** تعالى إخبارًا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: **﴿قَدِ افترينا على اللهِ كَذبًا إن عُدنا في مِلَّتِكُم بعد إذ نجانا اللهُ مِنْها ومايكُون لَنا أن نعودَ فيها إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ربُّنَا﴾** [الأعراف: ٨٩] وهذا يبطل تأويل القدرية: المشيئة في مثل ذلك بمعنى: الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به؛ ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء، ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: **﴿وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ عِلْمًا﴾** فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له ـ سبحانه ـ في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة، ووراء مايعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر، ومشيئة أخرى، وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم: **﴿ولا أخافُ ماتُشرِكُونَ بِهِ إلاَّ أنْ يَّشاءَ رَبِّي شَيْئاً وسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ علمًا أفلا تَتَذَكَّرُونَ﴾** [الأنعام: ٨٠]. فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه؛ ولهذا أمر الله رسوله أن لايقول لشيء

---

(١) ٦٤ شفاء العليل.

إنه فاعله حتى يستثني بمشيئة الله فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، وقد تقدَّم تقرير هذا المعنى.

وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد، فهو دليل على القدر، وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد. قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد؛ فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

(١)**قال** نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿**وما يكونُ لنا أن نَعُودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنَا**﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: نحن لانعود في ملتكم، ولا نختار ذلك، إلا أن يشاء الله ربنا شيئًا فينفذ ماشاءه.

وكذلك قال إبراهيم: ﴿**ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسِعَ ربي كل شيء علمًا**﴾ أي لايقع بي مَخُوف من جهة آلهتكم أبدًا، إلا أن يشاء ربي شيئًا فينفذ ماشاءه، فرد الأنبياء ماأخبروا ألا يكونَ إلى مشيئة الربِّ - تعالى - وإلى علمه استدراكًا واستثناء، أي لايكون ذلك أبدًا، ولكن إن شاءه الله تعالى كان، فإنه تعالى عالم بما لا نعلمه نحن من الأمور التي تقتضيها حكمته وحده.

(٢)فصل

ومن عقوباتها(٣) أنها تمحق: بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة أنها تمحق: بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصىٰ الله، ومامحيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿**ولو أنَّ أهلَ القُرىٰ آمَنُوا واتَّقوا لَفَتَحنا عليهم بَرَكَاتٍ من السَّماءِ والأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿**وَأَنْ لَّوِ استقامُوا عَلَى الطَّرِيْقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَّاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيْه**﴾(١) [الجن: ١٦]. وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. وفي الحديث: «**أن روح القدس نفث في روعي**(٤)، **أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لاينال ما عند الله إلا**

---

(١) ٧٦ أعلام جـ٤. (٢) ١١١ الجواب الكافي. (٣) أي المعصية.

(٤) الروع بضم الراء: القلب والعقل، يقال: وقع في روعي، أي في خلدي وبالي.

بطاعته، وأن الله جعل الروح[1]. **والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**» وقد تقدَّم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى. وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد».

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولاطول العمر بكثرة الشهور والأعوام. ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدَّم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله، واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه.....

فصل[2]
(عظيم النفع)

الجهال بالله وبأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها، يُبغِّضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لايعلمون.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها. فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله ـ سبحانه ـ لاتنفع معه طاعة، وإن طال زمانها، وبالغ العبد، وأتى بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه ـ سبحانه ـ أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر. ويروون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم. ويزعمون أن هذه حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿**لَايُسْئَلُ عمَّا يَفْعَلُ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقوله: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القومُ الخَاسِرون**﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقوله: ﴿**واعْلَموا أنَّ الله يَحُولُ بين المرءِ وقَلْبِه**﴾ [الأنفال: ٢٣].

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة، وأنه كان طاووس الملائكة،

(١) الروح: أي الرحمة. (٢) ١٥٨ فوائد.

وأنه لم يترك في السماء رقعة ولا في الأرض بقعة؛ إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدرة، وسطا عليه الحكم، فقلب عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتى قال بعض عارفيهم، إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه، ويحتجون بقول النبي ﷺ: **«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة؛ حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»**. . . . .

. . . (١)**وهل** في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا، ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا، وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل.

وكتب الله المنزلة كلها، ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك؛ ولاسيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه، لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه؛ فالله سبحانه أخبر ـ وهو الصادق الوفي ـ أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف(٢) المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتى من لدنه أجرًا عظيمًا، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه، وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشرة أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى الشاردين، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرُّد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه، والإقرار بربوبيته وحثه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف

(١) ١٦٠ فوائد.　　(٢) في المطبوعة «ويخاف المحسن» والصواب ماأثبتناه، لأن السياق يقتضي نفي الخوف عن المحسن وليس إثباته. المراجع.

بأنه سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَاعْتَرَفوا بذنبِهِمْ فَسُحقاً لأصحاب السَّعيْر﴾ [الملك: ١١]، وقال عمن أهلكهم في الدنيا، إنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه، قالوا: ﴿ياوَيْلَنا إنَّا كنّا ظالِمين فَمازَالتْ تِلكَ دَعْواهُم حتى جَعلْنَاهُم حَصِيدًا خَامِدِيْنَ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]. وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها، قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾

قال الحسن: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ماوجدوا عليه حجة ولا سبيلًا. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الَّذينَ ظَلَمُوا والحْمدُ للهِ رَبِّ العالميْنَ﴾ الأنعام :٤٥]. فهذه الجملة في موضع الحال، أي: قطع دابرهم، حال كونه ـ سبحانه ـ محمودًا على ذلك، فقطع دابرهم قطعًا مصاحبًا لحمده، فهو قطع وإهلاك، يحمد عليه الرب تعالى، لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها، الذي لايليق به غيرها، فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال، لاتليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولايليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار: ﴿وقُضِى بَيْنَهُم بالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾؛ فحذف فاعل القول إشعارًا بالعموم، وأن الكون كله قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله، ولهذا قال في حق أهل النار: ﴿قِيْلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهنَّم﴾ [الزمر: ٧٢]؛ كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم، وهو ـ سبحانه ـ يخبر أنه أهلك أعداءه وأنجىٰ أولياءه، ولايعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه، أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن ـ سبحانه ـ زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين: الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لايضل إلا الفاسقين؛ الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه ورده، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له

على رده ودفعه، لما تحققه وعرفه، وأنه ـ سبحانه ـ لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرًا لأفهمها، وهداها، ولكنها لاتصلح لنعمته، ولاتليق بها كرامته. وقد أزاح ـ سبحانه ـ العلل، وأقام الحجج، ومكّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين والظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطّى به قلوب الكفّار هو عين كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ على قُلوبِهم مَّاكَانُوا يَكْسِبُون﴾ [المطففين: ١٤]، وقال عن أعدائه من اليهود: ﴿وقولِهم قُلوبُنَا غُلْفُ بَلْ طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لايضل من هداه حتى يبين له مايتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى، والغيَّ على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»؛ فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه.

وقوله «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**». يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل بآخره وخاتمته، لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه[1] لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس فإن الله ـ سبحانه ـ قال للملائكة: ﴿**إنِّي أعلمُ ما لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فالرب ـ تعالى ـ كان يعلم مافي قلب إبليس من: الكفر، والكبر، والحسد، ما لايعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود، ظهر ما في قلوبهم

(١) كذا في الأصل ولعل في العبارة تحريفًا أو نقصًا(ج).

من: الطاعة، والمحبة، والخشية، والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من: الكبر، والغش، والحسد، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره، فحق؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته. وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره، أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب على غرة وفترة.

وأمر آخر؛ وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلَّى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر؛ وهو أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم مالا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لايشعرون وأمر آخر؛ أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنون به، وذلك مكر ا هـ.

.... [1]**والمقصود:** الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج: الأدلة العلمية، والبينات: جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بينة.

والبينة اسم لكل مايبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّناتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيْزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالبينات: الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات؛ والكتاب هو الدعوة. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وهدًى للعَالِمِينَ. فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

ومقام إبراهيم: آية جزئية، مرئية بالأبصار. وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَة مِّن رَّبِّكُم فأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسرائيلَ. قال إنْ كُنتَ جِئْتَ بآيةٍ فأتِ بهَا إنْ كُنْتَ من الصَّادِقِيْنَ فَأَلقَى عَصَاهُ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة، وقال قوم

---

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

هود: ﴿ياهود ماجئتنا ببينة﴾ يريدون آية الاقتراح؛ وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح؛ لايكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآيات التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرسِلَ بالآيات إلَّا أنْ كَذَّبَ بها الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] فعدم إجابته ـ سبحانه ـ إليها إذ طلبها الكفّار رحمة منه، وإحسان؛ فإنه جرت سنته التي لاتبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال.

فلما علم سبحانه أن هؤلاء لايؤمنون، ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلى ماطلبوا، فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين، وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها، فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه، بخلاف الحجج، فإنها لم تزل متتابعة، يتلو بعضها بعضًا وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ماكانت وهي باقية إلى يوم القيامة.

. . .(١)**قوله**: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكنَا الْقُرُون مِنْ قَبلِكُم لَمَّا ظَلَمُوا وجَاءتْهم رُسُلُهم بالْبَيِّنات ومَا كانُوا لِيُؤمنُوا﴾ [يونس: ١٣]. الآية. وفي موضع آخر: ﴿تِلكَ الْقُرىٰ نَقصُّ عَلَيْكَ مِنَ أنبائِهَا وَلَقَدْ جَاءتهم رُسُلُهُم بالبيِّناتِ فما كَانُوا لِيؤمِنوا بما كذبوا من قبلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قلوبِ الكافِريْنَ﴾. [الأعراف ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لايؤمنون كما قال عن نوح: ﴿أنه لن يُؤمِنَ مِنْ قَومِكَ إلَّا مَنْ قد آمَن﴾ [هود: ٣٦]، واحتج على هذا بقوله: ﴿كَذٰلِكَ يَطبعُ اللهُ عَلىٰ قُلوبِ الكافِريْنَ﴾ [الأعراف: ١٠١] قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفّار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهًا وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم. قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) ٣١ شفاء العليل.

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ماكانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها؛ بما كذبوا به من قبل رؤيتها ومعاينيها فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه، ويقلب قلبه عنه، فهذا إضلال العقوبة، وهو من عدل الرب في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولاً والاهتداء به، فهو إضلال ناشيء عن علم الله السابق في عبده، أنه لايصلح للهدى، ولايليق به، وأن محله غير قابل له. فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلاً وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولوا أَهْؤلآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنـا أَلَيْسَ اللهُ بأَعَلَم بالشَّـاكِرِيْنَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلي الرؤساء والسادة بالاتباع والموالي والضعفاء؛ فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف إنفة، أنف أن يسلم، وقال: هذا يمنّ الله عليه بالهدى والسعادة دوني. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم، تعرفون قدر نعمتي، وتشكروني عليها، وتذكروني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لِمَني ونعمي محال لاتليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرن كثيراً بين التخصيص والعلم، كقوله ههنا: ﴿**أَليسَ اللهُ بِأَعْلَم بالشَّاكِرِيْنَ**﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله:[1] ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ماأوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

. . [2] **لم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلهم:** ﴿ **إنَّا**

(١) في المطبوعة «إذا جاءتهم» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٢٣١ مفتاح جـ٢.

تَطَيّرَنَـا بِكُم لَئِن لم تنتهـوا لنرجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عذابٌ أَلِيمٌ. قالوا طائِرُكُمْ مَّعكُم أَئِن ذُكّرتُم بل أنتم قومٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يسۤ: ١٨ - ١٩].

وكذلك حكىٰ الله سبحانه عن قوم فرعون فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بموسىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُم عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية، قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجـديرون الحقيقون به، ونحن أهله. وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه، قالوا: هذا بسبب موسى وأصحابه؛ أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم كما يقوله المتطيِّر لمن يتطير به.

فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال ـ تعالى ـ عن أعداء رسوله ﷺ. ﴿وإِنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقُولوا هٰذِه مِنْ عِندِ الله وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذه من عنـدكَ﴾ [النساء: ٧٨]. فهـذه ثلاثـة مواضـع: حكى فيها التطير عن أعدائه، وأجاب ـ سبحانه ـ عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى.

وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله: ﴿قُل كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وأجاب عن الرسل بقوله: ﴿قَالُوا طائِركُم مَّعَكُم﴾ [يسۤ: ١٩]. وأما قوله: ﴿أَلا إِنَّما طَآئِرهُم عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

فقال ابن عباس طائرهم ماقضى عليهم وقدر لهم. وفي رواية: شؤمهم عند الله، ومن قبله أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وقال أيضًا: إن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنسانٍ أَلزَمْنَاهُ طائِرَهُ فِي عُنقهِ ونُخْرِجُ له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورًا [الإسراء: ١٣]. أي مايطير له من الخير والشر، فهو لازم له في عنقه. والعرب تقول: جرى له الطائر بكذا من الخير والشر. قال أبو عبيدة: الطائر عندهم: الحظ، وهو الذي تسميه العامة: البخت يقولون: هذا يطير لفلان أي يحصل له. قلت ومنه الحديث: فطار لنا عثمان بن مظعون أي: أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفي حديث رويفـع بن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش، والآخر القدح. أي يحصل له بالشركة في الغنيمة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائره في عُنقهِ﴾، أن الطائر ههنا هو العمل. قاله الفراء، وهو يتضمن الرد على نفاة القدر؛ وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن: لأنها محل الطوق الذي يطوقه الإنسان في عنقه، فلا يستطيع فكاكه ومن هذا يقال: إثم هذا في عنقك. وأفعل كذا وإثمه في عنقي. والعرب تقول: طوقها طوق الحمامة، وهذا ربقة في رقبته.

وعن الحسن: ابن آدم لتنظر لك صحيفة؛ إذا بعثت قلدتها في عنقك، فخصوا العنق بذلك؛ لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير.

كما خصت الأيدي بالذكر في نحو: ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِيْكُم﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ونحوه. وقيل: المعنى: أن الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار وهو الذي أصابهم في الدنيا. وقيل: المعنى: أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليه مايسوؤهم، ويعاقبون عليهم بعد موتهم بها وعدهم الله ولا طائر أشأم من هذا. وقيل: حظهم ونصيبهم، وهذا لايناقض قول الرسل طائركم معكم أي: حظّكم وما نالكم من خير وشر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى: ﴿وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هٰذه من عندكَ قُل كلٌّ من عندِ اللهِ فَما لِهٰؤلآءِ القَوْمِ لايكادُون يَفْقهُونَ حديثًا﴾ [النساء: ٧٨] ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ مايقتضي الطيرة، فإنه كله خيرٌ محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عبث فيها، ورحمة لاجور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا، فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة؛ وليس فيما أتيتهم به لو فهموا مايوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم. ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم أي: راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم. وهذا من باب القصاص في الكلام مثل قوله في الحديث: «أخذنا فالك من فيك».

ونظيره قول النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم». **فعلى** هذا معنى طائركم معكم أي: نصيبكم طيرتكم التي تطيرتم بها، لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولا شؤم فيها البتة، فقيل لهم: الشؤم منكم، وهو نازل بكم، فتأمَّله.

وهذا يشبه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وَعَندَاللهِ مَكرُهُم وإنْ كَان مَكْرُهُم لِتَزُولَ منهُ الجِبالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] قيل: جزاء مكرهم عنده؛ فمكر بهم كما مكروا برسله. ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم، وكيدهم عاد عليهم. فهكذا طيرتهم عادت عليهم، وحلت بهم وسمي جزاء المكر: مكراً، وجزاء الكيد: كيدًا؛ تنبيهًا على أن الجزاء من جنس العمل.

ولما ذكر سبحانه أن ماأصابهم من حسنة وسيئة أي نعمة ومحنة فالكل منه ـ تعالى ـ بقضائه وقدره؛ فكأنهم قالوا: فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا؟ فذكر ـ سبحانه ـ أن ماأصابه من حسنة فمن الله منّ بها عليه، وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، أي بسبب من قبله أي: لا، لنقض ما جاء به، ولا لشر فيه، ولا لشؤم يقتضي أن تصيبه السيئة؛ بل بسبب من نفسه ومن قبله.

وقد قيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿طائِرُكُم عِند اللهِ بَلْ أنْتُم قومٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]. أن طائرهم ههنا هو السبب الذي يجيء فيه خيرهم وشرهم، فهو عند الله وحده، وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم، وإن شاء حرمكم وابتلاكم.

ومن هذا قالوا: طائر الله لا طائر كلبي، قدر الله الغالب الذي يأتي بالحسنات ويصرف السيئات.

ومنه: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، وعلى هذا فالمعنىٰ: بطائركم: نصيبكم، وحظكم الذي يطيرلكم، ومن فسره بالعمل فالمعنى: طائركم الذي طار عنكم من أعمالكم.

وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزمناهُ طَائِره في عُنقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] وأنه ما طار عنه من عمله، أو صار لا زمًا له، مما قضى الله

عليه، وقدر عليه، وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة.

(١)**فأول** تلاعُب الشيطان بهذه الأمة(٢) في حياة نبيِّها، وقُرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوَزُوا البحرَ رأوا قومًا يَعْكُفون عَلَى أصنام لهم. فقالوا: **﴿ياموسى ٱجْعَلْ لَنا إِلـهًا كما لَهُم آلِهَةٌ﴾**. فقال لهم موسىٰ عليه السلام: **﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجهلُونَ إِنَّ هؤلآءِ مُتَبَّرٌ ماهُمْ فيه وباطلٌ ماكانوا يعملون﴾** [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩]. فأي جهلٍ فوق هذا؟ والعهد قريبٌ، وإهلاك المشركين أمامهم، بِمَرْأىٰ من عيونهم. فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلـهًا، فطلبوا من مخلوقٍ أن يجعل لهم إلـهًا مخلوقًا. وكيف يكون الإلـه مجعولاً؟ فإن الإلـه هو الجاعلُ لكلِّ ماسواه، والمجعول مربوبٌ مصنوعٌ، فيستحيل أن يكون إلـهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إلـه مجعول، فكل من اتخذ إلـهاً غير الله فقد اتخذ إلـهًا مجعولاً.

وقد ثبت عن النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم -: أنه كان في بعض غزواته، فمرُّوا بشجرة يُعَلِّق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتِهم وثيابَهم، يسمونها ذاتَ أنـواطٍ، فقال بعضهم: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، فقال: الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: **﴿اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة﴾**، ثم قال: «لَتَرْكَبُنَّ **سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة**».

(٣)**ومن** تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ماقصه الله - تعالى - في كتابه حيث يقول: **﴿وإذ قُلْتم ياموسىٰ لن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرى الله جَهْـرَةً﴾** [البقرة: ٥٥]. أي أعيانًا. قال ابنُ جرير: ذكَّرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامةِ أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله مايُثلجُ بأقلها الصدورُ، وتطمئنُّ بالتصديق معها النفوسُ، وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله - تعالى - لديهم. وهم مع ذلك مرة يسألون

---

(١) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.		(٢) أي اليهود.

(٣) ٣٠٥ إغاثة جـ٢.

نبيِّهم أن يجعل لهم إلـهًا غير الله، ومرة يعبدون العجلَ من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدِّقُكَ حتى نرى الله جَهْرة.

وأخرى يقولون له إذا دُعوا إلى القتال: ﴿ٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّك فَقَاتِلَا إِنَّا هٰـاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ومرة يقال لهم: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا نغفر لكم خَطاياكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]. فيقولون: «حَبَّة في شعيرةٍ»[1]. ويدخلون من قِبَل أَسْتاههم. ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة، فيمتنعون من ذلك، حتى نَتَق الله تعالى عليهم الجبل كأنه ظُلَّة.

إلى غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيَّهم، التي يكثر إحصاؤها، فأعلم ربنا تباركَ وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهودِ بني إسرائيل، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم[2] أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرارَ به وبما جاءَ به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم، وآبائهم الذين قصَّ الله علينا قصصهم.

وقال محمد بن إسحاق: «لما رجع موسى إلى قومه، فرأى ماهم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العجل وذرَّاه في اليمِّ، اختار موسى منهم سَبعين رجلاً، الخيِّر فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله ـ عز وجل ـ فتوبوا إلى الله مما صنعتم، واسألوهُ التوبة على من تركتم وراءَكم من قَومكم، فصوموا وتَطَهَّرُوا، وطهِّروا نِيَّاتِكم[3] فخرج بهم إلى طُور سَيْناء لميقاتٍ وَقَّته له رَبُّه، وكان لايأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون ـ فيما ذُكر لي ـ حين صنعوا ماأمرهم به، وخرجوا للقاء الله: ياموسى اطلب لنا إلى ربك أن نسمَع كلام رَبِّنا، فقال: أفعلُ، فلما دَنا موسى من الجبل، وقع عليه الغَمام، حتى تغشَّى الجبل كله، ودنا موسى فأدخل فيه، وقال للقوم: آدْنوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربُّه وقع على جبهتـه نورٌ ساطعٌ لا يستطيعُ أحدٌ من بني آدم أنْ ينظر إليه. فضرب دونه

(١) في نسخة «حنطة في شعرة».

(٢) في تفسير ابن جرير «الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ.

(٣) في نسخة «وطهروا ثيابكم».

بالحجاب، ودنا القومُ، حتى إذا دخلوا في الغَمام وَقَعوا سجودًا، فَسَمعوه تعالى وهـو يكَلِّم نبيه موسى، يأمـره وينهاه: افعلْ، ولاتفعل. فلما فرغ اللهُ من أمره انكشف عن موسى الغمام. فأقبل إليهم. فقالوا لموسى عليه السلام: لَنْ نؤمِنَ لَكَ حتَّى نرى الله جهـرةً. فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ، فماتُوا جميعًا. وقامَ موسى عليه السلام يُناشِدُ رَبَّهُ ويدْعُوه، ويرغَبُ إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لو شِئْتَ أهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وإيَّايَ أتُهْلِكُنا بما فعَلَ السُّفهَاء مِنَّا﴾[الأعراف: ١٥٥].

فإن قيل: فما مقصودُ موسى بقوله: ﴿لوشئْتَ أهلكْتَهم من قَبْلُ﴾.

فقد ذُكر فيه وجوهٌ.

فقال السُّدي: لما ماتوا قام موسى يبكي، ويقول: يارب، ماذا أقولُ لبني إسرائيل، إذا أتيْتَهُمْ وقد أهلكتَ خيارهم؟

وقال محمد بن إسحاق: اخترتُ منهم سبعين رجلًا، الخيِّر فالخيِّر، أرْجِع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يُصَدِّقوني به، أو يأمنوني عليه بعد هذا؟

وعلى هذا، فالمعنى: لو شئتَ أهلكتهم من قبـل خروجنـا، فكـان بنو إسرائيل يُعاينون ذلك، ولايتهموني. وقال الزجاج: المعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجبَ عليهم الرَّجفة.

قلت: وهؤلاء كلهم حامُوا حول المقصود، والذي يظهر ـ والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ: أن هذا استعطافٌ من موسى عليه السلام لرَبِّه، وتوَسُّلٌ إليه بعفوه عنهم من قَبْلُ، حين عبد قومهم العجل، ولم يُنكروا عليهم. يقول موسى: إنهم قد تقَـدَّم منهم مايقتضي هلاكَهُمْ. ومـع هذا فَوَسِعَهم عفْـوُكَ ومغفـرتُـكَ، ولم تُهْلِكْهُمْ، فليسعهم اليوم ماوسعهم من قبل.

وهذا كما يقول مَنْ واخَذَه سيِّدُه بجُرْم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولًا، فليسعني اليوم. ثم قال نبيُّ الله: ﴿أتُهلِكُنا بما فعلَ السُّفهَاءُ منَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فقال ابن الإنباري وغيره: هذا استفهام على معنى الجَحْد، أي لستَ تفعلُ ذلك. والسفهاء ههنا: عبدة العجل.

قال الفرَّاء: ظَنَّ موسى أنهم أُهلِكوا باتخاذِ قومهم العجل، فقال: ﴿أتُهْلِكُنا بِمَافَعَلَ السفهاء منَّا﴾ وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم قال: ﴿إن هي إلا فتنتُكَ﴾ وهذا من تمام الاستعطاف، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارُك لعبادك، فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمرُ كله لك وبيدك، لا يكشِفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت، فنحن عائذون بك منك، ولاجئون منك إليك(١).

فصل(٢)

وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَه يَفْتِنُه فُتُونًا قال الله تعالى: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أي: امتحنَّاك واختبرناك. والفِتْنَة يقال عَلَى ثلاثة معانٍ:

أحدها: الامتحان والاختبار ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: امتحانك واختبارُك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فِتْنَة فلان. أي: افْتِتَانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال أصابته الفِتْنة وفَتَنَتْهُ الدنيا وفتنته المرأةُ وأَفتنته، قال الأعشى:

لئـن فَتَنَتْني لَهِيَ بالأمس أُفتنت   سعيدًا فأضحى قد قَلَىٰ كل مسلم

وأنكر الأصمعي أُفتنته.

والثالث: المفتون به نفسهُ يُسمى فتنةً، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ماجَوْدَته ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتْن الإحراق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار

---

(١) ناقش ابن القيم صاحب المنازل هنا مناقشة هامة لمن أرادها (ج).

(٢) ٤٧ روضة المحبين.

يُفْتَنُـونَ﴾ وورِقٌ فَتِـينٌ أي فضـةٌ مُحْرَقَـة. وافْتُتِن الرجل وفُتِن إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلُه. وفَتَنَتْهُ المرأة إذا ولَّهته وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣] [أي: لا تفتنون عَلَى عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم] فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقيل الباء زائدة.

وقيل المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أَنّ يُبْصِر مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُر ويعلم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسَعُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَـاوَنَـانِ عَلَى الْفَتَّانِ ، يُروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجَّار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

الباب الخامس والستون(١)

في رؤيتهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر، وتجليه لهم ضاحكًا إليهم

هذا الباب: أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة؛ وأشدها على أهل البدعة والضلالة وهي: الغاية التي شمّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمـل العـاملون، إذا نالـه أهـل الجنـة نسوا ماهم فيه من النعيم. وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم: أشد عليهم من عذاب الجحيم.

اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون. وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية

(١) ٢٠٢ حادي الأرواح.

المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنةوأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين، وأعداء الرسول وحزبه.

وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ عن أعلم الخلق به في زمانه، وهو كليمه ونجيّه وصفيّه من أهل الأرض؛ أنه سأل ربه ـ تعالى ـ النظر إليه، فقال له ربه ـ تبارك وتعالى ـ: **﴿لَنْ تَرَانِي ولكن انظر إلى الجَبَل فإن استقر مَكَانه فسوفَ تَرانِي فلمَّا تجلَّى ربُّه للجَبَل جَعَلَهُ دكًّا﴾** [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لايظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه: أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال. وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن: يسأله أن يأكل، ويشرب، وينام، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه.

فيالله العجب! كيف صار اتباع الصابئة والمجوس والمشركين: عباد الأصنام، وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله ـ تعالى ـ من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيهاً له منه؟!!

الوجه الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه. ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه. ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله.

ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال: **﴿إنِّي أعظكَ أنْ تكونَ مِنَ الجاهلِينْ، قال رَبِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليْس لي به علمٌ وإلَّا تغفر لي وترحمني أكُنْ من الخَاسِرين﴾** [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: لن تراني. ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولاتجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمّله، وهذا يدل

على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يُرىٰ؛ ولكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته ـ تعالى ـ يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿**ولكِنِ انظُر إلى الجبل فإن استقرَّ مَكَانه فَسَوْفَ تَرَاني**﴾ فأعلمه: أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذا الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: وهو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه؛ وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن. وقد علَّق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف: آكل وأشرب وأنام. فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ ربه للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾. وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته ـ تبارك وتعالى ـ فإنه إذا جاز أن يتجلَّى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلَّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ فأعلم ـ سبحانه وتعالى ـ موسى: أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلَّمه منه إليه، وخاطبه، وناجاه، وناداه. ومن جاز عليه: التكلُّم، والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة؛ فرؤيته أولىٰ بالجواز. ولهذا لايتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين: فأنكروا أن يكلم أحدًا، أو يراه أحد. ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ماسأله لايقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه. وأما قوله تعالى: ﴿**لن تراني**﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولايدل على دوام النفي، ولو قيدت بالتأبيد؛ فكيف إذا أطلقت؟! قال ـ تعالى ـ: ﴿**ولَنْ يَتَمَنَّوهُ أبدًا**﴾ [البقرة: ٩٥]. مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧].

فصـــل(١)

الدليل الثاني قوله - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله - تعالى -: ﴿تَحيتهُم يَوْمَ يَلْقَونَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ كان يرجُوا لِقاء رَبِّه﴾ [الكهف: ١١٠] وقوله - تعالى -: ﴿قَالَ الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقُوا الله﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضىٰ المعاينة والرؤية.

ولاينتقض هذا بقوله - تعالى -: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا في قُلُوبهم إلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَه﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلَّت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه - تعالى - في عرصات القيامة، بل والكفار أيضًا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة؛ وسيمر بك عن قريب إن شاء الله تعالى.

وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة. أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون. والثاني: يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار؛ فلا يرونه بعد ذلك. والثالث: يراه المنافقون دون الكفّار. والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم، ولشيخنا في ذلك مصنف مفرد، وحكىٰ فيه: الأقوال الثلاثة وحجج أصحابها.

وكذا قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَاأَيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيْهِ﴾ [الانشقاق: ٦] إن عاد الضمير على العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورًا مثبتًا. وإن عاد على الرب - سبحانه وتعالى - فهو لقاؤه الذي وعد به.

(٢)**وقال** الحسن في قوله - تعالى -: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتي الَّذِين يتكبَّرون في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم فيها عين.

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة.

---

(١) ٢٠٤ حادي الأرواح. (٢) ١٨٠ مفتاح جـ١.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم أمرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

وقال عبدالله بن المبارك: لبعض أصحابه، وقد رآه مفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ماعصوه.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية. والفكرة في الآخرة: تورث الحكمة، وتجلي القلوب.

وقال ابن عباس: التفكُّر في الخير يدعو إلى العمل به.

وقال الحسن إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذِّكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة. وهذا لأن الفكرة: عمل القلب. والعبادة: عمل الجوارح. والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

. . . . [1]**قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُون الرَّسُول النبي الأميَّ الَّذي يجدونه مَكْتوبًا عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٧]، فوجود الرسول في التوراة والإنجيل ووجود القرآن فيه واحد، فمن جعل وجود كلام الله في المصحف كذلك، فهو أضل من حمار أهله. وقد علم بذلك أنه لايحتاج إلى حذلقة متحذلق يقول: إنه لابد من حذف وإضمار، وتقديره عبارة كلام الله في المصحف أو حكايته؛ فإنك إذا قلت في هذا الكتاب: كلام رسول الله ﷺ أو كلام الشافعي وأحمد، فإن كل أحد يفهم المراد بذلك، ولايتوقف فهمه على حذف وإضمار، كما لايذهب وهمه إلى أن: صفة المتكلم، والقول القائم به، والصوت واللفظ المسموع منه: فارق ذاته، وانفصل من محله، وانتقل إلى محل آخر؛ هذا كله أمر محسوس مشهود، لاينازع فيه من فهمه إلا عنادًا؛ لكن قد لا يفهمه بعض الناس: لفرط

(١) ٣٢٠ مختصر الصواعق جـ٢.

بلادة، وعمى قلب، أو غلبـة هوى. ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ كتب مقادير الخلائق، عنده قبل أن يخلق السموات والأرض، كتابًا: مفصلاً، محيطًا بالكائنات. وأخبرنا بذلك في كتابه. فالخبر عنها مكتوب في المصاحف في قوله: ﴿وَكُـلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] والإمام هو: الكتاب، ومعلوم قطعًا: إن كتابتها في الكتاب السابق ليس هو مثل كتابتها في القرآن؛ فإن ذلك كتابة مفصلة، وهذا إخبار عنها، فكتابة اسم القرآن في رقٍّ أو غيره؛ ليس هو مثل كتابة معانيه، وإذا كتب كلام المتكلم في كتاب لم تكن الحروف المكتوبة من جنس الحروف الملفوظة، لا من حيث المادة، ولا من حيث الصورة، حتى يقال: انتقلت تلك الحروف بمادتها وصورتها، وحلت في الكتاب، ولايتوهم هذا سليم العقل والحواس.

فصـــل

وكلام الرب ـ تعالى ـ بل كلام كل متكلِّم تُدرك حروفه وكلماته: بالسمع تارة، وبالبصر تارة، فالسمع نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ماكان بغير واسطة، كما سمع موسى بن عمران: كلام الرب ـ تعالى ـ من غير واسطة، بل كلمه تكليمًا منه إليه، وكما يسمع جبرائيل وغيره من الملائكة: كلامه وتكليمه سبحانه، وأما المقيد: فالسمـع بواسـطة المبلغ: كسـماع الصحابة، وسماعنا لكلام الله حقيقة بواسـطة المبلغ عنـه، كما يسمع كلام رسول الله ﷺ بل وكلام غيره: كمالك، والشافعي، وسيبويه، والخليل بواسطة المبلغ، فقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦] من النوع الثاني، وكذلك قوله: ﴿وإِذَا سَمِعُوا مَاأُنْزِلَ إِلَى الـرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله في الحديث: «**كأنَّ الناسَ لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه يوم القيامة من الرحمن**». من النوع الأول، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**».

وأما النظر فعلىٰ نوعين أيضًا، فإن المكتوب قد يكتبه غير من يتكلم به، فيكون الناظر إليه ناظرًا إلى الحروف والكلمات بواسطة ذلك الكتاب، وقد يكون المتكلم نفسه كتب كلامه؛ فينظر الناظر إلى حروفه وكلماته التي كتبها بيده، كما

سمع منه كلماته التي تكلم بها، وهذا كما كتب لموسى التوراة بيده بغير واسطة، كما في الحديث الصحيح في قصة احتجاج آدم وموسى، وفي حديث الشفاعة وغير ذلك. فجمع لموسى بين الأمرين أسمعه كلامه بغير واسطة، وأراه إياه بكتابته اهـ.

(١)**الوجه** الثالث والعشرون: أن الأعيان توصف بكونها: طيبة، وخبيثة، ونافعة، وضارة. فكذلك توصف بكونها: حلالاً، وحرامًا. إذ الحل والحرمة تبع طيبها وخبثها وكونها: ضارة، ونافعة. كما قال ـ تعالى ـ:(٢) ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧] ولابد أن يكون الحلال طيباً في نفسه، والحرام خبيثًا في نفسه، فوصفه بكونه حلالاً أو حرامًا جار مجرىٰ وصفه بكونه طيباً أو خبيثًا، ودلالة تحريم العين وتحليلها على الفعل المتعلِّق بها من باب دلالة الالتزام. وقد علمت أن ما يدل بالالتزام لا يقال فيه: إنه محذوف مقدر.

(٣)**وإذا** كان لامعنى عندهم للمعروف إلا ماأمر به؛ فصار معروفًا بالأمر. ولا للمنكر إلا مانهىٰ عنه؛ فصار منكرًا بنهيه فأي معنى لقوله: ﴿**يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾. وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه. وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء، وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه، عند كل عقل سليم. ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول، بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار، كما أن ماأمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه. كما قال بعض الأعراب؛ وقد سئل، بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ماأمر بشيء، فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به. فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء. وقد أقرَّ عقله وفطرته بحسن ماأمر به وقبح مانهى عنه؛ حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته.

ولو كان جهة كونه معروفًا ومنكرًا هو الأمر المجرد، لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره، ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) في المطبوعة «يحل» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) ٦ مفتاح جـ٢.

يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن: نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها من: أعظم براهين صدقه، وشواهد نبوته. ومن لم يثبت لذلك: صفات وجودية، أوجبت حسنه، وقبول العقول له. ولضده صفات أوجبت قبحه، ونفور العقل عنه؛ لقد سدّ على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك، قوله ـ تعالى ـ: **﴿ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عليهمُ الخَبَائِثَ﴾**. فهذا صريح في أن: الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه. ولم يستفد: طيب هذا، وخبث هذا؛ من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين.

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته، التي احتج الله بها على أهل الكتاب. فقال: **﴿الَّذين يَتبعُونَ الرسولَ النَّبيَّ الأميَّ الذيْ يَجدونَهَ مَكتوبًا عندهُم في التَوراةِ والإنجيلِ يَأمُرُهُم بالمعروف ويَنْهَاهُم عن المُنكَر ويُحِل لَهُم الطيِّباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهُم﴾**[الأعراف:١٥٧]فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل، لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم مايحل، ويحرم عليهم مايحرم. وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة، فيه وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه: أحلَّ ماهو طيب في نفسه، قبل الحل، فكساه بإحلاله طيباً آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا، فتأمَّل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على: محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها. وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ماوردت به، وأن الله ـ تعالى ـ يتنزه عن ذلك؛ كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به.

. . .(١)**وموسى** عليه السلام كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، أُمِرُوا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم: الشحوم، وذوات الظفر، وغيرها من الطيبات، وحرِّمت عليهم: الغنائم، وعجل لهم من العقوبات

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

ماعُجل، وحُمّلوا من الآصار والأغلال، ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى - ﷺ - من أعظم خلق الله: هيبة، ووقارًا. وأشدهم: بأسًا، وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله. وكان لايُستطاع النظر إليه.

وعيسى ﷺ: كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته: شريعة فضل، وإحسان، وكان لايقاتل، ولايحارب، وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارىٰ يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه، فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك، فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً، فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم، ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك: القوة، والعدل، والشدة في الله، وهذا اللين والرأفة والرحمة، وشريعته أكمل الشرائع، فهو نبي الكمال، وشريعته: شريعة الكمال، وأمته: أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم: أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل: إيجابًا له وفرضًا، وبالفضل: ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض آيات. كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا عدل: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجرُهُ عَلَى اللهِ﴾. فهذا فضل: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا تحريم للظلم، ﴿وإن عَاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثل ماعُوْقِبتُم به﴾ النحل: ١٢٦]. فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُو خَيْرٌ للصَّابرين﴾ [النحل ١٢٦]. ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿وإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُم رُءُوسُ أَمْوَالِكُم لاتظلمون ولا تُظْلَمُون﴾ [البقرة: ٢٧٩]. تحريم للظلم: ﴿وَإِن كانَ ذُو عُسْرَةٍ فنظِرَةٌ إلى مَيْسِرَةٍ﴾ عدل: ﴿وأَنْ تَصدَّقوا خيرٌ لكُم إن كُنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فضل. وكذلك تحريم ماحرم على أمته صيانة وحِمْية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضَلَّتْ عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمّل لهم من المحاسن بما فرَّقه في الأمم قبلهم، كما كمّل نبيهم ﷺ من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمّل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّين مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سِفْرًا، بل أسفارًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

. . . .[1]**وأشكل** على ابن عباس: أمْرُ الفِرْقة الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عُذِّبوا أو نَجَوْا، حتى بيّن له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه ـ سبحانه ـ قال عن الساكتين: ﴿وإذْ قالت أمّة منهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا الله مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهم عذابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به مَنْ أدّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله ـ سبحانه ـ إنما عذَّب الذين نسوا ماذُكِّروا به، وعتوا عما نُهُوا عنه، وهذا لايتناول الساكتين قطعا، فلما بيّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كساه بردة وفرح به.

. . . .[2]**ولله** سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها.

فعلى العالم من عبوديته: نشر السُّنَّة، والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ماليس على غيره.

---

(١) ٣٥٣ أعلام جـ١. (٢) ١٥٧ أعلام جـ٢.

وعلى الحاكم من عبودية: إقامة الحق، وتنفيذه، وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك، والجهاد عليه ماليس على المفتي.

وعلى الغني من عبودية: أداء الحقوق التي في ماله ماليس على الفقير.

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يومًا في: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فقالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا، فقال: هَبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب، فقالت: صدَقت جزاك الله خيرًا.

وقد غر إبليسُ أكثَرَ الخلقِ، بأنْ حَسّنَ لهم القيام بنوع من: الذكر، والقراءة، والصلاة، والصيام، والزهد في الدنيا، والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من: أقل الناس دينًا؛ فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن تركَ الأمرِ أعظمُ من ارتكاب النهي؛ من أكثر من ثلاثين وجهًا، ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه.

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين، هم أقل الناس دينًا، والله المستعان.

وأي دين، وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها وهو: بارد القلب، ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل: شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم، فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض مافيه غضاضة عليه في: جاهه، أو ماله: بذل، وتبذَّل، وجدَّ، واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء ـ مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لايشعرون، وهو: موت القلوب؛ (١)فإنّ القلب كلما كانت حياته

---

(١) في المطبوعة «فإنه القلب» والصواب حذف الضمير. المراجع.

أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل. وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله ـ سبحانه ـ أَوْحَىَ إلى مَلِكٍ من الملائكة: أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يارب! كيف وفيهم فلان العابد؟! فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ يومًا قط.

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى نبي من أنبيائه: أن قل لفلان الزاهد! أما زهدك في الدنيا فقد تعجَّلْت به الراحة، وأما انقطاعك إليَّ، فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يارب! وأيُّ شيء لك عليَّ؟ قال: هل وَالَيتَ فيَّ وَليًّا، أو عادَيْتَ فيَّ عدوًّا؟

(١)**كل** من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في: فتواه، وحكمه في: خبره، وإلزامه، لأن أحكام الرب ـ سبحانه ـ كثيرًا ماتأتي على خلاف أغراض الناس.

ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لاتتم لهم أغراضهم؛ إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم: محبين للرياسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع مايضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له(٢) شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحقُّ ظاهرًا: لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**﴾ [مريم: ٥٩]، وقال ـ تعالى ـ فيهم أيضًا: ﴿**فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ يأخُذونَ عَرَضَ هذا الأدنىٰ ويقولوُن سَيُغفرُ لَنا وإن يَأْتِهِم عرضٌ مثلُهُ يأخُذوهُ أَلَم يُؤخَذْ عليهم مِيْثَاقُ الكتابِ أن لَاّيَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ ودَرسُوا مافِيه والدَّار الآخِرَةُ خَيْرٌ للذين يتَّقُون أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنىٰ، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك،

(١) ٩٨ فوائد.

(٢) الضمير هنا راجع للفظ «كل» الأول، لا للعالم والحاكم فليتفطن لذلك.

وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن: ذلك دينه، وشرعه، وحكمه. فتارة يقولون على الله ما لايعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون، فيعلمون أن: الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

هؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين؛ مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه، فيرى: البدعة سنة، والسنة بدعة؛ فهذه آفة العلماء، إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿**وَاتْلُ عَليهم نَبَأَ الذي آتيناهُ آيَاتِنا فانْسَلَخَ منها فأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوينَ ولو شئنا لرفعنَاهُ بهَا ولَٰكِنَّه أَخْلَدَ إلىٰ الأَرْضِ واتَّبَع هواهُ فمثلُهُ كمثلِ الكلبِ إن تحمِل عليه يلهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]: فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(وتأمل) ماتضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه.

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لايعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة؛ كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل: تبعه، فإن في معنى أتبعه: أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد. والغي: الضلال في العلم، والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ماذكر.

وخامسها: أنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه،

لأنه لم يرفع به، فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنىٰ على الأشرف الأعلىٰ.

وسابعها: أن اختياره للأدنىٰ لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ماهناك، وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة.

بأبنـاء حي من قبـائـل مالك		وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا: بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي: الأرض ومافيها، ومايستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبَّهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات: همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها. وأشدها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا.

وعـاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحـرصـه على تحصيلهـا: بلهث الكلب في حالتي تركـه والحمـل عليه بالطرد، وهكذا. هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لايفارقه في كل حال: كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من: إعياء، أو عطش؛ إلا الكلب، فإنـه يلهث في: حال الكـلال، وحـال الـراحة، وحال الري، وحال العطش. فضرب به الله مثلاً لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس مايكون وأشنعه. فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة.

وأما العـابـد الجـاهل فآفته من إعراضه عن: العلم، وأحكامه، وغلبة خيالـه، وذوقـه، ووجـده، وماتهواه نفسه، ولهذا قال سفيان بن عيينة، وغيره:

احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما: فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور.

وقد ضرب الله ـ سبحانه ـ مثل النوع الآخر بقوله: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُر فلما كَفَرَ قال إِنِّي بريءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِيْنَ فكان عاقِبَتَهُما أَنَّهُما في النَّارِ خَالِدَيْن فيها وذلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِيْنَ**﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]. وقصته معروفة، فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله، وكفّره بجهله، فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولايدري، وذاك إمام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة.

وقد جعل ـ سبحانه ـ رضا العبد: بالدنيا وطمأنينته، وغفلته عن معرفة آياته، وتدبرها، والعمل بها سبب شقائه وهلاكه، ولايجتمع هذان: أعني الرضا بالدنيا، والغفلة عن آيات الرب، إلا في قلب من لايؤمن بالمعاد ولايرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد لما رضي الدنيا، ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله. وأنت إذا تأمّلت أحوال الناس، وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس، وهم عمار الدنيا، وأقل الناس عددًا من هو على خلاف ذلك، وهو من أشد الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم، وإرادته غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم، فهو في واد، وهم في واد، قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّـذِيْنَ لايرجُون لِقَآءنَا وَرضوا بالحياةِ الدُّنْيا واطمأَنُّوا بِهَا والَّذِيْنَ هُم عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولَئِكَ مأوَاهُمُ النَّارُ بِمَا**[1]**كانوا يَكْسِبونَ**﴾ [يونس: ٧، ٨].

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم، بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِيْن آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمُ رَبُّهم بإِيْمانِهِم تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ [يونس: ٩]. فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم: عدم الرضا بالدنيا، والطمأنينة إليها، ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

[2]**وفي** صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفر الرازي، ثنا الربيع بن

---

(١) في المطبوعة «بما يكسبون» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٩ شفاء.

أنس، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ من ظُهورِهِم (١)ذُرِّيَّتهم﴾ قال جمعهم له يومئذ جمعًا ماهو كائن إلى يوم القيامـة، فجعلهم أزواجًا، ثم صورهم، واستنطقهم، فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قالوا بلىٰ شَهِدنا أنْ تَقُولوا يَوْمَ القيامَةِ إنَّا كُنَّا عن هٰذا غافِلينْ﴾ إلى قوله: ﴿المبطلون﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. قال: «فإني أشهد عليكم: السموات السبع، والأرضين السبع؛ وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم، أو تقولوا: إنَّا كنَّا عن هذا غافلين. فلا تشركوا بي شيئًا؛ فإني أرسل إليكم رسلي: يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. فقـالوا: نشهد أنك: ربنا وإلـهنا، لا رب لنا غيرك. ورُفع لهم أبوهم آدم، فرأى فيهم: الغني والفقير، وحسن الصورة وغير ذلك. فقال: رب! لو سويت بين عبـادك فقـال: إني أحب أن أشكـر. ورأى فيهم الأنبياء، مثـل السرج. وذكر تمام الحديث.

وفي صحيحـه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة؛ هو خالقها إلى يوم القيامة: أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: من هؤلاء يارب. فقال: هؤلاء ذريتك. فرأىٰ فيهم رجـلاً، أعجبه وبيص مابين عينيه، فقال: يارب من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم. قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة. قال: يارب زده من عمري أربعين سنة. قال الله: إذًا يكتب ويختم، فلا يبدِّل. فلما انقضىٰ عمر آدم، جاء ه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة. قال له: أو لم تجعلها لابنك داود. قال: فجحد، فجحدت ذريته، ونسي، فنسيت، ذريته، وخطيء، فخطئت ذريته». قال هذا على شرط مسلم.

(٢)وقـال تعـالى: ﴿واتْلُ عليهِم نبأَ الذي آتيناه آياتِنَا فانسَلَخَ منها فَأَتبَعَهُ

---

(١) في المطبوعة «ذرياتهم» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع.　　(٢) ٩٢ مفتاح جـ١.

الشَّيطانُ فكان من الغاوين ولو شئنا لَرفعْناهُ بها ولكنَّه أخلدَ إلى الأرضِ واتَّبع هواهُ فَمثَلُهُ كمثَلِ الكَلْب﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان، فإن هذا آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وآثر الضلال والغي. وقصته معروفة، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسم الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمه، وكان من الغاوين؛ فلو استلزم العلم والمعرفة: الهداية لاستلزمه في حق هذا.

(١)**وقـوله** تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبأ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانسلخ منها فأتبعُه الشيطانُ فكانَ من الغاوينَ ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنَّه أخْلَدَ إلىٰ الأرضِ واتَّبع هواهُ فمثلُهُ كمثلِ الكَلْبِ إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ القومِ الذين كذَّبُوا بآياتِنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يَتفكَّرُون﴾** [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

فشبه سبحانه من آتاه كتابَهُ، وعلَّمه العلم الذي منعه غيرهُ، فترك العمل به، واتبـع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق؛ بالكلب الذي هو مِن أخبَثِ الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسِّها نفسًا، وهمته لاتتعدَّى بطنه، وأشدَّها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لايمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمَّم ويستروح حِرْصًا وشرهًا، ولايزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحَجَـر رجـع إليه ليعضـه من فرط نهمتـه(٢)، وهـو من أمهَنِ الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المَرُوحَة أحبُّ إليه من اللحم الطري، والعذرة أحبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا، إلا هرَّ عليه(٣) وقهره: لحرصه، وبخله، وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية، نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورياسة؛ وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه:

---

(١) ١٦٥ أعلام جـ١.

(٢) نهمته: شهوته البالغة إلى الطعام.

(٣) هرّ عليه: نبحه.

بالكلب في حال لهثه؛ سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ماذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير: لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. واللهف، واللهث: شقيقان، وأخوان في اللفظ والمعنى، قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى، فلا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه: ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث؛ وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكلَ الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع؛ وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدة حرصه؛ فحرارة الحرص في كبدِه توجبُ له دوامَ اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه، توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه المَوْعِظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير: كالكلب، إن كان رابضًا لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لايثبت على الحق، دُعِيَ أو لم يُدْعَ، وعِظَ أو لم يوعَظْ: كالكلب يلهث طُرِدَ، أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من: إعياء أو عَطَش؛ إلا الكلب، فإنه يلهث في: حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب، إن طردته لهث، وإن تركته على

حاله لهث، ونظيره قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَىٰ لايَتَّبِعُوْكُم سوآء عليكم أَدَعَوْتُمُوهُم أم أنتم صامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى، فمنها قوله: ﴿آتيناه آياتنا﴾ فأخبر ـ سبحانه ـ أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فانسلخ منها﴾ أي خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبَّب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فاتبعه الشيطان﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فاتبعوهم مشرقين﴾ وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لاينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظَفَرَ الأسدِ بفريسته، فكان من: الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء، ومنها أنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ فأخبر ـ سبحانه ـ أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي: باتباع الحق، وإيثاره، وقصد مرضاة الله. فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لاينفع.

وأخبر ـ سبحانه ـ: أنه هو الذي يرفع عبده، إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو: موضوع لايرفع أحدٌ به رأسًا، فإن الخافض الرافع ـ سبحانه ـ خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئنا: فضلناه، وشرَّفناه، ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله (لرفعناه) عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكُفْر، بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم: أن السلف كثيرًا ماينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان: أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿ولكنه أخْلَد إلى الأرض﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض،

وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ، والمخلد من الرجال: هو الذي يُبْطيء مشيته. ومن الدواب: التي تبقي ثناياه إلى أن تخرج رباعيته، وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء، ويقال: أخلد فلان بالمكان، إذا أقام به، قال مالك بن نُوَيْرة:

بأبنـاء حَيٍّ من قبـائِلِ مالكٍ وعَمْرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قلت: ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَطُوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدون**﴾ [الواقعة: ١٧]. أي قد خلقوا للبقاء؛ لذلك لايتغيرون ولايكبرون، وهم على سن واحد أبدًا.

وقيل: هم المقرَّطون في آذانهم، والمسوَّرون في أيديهم، وأصحاب هذا القول، فسَّروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافي بين القولين. وقوله: ﴿**واتَّبَعَ هواه**﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دُرَيد: كان هواه مع القوم، يعني: الذينَ حاربوا موسى وقومه. وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على مافعل.

فإن قيل: الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ماأثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته؛ لكني لم أعطه. ولو شئت لما فعلت كذا؛ لكني فعلته؛ فالاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنا لم نشأ، أو لم نرفع، فكيف استدرك بقوله: ﴿**ولكنه أخلد إلى الأرض**﴾ بعد قوله: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها**﴾؟

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مُرَاعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها**﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من: إيثار الله، ومرضاته على هَوَاه، ولكنه آثرَ الدنيا، وأخلد إلى الأرض، واتَّبع هواه.

. . . . (١)**وقال تعالى** ﴿**ولقد ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيراً من الجن والإنس لَهُم قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُون بها ولهم أعينٌ لايُبْصِرُونَ بها ولهُم آذانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا**﴾. [الأعراف: ١٧٩]

(١) ١٠١ مفتاح جـ١.

ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس، كانوا بمنزلة فاقديها. قال ـ تعالى ـ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فالقلب يوصف: بالبصر، والعمىٰ، والسمع، والصمم، والنطق، والبكم؛ بل هذه له أصلاً، وللعين والأذن واللسان تبعا، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى، وإن كان مفتوح العين، أصم ولا آفة بإذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان، قال ـ تعالى ـ: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لايعمل بموجب الحجة، وينقاد لها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُوراً وجعلنا على قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآنِ وحدَهُ وَلَّوا على أدبارِهم نُفُورا﴾ [الإسراء: ٤٦]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه منعهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجة عليهم؛ فإنهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفورًا عند ذكر توحيد الله؛ فلما ولوا عند ذكر التوحيد، دلّ على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذي غشي قلوبهم: كالذي غشي آذانهم، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة، ويصيروا كالأصم.(١)

قاعدة جليلة(٢)

ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: مايرجع إلى قاعدة نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: مايرجع إلى صفات معنوية: كالعليم والقدير، والسميع.

الثالث: مايرجع إلى أفعاله نحو: الخالق، والرزاق.

الرابع: مايرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس السلام.

---

(١) استمر البحث وتطرق في آخره لتقسيم خطاب الله لأهل الكتاب. (ج).

(٢) ١٥٩ بدائع جـ١.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد، نحو: المجيد، العظيم، الصمد. فإن المجيد من: اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع: للسعة، والكثرة، والزيادة. فمنه: استمجد المرخ، والغفار، وأمجد الناقة علفًا. ومنه: ﴿ذُوْ(1) الْعَرْشِ الْمَجِيْدُ﴾ [البروج: ١٥]. صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علمناه ﷺ لأنه في مقام: طلب المزيد، والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته، ودوامه. فأتىٰ في هذا المطلوب باسم يقتضيه كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولايحسن أنك: أنت السميع البصير. فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**». ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد: لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام**». فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه، بأسمائه وصفاته، وماأحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلى المقصود وهو: وصفه ـ تعالى ـ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم: من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال. وكذلك الصمد. قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد. وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الانباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن: الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد: الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد

---

(١) في المطبوعة «رب العرش» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد. وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمي أشرافها: بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك. واجتماع الغنى مع الحمد: كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمَّله: فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض: فلا تدخل في أوصافه تعالى؛ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب، هو لتضمنها ثبوتًا: كقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته. وكذلك قوله تعالى: ﴿**ومامسنا من لغوب**﴾ [قٓ: ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك قوله: ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة**﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ متضمن لكمال صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿**ولم يكن له كُفُواً أحد**﴾ متضمن لتفرده بكماله، وأنه لانظير له. وكذلك قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَار**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ماوصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن مايدخل في باب الإخبار عنه تعالى؛ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء الموجود والقائم بنفسه؛ فإنه يخبر به عنه، ولايدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص؛ لم تدخل بمطلقها

في أسمائه؛ بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا: كالمريد، والفاعل، والصانع؛ فإن هذه الألفاظ لاتدخل في أسمائه؛ ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق؛ بل هو الفعّال لما يريد. فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة؛ ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

الثالث: أنه لايلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا؛ أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل، الفاتن، الماكر تعالى الله عن قوله؛ فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه ـ سبحانه ـ منها إلا أفعال مخصوصة معينة؛ فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه الحسنىٰ هي: أعلام، وأوصاف، والوصف بها لاينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد؛ فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمُّن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنىٰ لها اعتباران اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول؛ مترادفة، وبالاعتبار الثاني؛ متباينة.

السابع: أن مايطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، ومايطلق عليه من الأخبار؛ لايجب أن يكون توقيفيًّا كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض مالم يرد به السمع؟

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل؛ فيخبر به عنه فعلاً ومصدراً نحو: السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿**قَد سَمِعَ اللهُ**﴾ [المجادلة: ١]. ﴿**وقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُوْنَ**﴾ [المرسلات: ٢٣]. هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به نحو: الحي؛ بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حيي.

التاسع: أن أفعال الرب ـ تبارك وتعالى ـ صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم. فالرب ـ تبارك وتعالى ـ فعاله عن كماله، والمخلوق

كماله عن فعاله؛ فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملاً؛ فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله: كمل ففعل، والمخلوق فعل، فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنىٰ والعلم بها؛ أصل للعلم بكل معلوم.

فإن المعلومات سواه: إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا. إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لايخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه. فأمره كله: مصلحة، وحكمة، ورحمة، ولطف، وإحسان؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى. وفعله كله لايخرج عن: العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثًا.

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها؛ أصل للعلم بكل ماسواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها؛ أصل لسائر العلوم. فمن أحصىٰ أسماءه كما ينبغي للمخلوق؛ أحصىٰ جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه؛ أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها.

وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى؛ ولهذا لاتجد فيها خللاً ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله: إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى؛ فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنىٰ، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً.

وقد تقدم أن من أسمائه مايطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت. وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر؛ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، وهذا باطل، فالشر ليس إليه. فكما لايدخل في صفاته ولايلحق ذاته؛ لا يدخل في

أفعاله. فالشر ليس إليه؛ لايضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام وضلَّت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. المرتبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظها وعددها. المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها. المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلىٰ، وكذلك لايسأل إلا بها، فلا يقال: ياموجود، أو ياشيء، أو ياذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب؛ فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمَّل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم؛ وجدها مطابقة لهذا.

وهذه العبارة أولىٰ من عبارة من قال: يتخلَّق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإلـٰه على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان، وهي التعبد.

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمِّن للتعبُّد والسؤال. **فمراتبها** أربع: أشدَّها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلُّق، وأحسن منها عبارة من قال التعبُّد. وأحسن من الجميع الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد: كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والملك، ونحوها.

فقالت: طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد، مجاز في الرب. وهذا قول غلاةالجهمية، وهو أخبث الأقوال وأشدّها فسادًا.

الثاني: مقـابله وهو أنها: حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة وهو الصواب. واختلاف الحقيقتين فيهما لايخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

وللرب تعالى منها مايليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به. وليس هذا موضع التعـرُّض لمأخـذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشـارة إلى أمـور ينبغي معـرفتهـا في هذا البـاب، ولـو كان المقصود بسطها؛ لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفةمن هذا النوع له ثلاثة اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به. الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاتـه وحقيقته؛ كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه مايليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقـدير وسـائـر الأسماء؛ فإن شرط صحة إطلاقها؛ حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى؛ لا محذور فيه بوجه؛ بل ثبتت على وجه لايماثله فيه خلقه ولايشابههم.

فمن نفـاه عنـه لإطلاقه على المخلوق؛ ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه؛ فقد شبهه بخلقه؛ ومن شبه الله بخلقه؛ فقد كفر. ومن أثبته له على وجه لايماثل فيه خلقه؛ بل كما يليق بجلاله وعظمته؛ فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

ومالزم الصفة لإضافتها إلى العبد؛ وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة، والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك مايلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ماينتفع به، ودفع مايتضرر به. وكذلك مايلزم علوه من احتياجه إلى ماهو عال عليه، وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه، محاطًا به. كل هذا يجب نفيه عن: القدوس السلام تبارك وتعالى.

ومالزم صفة من جهة اختصاصه ـ تعالى ـ بها، فإنه لايثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن مايختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا، وعقلتها كما ينبغي؛ خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور؛ أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ حقيقة؛ فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه. فتدبَّر هذا الموضع واجعله (١)أخيَّتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف؛ لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان. فاللفظيان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي: أن يمتنع الاشتقاق لغيره والمعنويان ثبوتي وسلبي. **فالثبوتي**: أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه والسلبي: أن لايعود حكمها إلى غيره، ولايكون خبرًا عنه، وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات.

فلنذكر من ذلك مثالاً واحدًا، وهو صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كانت هو المتكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادىٰ وناجىٰ وأخبر وخاطب وتكلم وكلَّم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره؛ فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به، وبسلبها عن غيره على عدم قيامها به. وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنىٰ لاتدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد؛ فإن الله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت**

---

(١) في المطبوعة «جُنَّتك» ولعل الصواب ماأثبتناه لدلالة الكلام بعدها (ج).

به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمَّى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه. وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده. وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه؛ ولهذا قال: «**استأثرت به**» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي، ﷺ، في حديث الشفاعة: «**فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن**»، وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله، ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**». وأما قوله، ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها؛ دخل الجنة**» فالكلام جملة واحدة. وقوله: «**من أحصاها؛ دخل الجنة**». صفة، لا خبر مستقل.

والمعنى: له أسماء متعددة، من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة.

وهذا لاينفي أن يكون له أسماء غيرها. وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك قد أعدَّهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى، منها مايطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعا به مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: ياعزيز ياحليم ياغفور يارحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده؛ بل مقرونًا بمقابله: كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون: بالمعطي والنافع والعفوّ، فهو المعطي المانع الضار النافع، المنتقم العفوّ، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم: عطاء ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وعفوًا وانتقامًا. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد، الذي

يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرىٰ الاسم الواحد؛ ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه. فلو قلت: يا مذل ياضار يامانع وأخبرت بذلك؛ لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لاتقتضي كمالاً ولا نقصًا، وإن كانت القسمة التقديرية؛ تقتضي قسمًا رابعًا وهو ما يكون كمالاً ونقصًا باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله.

وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته، هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء؛ أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره؛ ليس تفسيرًا بمرادف محض؛ بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال؛ أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير، دون السامع والباصر والناظر. ومن صفات الإحسان: البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشفوق ونحوهما.

وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف. وكذلك الكريم، دون السخي، والخالق الباريء المصور، دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو، دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه فتأمَّل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لاتتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، إلى ماوصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدَّم بيانه كاسمه: العظيم، والمجيد، والصمد.

كما قال ابن عباس، فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لاتنبغي إلا له ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهّار. هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى؛ ففسَّر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا؛ بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه. فتدبره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدَّم من الوجوه، وهومعرفة الإلحاد في أسمائه حتى لايقع فيه. قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته [ل ح د] فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدِّين، المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحد: المائل عن الحق المدخل فيه ماليس منه.

ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الكهف: ٢٧] أي: من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجىء إليه، وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلـهية، والعزى من العزيز. وتسميتهم الصنم إلـهًا، وهذا إلحاد حقيقة؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدَّس من النقائص، كقول أخبث اليهود:

إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال ذلك، مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لاتتضمن صفات ولا معاني؛ فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً، وشرعًا، ولغة، وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله؛ فقد ألحدَ في ذلك؛ فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا. **فهذا** الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله؛ فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنىً؛ بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطَّل حتى كأنه لايعبد إلا عدمًا.

وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب[1].

---

(١) من هنا إلى آخره لم يوجد في المخطوطة.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام مايوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنىٰ إن وجدت قلبًا عاقلاً، ولسانًا قائلاً، ومحلاً قابلاً، وإلا فالسكوت أولىٰ بك. فجناب الربوبية؛ أجل وأعزّ مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا.

وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنىٰ مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد، بريئًا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم.

. . (١) **قلت**: أسماء الرب تعالى، هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة؛ جرىٰ تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم؛ ورد في القرآن غير تابع؛ بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى؛ حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لاينافي دلالته على صفة الرحمن، كاسم الله، فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجيء قط تابعًا لغيره؛ بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها؛ ولهذا لاتجيء هذه مفردة، بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لاينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم؛ ففيه معنىٰ هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمَّل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قط: رحمن بهم؛ فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم

---

(١) ٢٤ بدائع جـ١.

برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك؛ لم ينجل لك صورتها.

[1]**الوجه** الرابع والعشرون: أنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى، فقد تواطأ عليها دليل العقل والسمع، فلا يمكن أن يعارض ثبوتها دليل صحيح ألبتة، لا عقلي ولا سمعي؛ بل إن كان المعارض سمعيًّا؛ كان كاذبًا مفترىً أو مما أخطأ المعارض به في فهمه. وإن كان عقليًّا؛ فهي شبهة خيالية.

واعلم أن هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهمي وناف وفيلسوف، ويعرفها من نوّر الله قلبه بالإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة لا المنكوسة المركوسة.

وقد نبَّه سبحانه في كتابه على ذلك في غير موضع، وبين أن ماوصف به نفسه هو الكمال الذي لايستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب تعالى. فإنه تمدح بكل صفة وصف بها نفسه، وأثنى بها على نفسه، ومجد بها نفسه، وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده؛ ليعرفوا كماله ومجده وعظمته وجماله. وكثيرًا مايذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه، فذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ماهو منتف عن آلهتهم. فيكون ذلك من أدل دليل على بطلان إلـهيتها وفساد عبادتها.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله، مايحدو[2] قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته والمسارعة إلى طاعته. ويذكر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم؛ لتعرف القلوب من تخافه وترجوه. ويذكر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه. فقلَّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين؛ إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين.

---

(١) ١٥٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) بالنسخة: (يجدون) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.

وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلك في زوجها وتَشْتَكِي إلى اللهِ واللهُ يَسمَع تحاوُرَكُما إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ**﴾ [المجادلة: ١]. ويذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله، ﷺ، عنه.

ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لاتنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذكر أسمائه وصفاته؛ روحها وسرها، يصحبها من أولها إلى آخرها. وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته. وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته؛ ففتح لهم باب الدعاء: رغبًا، ورهبًا؛ ليذكره الداعي بأسمائه وصفاته فيتوسل إليه بها؛ ولهذا كان أفضل الدعاء ماتوسَّل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿**ولله الأَسْماءُ الحُسْنىٰ فادْعوُهُ بها**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكان اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: آية الكرسي، وفاتحة آل عمران؛ لاشتمالهما على صفة الحياة المتضمنة لجميع الصفات، وصفة القيوسية المتضمنة لجميع الأفعال؛ ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها.

ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبار عن الرب تعالى وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه.

وسمع النبي، ﷺ، رجلاً يدعو: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت المنان، بديعِ السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام ياحي ياقيوم**». وسمع آخر يقول: «**اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**». فقال لأحدهما: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»، وقال للآخر: «سل **تعطه**»؛ وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وفي الحديث الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**

وغمي؛ **إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحًا**». قالوا: أفلا نتعلمهن يارسول الله؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**».

وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿**ألا يَعْلَمُ مَن خَلق وهو اللَّطيفُ الخَبيْرُ**﴾ [الملك: ١٤]. فتأمَّل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: ﴿**أَفَمَنْ يخلُقُ كَمَنْ لايَخلُقُ أَفلا تَذكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وماأوجزه. وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿**واتَّخذ قَوْمُ موسى مِنْ بعده من حُليِّهم عِجْلاً جَسَدًا له خُوارٌ أَلَمْ يروا أَنَّه لايُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبيلاَ**﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نبه بهذا الدليل على أن من لايكلم ولا يهدي؛ لا يصلح أن يكون إلـهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿**أَفلا يرَوْنَ أَلَّا يَرْجِع إليهم قولاً ولاَ يمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ولا نَفْعًا**﴾ [طه: ٨٩]. فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلاً على عدم الإلـهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإلـه لا بد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعباده الضر والنفع؛ وإلا لم يكن إلـهًا. وقال تعالى: ﴿**أَلَم نَجْعَلْ لَّهُ عينين ولسانًا وَشفَتَيْنْ وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد: ٨-١٠]. نبه بهذا الدليل العقلي القاطع: أن الذي جعلك تتصرف وتتكلَّم وتعلم؛ أولىٰ أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا. وأي دليل عقلي قطعي أقوىٰ من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟! قال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجلٌ يَمْشُونَ بها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَم لَهُمْ أَعينٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لهم آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٩٥]. فجعل سبحانه عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلاً على عدم إلـهية من عدمت منه هذه الصفات.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ماوصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه: بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلاً على عدم إلـهيتها. **فتأمل** آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها؛ تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل.

وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، ومللك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضىٰ والفرح والرحمة كمال؛ فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل. بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال؛ فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ماشاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويجيء إلى حيث شاء غير كمال؛ فهو جاهل بالكمال، والجماد عنده أكمل من الحيى الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

فصل[1]

ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم: علم الساعة، ومعرفة آجالهم.

وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لايحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره. **فإن** كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت، فلولا طول الأمل؛ لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال، وإن كان طويل العمر، وقد تحقَّق ذلك فهو واثق بالبقاء، فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة، وهذا مذهب لايرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده، ولا يقبله منهم، ولاتصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه؛ فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعوامًا، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقَّن أنه صائر إليك؛ لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك، وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبةُ لِلَّذِين يَعْمَلون السَّيِّئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قَالَ إنِّي تُبْتُ الآن﴾ [النساء: ١٨] وقوله: ﴿فلَمَّا رأَوْا بَأسَنا قَالُوا آمنَّا باللهِ وحده وكفرنَا

---

(١) ٢٨٣ مفتاح ج١

بما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِيْنْ. فَلم يَكُ يَنفعُهُم إيْمانُهُم لَمَّا رأوْا بأسْنَا سُنَّتَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِه﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

والله تَعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجىٰ له مغفرة الله وصفحه وعفوه؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب؛ واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنى أمره على أن لايقف عن ذنب، ولايقدم خوفًا ولايدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذ ظفر بالذنب؛ فهذا الذي يخاف عليه: أن يحال بينه وبين التوبة، ولايوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفًا وتعجيلاً، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك؛ شديد على النفس، صعب عليها أثقل من الجبال.

ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لاتطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة، ولا عاجلاً بآجل، كما قال بعض هؤلاء، وقد سئل: أيهما أحب إليك درهم اليوم أم دينار غدًا؟ فقال: لا هذا ولا هذا؛ ولكن ربع درهم من أول أمس، فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله . . .

فصـــل (١)

... **ومنها** مخالفة الحديث صريحَ القرآن: كحديث مقدار الدنيا، «وأنها سبعة آلاف سنة ونحنُ في الألف السابعة».

وهذا من أبينِ الكذب؛ لأنه لو كان صحيحًا لكان كلُّ أحد عالمًا: أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وأحَدٌ وخمسون سنة(٢). والله تعالى يقول: **﴿يَسألونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْسَاهَا قل إنما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ثَقُلَتْ في السمواتِ والأَرضِ لاتأتيكم إلا بغْتَةً يَسْأَلُونك كَأَنَّكَ حَفيٌّ عنها قل إنما عِلْمُهَا عِندَ الله﴾** [الأعراف: ١٨٧]. وقال الله تعالى: **﴿إنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** [لقمان: ٣٤].

وقال النبي ﷺ: **«لا يَعْلَمُ مَتَىٰ تقومُ السَّاعةُ إلا الله»**(٣).

١٤٤ ـ وقد جَاهَرَ بالكَذِبِ بعضُ من يدَّعي في زماننا العلم ـ وهو يَتَشَبَّعُ بما لم يُعْطَ ـ أنَّ رسول الله، ﷺ، كان يَعْلَمُ متىٰ تقومُ السَّاعَة، قيل له: فقد قال في حديث جبريل: **«مـاالمسئول عنها بأعلم من السَّائل»**(٤)، فحرَّفه عن موضعه، وقال: معناه أنا وأنت نعلمها.

١٤٥ ـ وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف. والنبي، ﷺ، أعلم بالله من أن يقول لمن كان يظنه أعرابيًا: أنا وأنت نعلم الساعة. إلا أن يقول هذا الجاهل: إنه كان يعرف أنه جبريل. ورسول الله، ﷺ، هو الصادق في قوله: **«والذي نفسي**

---

(١) ٨٠ المنار المنيف.

(٢) استفيد من هذا أن الشيخ ابن القيم ألف هذا الكتاب في سنة ٧٤٩، أي قبل وفاته بنحو ثلاث سنوات رحمه الله تعالىٰ، وأكرمه برضوانه.

(٣) هو جزء من حديث ابن عمر عن النبي، ﷺ، قال: **«مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: ١ ـ لايعلم مافي غدٍ إلا الله، ٢ ـ ولا يعلَمُ ماتغيضُ الأرحامُ إلا الله. ٣ ـ ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله. ٤ ـ ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت، إلا الله. ٥ ـ ولا يعلمُ متى تقوم الساعة إلا الله»**. رواه البخاري ٨: ٢٨٤ و١٣: ٣٠٩.

(٤) رواه عن عمر بن الخطاب مسلم ١: ١٥٧، وأبو داود ٤: ٣٠٩، والنسائي، ٨: ٩٧، وعن أبي هريرة البخاري ١: ١٠٦ و٨: ٣٩٥، ومسلم ١: ١٦٢ ـ ١٦٥ وأبو داود ٤: ٣١٠، والنسائي ٨: ١٠١.

بيده ما جاءَني في صورة إلا عرفته، غيرَ هذه الصُّورة»(١).

١٤٦ ـ وفي اللفظ الآخَر: **«ماشُبِّه عليَّ غير هذه المرة»**(٢).

١٤٧ ـ وفي اللفظ الآخر: **«رُدُّوا عليَّ الأَعرابي، فذهبوا فالتمسوا، فلم يجدوا شيئًا»**(٣).

١٤٨ ـ وإنما عَلِمَ النبي، ﷺ، أنه جبريل بعد مدة، كما قال عمر: فلبثت مليًّا، ثم قال النبي، ﷺ: **«ياعمر، أتدري من السائل»**(٤)؟ والمحرِّفُ يقول: عَلِمَ وقتَ السؤال أنه جبريل، ولم يُخْبِر الصحابة بذلك إلا بعد مدة.

١٤٩ ـ ثم قولُه في الحديث: **«ماالمسئول عنها بأعلم من السَّائل»** يَعُمُّ كلَّ سائل ومسئول. فكلُّ سائل ومسئول عن هذه الساعة شأنُهما كذلك.

ولكن هؤلاء الغُلاة عندهم: أنَّ عِلْم رسول الله، ﷺ، منطَبِق على علم الله،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث ابن عمر في «مسند عمر» ١: ٥٣، ولفظُه: قال النبي ﷺ: «التمَسوه»، فلم يجدوه، قال: **«هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم، ما أتاني في صُورة إلا عرفتُه غيرَ هذه الصـورة»**. وروى الـطبراني في «الكبـير» من حديث ابن عمر أيضًا: فقال النبي، ﷺ: **«عليَّ بالرجل»**، فقمنا وقمتُ أنا إلى طريق من طرق المدينة فلم نر شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: **«هل تدرون من هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هذا جبريل يعلمكم مناسك دينكم، ماجاءني في صورة قط إلا عرفتـه إلا في هذه الصورة»**. قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١: ٤١ وقد ذكَرَ هذا الحـديث عن الـطبراني: «ورجـالهُ موثقون». وانظر ما علّقه الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث في «المسند» ١: ٣١٤.

(٢) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» من طريق سليمان التيمي، ولفظُه: ثم نَهَضَ فولّى، فقال رسول الله ﷺ: **«عليَّ بالرجل»**، فطلبناه كلَّ مطلب، فلم نَقدر عليه، فقال: **«هل تدرون من هذا؟ هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم. خُذوا عنه، فوالذي نفسي بيده ماشُبِّه عليَّ منذ أتاني قبلَ مرتي هذه، وما عَرفتُه حتى ولَّى»**. ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١: ١٠٦ و ١١٥.

وفي «المسند» للإمام أحمد في «مسند أبي عامر الأشعري رضي الله عنه» ٤: ١٢٩ و ١٦٤: «ثم ولّى، فلمّا لم نَرَ طريقه بعد، قال النبي، ﷺ: **«سبحان الله ـ ثلاثًا ـ هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم، والذي نفسُ محمّد بيده ماجاءني قط إلا وأنا أعرفه إلا أن تكون هذه المرّة»**.

(٣) تقدّم آنفًا في رواية: «المسند» ١: ٥٣ عن ابن عمر قال: «التمسُوه، فلم يجدوه». وفي رواية البخاري ٨: ٣٩٥ ومسلم ١: ١٦٤. من حديث أبي هريرة ـ واللفظ لمسلم ـ: فقال ﷺ: **«رُدّوا عليَّ الرجل، فأخذوا ليردّوه فلم يروا شيئًا»**.

(٤) هو لفظ رواية مسلم ١: ١٥٩.

سواءً بسـواء(١)، فكـلُّ مايعلمه الله يعلمه رسول الله، ﷺ. والله تعالى يقول: ﴿**وممَّنْ حولَكُم مِنَ الأَعـراب منـافِقُـون ومن أَهْـلِ المـدينـة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم**﴾ [التوبة: ١٠١]. وهذا في «براءَة» وهو في أواخر (براءَة) وهي من أواخر مانَزَلَ من القُرآن. هذا والمنافقون جيرانُه في المدينة.

١٥٠ ـ ومن هذا(٢) حديثُ: «**عِقد عائشة رضي الله عنها لمَّا أرسَلَ في طلبه، فأَثاروا الجملَ فوجدوه**»(٣).

١٥١ ـ ومن هذا حديثُ: تلقيح النَّخْلِ، وقال: «**ما أرىٰ لو تركتموه يضرُّه شيءٌ**» فتركوه فجاءَ شِيصًا(٤)، فقال: «**أنتم أَعلمُ بدنياكم**»(٥). وقد قال الله تعالى: ﴿**قل لا أَقولُ لكُم عِنْدِي خَزَائِنُ الله ولا أَعلَمُ ٱلْغَيْب**﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال: ﴿**ولو كنتُ أَعلَمُ ٱلغَيبَ لاستَكثرتُ من الخيْر**﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولما جرىٰ لأُمِّ المؤمنين عائشـة ماجرىٰ، ورماها أهلُ الإفك بما رموها به؛ لم يكن، ﷺ، يَعْلَمُ حقيقة الأمر، حتى جاءَه الوحي من الله ببراءتها.

١٥٢ ـ وعند هؤلاء الغُلاة: أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم الحال على حقيقته بلا ريبة، واستشار الناس في فراقها ودعا الجارية فسأَلها، وهو يعلم الحالة، وقال لها: «**إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله**» وهو يعلم علمًا يقينًا أنها لم تلم بذنب، ولا ريب أن الحامل لهؤلاء على الغلو؛ إنما هو اعتقادهم أنه يُكَفِّرُ عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة، وكلما غلوا وزادوا غُلُوًّا فيه كانوا أقرب إليه وأخص به؛ فهم أعصىٰ النـاس لأمره، وأشدهم مخالفة لسنته، وهؤلاء فيهم شبه ظاهر من النصارى الذين غلوا في المسيح أعظم الغلو، وخالفوا شرعه ودينه أعظم المخالفة.

---

(١) قال الشيخ علي القاري: «ومن اعتقد تسوية علم الله ورسوله يكفر إجماعًا، كما لايخفى». انتهى من آخر: «الموضوعات الكبرى» من الفصل (١٦).

(٢) أي من الغيب الذي لايعلمُه ولم يعلمه رسول الله، ﷺ.

(٣) رواه البخاري (١/ ٣٦٥)، (٨: ٢٠٥).

(٤) هو التمر الذي لايشتد نواه.

(٥) رواه مسلم بنحو هذا اللفظ منن طرق متعددة ١٥: ١١٦ ـ ١١٨، وابن ماجة ٢: ٨٢٥، والإمام أحمد في «المسند» من حديث أنس ٣: ١٥٢، وحديث عائشة ٦: ١٢٣، وفي جميع الطرق لم أر الألفاظ التي ذكرها المؤلف، فالظاهر أنه رواه بالمعنى.

والمقصود: أن هؤلاء يصدقون بالأحاديث المكذوبة الصريحة، ويحرفون الأحاديث الصحيحة عن مواضعها لترويج معتقداتهم.

(١)**فنقول:** قد استقرت حكمة الله ـ عز وجل ـ في خلقه وأمره على وقوع **التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع وهروبه من مخالفه ونفرته عنه بالطبع. فسرُّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي؛ إنما هو التناسب، والتشاكل والتوافق. وسر التباين والانفصال؛ إنما هو لِعدم التشاكل والتناسب. وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر. والضد عن ضده** هارب، وعنه نافر، وقد قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نفسٍ وَّاحِدَةٍ وَّجَعَلَ منها زَوجها لِيَسكُن إليها**﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته؛ كونها من جنسه وجوهره. فعلة السكون المذكور، وهو الحب؛ كونها منه. فدلَّ على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح: عن عائشة عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**الأرواح جنودٌ مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف**».

وفي مسند الإمام أحمد وغيره: عن أبي هريرة في سبب هذا الحديث: «أن امرأة كانت بمكة تُضْحِك الناس. فجاءت إلى المدينة. فنزلت على امرأة تضحك الناس. فقال النبي ﷺ: **الأرواح جنود مجندة**...» الحديث.

وقد استقرت شريعته سبحانه؛ أن حكم الشيء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبدًا، ولا تجمع بين متضادين. ومن ظن خلاف ذلك: فإما لقلة علمه بالشريعة، وإما لتقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى الشريعة ما لم ينزل به سلطانًا؛ بل يكون من آراء الرجال. فبحكمته وعدله؛ ظهر خلقه وشرعه. وبالعدل والميزان، قام الخلق والشرع، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين. هذا كما أنه ثابت في الدنيا. فهو كذلك يوم القيامة. قال تعالى: ﴿**احشرُوا الَّذين ظَلَمُوا وأزْواجَهُم وما كانوا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ فاهدُوهُم إلىٰ صِرَاطِ الجَحِيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

---

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعده الإمام أحمد: «أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم». وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] أي: قُرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره. فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب، شاء أم أبىٰ . . .

(١)**والله** تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زَوْجَها لِيسكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية؛ لوجب أن لا يُسْتَحْسَنَ الأنقصُ من الصور، ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيدًا لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

(٢)**قوله** تعالىٰ: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمرَّت به فلمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوا ٱللهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالحًا لنكونَنَّ من الشَّاكِرِيْنَ فَلَمَّا آتَاهُما صَالحًا جَعَلَا له شُركَآءَ فِيمَا آتَاهُما فَتَعالىٰ الله عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فالنفس الواحدة وزوجها آدمُ وحوآء، واللذان جعلا له شركآء فيما آتاهما المشركون من أولادهما. ولايلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لايعيش لهما ولدٌ؛ فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه عبدالحارث ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿يَسْألونَك عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هي مواقيتُ للنَّاسِ والحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿ولَيْسَ البرُّ بأَن تَأْتُوا الْبُيوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ٨٩]. فإنهُمْ كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأَهلَّةِ استطرد منه إلى ذكر مايفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُم فَادْعُوهم

(١) ٨٦ روضة. (٢) ٣٠٨ روضة.
(٣) ١٤٩ أعلام جـ١.

فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتمْ صادِقِين أَلَهُم أَرجُلٌ يَمْشُون بِهَا أَمْ لَهُم أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها أَم لَهُم أَعينٌ يُبصرون بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥]. فبين سبحانه أن هذه الأصنام أشباح وصُور خالية عن صفات الإلـهية، وأن المعنى المعتبر معدومٌ فيها، وأنها لو دُعِيَتْ لم تُجِبْ، فهي صور خالية عن أوصاف ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريرًا بقوله: **﴿أَلَهُم أرْجُلٌ يَمْشُونَ بها أمْ لَهُم أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أم لهم أعينٌ يُبْصِرُون بِهَا أم لَهُم آذانٌ يَسمعون بِهَا﴾** [الأعراف: ١٩٥].

أي: إن جميعَ ماهذه الأصنام من الأعضاء التي نَحَتَتْها أيديكم إنما هي صُوَر عاطلة عن حقائقها وصفاتها؛ لأن المعنى المراد المختص بالرِّجل هو مَشْيها، وهو معدوم في هذه الرجل؛ والمعنى المختص باليدِ هو بَطْشُها وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها وهو معدوم في هذه العين، ومن الأُذنِ سمعُها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني، فاستَوَى وجودُها وعدمُها، وهذا كله مُدْحِض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثِّرة والوصف المقتضي للحكم، والله أعلم.

(١)**فقال تعالى: ﴿أمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسمَعُوْنَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُم إلَّا كالأَنْعامِ بَلْ هُم أضلُّ سَبِيْلًا﴾** [الفرقان: ٤٤] ولهذا نفى الله عن الكفَّار: السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فَنُزِّلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها؛ ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: **﴿لَو كُنَّا نَسمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ماكُنَّا في أصحاب السَّعيْر﴾** [الملك: ١٠] ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: **﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إليكَ وَهُم لايُبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ١٩٨]. فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي، ﷺ، بالحواس الظاهرة، ولايبصرون صورة نبوته، ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: أن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي: كأنهم ينظرون إليك. ولا أبصار لهم يرونك بها.

---

(١)

والثاني: المراد به المقابلة. تقول العرب: داري تنظر دارك. أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم. وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم. وهو سمع القلب. فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء. ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب. فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب. ولزال عنهم الصمم والبكم. ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة مَنْ عَدِم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم. فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل. فتتم قوته وحياته، وسروره ونعيمه، وبهجته. وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث. وإذا فسد غذاؤه: خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب مافسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه ونقص.

(١) **قوله** تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه.

قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم.

(٢)**وقد** جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ. وَأْمُرْ بِالعُرْفِ. وَأَعرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه، ﷺ، بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال: رسول الله، ﷺ، لجبريل: «ما هذا؟» قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل.

---

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١. (٢) ٣٠٥ مدارج جـ٢.

ثم رجع إليه. فقال: «إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

ولا ريب أن للمطاع من الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم مايبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ له معارض. وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه: في أمرهم ونهيهم؛ أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه من الطاعة: أن يأخذ منهم ماسهل عليهم، وطوَّعت له به أنفسهم، سماحةً واختيارًا، ولايحملهم على العَنَت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه، الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿**خُذِ العَفوَ وأْمُرْ بالْعُرفِ. وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيْنَ**﴾.

قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل: قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**وَيَسْألونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفو**﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿**وأْمُرْ بالعرف**﴾ وهو كل معروف، وأعرفه؛ التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد. ثم قال تعالى: ﴿**وأعرِض عَن الجاهِلين**﴾ يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا**﴾ [الفرقان: ٦٣]. وعلى هذا فليست بمنسوخة؛ بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولاينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه، ﷺ. قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله، ﷺ، أحسن الناس خلقًا» وقال: «مامسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله، ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله، ﷺ، ولقد خدمت رسول الله، ﷺ، عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألافعلت كذا» متفق عليهما.

(١)**وقال** تعالى: ﴿هذا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى ورحمةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الأَلْبَاب ما كان حديثًا يُفْتَرىٰ ولكن تَصْدِيقَ الَّذي بيْنَ يَدَيْه وتفصيل كُلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشفاءٌ لِمَا في الصُّدُور وهُدىً وَرَحمةٌ للمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَذا بصآئِرُ مِنْ رَبِّكُم﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿وهدىً ورحمة لقوم يوقنون﴾ خاص بأهل اليقين. ونظير ذلك قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وهُدىً ورحمةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلمُتَّقِين﴾ البقرة: ٢]، وقوله: ﴿يَهْدِي به الله مَن اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]. ونظيره أيضًا قوله: ﴿هَذَا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقد أخبر أنه هُدًى عام لجميع المكلفين. فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم الهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بَصيرة، وهي فعيلة بمعنى: مُفعِلة، أي: مبصرة لمن تبصَّر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي: مُبَيِّنَةً موجبة للتبَّصر. وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًّا، يقال: أبصرته، بمعنىٰ أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته. فمُبْصِرَة في الآية: يعني مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلِطوا في الآية، وتحيَّروا في معناها. فإنه يقال: بَصُر به، وأبصره، فيُعَدَّىٰ بالباء تارة، والهمزة تارة.

---

(١) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ثم يقال: أبصرته كذا، أي: أريته إيَّاه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُر هو به.

فههنا بَصيرة، وتَبْصِرَة، ومبصِرة، فالبصيرة: المبينة التي تُبْصر، والتَّبصرة مَصْدَر، مثلُ التَّذكرَة، وسُمِّي بها مايُوجِب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبْصِرةٌ، لكونها آلَة التبصُّر، ومُوجِبه.

فالقرآن بصيرةٌ وتَبصرَة، وهُدًى وشفاء، ورَحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاصٍ؛ ولهذا يَذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هُدًى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهُدًى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين(١)، فهو في نفسه هُدًى ورحمة، وشِفاء وموعظة.

فمن اهتـدَىٰ به واتَّعظ واشْتَفَى؛ كان بمنزلة مَنْ استعملَ الدَّوَاء الذي يَحْصُـل به الشفاء، فهو دواءٌ له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوَّة، وكذلك الهدَى؛ فالقرآن هدًى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يَهْتَدِ به، فإنما يُهتـدَىٰ به ويُرْحَم، ويَتَّعِظُ المتقـون الموقنون. والهدى في الأصل: مصدرُ هَدى يهدي هدًى.

فمن لم يعملْ بعلمه لم يكن مُهْتدَياً، كما في الأثر: «**من ازداد علمًا ولم يزدد هُدًى لم يزدَدْ من الله تعالى إلا بُعدًا**» ولكن يسمَّى هُدًى؛ لأن مِنْ شَأنِه أنْ يهديَ.

وهذا أحسنُ من قول من قال: إنـه هُدًى، بمعنى: هادٍ، فهـو مَصْدَرٌ بمعنىٰ: الفاعل، كعَدْل بمعنىٰ: العادل، وزَوْر بمعنىٰ: الزائر، ورجُل صَوْمٌ أي بمعنى: صـائم، فإن الله سبحانه قد أخبرَ أنه يَهْدِي به. فالله الهادي، وكتابه الهُدَىٰ الذي يهْدِي به على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

فههنا ثلاثـةُ أشياء: فاعـلٌ، وقـابلٌ، وآلةٌ، فالفاعل؛ هو الله تعالى، والقابل؛ قلبُ العبدِ، والآلةُ؛ هو الذي يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزَّل، والله سبحانه يَهدي خلقه هُدًى، كما يقال: دَلَّهم دِلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبَيَّن لهم بَيانًا.

والمقصود: أن المحلَّ القابلَ هو قلبُ العبد المتَّقي، المُنيب إلى رَبِّه، الخائف

---

(١) لعل هذا تكرار.

منه، الذي يَبْتغي رِضاه، ويهرَبُ من سَخَطه، فإذا هداه الله فكأنَّه وصلَ أثرُ فعله إلى محلٍّ قابـل، فيتأثَّر به، فصارَ هُدًى له وشفاء ورحمةً وموعظةً بالوجود والفعلِ والقبـول، وإذا لم يكن المحلُّ قابلاً؛ وصل إليه الهُدى فلم يُؤثِّر فيه، كما يصلُ الغِذاء إلى محلٍّ غير قابل للاغتذاء، فإنه لايؤثِّرُ فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى في السورة التي نزَّلها: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون وأما الذين في قُلوبهم مَرَضٌ فزادتهُم رجْسًا إلى رجْسِهم﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقال: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ماهُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمؤمِنِينَ ولا يَزيدُ الظَّالمينَ إلا خَسارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون: لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعـدم فعـل الفاعل، وهو الهادي تارة، ولايحصلُ الهُدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

فصـــل(١)

قال: «والـذكر: هو التخلص من الغفلة والنسيان». والفرق بين الغفلة والنسيان: أن «الغفلة» ترك باختيار الغافل، و«النسيان» ترك بغير اختياره؛ ولهذا قال تعـالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِّنَ الْغَـافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. ولم يقل: ولا تكن من الناسين. فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه.

قال: «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى، الذكر الظاهر: ثناءً، أو دعاءً، أو رعاية». يريد بالظاهر: الجاري على اللسان، المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللساني؛ فإن القوم لايعتدون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر». **وأما** ذكـر الدعاء فنحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا. وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِيْنَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. و «**ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث**» ونحو ذلك. **وأما** ذكـر الـرعـاية: فمثـل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إليَّ. الله شاهـدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة

---

(١) ٤٣٤ مدارج جـ٢.

القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس. **والأذكار** النبوية تجمع الأنواع الثلاثة؛ فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرُّض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث: «**أفضل الدعاء الحمد لله**». قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية بن الصلت لعبدالله بن جُدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني ... حباؤك؟ إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوق بالثناء عليه، فكيف برب العالمين. والأذكار النبوية متضمنة أيضًا لكمال الرعاية ومصلحة القلب من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان. والله أعلم.

(١)**أعظم** الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها؛ هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم. **أما** الغفلة فمضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه أهلها ونهىٰ عن السكون منهم وطاعتهم والقبول منهم. قال تعالى: ﴿**ولا تكن من الغافلين**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿**ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿**ولقد ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كثيراً مِنَ الجنِّ والإنسِ لَهُم قُلوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بها ولَهُم أعينٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا ولَهُم آذانٌ لَّا يَسْمَعونَ بِهَا أُولَئِكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولَئِكَ هُم الغَافِلُونَ**﴾ الأعراف: ١٧٩].

وقال النبي، ﷺ، في وصيته لنساء المؤمنين: «**لا تغفلن فتنسين الرحمة**».

وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان. . .

(٢)**والمقصود**: أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان، سببهما؛ عدم العلم، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة، والكمال كله إلى العلم والعزيمة. **والناس** في هذا على أربعة أضرب:

---

(١) ١١٢ مفتاح جـ١.
(٢) ١١٤ مفتاح جـ١.

الضرب الأول: من رزق علمًا وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهـذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾. وقوله: ﴿أولي الأَيديْ والأَبْصار﴾ [صۤ: ٤٥].

وبقوله: ﴿أو من كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَّمشِيْ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا الضرب؛ هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكم الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ﴾ وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرهُم يَسْمَعُـونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُم إِلَّا كالأَنْعَـام بَل هُمْ أَضَـلّ سَبِيْلاً﴾ [الفرقان: ٤٤] وبقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسمِعُ الْمَوتىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، ويتعلمون ولكن مايضرهم ولاينفعهم. وينطقون، ولكن عن الهوى ينطقون. ويتكلّمون، ولكن بالجهل يتكلمون. ويؤمنون، ولكن بالجبت والطاغوت، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله ما لايضرهم ولاينفعهم، ويجـادلـون ولكن بالباطل؛ ليدحضوا به الحق. ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول يبيتون، ويدعون ولكن مع الله إلـهًا آخر يدعون، ويذكرون ولكن إذا ذكروا لايذكرون، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءُون ويمنعون الماعون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم: ثم يقولون، هذا من عند الله؛ ليشـــتروا به ثمنـًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبـون، ويقـولون: إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون! فهذا الضرب ناس بالصـورة، وشياطين بالحقيقة، وجلهم إذا فكرت فهم: حمير، أو كلاب، أو ذئاب وصدق البُحْتُرِيِ في قوله:

لم يبقَ من جل هذا الناس باقية　　ينـالهـا الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر
في شجر السرو منهم مثل لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسندة**﴾ [المنافقون: ٤] علمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدري البعير إذا غدا بأوساقه أوراح مافي الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح، قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ واللهُ لاَيَهْدِي الْقَومَ الظَّالِمِيْنَ**﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث: من فتح له باب العلم، وأغلق عنه باب العزم والعمل. فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه. وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**» ثبته أبو نعيم وغيره، فهذا جهله كان خيرًا له وأخف لعذابه من علمه، فما زاده العلم إلا وبالاً وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه؛ فإن التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهدِي اللهُ قَومًا كَفرُوا بَعْدَ إِيمانِهم وَشَهدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُم البيِّنات وَاللهُ لا يَهْدِي القَوم الظَّالِمِيْنَ**﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رزق حظًا من العزيمة والإرادة، ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداعٍ من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿**ومن يُطِع اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أنعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّن وَالصِّدِّيقين والشُّهَداء والصَّالحينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيْقًا ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وكفَى بِاللهِ عَلِيْمًا**﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]. رزقنا الله من فضله، ولا حرمنا بسوء أعمالنا إنه غفور رحيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعراف والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فصل في غزوة بدر الكبرى

فلما كان في رمضان من هذه السنة(٢)؛ بلغ رسول الله (ﷺ) خبر العير المقبلة من الشام لقريش، صحبة أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقريش. فندب رسولُ الله (ﷺ) الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، فلم يحتفل لها احتفالاً بليغًا، لأنه خرج مسرعًا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكِنْدي. وكان معهم سبعون بعيرًا، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد. وكان رسول الله، (ﷺ) وعلي بن أبي طالب، ومرثَد بن أبي مَرْثَد الغنوى يعتقبون بعيرًا، وزيد بن حارثة وابنه، وكبشة، موالى رسول الله (ﷺ) يعتقبون بعيرًا، وأبو بكر، وعمر، وعبدالرحمن بن عوف، يعتقبون بعيرًا. واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم فلـ كان بالرَّوحاء رَدَّ أبا لبابة بن عبدالمنذر، واستعمله على المدينة. **ودفع** اللواء إلى مُصْعب بن عُمير الرواية الواحدة،(٣) إلى علي بن أبي طالب، والأخرى التي للأنصار: إلى سعد بن معاذ. وجعل على السَّاقَة قيس بن أبي صَعْصَعَة، وسار فلما قرب من الصفراء بعث بَسْبَسَ(٤) بن عمر الجهني، وعدي بن أبي الزِّغْباء الجهني، إلى بَدْر يتجسَّسان أخبار العير.

وأما أبو سفيان: فإنه بلغه مخرج رسول الله، (ﷺ) وقَصْده إياه، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفاري إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم، لتمنعوه من محمد وأصحابه. وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مسرعين؛ وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد، سوى أبي لهب، فإنه عَوَّض عنه رجلاً

(١) ٢١٦ زاد المعاد جـ٢. (٢) أي: السنة الثانية من الهجرة.

(٣) هكذا بالنسخة (الرواية الواحدة) ولعله: والراية الأولى. المراجع.

(٤) بسبس: بباءين بنقطة واحدة. وفي مسلم من حديث أنس «بسبسة».

كان له عليه دين[١]، وحشدوا مَنْ حولهم من قبائل العرب، ولم يختلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد. وخرجوا من ديارهم كما قال الله: ﴿بَطَرًا ورِئَاءَ النَّاسِ وَيصُدُّونَ عن سَبِيلِ الله﴾ [الأنفال: ٤٧]. وأقبلوا كما قال رسول الله، (ﷺ): «بَحدِّهم وحديدهم، تحاد الله وتحاد رسوله» وجاءوا على حَرْدٍ قادرين، وعلى حَمِيَّةٍ وغضب وحَنَق على رسول الله (ﷺ) وأصحابه، لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي والعير التي كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تواَعَدتُّمْ لَاختَلَفْتُمْ في الْميعادِ وَلٰكِن لِيَقْضِيَ الله أمرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما بلغ رسول الله (ﷺ) خروج قريش، استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيًا، فتكلموا أيضًا فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثًا، ففهمت الأنصار أنه يَعْنِيهم، فبادر سعد بن معاذ، فقال: «يارسول الله، كأنك تُعَرِّضُ بنا». وكان إنما يَعْنِيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم، فقال له سعد: «لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها: أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظْعَن حيث شئت، وصِلْ حَبْلَ من شئت، واقطع حبل من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعطنا منها ما شئت، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البَرْكَ من غَمدان لَنَسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خُضْنَاه معك» وقال له المقداد: «لا نقول لك، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذهبْ[٢] أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا هٰهنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك» فأشرق وجه رسول الله (ﷺ) وَسُرَّ بما سمع من أصحابه[٣]، وقال: «سيروا

---

(١) هو العاص بن هشام بن ربيعة. كما في سيرة ابن هشام وغيره.

(٢) في المطبوعة «اذهبْ» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) رواه البخاري من حديث عبدالله بن مسعود قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ـ الحديث» وأبوالمقداد هو عمرو بن ثعلبة. والأسود بن عبد يغوث الزهري حالفه، فتبناه فنسب إليه. وهو المقداد الكندي أيضاً. لأنه أصاب دماً في بهراء ـ قبيلته ـ فهرب منه إلى كندة فحالفهم، ثم أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكة، فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري.

وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مَصَارِعَ القوم».

فسار رسول الله (ﷺ) إلى بدر. وخفض أبو سفيان، فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلى قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم، فأتاهم الخبر وهم بالجُحْفة، فهموا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع، حتى نقدم بدرًا، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك، وأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زُهْرة، فلم يشهد بدرًا زهري، فاغتبطت بنو زهرة بعدُ برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع، فساروا.

وسار رسول الله (ﷺ) حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، فقال: **«أشيروا عليَّ في المنزل»** فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلبها، إن رأيت أن نسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها ونسبق القوم إليها، ونُغَوِّر ما سواها من المياه؟ وسار المشركون سِراعًا يريدون الماء.

وبعث (ﷺ) عليًّا وسعدًا والزبير إلى بدر يلتمسون الخبر، فقدموا بعبدين لقريش، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلي، فسألهما أصحابه: لمن أنتما؟ فقالا: نحن سقاة لقريش، فكره ذلك أصحابه، وودوا لو كانا لعير أبي سفيان. فلما سلم رسول الله (ﷺ) قال لهما: **«أخبراني أين قريش؟»** قالا: وراء هذا الكثيب، فقال: **«كم القوم؟»** فقالا: لا علم لنا، فقال: **«كم ينحرون كل يوم؟»** قالا: يوما عشرًا، ويومًا تسعًا، فقال رسول الله (ﷺ): **«القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»** وأنزل الله - عز وجل - عليهم في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلاً شديدًا، منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طَلًّا طهرهم به، وأذهب عنهم رِجْس الشيطان، ووطَّأ به الأرض، وَصَلَّب به الرملَ، وثَبَّت به الأقدام، ومهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم فسبق رسول الله (ﷺ) وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شَطْرَ الليل، وصنعوا الحِياضَ، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله (ﷺ) وأصحابه على الحياض، وبُنِيَ لرسول الله (ﷺ) عريش يكون فيه على تَلٍّ مُشرِف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده **«هذا مصرع**

فلان، وهـذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله» فما عدا أحد منهم موضع إشارته.

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعان: قال رسول الله (ﷺ): «**اللهم هذه قريش، جاءت بخيلها وفخرها، جاءت تحاربك وتكذب رسولك**» فقام ورفع يديه، واستنصر ربه، وقال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك**» فالتزمـه الصديق من ورائه، وقال له: «يارسول الله! أبشر، فو الذي نفسي بيده، لَيُنْجِزَنَّ الله لك ما وعدك» واستنصر المسلمون الله واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته ﴿**أنِّي مَعَكُم، فَثبتُوا الَّذِينَ آمنُوا، سَأُلقِي فِي قلوب الَّذِينَ كَفـرُوا الرُّعْبَ**﴾ [الأنفال: ١٢]. وأوحى الله إلى رسوله ﴿**أَنِّي مُمِدُّكم بألفٍ مِن الملآئكةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩]. قرىء بكسر الدال وفتحها، فقيل: المعنى: أنهم رِدْفٌ لكم، وقيل: يَرْدِفَ بعضهم بعضًا أَرْسَالاً، لم يأتوا دَفعة واحدة.

فإن قيل: هٰهنا ذكَر أنه أمَدَّهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿**إذ تَقُول لِلمؤمِنينَ: أَلَنْ يكفيكُمْ أنْ يُمدَّكُمْ ربُّكم بثَلاثَةِ آلافٍ مِّن الملآئكَةِ منزَلِينَ؟ بلىٰ، إنْ تَصبرُوا وتَتَّقُوا، وَيَأتُوكُم مِنْ فَوْرِهِم هٰذَا: يُمددْكُم رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الملائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]. فكيف الجمع بينهما؟

قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي هو بثلاثة آلاف، والذي هو بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أُحُد. وكان إمدادًا مُعَلَّقًا على شرط. فلما فات شرطه فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

وَالثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة، والرواية الأخرى عن عكرمة، واختاره جماعة من المفسرين.

وحجـة هؤلاء: أن السياق يدل على ذلـك، فإنه سبحانه قال: ﴿**وَلَقَد نَصرَكُم الله ببَدْرٍ وأنتُم أذلَةٌ، فاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ، إذْ تَقُول للمُؤمنِينَ: أَلَنْ يَكفِيَكُم أنْ يُمـدَّكُم رَبُّكُم بِثَـلاَثَةِ آلافٍ مِن الملآئِكَةِ مُنْزَلِينَ؟ بَلىٰ، إنْ تَصْبرُوا وَتَتَّقُوا**﴾ ـ إلى أن قال: ﴿**وما جعله الله**﴾ ـ أي: هذا الإمداد ـ ﴿**إلَّا بُشْرَى لَكُم، وَلِتطَمئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ**﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

قال هؤلاء: فلما استغاثوا: أَمَدَّهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة

آلاف، لما صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد: أحسن موقعًا، وأقوى لنفوسهم، وأسَرَّ لها من أن يأتي مرة واحدة. وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أُحُد. وإنما أدخل ذكر بَدْر اعتراضًا في أثنائها. فإنه سبحانه قال: **﴿وإذ غدَوْتَ من أهلِكَ تُبَوِّىء المؤمنين مَقَاعِدَ للقتال، والله سميعٌ عليمٌ. إذ هَمَّتْ طَآئفتان مِنكم أن تَفْشَلا. والله وَلِيُّهُمَا وَعَلى الله فَلْيَتوكَّل المُؤمِنُونَ﴾** [آل عمران: ١٢١ - ١٢٢]. ثم قال: **﴿وَلَقَد نصَرَكُمُ الله بِبَدرٍ وأنتُم أذلَّةٌ، فَاتَّقوا الله لَعلَّكُم تَشكُرونَ﴾** [آل عمران: ١٢٣]. فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد. وأخبر عن قول رسوله لهم: **﴿ألَنْ يَكْفِيَكُم أن يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينْ﴾** [آل عمران: ١٢٤]. ثم وعدهم - إن صبروا واتقوا - أن يمدهم بخمسة آلاف. فهذا من قول رسوله. والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق. والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضًا. والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا: أن قوله **﴿وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَورِهِم هٰذا﴾** [آل عمران: ١٢٥]. قد قال مجاهد: «هو يوم أحد» وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد. والله أعلم.

فصل

وبات رسول الله (ﷺ) يصلي إلى جِذْع شجرة هنالك، وكانت ليلةَ الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كَتائبها، واصطفَّ الفريقان، فمشى حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة في قريش أن يرجعوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل. وجرى بينه وبين عتبة كلام أحفظه، وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دَمَ أخيه عمرو، فكشف عن اسْتِه وصرخ، وقال «واعمراه» فحمي القوم، ونشبت الحرب، وعَدَّلَ رسول الله (ﷺ) الصفوف، ثم رجع إلى العريش، هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريش يحمون رسول الله (ﷺ).

وخرج عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار: عبدالله بن رَوَاحَة، وعوف، ومعوذ، ابنا عَفْراء، فقالوا: لهم: من أنتم؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام. وإنما نريد بنى عمنا. فبرز إليهم على، وعبيدة بن الحارث وحمزة، فَقَتَلَ عليٌّ قِرْنه الوليدَ، وقتل حمزةُ قِرنه عتبة، واختلف عبيدة وقرنه الوليد[1] ضربتين، فكرَّ عليٌّ وحمزة على قرن عبيدة فقتلاه، واحتملا عبيدة ـ وقد قطعت رجله ـ فلم يزل صمتًا حتى مات بالصفراء وكان عليٌّ يقسم بالله لنزلت هذه الآية فيهم: ﴿**هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾الآية[2] [الحج: ١٩].

ثم حميَ الوطيس، واستدارت رَحَى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله (ﷺ) في الدعاء والابتهال، ومناشدة ربه ـ عز وجل ـ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق رضي الله عنه، وقال: «بعضَ مناشدتك ربك، فإنه مُنجز لك ما وعدك» فأغْفَى رسول الله (ﷺ) إغْفَاءَةً واحدة، وأخذ القوم النعاسُ في حال الحرب، ثم رفع رسول الله (ﷺ) رأسه فقال: «**أبشر يا أبا بكر. هذا جبريل على ثناياه النَّقْع**[3]» وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتاف المشركين أسْرًا وقتلاً. فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين.

[4]**قال تعالى**: ﴿**إذ يُوحِي رَبُّكَ إلىَ الملائِكَةِ: أنِّي مَعكُم. فَثبتُوا الذِّينَ آمنُوا**﴾ [الأنفال: ١٢]. في تفسيرها: قَوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضُروا معهم. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

---

(١) المشهور كما في كتب السيرة أن قرن عبيدة بن الحارث هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وليس الوليد كما ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فالوليد كان قرن عليّ بن أبي طالب وقتله عليّ وقتل حمزة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس. وقال ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٥٢: قال ابن إسحاق وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب. قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعليّ.
قال ابن إسحاق: وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله حمزة بن عبدالمطلب، والوليد بن عتبة بن ربيعة قتله علي بن أبي طالب. وذكره أيضاً المباركفوري في الرحيق المختوم ٢١٦/ ٢١٧ ا. هـ المراجع.

(٢) رواه البخاري من حديث علي. . وروى نحوه أبو داود في باب المبارزة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.		(٤) ٤٦ مدارج جـ ١.

(١) **التاسع**) أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ ماءً ليطهركم بهِ ويذهِبَ عَنكُم رِجْزَ الشَّيطانِ وَلِيربطَ على قُلوبِكم**﴾ [الأنفال: ١١]. ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدى أن «على» زائدة، والمعنى يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر. فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال: ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه. والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

فصل (٢)

ولما عزمت قريش على الخروج ذكروا ما بينهم وبين بني كنانة من الحرب، فَتَبدَّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك المُدلجي. وكان من أشراف كنانة، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم: من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه. فخرجوا والشيطان جارٌ لهم لا يفارقهم. فلما انبعثوا للقتال ورأى عدو الله جندَ الله قد نزلت من السماء فَرَّ، ونكص على عَقبيه، فقالوا: إلى أين يا سراقَة؟ ألم تكن قلْت: إنك جارٌ لنا لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله. والله شديد العقاب. وصدق في قوله: إني أرى ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف الله. وقيل: كان خوفه على نفسه أن يهلك معهم. وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومَنْ في قلبه مرض قلَّة حزب الله وكثرة أعدائه: ظنوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: ﴿**غَرَّ هؤلاء دينُهم**﴾ [الأنفال: ٤٩]. فأخبر الله سبحانه: أن النصر بالتوكل عليه، لا بالكثرة ولا بالعدد. والله عزيز لا يغلب، حكيم ينصر من يستحق النصر، وإن كان ضعيفًا. فعزته وحكمته أوجبت نصر الفئة المتوكلة عليه.

---

(١) ١١٨ التبيان. (٢) ٢٢٣ زاد المعاد جـ ٢.

ولما دنـا العدوّ وتواجه القوم: قام رسول الله (ﷺ) في الناس، فوعظهم وذكَّرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر، والظفر العاجل، وثواب الله الآجل. وأخـبرهم «أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله» فقام عمير بن الحمام الأنصاري السلمي، فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**». قال: بخٍ بخٍ يارسول الله، قال: «**ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟**» قال: لا والله يارسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» قال: فأخرج تَمْرات من قَرْنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتل حتى قتل. فكان أول قتيل، وأخذ رسول الله (ﷺ) مِلء كفه من الحصى فرمى بها وجوه العدو، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه. وشغلوا بالتراب في أعينهم؛ وشغل المسلمون بقتلهم. فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله ﴿**وما رَميتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ الله رَمىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧]. وقد ظن طائفة أن الآية دلت على نفى الفعل عن العبد، وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة. وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميه، فالرمي يراد به: الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال. وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم.

(١)...**وأما** قوله: ﴿**فَلم تَقتُلوهُمْ ولكنَّ الله قَتلهُمْ، ومَا رَميتَ إذ رَميتَ ولكِنَّ الله رَمىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧]. فغاب عنهم فقه الآية وفهمها، والآية من أكبر معجزات النبي (ﷺ) والخطاب بها خاص لأهل بدر. وكذلك القبضة التي رمى بها النبي (ﷺ) فأوصلها الله سبحانه إلى جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته (ﷺ) وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته وهو الحذف: وكذلك القتل الذي نفاه عنهم هو قتل لم تباشره أيديهم وإنما باشرته أيدي الملائكة فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك ولو

---
(١) ٢٧٨ أعلام جـ ٢.

كان المراد مافهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل وكل فعل ...

(١)**فهذه** الآية نزلت في شأن رميه (ﷺ) المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء. فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته. ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ. فكان منه (ﷺ) مبدأ الرمي. وهو الحذف. ومن الله سبحانه وتعالى: نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا: قوله في الآية نفسها: ﴿**فَلَم تَقْتُلُوهُم ولكنَّ الله قَتَلَهُم**﴾. ثم قال: ﴿**وَمَارَميتَ إذ رَمَيتَ. وَلَٰكِنَّ الله رَمى**﴾ [الأنفال: ١٧] فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم. ولم يكن ذلك من رسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسباباً ظاهرة، كدفع المشركين. وتولى دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافاً إليه وبه. وهو خير الناصرين.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿**وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً**﴾ [الأنفال: ١٧] فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسناً إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره غالباً، كما في الحديث «**إني مبتليك ومبتل بك**».

(٣)**قال** ابن عباس: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يَشْتَدُّ في أثَرِ رجل من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حَيزوم، إذْ نظر إلى المشرك أمامه مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد حُطم أنفُه، وشُق وجهه كضربة السوط، فأحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**(٤)».

---

(١) ٤٢٦ مدارج جـ ٣.

(٢) ٣٤٢ طريق الهجرتين.

(٣) ٢٢٤ زاد المعاد جـ ٢.

(٤) رواه مسلم من حديث ابن عباس.

وقال أبو داود الأنصاري المازني[١] «إني لأتَّبعُ رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه، قبل أن يصل إليه سيفي. فعرفت أنه قد قتله غيري» «وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، قال: «**اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**». وأسرنا من بني عبدالمطلب ثلاثة: العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث».

وذكر الطبراني في معجمه الكبير: عن رفاعة بن رافع قال: «لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين ـ يوم بدر ـ أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يَظنه سُراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث، فألقاه، ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه، وقال: اللهم إني أسألك نَظْرتك إياي، وخاف أن يخلص إليه القتل. فأقبل أبو جهل بن هشام، فقال: يا معشر الناس، لا يهزمنكم خذلان سُرَاقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يَهُولَنَّكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عَجِلوا، فواللات والعزى، لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألْفينَّ رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذا، حتى نُعرِّفهم سوء صنيعهم، واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه، فأحْنِه الغداة: اللهم أيُّنا كان أحبَّ إليك وأرضى عندك، فانصره اليوم، فأنزل الله عز وجل ﴿**إِن تَستَفتِحُوا فَقَد جاءَكُمُ الفَتحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيرٌ لَكُم، وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغني عَنكُم فِئَتُكُم شَيئاً وَلَو كَثُرَت وَأَنَّ الله مَعَ المُؤمِنِينَ**﴾[٢] [الأنفال: ١٩].

ولما وضع المسلمون أيديهم في العدو يقتلون ويأسرون، وسعد بن معاذ واقف على باب الخيمة التي فيها رسول الله (ﷺ) وهي العريش، مُتَوشِّحاً بالسيف، في ناس من الأنصار: رأى رسولُ الله (ﷺ) في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال رسول الله (ﷺ): «**كأنك تكره ما يصنع الناس؟**» قال: أجل، والله، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين وكان الإثخان في القتل أحبَّ إليّ من استبقاء الرجال».

(١) قيل: اسمه عمرو. وقيل: عمير بن مالك النجاري الخزرجي. وحديثه رواه ابن اسحاق. وفي البداية لابن كثير: عن أبي واقد الليثي.
(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي في التفسير والحاكم في المستدرك من حديث عبدالله بن ثعلبة. ورواه الواقدي من حديث ابن عباس.

ولما بردت الحرب، وولى القوم منهزمين، قال رسول الله (ﷺ): «**من ينظر لَنا ما صنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته، وقال: أنت أبو جهل؟ فقال: لمن الدائرة اليوم؟ فقال: لله ولرسوله، وهل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه، فقتله عبدالله، ثم أتى النبي (ﷺ) فقال: قتلته، فقال: «**آلله الذي لا إله إلا هو؟**» فرددها ثلاثاً، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**» فانطلقنا فأريته إياه، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**[١]».

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه عليًّا، فأبصره بلال، وكان أُمَيَّة يعـذبـه بمكة، فقال: رأس الكفر أمية بن خلف؟ لا نجوت إن نجا. ثم استصرخ جماعة من الأنصار، واشتد عبد الرحمن بهما يحرزهما منهم، فأدركوهم، فشغلهم عن أمية بابنـه، ففرغوا منه، ثم لحقوهما، فقال له عبد الرحمن: ابْرُكْ فَبَرك، فألقى نفسه عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعض السيوف رِجْلَ عبد الرحمن بن عوف. وقد كان قال له أمية قبل ذلك: من الرجل المعلم في صدره ذاك بريشـة نعامة؟ فقال: حمزة بن عبد المطلب. فقال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل. وكان مع عبد الرحمن أدراع قد استلبها فلما رآه أمية قال له: أنا خير لك من هذه الأدراع، فألقاها وأخذه. فلما قتله الأنصار كان يقول: «يرحم الله بلالاً، فجعنى بأدْرَاعي وبأسيري»[٢].

وانقـطـع يومئذ سيف عُكَّاشة بن مِحْصن، فأعطاه النبي (ﷺ) جِذْلاً من حطب، فقال: «**دونك هذا**» فلما أخذه عكاشة وهَزَّه: عاد في يديه سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر.

ولقي الزبير عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج في السلاح، لا يُرى منه إلا الحَدَق، فحمل عليه الزبير بحربته، فطعنه في عينه فمات، فوضع رجله على الحربة ثم تمطى، فكان الجهد: أن نزعها، وقد انثنى طرفاها، فسأله إياها رسول الله (ﷺ) فأعطاه إياها، فلما قُبض رسول الله (ﷺ) أخذها، ثم طلبها أبو بكر رضي الله عنه فأعطاه إياها. فلما قُبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها،

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس، والبخاري من حديث ابن مسعود.

(٢) روى البخاري قصة قتل أمية، عن عبد الرحمن بن عوف نحوًا من هذا السياق.

فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها، فلما قبض عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبدالله بن الزبير فأخذها. فكانت عنده حتى قتل.

وقال رفاعة بن رافع: «رُميتُ بسهم يوم بدر فَفُقِئت عيني، فبصق فيها رسول الله (ﷺ) ودعا لي، فما آذاني منها شيء بعد».

فلما انقضت الحرب أقبل رسول الله (ﷺ) حتى وقف على القتلى، فقال: «**بئس عَشِيرةُ النبي كنتم لنبيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس**». ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر، فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «**يا عتبة بنَ ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا؟**» فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جَيَّفوا؟ فقال: «**والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب**».

ثم أقام رسول الله (ﷺ) **بعرصتهم ثلاثاً**. و«كان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً[1]». ثم ارتحل مؤيداً منصوراً، قرير العين بنصر الله له، ومعه الأسارى والمغانم. فلما كان بالصفراء قسم الغنائم، وضرب عنق النضر بن الحارث بن كِلْدة، ثم لما نزل بعِرْق الظَّبية: ضرب عنق عقبة بن أبي مُعيَط. ودخل رسول الله (ﷺ) المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة. وحينئذ دخل عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وجملة من حضر بدراً من المسلمين: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً: من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس: أحد وستون، ومن الخزرج: مائة وسبعون وإنما قَلَّ عدد الأوس عن الخزرج ـ وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء ـ لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة. وقال النبي (ﷺ): «**لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً**» فاستأذنه رجال، ظهورهم كانت في علو المدينة: أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى، ولم يكن عزمهم على

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، من حديث أبي طلحة.

اللقاء، ولا أعدوا له عُدَّة، ولا تَأَهَّبُوا له أهبة، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستُشْهِد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس، وفرغ رسول الله (ﷺ) من شأن بدر والأسارى في شهر شوال.

(١)**وذكر** عبدالله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب. قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني إن الله قد نصر نبيه (ﷺ) وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وفلان وقتل فلان وفلان: التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة فقال له جعفر: ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى (ﷺ) أن حقًّا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً، عندما أحدث الله لهم من نعمة فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**يأيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤] فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت، موت لأهله		وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ
وأرواحهم في وَحْشَة من جسومهم		وليس لهم حتى النشور نشورُ

(٣)**قال** الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحِيِيكُم وَاعلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

(١) ١٤١ عدة الصابرين		(٢) ٢٢ إغاثة جـ١.		(٣) ٨٧ فوائد.

فتضمنت هذه الآية أموراً: أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة، بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: للحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق، وعروة بن الزبير، واللفظ له: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً. قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لما يحييكم﴾: هو الجهاد، وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم، [قلت]: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. [آل عمران: ١٦٩]

وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: الجنة؛ فيها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة. والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة؛ فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة. والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة:

حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة، ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون، وصاحب الهم والغم، والخوف والفقر والذل، دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق وقوة البغض والكراهة للباطل. فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب، فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك؛ الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حيًّا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول (ﷺ) من الروح الذي ألقي إليه. قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلقِي الرُّوحَ مِن أَمره عَلَى مَن يَشاءُ مِن عَبادِه﴾ [غافر: ١٥] وقال: ﴿وَكَذلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ رُوْحاً مِّن أَمرنَا، مَا كُنْتَ تَدرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلناه نُوراً نَّهدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبادِنَا﴾. [الشورى: ٥٢]

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان؛ ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيتاً فَأَحيَيْنَاهُ وَجَعَلنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِنهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فجمع له بين

النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس، وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة؛ فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته؛ وهذا قول ابن عباس، وجمهور المفسرين. وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية: فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي، عن قتادة؛ وكان هذا أنسب بالسياق. لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟.

وعلى القول الأول فوجه المناسبة: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها، فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها، بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُم وأَبصَارَهُم كَمَا لَم يُؤمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾. [الصف: ٥].

(١)**وقال** تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: إن

(١) شفاء ٣١.

تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم فلا تقدرون على الاستجابة بعد ذلك.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]. ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول (ﷺ) إلى يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالى بالإجابة لما لا يفيد علماً أو يحييه بما لا يفيد علماً أو يتوعده على ترك الاستجابة لما لا يفيد علماً بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه، وبين قلبه.

فصل

النوع الحادي والعشرون: إخباره سبحانه عن تركه بعض مقدوره لما يستلزمه من المفسدة، وأن المصلحة في تركه ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة لم يكن ذلك علة للحكم كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فعلل سبحانه عدم إسماعهم السماع الذي ينتفعون به وهو سماع الفهم. بأنهم لا خير فيهم يحسن معه أن يسمعهم، وبأن فيهم مانعاً آخر يمنع من الانتفاع بالمسموع لو سمعوه وهو الكبر والإعراض، فالأول: من باب تعليل عدم الحكم بعدم ما يقتضيه. والثاني: من باب تعليله بوجود مانعه...

(٣)**وأما** سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون لهم. وفي قوله: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ [المائدة ٤١] أي: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حَمْدَ من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيراً. في قوله: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لجعلهم يسمعون

---

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعق جـ ٢.	(٢) شفاء ٢٠٣.	(٣) ١٩٨ مدارج جـ ٣.

سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا: يكون المعنى لأسمع قلوبهم. فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه.(١) والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذنان.

(٢)**ومعلوم** أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم. ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى قال الله تعالى: ﴿**وَلَو عَلِمَ الله فِيهِم خَيراً لَأسمَعَهُم**﴾.

ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول بأسماعهم إياه. وقال تعالى: ﴿**وقَالُوا لو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ مَا كُنَّا في أَصحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى: ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سمعاً ينتفعون به، وهو فقه المعنى وعقله وإلا فقد سمعوه سمعاً تقوم به عليهم الحجة؛ ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه. قال تعالى: ﴿**مَا كَانُوا يَستَطِيعُونَ السَّمعَ وَمَا كَانُوا يُبصِرُونَ**﴾ [هود: ٢٠] نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها، وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه؛ صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة يقولون: لا أطيق أنظر إلى فلان ولا أستطيع أن أسمع كلامه؛ من بغضه ونفرته عنه.

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم، ولا دلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحجة قطعاً، وإنما المراد سلب السمع الذي يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب

---

(١) يأتي إن شاء الله في سورة يونس الكلام على هذه الآية رقم ٣١ فلعله فيه زيادة فائدة.

(٢) ١٠١ مفتاح جـ ١.

فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له.

ومن هذا قولهم: ﴿**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدعُونَا إِلَيهِ وَفِي آذَانِنَا وَقرٌ وَمِن بَينِنَا وَبْينِكَ حِجابٌ**﴾ [فصلت: ٥] يعنون: أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الإعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به، فهذا هو الذي يقولون لأجله في النار: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] ولهذا جعل ذلك مقدوراً عليهم وذنباً اكتسبوه. فقال تعالى: ﴿**فَاعتَرَفُوا بِذَنبِهِم فَسُحقاً لَأَصحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١١]

والله تعالى ينفي تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله. وتارة ينفي عنهم السمع والعقل. وتارة ينفي عنهم السمع والبصر. وتارة ينفي عنهم العقل والبصر.

وتارة ينفي عنهم السمع وحده، فنفى الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفى بعضها نفي له بالمطابقة، والآخر باللزوم. فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب، فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر، فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده. فلهذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحاً ولزوماً، وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين.....

(1)...**الوجه** الخامس والستون: أن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرًّا منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ فهؤلاء هم الجهال ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ أي: ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلاً للخير (لأسمعهم) أي: لأفهمهم والسمع ههنا

(١) ٧٨ مفتاح جـ ١.

سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعنَا وَهُم لَا يَسْمَعُونَ﴾. [الأنفال: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنعِقُ بِمَا لَا يَسمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لَا يَعقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

والسمع يراد به إدراك الصوت ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن الأول قوله: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله (ﷺ) وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى علي بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَد سَمِعَ الله قَولَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ أي: لأفهمهم ﴿**ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَو خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوضَعُوا خِلَالَكُم يَبغُونَكُمُ الفِتنَةَ وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم﴾ [التوبة: ٤٧]

(١) ٣٧ زاد المعاد جـ ٣.

أي: قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سماعون للكذب﴾ أي: قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي (ﷺ): «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم**» أي يجيبكم.

والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده؛ كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل اهـ.

(١)**ومنها**: أن الرجل إذا أتيحت له فُرْصَة القرْبة والطاعة، فالحَزْم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز: في تأخيرها، والتَّسْويف بها، ولا سيما إذا لم يَثِق بقدرته وتَمَكُّنه من أسباب تحصيلها. فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض، قلَّما تثبت. والله سبحانه يعاقب من فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته، عقوبة له، فمن لم يستجب لله ولرسوله - إذا دعاه - حال بينه وبين قلبه وإرادته، ولا يمكنه الاستجابة بعد ذلك قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿**ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وأبصارهم كما لم يُؤْمِنُوا به أوَّلَ مرَّةٍ**﴾ [الأنعام: ١١٠] وفي قوله تعالى: ﴿**فلما زَاغُوا أزَاغَ الله قُلُوبَهم**﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿**وَمَا كانَ الله لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إذْ هَدَاهُم، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم ما يَتَّقُونَ**﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

(٢)**وقال**: ﴿**يَاأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا إن تَتَّقُوا الله يَجعَلْ لَّكُم فُرقَاناً وَّيُكَفِّرْ عَنكُم سَيئاتِكُم وَيغفِر لَكُم**﴾ [الأنفال: ٢٩] وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٠] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

(٣)**وقال** مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا إِن**

(١) ٣٧ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ٣٧ التبيان. (٣) ٢٥٨ أعلام جـ ٤.

تتَّقُوا الله يَجعَل لَّكُم فُرْقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبدُ بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق.

(١)**ومن** الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعزّ الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل فسر الفرقان بهذا وبهذا . . .

(٢)**وتأمل** قوله تعالى لنبيه: **﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فيهم﴾** [الأنفال: ٣٣] كيف يفهم منه أنه إذا كان وجودُ بدنه وذاتِهِ فيهم دفَعَ عنهم العذاب وهم أعداؤه، فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص؟ أفليس دفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحْرَى؟.

(٣)**وأما** «الاستغفار» فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: **﴿استَغفروا رَبَّكُم إِنَّه كَانَ غَفَّاراً. يُرسِلِ السَّمَاءَ عَليكُم مِّدرَاراً﴾** [نوح: ١٠-١١]. وكقول صالح لقومه: **﴿لَولاَ تَستغفِرُونَ الله لَعلَّكُم تُرحَمُونَ﴾** [النمل: ٤٦]. وكقوله تعالى: **﴿وَاستَغفِرُوا الله إِنَّ الله غَفورٌ رَّحِيمٌ﴾** [البقرة: ١٩٩]. وقوله: **﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعذِّبَهُمْ وأنتَ فِيهِم. وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُم وَهُم يَستَغفِرُونَ﴾** [الأنفال: ٣٣].

والمقرون كقوله تعالى: **﴿استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ يُمتِّعْكُم مَّتاعاً حَسَناً إِلىٰ أجلٍ مُّسَمًّى ويُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضله﴾** [هود: ٣] وقول هود لقومه **﴿استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُم مِّدرَاراً﴾** [هود: ٥٢]. وقول صالح لقومه: **﴿هُوَ أَنشأَكُم مِنَ الأَرضِ واستَعمَرَكُم فِيهَا. فَاستَغفِروهُ ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾** [هود: ٦١]. وقول شعيب: **﴿وَاستَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَّدُودٌ﴾** [هود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره.

لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له. ولكن الستر لازم مسماه أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

---

(١) ١٢٩ الفوائد. (٢) ٢٢٦ أعلام جـ ١. (٣) ٣٠٧ مدارج جـ ١.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مِغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَستَغفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣]. فَإِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ مُستغفراً.

وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى.

ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه.

فهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء. والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتباً بقوله: ﴿**اِستَغفِروا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ**﴾ [هود:٣]. فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

(١) **قال** تعالى عن الكفار: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال:٣٥]. قال ابن عباس، وابن عمر. وعطية، ومجاهد،

---

(١) ٢٤٤ إغاثة جـ ١.

والضحَّاك، والحسن، وقتادةُ «المكاء: الصَّفِير، والتَّصْدية: التصْفيق».

وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصَّفير. يقال: مَكا، يَمْكو، مُكاء. إذا جمع يديه ثم صَفَّر فيهما. ومنه: مَكَتِ اسْتُ الدّابة، إذا خرجت منها الريح بصوت. ولهذا جاء على بناء الأصوات، كالرُّغاء، والعُواء، والثُّغاء. قال ابن السِّكِّيت: الأصوات كلها مضمومة، إلا حرفين: النِّداء، والغِناء.

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق. يقال: صَدَى يَصدَى تَصْدِيةً، إذا صفَّق بيديه. قال حسان بن ثابت، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم:

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتُكم التَّصدِّي والمكاء

وهكذا الأشباه. يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصفير والتصفيق. قال ابن عباس: «كانت قريش يطوفون بالبيت عُراة، ويُصَفِّرون ويصفقون». وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي (ﷺ) في الطواف ويصفرون ويصفقون، يَخْلطون عليه طوافه وصلاته» ونحوه عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا.

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلِّطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني. قال ابن عَرَفة، وابن الأنباري: المكاء والتَّصْدية ليسا بصلاة ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكانَ الصلاة التي أُمروا بها: المكاء والتصدية. فألزمهم ذلك عظيمَ الأوزار، وهذا كقولك: زُرْته، فجعل جَفائي صِلَتي، أي أقام الجفاء مقام الصِّلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في يَراع أو مِزْمار ونحوه فيهم شَبَهٌ من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر. فلهم قِسْط من الذم، بحسب تشبههم بهم: وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مُكائهم وتَصْدِيتهم.

والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابَهُمْ أمرٌ، بل أُمروا بالعدول عنه إلى التسبيح. لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقَرنُوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟

فصل(١)

والفتنة بعشق الصور تنافي أن يكون دين العبد كله لله، بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما حصل له من فتنة العشق. وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شيء من الدين لله. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله. فكل منهما يناقض الآخر.

والفتنة قد فسرت بالشرك. فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك، وإما من أسباب الشرك. وهي جنس تحته أنواع من الشبهات، والشهوات. وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن. ومنه فتنة أصحاب العِجْل، كما قال تعالى لموسى: ﴿فإنّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

فصل(٢)

وأما اللام في قوله: ﴿لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بيّنةٍ وَيَحيىٰ مَن حَيَّ عَن بَيّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. فلام التعليل على بابها فإنها مذكورة في بيان حكمته؛ في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم، على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم، فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة؛ فلا يكون له على الله حجة ويحيى من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب وهذا من أعظم الحكم.

ونظير هذا قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكر وقُرآنٌ مُبينٌ لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقّ القَولُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

فصل(٣)

بين رعاية الحقوق مع الضر، ورعايتها مع العافية؛ بون بعيد. إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا

---

(١) ١٥٨ إغاثة جـ ٢. (٢) ١٩٣ شفاء. (٣) ١٦٩ فوائد.

وَاذكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثبُتُوا وَاذكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ، وَأَطِيعُوا الله وَرَسُوله وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم وَاصبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]. فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء؛ ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت وإن قلت وكثر عددها:

أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يُقوى به المتنازعون عدوهم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبتني عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم في النصر. ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد. ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت؛ آل الأمر إلى ما آل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله المستعان وعليه التكلان.

(٢) فصل

ومن(٣) كيده للإنسان: أنه يورده الموارد التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عَطَبه، ويتخلَّى عنه ويُسْلمه وَيقفُ يَشْمَتُ به، ويضحك منه، فيأمره بالسَّرِقة والزنى والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي

---

(١) ١٢٩ الفروسية.	(٢) ١٠٨ إغاثة جـ ١.	(٣) أي الشيطان ـ لعنه الله ـ.

أَخَافُ الله والله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]. فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بَدْرٍ في صورة سُراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بَني كِنَانة أن يَقْصِدوا أهْلَكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فَرَّ عنهم، وأسلمهم ، كما قال حسان:

دَلَّاهم بغُرورٍ، ثم أسلمهم   إن الخبيث لمن والاه غَرار

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنى ثم بقتلها، ثم دَلَّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فَرَّعنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرتْ عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله: ﴿إني أخاف الله﴾ فقال قتادة، وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ وكذب في قوله: ﴿إني أخاف الله﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا مَنَعَة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه».

وهذا فاسد، فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فَرَّ ونكص على عقبيه، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النُّجْعَة إن أراد ذلك، وتكلَّف غير المراد. وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك» وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه. وقال الزجاج وابن

الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر - زاد ابن الأنباري - قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفاقاً على نفسه».

فائدة[1]

من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله - أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وسخطها، وتبرم بها واستحكم ملله[2] لها، سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلى ما طلبه، ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتد قلقه وندمه، وطلب العودة إلى ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً، أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه، استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها، مفوض إلى الله، طالب منه حسن اختياره له. وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة، هذا وهي من أعظم نعم الله عليه. فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلاً وظلماً.

فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده. وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله. قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. فليس للنعم أعدى من نفس العبد؛ فهو مع عدوه ظهير على نفسه؛ فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها؛ فهو الذي مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتد ضرامها، استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار.

---

(١) ١٨٠ فوائد.

(٢) في المطبوعة (ملكه) ولعل الصواب ما ذكرناه. المراجع.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته　　حتى إذا فات أمر عاتب القدرا اهـ.

(1)**قال** الله تعالى: ﴿وأعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعتُم مِنَ قُوةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيل﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال تعالى في حق المؤمنين: ﴿أَشِّداءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال فيهم: ﴿أذِلَّةٍ عَلَى المؤمِنِين أعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابتِغاءِ القوم﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: لا تضعفوا. وقال: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحزَنُوا وَأنتُم الأعلَون إن كُنتم مُّؤمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**». «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**». وكان النبي (ﷺ) يتعوذ بالله من الجبن، والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق. وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن الظن بالله، كما قال بعض الحكماء في وصيّته: عليكم بأهل السخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله، والشجاعة حصن للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه، وهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه.

وقالت العرب: الشجاعة وقاية والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أن جبنهم ينجيهم من القتل والموت. فقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَّنفَعَكُم الفِرَار إن فَرَرتُمْ مِّنَ الْمَوتِ أوِ القَتلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]. ولقد أحسن القائل:

أقول لها وقد طارت شعاعاً　　من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم　　على الأجل الذي لك لن تطاعي
وما ثوب الحياة بثوب عز　　فيطوي عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي　　وداعيه لأهل الأرض داعي

واعتبر ذلك بأن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً. وفي وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة. وقال خالد بن الوليد: حضرت كذا وكذا زحفاً في الجاهلية والإسلام، وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء.

---

(1) ١٢٥ الفروسية.

ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره قال حسان:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

[(١)] **فإذا** قلت: علمت فمطلوبها ثلاثة معان: محل وصفة وإضافة الصفة إلى المحل، وهن ثلاث معلومات إذا عرف هذا فقال بعض المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة؛ لأن علمه متعلق بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلقاً واحداً بخلاف علم المحدثين؛ فإن معرفتهم بالشيء المفرد وعلمهم به غير علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلها بعلم واحد، وأن علمه بصدق رسول الله (ﷺ) هو عين علمه بكذب مسيلمة. والذي عليه محققو النظار خلاف هذا القول وأن العلوم متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها فلكل معلوم علم يخصه ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجحة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به، وعلى هذا فالفرق بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم؛ وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوب عن القلب، فإذا تصور وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه قيل: عرفه ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيته بعد زمان فتبينت أنه هو قلت: عرفته وكذلك عرفت اللفظة وعرفت الديار وعرفت المنزل وعرفت الطريق.

وسر المسألة أن المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه فالمعرفة تمييز له وتعيين ومن هذا قوله تعالى: ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ [البقرة: ١٤٦]. فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته، وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين[(٢)] بالآخر فتأمله، وقد بسطنا هذا في كتاب التحفة المكية وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف. وأما ما زعموا من قولهم: **أن علمت قد يكون بمعنى عرفت** واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿**لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ [التوبة: ١٠١]. وبقوله:

---

(١) ٦٢ بدائع.

(٢) وفي نسخة التعيين.

﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد وهذا هو حقيقة العرفان(١) فاستشهاد ظاهر على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدى فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد، لا يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد على نحو تعدى عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار فقوله: ﴿لا تعلمهم نحنُ نعلمهم﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك وكذلك قوله: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته. قال هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل إنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط وسألت الدار ويحتج بقوله: ﴿واسأل القَرْيَةَ﴾ قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم وليس ما قاله هؤلاء بقوي فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين. هذا صريح اللفظ وإنما جاء نفى معرفة نفاقهم من جهة اللزوم فهو (ﷺ) كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه والظاهر بل المتعين أنه (ﷺ) لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول ولم يكن يخفي عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله عز وجل.

والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى فإن قوله: ﴿تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُم وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان:

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله، وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم كما أمكن مثله في الإنس.

---

(١) في نسخة الفرقان ومعناه الفارق كذا في المخطوط.

والقول الثاني: أنهم المنافقون وعلى هذا فقوله: ﴿**لا تعلمونهم**﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم لا على معرفة نفاقهم؛ لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب فيكون كقوله تعالى: ﴿**لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ فتأمله.. ويزيده وضوحاً أن هذه الأفعال لا يجوز فيها الاقتصار على أحد المفعولين بخلاف باب أعطى وكسا للعلة المذكورة هناك وهي تعلق هذه الأفعال بالنسبة، فلابد من ذكر المنتسبين بخلاف باب أعطى فإنه لم يتعلق بنسبة، فيصح الاقتصار فيه على أحد مفعولين وهذا واضح كما تراه والله أعلم. وأما تنظيرهم لسألت الحائط والدار فيا بعد ما بينهما! فإن هذا سؤال بلسان الحال وهو كثير في كلامهم جداً، على أنه لا يمتنع أن يكون سؤالاً بلسان المقال صريحاً كما يقول الرجل للدار الخربة: ليت شعري ما فعل أهلك؟! وليت شعري ما صيرك إلى هذه الحال؟! وليس هذا سؤال استعلام بل سؤال تعجب وتفجع وتحزن. وأما قوله: ﴿**وَاسْأَلِ القرية**﴾ [يوسف: ٨٢]. فالقرية إن كانت هنا اسماً للسكان كما هو المراد بها في أكثر القرآن والكلام، فلا مجاز ولا حذف، وإن كان المراد بها المسكن فعلى حذف المضاف فأين التسوية والتنظير؟!.

قولهم: علمت وظننت يتعدى إلى مفعولين ليس هما مفعولان في الحقيقة، وإنما هو المبتدأ والخبر وهو حديث إما معلوم وإما مظنون، فكان حق الاسم الأول أن يرتفع بالابتداء والثاني بالخبر ويلغى الفعل؛ لأنه لا تأثير له في الاسم إنما التأثير لعرفت الواقعة على الاسم المفرد تعييناً وتمييزاً، ولكن أرادوا تشبث علمت بالجملة التي هي الحديث كيلا يتوهم الانقطاع بين المبتدأ وبين ما قبله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِم لَو أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) ٥٧ شفاء.

وتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضاً، ويميل إليه ويحبه وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

(١) **قال** تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٤]. أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهنا تقديران:

أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«من» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار، وشواهده كثيرة، وشبَه المنع منه واهية.

والثاني: أن تكون الواو «واو مع» وتكون «مَن» في محل نصب عطفاً على الموضع، فإن «حسبك» في معنى كافيك، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا　　　فحسبك والضحاكَ سيف مهند

وهذا أصح التقديرين. وفيها تقدير ثالث: أن تكون «من» في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله. وفيها تقدير رابع. وهو خطأ من جهة المعنى. وهو أن تكون «من» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعُك وهذا ـ وإن قاله بعض الناس ـ فهو خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة.

قال الله تعالى: **﴿وَإِن يرِيدُوا أن يَخدَعُوكَ فَإِنَّ حَسبَكَ الله، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصِرِه وَبِالْمُؤمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٢]. ففرق بين الحَسْب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره، وبعباده. وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزَادَهُم إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسبُنَا الله وَنِعمَ الوَكِيلُ﴾** [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله. فإذا كان هذا قولهم، ومَدْح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا

(١) ٣ زاد المعاد جـ ١.

الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حَسب رسوله؟ هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله: ﴿**وَلَو أَنَّهُم رَضُوا مَا آتاهُمُ الله وَرَسُولُه وَقَالُوا حَسبُنَا الله سَيُؤتِينَا الله مِن فَضلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلى الله رَاغِبُونَ**﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل: كيف جعل الإيتاء لله ورسوله؟ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا إِلىٰ الله راغبون**﴾ ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغتَ فَانصَبْ، وَإِلىٰ رَبّكَ فَارغَب**﴾ [الشرح: ٧-٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والتحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَيسَ الله بِكَافٍ عَبده**﴾ [الزمر: ٣٦]. والحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى: أنه كاف عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ههنا.

والمقصود: أنه بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله تعالى علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح، والعزة والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

فائدة(١)

تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في آخره، بعد توطين النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه وتوطين نفسه، على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خففها وتصدق بجعلها خمساً. ومن ذلك أنه أمر أولاً بصبر الواحد إلى العشرة، ثم خفف

---

(١) ١٨٣ بدائع جـ ٣.

عنهم ذلك إلى الاثنين. ومن ذلك أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر. ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله (ﷺ) فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم. ومن ذلك تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر، فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر: يشدد على العبد أولاً ثم يخفف عنه، وحكمته تسهيل الثاني بالأول وتلقي الثاني بالرضى وشهود المنة والرحمة. وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريباً من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدًّا الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذله ويسهل عليهم.

وقد يفعل بعض الحمالين قريباً من هذا، فيزيدون على الحمل شيئاً لا يحتاجون إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقاً وأمراً، ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضاً ضد هذا فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه؛ لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تحمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئاً بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة. وكذلك المحرمات. ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر. ومن هذا أنهم أمروا أولاً بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عيناً وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوه أمروا بالصوم عيناً. ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به فرضاً.

وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئاً فشيئاً. وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره المقدر على عبده؛ بل لابد منه اقتضاء حمده وحكمته فيبتليه بالأخف أولاً ثم يرقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه.

ولهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه وزواله ولا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولاً وينكسر ويذل لربه ويمد عنقه

خاضعاً ذليلاً لعزته؛ حتى إذا مر به معظمه وغمرته وأذن ليله بالصباح فإذا سعي في زواله ساعدته الأسباب.

ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعاً عظيماً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)فصل في هديه (ﷺ) في الأسارى

كان يمن على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين. وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة. ففادى أسارى بدر بمال، وقال: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتْنَى لتركتهم له(٢)».

وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غِرَّته، فأسرهم ثم مَنَّ عليهم(٣). وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم(٤).

واستشار الصحابة في أسارى بدر. فأشار عليه الصديق: أن يأخذ منهم فدية، تكون لهم قوة على عدوهم، ويطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام. وقال عمر: لا والله: ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله (ﷺ) ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر. فلما كان من الغد أقبل عمر، فإذا رسول الله (ﷺ) يبكي هو وأبو بكر، فقال: يا رسول الله، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله (ﷺ): **«أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة**، وأنزل الله **﴿مَا كَانَ لِنَبِيّ أن يَكُونَ له أسرىٰ حَتَّى يُثْخِنَ في الأرض﴾** [الأنفال: ٦٧] الآية».

وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب؟ فرجَّحت طائفة قول عمر لهذا الحديث.

ورجحت طائفة قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقة الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب،

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ ٢. (٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه. (٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث أنس.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

ولتشبيه النبي (ﷺ) له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله (ﷺ) لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق. فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً، وغلّبَ جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبي (ﷺ): فإنما كان رحمة لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يرد ذلك رسول الله (ﷺ) ولا أبو بكر ـ وإن أراده بعض الصحابة ـ فالفتنة كانت تعم ولا تصيب من أراد ذلك خاصة، كما هُزم العسكر يوم حُنين بقول أحدهم: «لن نُغْلَب اليوم من قِلَّة» وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم، فهزم الجيش بذلك فتنة ومحنةً. ثم استقر الأمر على النصر والظفر. والله أعلم.

واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، فقال: «لا تدعوا منه درهماً» واستوهب من سَلَمة بن الأكْوَع جارية نَفّله إياها أبو بكر في بعض مغازيه فوهبها له، فبعث بها إلى مكة، ففدَى بها ناساً من المسلمين(٢) وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل، وردّ سبي هوازن عليهم بعد القسمة.

(١)**قال** تعالى: ﴿**لَولا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسّكم فِيما أخَذْتُم عَذابٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٨]. وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم. وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم. وقال آخرون ـ وهو الصواب ـ: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنفال والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٨ شفاء العليل.



قال[1] ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله بعد مُنْصَرَفه من تبوك: بقية رمضان وشوال وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع؛ ليقيم للمسلمين حَجَّهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبوبكر والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله (ﷺ) بعشرين بدنة، قلّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي. وساق أبو بكر خمس بدنات.

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه. فخرج عليُّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله العَضْبَاء.

قال ابن سعد: فلما كان أبو بكر بالعَرْج - وابن عائذ يقول: بضَجْنان لَقيه علي بن أبي طالب على العَضْبَاء. فلما رآه أبو بكر قال: أمير أمْ مأمور؟ قال: لا، بل مأمور، ثم مضيا.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: استعملك رسول الله (ﷺ) على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنْبِذُ إلى كل ذي عهد عهده. فأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب، فأذن في الناس عند الجمرة بالذي أمره رسول الله، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقال: «أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله (ﷺ) فهو إلى مدته».

وقال الحميدي: حدثنا سفيان قال: حدثني أبو إسحاق الهمداني، عن زيد بن نفيع قال: سألنا عليًا: «بأي شيء بُعثت في الحجة؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي (ﷺ) عهد فَعهْده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر».

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في

(١) ٥٢ زاد المعاد جـ٣.

مؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي (ﷺ) أبا بكر بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

وفي هذه القصة: دليل على أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر.

واختلف في حجة الصديق هذه: هل هي التي أسقطت الفرض، أو المسقطة هي حجة الوداع مع النبي (ﷺ)؟ على قولين، أصحهما الثاني. والقولان مبنيان على أصلين: **أحدهما**: هل كان الحج فُرِضَ قبل عام حجة الوداع، أم لا؟.

والثاني: هل كانت حجة الصديق رضي الله عنه في ذي الحجة، أم وقعت في ذي القعدة، من أجل النَّسيء الذي كان أهل الجاهلية يؤخرون به الأشهر ويقدمونها؟ على قولين، والثاني قول مجاهد وغيره.

وعلى هذا: فلم يؤخر النبي (ﷺ) الحج بعد فرضه عاماً واحداً؛ بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فرض فيه. وهذا هو الأليق بهديه وحاله (ﷺ) وليس بيد من ادَّعى تقدم فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمان أو تسع دليل واحد.

وغاية ما احتج به من قال: فرض سنة ست. قوله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمرةَ لله**﴾ [البقرة: ١٩٦] وهي قد نزلت بالحديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه. فأين هذا من وجود ابتدائه؟ وآيةُ فرض الحج، وهي قوله تعالى: ﴿**ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البيتِ مَنِ استَطَاعَ إليهِ سبيلاً**﴾. [آل عمران: ٩٧]، نزلت عام الوفود وأواخر سنة تسع أ. هـ.

(١) **وسأله**، (ﷺ) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عن يوم الحج الأكبر، فقال: «يوم النحر» ذكره الترمذي.

وعند أبي داود بإسناد صحيح: أن رسول الله (ﷺ) وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حَج فيها، فقال: «**أي يوم هذا؟**» قالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر».

وقد قال تعالى: ﴿**وأذَان منَ الله وَرَسُولِهِ إلى النَّاسِ يَومَ الحَجّ الأكبَرِ أَنَّ الله**

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

بريءٌ مِنَ المُشرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] وإنما أَذَّنَ المؤذنُ بهذه البراءة يوم النحر.

وثبت في الصحيح: عن أبي هريرة أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. ا.هـ.

(١) **ومن** هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر، كما في السنن عنه (ﷺ) أنه قال: «أفضل الأيام عند الله: يوم النحر، ثم يوم النَّفْر».

وقيل: يوم عرفة أفضل منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي، قالوا: لأنه يوم الحج الأكبر، وصيامه يكفر سنتين، وما من يوم يعتق الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة، ولأنه سبحانه وتعالى يدنو فيه من عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف والصواب القول الأول، لأن الحديث الدال على ذلك لا يعارضه شيء يقاومه. والصواب: أن يوم الحج الأكبر: هو يوم النحر، لقوله تعالى: **﴿وأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأكبرِ﴾**. [التوبة: ٣]. وثبت في الصحيحين: أن أبا بكر وعليًّا رضي الله عنهما، أذنا بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة.

وفي سنن أبي داود بأصح إسناد: أن رسول الله (ﷺ) قال: «يوم الحج الأكبر: يوم النحر» وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة.

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة، ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم ربهم يوم النحر في زيارته والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين، وحلق الرءوس، ورمي الجمار، ومعظم أفعال الحج.

وعمل يوم عرفة كالطهور والاغتسال بين يدي هذا اليوم.

وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام، فإن أيامه أفضل الأيام عند الله وقد ثبت في صحيح البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله منه في هذه الأيام العشر**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**».

---

(١) ١٦ زاد المعاد جـ١.

وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله: ﴿وَالفَجرِ وَلَيَالٍ عَشرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] ولهذا يستحب فيها الإكثار من التكبير والتهليل والتحميد، كما قال النبي (ﷺ): «**فأكثروا فيهن من التكبير والتهليل والتحميد**» ونسبتها إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك إلى سائر البقاع.

ومن ذلك: تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر.

فإن قلت: أي العشرين أفضل: عشر ذي الحجة، أو العشر الأخير من رمضان؟ وأي الليلتين أفضل: ليلة القدر، أو ليلة الإسراء؟

قلت: أما السؤال الأول: فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان. وبهذا التفصيل يزول الاشتباه.

ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار أيامه؛ إذ فيه: يوم النحر، ويوم عرفة، ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني: فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل، فأيهما المصيب؟.

فأجاب: الحمد لله، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر: فإن أراد به: أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي (ﷺ) ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد (ﷺ) من ليلة القدر، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر: فهذا باطل، لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام، هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينها؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في الصحيحين عنه (ﷺ) أنه قال: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**».

وفي الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً**

واحتساباً: غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد أخبر سبحانه وتعالى: أنها خير من ألف شهر، وأنه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي (ﷺ) وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة: فهذا صحيح، وليس إذا أعطى الله نبيه (ﷺ) فضيلة في مكان أو زمان يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه بها: والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم. ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله (ﷺ) ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتدىء فيه بنزول الوحي وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من الصحابة بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتدىء فيه بالوحي ولا الزمان بشيء.

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب، الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحوال. وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة يتبادرون مكاناً يصلون فيه، فقال: «ما هذا؟ قالوا: مكان صلى فيه رسول الله (ﷺ) فقال: أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمض».

وقد قال بعض الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي (ﷺ) أفضل من ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله (ﷺ) أفضل له.

فإن قيل: فأيهما أفضل: يوم الجمعة، أو يوم عرفة؟ فقد روى ابن حبان في صحيحه: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لا تطلع الشمس على يوم أفضل من يوم الجمعة**» وفيه أيضاً حديث تميم بن أوس: «**خير يوم طلعت فيه الشمس: يوم الجمعة**». قيل: قد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة، محتجًا بهذا الحديث، وحكى القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد: أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر.

والصواب: أن يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يوم عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعددة:

أحدها: اجتماع اليومين اللذين هما أفضل الأيام.

الثاني: أنه اليوم الذي فيه ساعة محققة الإجابة، وأكثر الأقوال: إنها آخر ساعة بعد العصر، وأهل الموقف كلهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع.

الثالث: موافقته ليوم وقفة رسول الله (ﷺ).

الرابع: أن فيه اجتماع الخلائق من أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة. ويوافق ذلك اجتماع أهل عرفة يوم عرفة بعرفة، فيحصل من اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصل في يوم سواه.

الخامس: أن يوم الجمعة يوم عيد، ويوم عرفة يوم عيد لأهل عرفة، ولذلك كره لمن بعرفة صومه.

وفي النسائي: عن أبي هريرة: «نهى رسول الله (ﷺ) عن صوم يوم عرفة بعرفة» وفي إسناده نظر؛ لأن مهدي بن حرب ليس بمعروف، ومداره عليه، ولكن ثبت في الصحيح: من حديث أم الفضل: «أن ناساً تماروا عندها يوم عرفة في صيام النبي (ﷺ) فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعير بعرفة، فشربه».

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة بعرفة.

فقالت طائفة: ليتقوى على الدعاء، وهذا قول الخرقي وغيره.

وقال غيرهم ـ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية: الحكمة فيه أنه عيد لأهل

عرفة، فلا يستحب صومه لهم، قال: والدليل عليه الحديث الذي في السنن عنه، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى: عيدنا أهل الإسلام**».

قال شيخنا: وإنما يكون يوم عرفة عيداً في حق أهل عرفة لاجتماعهم فيه، بخلاف أهل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النحر. فكان هو العيد في حقهم. والمقصود: أنه إذا اتفق يوم عرفة ويوم جمعة فقد اتفق عيدان معاً.

السادس: أنه موافق ليوم إكمال الله تعالى دينه لعباده المؤمنين، وإتمام نعمته عليهم، كما ثبت في صحيح البخاري: عن طارق بن شهاب قال: «جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، آية تقرءونها في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، ونعلم ذلك اليوم الذي نزلت فيه لاتخذناه عيداً، قال: أيّ آية؟ قال: ﴿اَليَومَ أكملتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْمَمتُ عليكم نِعمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسَلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر بن الخطاب: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعرفة يوم جمعة ونحن واقفون معه بعرفة».

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقف الأعظم: يوم القيامة. فإن القيامة يوم الجمعة، كما قال النبي (ﷺ): «**خير يوم طلعت عليه الشمس: يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه**» ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى لعباده يوماً يجتمعون فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنة والنار، وادخر الله تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، إذ فيه كان المبدأ، وفيه المعاد، ولهذا كان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يقرأ في فجره سورتي السجدة، وهل أتى على الإنسان، لاشتمالهما على ما كان وما يكون في هذا اليوم: من خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخول الجنة والنار، فكان تذكير الأمة في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون. فهكذا يتذكر الإنسان بأعظم مواقف الدنيا ـ وهو يوم عرفة ـ الموقف الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتى يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعة الواقعة من المسلمين يوم الجمعة أكثر منها في سائر

الأيام، حتى إن أكثر أهل الفجور يحترمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن من تجرأ فيه على معاصي الله عز وجل عجل الله عقوبته ولم يمهله، وهذا أمر قد استقر عندهم وعلموه بالتجارب، وذلك لعظم اليوم وشرفه عند الله، واختيار الله سبحانه له من بين سائر الأيام، ولا ريب أن للوقفة فيه مزية على غيره.

التاسع: أنه موافق ليوم المزيد في الجنة، وهو اليوم الذي يجمع فيه أهل الجنة في واد فسيح، وينصب لهم منابر من لؤلؤ، ومنابر من ذهب، ومنابر من الزبرجد والياقوت على كثبان المسك، فينظرون لربهم تبارك وتعالى، ويتجلى لهم، فيرونه عياناً، ويكون أسرعهم موافاة: أعجلهم رواحاً إلى المسجد، وأقربهم منه أقربهم من الإمام. فأهل الجنة مشتاقون إلى يوم المزيد فيها، لما ينالون فيه من الكرامة، وهو يوم جمعة، فإذا وافق يوم عرفة كان له زيادة مزية واختصاص وفضل ليس لغيره.

العاشر: أنه يدنو الرب تبارك وتعالى عشية يوم عرفة من أهل الموقف، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: «**ما أراد هؤلاء؟ أشهدكم أني قد غفرت لهم**» ويحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة، التي لا يرد فيها سائلاً يسأل خيراً، فيقربون منه بدعائه والتضرع إليه في تلك الساعة ويقرب منهم تعالى نوعين من القرب: **أحدهما:** قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة.

والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته، فتستشعر قلوب أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلى قوتها، وفرحاً وسروراً وابتهاجاً، ورجاء لفضل ربها وكرمه. فبهذه الوجوه وغيرها فضلت وقفة يوم الجمعة على غيرها.

وأما ما استفاض على ألسنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة: فباطل، لا أصل له عن رسول الله (ﷺ) ولا عن أحد من الصحابة والتابعين. والله أعلم.

فصل

والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه. واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى. وأما خلقه تعالى فعام للنوعين.

وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب، ولا يرضى إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فله من الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى الله تعالى إلا هو، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال، والتفحش في اللسان والبذاء، والكذب والغيبة والنميمة والبهت وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية، وزكتها العقول الصحيحة. فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.(١)

(٢)**ثم** كان الكفار معه(٣) بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يُتِمَّ لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفيَ لهم به ما استقاموا على العهد. فإن خاف منهم خيانة نَبَذَ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يُعلمهم بنبذ العهد، وأُمِر أن يقاتل مَنْ نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها. فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب، حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم.

وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه. فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق. فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انْسَلَخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿**فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ [التوبة: ٢] وهي الحُرُم المذكورة في قوله:

---

(١) استمر المؤلف في ذكر الأمثلة في عدة صحائف يحسن الرجوع إليها.

(٢) ٢٠٨ زاد المعاد جـ٢.　　(٣) أي مع النبي (ﷺ).

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحُرُمُ فاقتُلُوا المُشركِين﴾ [التوبة: ٥] فالحُرُمُ ههنا: هي أشهر التسيير. أولها: يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة. وهو يوم الحج الأكبر، الذي وقع فيه التأذين بذلك. وآخرها: العاشر من ربيع الآخر.

وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إن عِدَّةَ الشُّهُور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً في كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرضَ، مِنها أربَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة والمحرم. ولم يُسَيِّرْ المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن. لأنها غير متوالية وهو إنما أَجَّلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأَجَّل من لا عهد له، أو له عهد مطلق: أربعة أشهر. وأمره أن يُتِم للموفي بعهده عهده إلى مُدَّته. فأسلم هؤلاء كلهم ولم يُقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين: فإنه أُمِر أن يقبل منهم علانيتهم، ويَكِلَ سرائرهم إلى الله، وأن يُجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم وأخبره أنه إن استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين. اهـ.

فصل(١)

فيما في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم

فمنها قوله: «إن مكة حرَّمها الله ولم يُحرِّمها الناس» فهذا تحريم شرعي قَدَري، سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليليه: إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

---

(١) ٤٢٠ زاد المعاد جـ٢.

كما في الصحيح عنه (ﷺ) أنه قال: «**اللهم إن إبراهيم خليلك حرَّم مكة، وإني أُحَرِّم المدينة**» فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق، يوم خلق السموات والأرض على لسان إبراهيم، فلهذا: لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها.

وإن تنازعوا في تحريم المدينة. والصواب المقطوع به تحريمها، إذْ قد صح فيه بضعة وعشرون حديثاً عن رسول الله (ﷺ) لا مَطْعَن فيها بوجه.

ومنها قوله: «**فلا يَحِلُّ لأحد أن يَسْفِك بها دماً**» هذا التحريم لِسفْك الدم المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها، لكونها حَرَماً، كما أن تحريم عَضدِ الشجر بها، واختلاء خَلاها، والتقاط لقطتها: هو أمر مختص بها، وهو مُباح في غيرها، إذ الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص. وهذا أنواع:

أحدها: وهو الذي ساقه أبو شريح العَدَوي لأجله ـ أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتَل، لا سيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابن الزبير، فلم يكن قتالُهم، ونَصْبُ المَنْجَنِيق عليهم، وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشِيَعته، وعارض نص رسول الله (ﷺ) برأيه وهواه، فقال: «إن الحرم لا يعيذ عاصياً» فيقال له: هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله، ولو لم يُعِذْهُ من سفَك دَمِه، لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم. وهو لم يزل يُعيذُ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك. . .

(1)**وتأمل** كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ**﴾ [التوبة: ٦] فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿**مَا قُلْتُ لهم إلاَّ مَا أمَرتَني به**﴾ [المائدة: ١١٧] والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالى: ﴿**قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿**وقُل لِعبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أحسَنُ**﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿**قُل لِّلْمُؤمِنِينَ**

(١) ١١١ التبيان.

يَغُضُّوا مِن أبصَارِهِم﴾ [النور: ٣٠] ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول - أي قاله مبلغاً - وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق - وقد تلى آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

(١)**قال** الله تعالى: **﴿فَاقتلُوا المُشرِكِينَ حيثُ وَجَدتُّمُوهُم وَخُذُوهُم واحصُرُوهُم واقعدوا لَهُم كُلَّ مَرْصَدٍ، فإن تَابُوا وَأقامُوا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة فَخَلُّوا سبيلَهُم﴾**[التوبة: ٥] فأمر بقتلهم حتى يتوبوا من شركهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

ومن قال: لا يقتل تارك الصلاة يقول: متى تاب من شركه سقط عنه القتل، وإن لم يقم الصلاة ولا آتى الزكاة، وهذا خلاف ظاهر القرآن.

وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو باليمن إلى النبي (ﷺ) بذهيبة(٢) فقسمها بين أربعة، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله. فقال: «**ويلك ألستُ أحق أهل الأرض أن يتقي الله**»؟ ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**» فقال خالد: فكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**». فجعل النبي (ﷺ) المانع من قتله كونه يصلي، فدل على أن من لم يصل يقتل، ولهذا قال في الحديث الآخر: «**نهيت عن قتل المصلين**» وهو يدل على أن غير المصلين لم ينهه الله عن قتلهم.

وروى الإمام أحمد والشافعي في مسنديهما: من حديث عبدالله بن عدي بن الخيار؛ أن رجلاً من الأنصار حدثه؛ أنه أتى النبي (ﷺ) وهو في مجلس فسارَّه يستأذنه في قتل رجل من المنافقين، فجهر رسول الله (ﷺ) فقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله**»؟ فقال الأنصاري: بلى يا رسول الله، ولا شهادة له. قال: «**أليس يشهد أن محمداً رسول الله**»؟ قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يصلي الصلاة**»؟ قال: بلى، ولا صلاة له. قال: «**أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم**» فدل

---

(١) ٥ كتاب الصلاة.

(٢) هي بالضم على التصغير: القطعة من الذهب.

على أنه لم ينهه عن قتل من لم يصل.

وفي صحيح مسلم: عن أم سلمة، عن النبي (ﷺ) قال: «**إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**[1]» فقالوا: يارسول الله، ألا نقاتلهم؟ فقال: «**لا، ما صلوا**».

وفي الصحيحين: من حديث عبدالله بن عمر؛ أن النبي (ﷺ) قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**».

فوجه الاستدلال به من وجهين: أحدهما: أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة. الثاني: قوله: «**إلا بحقها**» والصلاة من أعظم حقها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ثم قد حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله**». رواه الإمام أحمد وابن خزيمة في صحيحه فأخبر، (ﷺ) أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة. وأن دماءهم وأموالهم إنما تحرم بعد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فدماؤهم وأموالهم قبل ذلك غير محرمة بل هي مباحة.

وعن أنس بن مالك قال: لما توفي رسول الله (ﷺ) ارتد العرب. فقال عمر: يا أبا بكر. كيف تقاتل العرب؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله (ﷺ): «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**». رواه النسائي وهو حديث صحيح.

وتقييد هذه الأحاديث يبين مقتضى الحديث المطلق الذي احتجوا به على ترك القتل مع أنه حجة عليهم، فإنه لم يثبت العصمة للدم والمال إلا بحق الإسلام، والصلاة آكد حقوقه على الإطلاق.

وأما حديث ابن مسعود وهو: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث**» فهو حجة لنا في المسألة، فإنه جعل منهم التارك لدينه، والصلاة ركن الدين

(١) الخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه، وتقديره: لم يبرأ ولم يسلم من الإثم.

الأعظم، ولا سيما إن قلنا بأنه كافر فقد ترك الدين بالكلية. وإن لم يكفر فقد ترك عمود الدين. قال الإمام أحمد(١): وقد جاء في الحديث: **«لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة»**.

وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، قال: فكل مستخف بالصلاة مستهين بها، فهو مستخف بالإسلام مستهين به، وإنما حظهم في الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة. فاعرف نفسك يا عبدالله، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: **«الصلاة عمودالدين»**، ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد؟ وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء الحديث أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله، وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله. فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين؛ إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام. هذا كله كلام أحمد.

والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، قال الإمام أحمد: كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه.

والمقصود أن حديث عبدالله بن مسعود: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه» من أقوى الحجج **في قتل تارك الصلاة**.

---

(١) انظر: (رسالة الصلاة) للإمام أحمد رقم ١٩، ٢٠، ٢١.

واختلف القائلون بقتله في مسائل: إحداها: أنه هل يستتاب أم لا؟ فالمشهور أنه يستتاب فإن تاب ترك وإلا قتل، هذا قول الشافعي وأحمد وأحد القولين في مذهب مالك.

وقال أبو بكر الطرطوشي في تعليقه: مذهب مالك، أنه يقال له: صل. ما دام الوقت باقياً، فإن فعل ترك وإن امتنع حتى خرج الوقت قتل، وهل يستتاب أم لا؟ قال بعض أصحابنا يستتاب. فإن تاب وإلا قتل. وقال بعضهم لا يستتاب لأن هذا حد من الحدود يقام عليه فلا تسقطه التوبة كالزاني والسارق، وهذا القول يلزم من قال يقتل حدًّا، فإنه إذا كان حده على ترك الصلاة القتل كان كمن حده القتل على الزنى والمحاربة، والحدود تجب بأسبابها المتقدمة ولا تسقطها التوبة بعد الرفع إلى الإمام. وأما من قال يقتل لكفره فلا يلزمه هذا لأنه جعله كالمرتد، وإذا أسلم سقط عنه القتل قال الطرطوشي: وهكذا حكم الطهارة والغسل من الجنابة والصيام عندنا، فإذا قال: لا أتوضأ ولا أغتسل من الجنابة ولا أصوم قتل ولم يستتب.

(١)**أورد** شيخنا الهراسي سؤالاً على القول بكفر تارك الصلاة، وزعم أنه لا جواب عنه فقال: إذا أراد هذا الرجل معاودة الإسلام فبماذا يسلم، فإنه لم يترك كلمة الإسلام؟ فأجابه ابن عقيل بأن قال: إنما كان كفره بترك الصلاة لا بترك الكلمة، فهو إذا عاود فعل الصلاة صارت معاودته للصلاة إسلاماً. فإن الدال على إسلام الكافر الكلمة أو الصلاة. قلت: وهذا الذي ذكره شيخنا يرد عليه في كل من كفر بشيء من الأشياء مع إتيانه بالشهادتين وتلك صور عديدة.

(٢)**ويقال** له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعًا؛ إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة، من الانتصاب والركوع والسجود والتورك والانتقالات، وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة، كالمعدة، والأمعاء وسائر آلات النفس، والغذاء. فما يُنكر أن يكون في هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد؛ ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها في الصلاة؛ فتقوى الطبيعة؛ فيندفع الألم، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل، والتعوُّض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نارٌ تلظَّى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

---

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣. (٢) ٢٧٩ زاد المعاد جـ٣.

وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم، فأمر معلوم بالوجدان. فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه: اشتد همُّها وغمها وكربها وخوفها. فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحاً ونشاطاً وقوة. كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُم الله بأيدِيْكُم وَيُخْزِهِم، وينْصُرُكُمْ عَلَيهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوم مُّؤمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِم﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فلا شيء أذهب لجوَى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد. والله المستعان.

وأما تأثير «لا حول ولا قوة إلا بالله» في دفع هذا الداء، فلما فيها من كمال التفويض، والتبري من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال، في العالم العلوي والسفلي. والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله، بالله وحده. فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: «إنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله» ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان. والله المستعان.

فصل[1]

وأما أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله فقالوا: لا ينتقض العهد إلا بأن يكون لهم منعة[2] فيمتنعون من الإمام، ويمنعون الجزية، ولا يمكنه إجراء الأحكام عليهم. فأما إذا امتنع الواحد منهم عن أداء الجزية، أو فعل شيئاً من هذه الأشياء التي فيها ضرر على المسلمين أو غضاضة على الإسلام لم يصر ناقضًا[3] للعهد.

لكن من أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل، والتلوط، وسب الذمي لله ورسوله وكتابه ونحو ذلك إذا تكرر، فعلى الإمام أن يقتل فاعله تعزيراً. وله أن يزيد على الحد المقدر فيه إذا رأى [المصلحة] في ذلك[4]، ويحملون[5] ما جاء عن النبي (ﷺ) من القتل في مثل هذه الجرائم على أنه رأى المصلحة في ذلك، ويسمونه القتل سياسةً، وكان حاصله أن للإمام أن يعزر بالقتل

---

(١) ٨٠٩ أحكام جـ٢.

(٢) قارن بالصارم ١٠: «وأما أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: لا ينقض العهد بالسب. ولا يقتل الذمي بذلك. لكن يعزَّر».

(٣) في الأصل (لم يصرنا قضاء).

(٤) قارن ببدائع الكاساني ٧/٦٣.

(٥) في الأصل (وتحملون).

في الجـرائم التي تغلَّظت[١] بالتكرار، وشُرع القتل في جنسها، ولهذا أفتى أكثر أصحـابهم بقتـل من أكثر من سب النبي (ﷺ) من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه. وقالوا: يقتل سياسةً؛ وهذا متوجه على أصولهم.

قال القـاضي في «التعليق»: الـدلالـة على أن نقض العهد يحصل بهذه الأشياء ـ وإن لم يشترطه في عقد الذمة ـ أن[٢] الإيمان يقتضي الكف عن الإضرار، وفي هذه الأشياء إضرار، فيجب أن ينتقض العهد بفعلها كما لو شرط ذلك في عقد الأمان. قال: ولأن عقد الذمة عقد أمان، فانتقض بالمخالفة من غير شرط كالهدنة.

الدليل الثاني:[٣] **قلت**: واحتج غيره من الأصحاب بوجوه أخر سوى ماذكره.

منها قولـه تعـالى: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرِ وَلا يُحرِّمونَ ما حرّمَ الله وَرَسولُهُ ولا يدينونَ دينَ الحقِّ مِن الذينَ أُوتوا الكِتابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وهُمْ صِاغرونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] فلا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا صاغرين حال إعطاء الجزية. والمراد بإعطاء الجزية من حين بذلها[٤] أو التزامها إلى حين تسليمها وإقباضها، فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن نقبضها منهم[٥]؛ فمتى لم يلتزموها أو التزموها وامتنعوا من تسليمهـا لم يكونوا معطين لها، فليس المراد أن يكونوا صاغرين حال تناول الجزية منهم فقط، ويفارقهم[٦] الصغار فيما عدا هذا الوقت. هذا باطل قطعاً.

وإذا علم هذا فمن جاهرنا بسب الله ورسوله، وإكراه حريمنا على الزنى، وتحريق جوامعنـا ودورنـا، ورفـع الصليب فوق رءوسنا، فليس معه من الصغار شيء، فيجب قتاله ـ بنص الآية ـ حتى يصير صاغراً.

(١) في الأصل (نعطب) بإهمال جميع الأحرف، وقارن بالصارم ١١.
(٢) في المطبوعة «الإمام» ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.
(٣) يبدو أن كل ما سبق هو الدليل الأول على قتل الساب، فهنا يبدأ الدليل الثاني ولو لم يصرح بذلك ابن القيم، لأنه سيذكر الدليل الثالث بعد قليل في أول الفصل التالي.
(٤) في الأصل (بدلها) بالدال المهملة.
(٥) في الصارم ١١ «إلى أن يقبضوناها، فيتم الإعطاء»: وفي الأصل (نقتضيها).
(٦) في الأصل (وتفارقهم).

فإن قيل: فالمأمور به القتال إلى هذه الغاية(١)، فمن أين لكم القتل المقدور عليه. فالجواب من وجوه:

أحدها: أن كل من أمرنا بقتاله من الكفار؛ فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.

الثاني: أنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها ولو عُقد لهم عقداً فاسداً.

الثالث: أن الأصل إباحة دمائهم، يمسك عصمتها الحَبلان: حبل من الله بالأمر بالكف عنهم، وحبل من الناس بالعهد والعقد؛ ولم يوجد واحد من الحبلين؛ أما حبل الله سبحانه فإنه إنما اقتضى الأمر(٢) بالكف عنهم إذا كانوا صاغرين، فمتى لم يوجد وصف الصغار المقتضى للكف منهم وعنهم فالقتل للمقدور عليه منهم والقتال للطائفة الممتنعة واجب؛ وأما حبل الناس فلم يعاهدهم الإمام والمسلمون، إلا على الكف عما فيه إدخال ضرر على المسلمين وغضاضة في الإسلام، فإذا لم يوجد فلا عهد لهم من الإمام ولا من الله، وهذا ظاهر لا خفاء به.

فصل

الدليل الثالث(٣): قوله تعالى: ﴿**كيف يكونُ للمشركين عهد عند الله وعند رسوله**﴾ إلى قوله: ﴿**وإنْ نَكثُوا أيمانَهم مِنْ بَعدِ عهدِهمْ وطعنوا في دينكُمْ فَقاتِلوا أئمةَ الكفرِ إنَّهمْ لا أيْمانَ لهمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتهونَ**﴾ [التوبة: ٧،١٢] فنفى الله أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي (ﷺ) عاهدهم إلا قوماً ذكرهم فجعل لهم عهداً ما داموا مستقيمين لنا، فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيماً، ومعلوم أن مجاهرتنا بتلك الأمور العظام تقدح في الاستقامة كما تقدح مجاهرتنا بالاستقامة فيها، بل مجاهرتنا بسب ربنا ونبينا وكتابه، وإحراق مساجدنا ودورنا أشد علينا من مجاهرتنا بالمحاربة إن كنا مؤمنين: فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يُجْهَرَ بين أظهرنا بشيء من أذى الله ورسوله، فإذا

---

(١) في الأصل (فالمأثور به القتال إلى هذه العناية). (٢) في الأصل (ألا).

(٣) االصارم المسلول ١٣ (الموضع الثاني).

لم يكونوا مستقيمين لنا مع القدح في أهون الأمرين فكيف يستقيمون لنا مع القدح في أعظمهما؟

يوضح ذلك قوله: ﴿**كيفَ وَإن يظهروا عليكم لا يَرقُبُوا فيكمْ إلاًّ ولاَ ذِمَّةً**﴾ [التوبة:٨] أي: كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم وبينهم ولا العهد، فعلم أن من كانت حالته أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد، ومن جاهرنا بالطعن في ديننا وسب ربنا ونبينا، كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه لو ظهر علينا لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه، فإنه إذا كان هذا فعله مع وجود العهد والذلة، فكيف يكون مع القدرة والدولة؟! وهذا بخلاف من لم يظهر لنا شيئاً من ذلك، فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد لو ظهر.

فإن قيل: فالآية إنما هي في أهل الهدنة المقيمين في دارهم.

قيل: الجواب من وجهين: أحدهما: أن لفظها أعم، الثاني: أنها إذا كان معناها في أهل الذمة المقيمين بدارهم فثبوته في أهل الذمة المقيمين بدارنا أولى وأحرى[1].

الدليل الرابع: [2] قوله تعالى: ﴿**وَإنْ نَكَثُوا أيْمانَهُمْ مِنْ بَعدِ عَهْدِهِم وَطعنوا في دِينكمْ فَقاتِلوا أئمةَ الكُفْرِ**[3]﴾ [التوبة:١٢] فأمر سبحانه بقتال من نكث يمينه. أي عهده[4] الذي عاهدنا عليه من الكف عن أذانا والطعن في ديننا، وجعل علة قتاله ذلك، وعطف الطعن في الدين على نكث العهد، وخصه بالذكر بياناً أنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال. ولهذا تغلظ على صاحبه العقوبة، وهذه كانت سنة رسول الله (ﷺ) فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله، وطعن في الدين، ويمسك عن غيره. فإن قيل: فالآية تدل على أن من نقض عهده، وطعن في الدين، فإنه يقاتل ، فمن أين لكم أن من طعن في الدين ولم ينقض العهد لم يقاتل؟ ومعلوم أن الحكم المعلق بوصفين لا يثبت إلا بوجود أحدهما.

فالجواب من وجوه: أحدها: أن هذا من باب تعليق الحكم بالوصفين المتلازمين اللذين[5] لا ينفك أحدهما عن الآخر، فمتى تحقق أحدهما تحقق الآخر،

(١) في الصارم ١٣ (بطريق الأولى).
(٢) في الصارم ١٤ (الموضع الثالث).
(٣) في الصارم ١٤: (وهذه الآية تدل من وجوه: أحدها أن مجرد نكث الأيمان مقتض للمقاتلة، وإنما ذكر الطعن في الدين وأفرده لأنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال).
(٤) في الأصل (عهد).
(٥) في الأصل (الذين).

وهذا كقوله تعالى: ﴿**ومَنْ يشاقِقِ الرَّسول مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُ الهُدى ويَتَّبِعْ غير سبيلِ المؤمنين نوَلِّه ما تَولى**﴾ [النساء: ١١٥] وكقوله: ﴿**وَلا تَلْبسوا الحقَّ بالباطل وَتَكتُموا الحق**﴾ [البقرة: ٤٢] وقوله: ﴿**ومن يعْصِ الله وَرَسُوله وَيَتَعدَّ حُدوده يدخله ناراً خالِداً فيها**﴾ [النساء: ١٤] ونظائره كثيرة جدًّا، فلا يتصور بقاؤه على العهد مع الطعن في ديننا، بل إمكان بقائه على العهد دينًا أقرب من بقائه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين، بل إن أمكن بقاؤه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين وسبِّه الله ورسوله أمكن بقاؤه عليه مع المحاربة باليد، ومنع إعطاء الجزية. وهذا واضح[١] لا خفاء به.

الجواب الثاني: أنه لابد أن يكون لكل صفة من هاتين الصفتين ما يبين في الحكم، وإلا فالوصف العديم التأثير لا يتعلق به الحكم، فلا يصح أن يقال: من أكل وزنى حُدّ، ثم قد تكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت، كما يقال: يقتل هذا لأنه زانٍ مرتد.

وقد يكون مجموع الجزاء مرتباً على المجموع، ولكل وصف تأثير في البعض، كما قال تعالى: ﴿**والذينَ لا يدْعونَ مع الله إلهاً آخرَ ولا يَقْتُلونَ النَّفسَ التي حَرمَ الله إلا بالحقِّ**﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقد تكون تلك الصفات متلازمة، كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثراً على سبيل الاستقلال، فيذكر إيضاحاً وبياناً للموجب[٢].

وقد يكون بعضها مستلزماً للبعض من غير عكس، كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ الله وَيقْتُلونَ النَّبيِّينَ بغَيْرِ الحقِّ**﴾ [آل عمران: ٢١] وهذه الآية ـ من أي الأقسام فرضت ـ كانت دليلاً، لأن أقصى ما يقال: إن نقض العهد هو المبيح للقتال، والطعن في الدين مؤكد[٣] له موجب له.

فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه، فَلأَنْ يوجب قتل من بيننا وبينه ذمة ـ وهو ملتزم للصغار ـ أولى، فإن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه[٤]، والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئاً من دينه الباطل.

---

(١) في الأصل (أوضح).
(٢) في الأصل وبيان الموجب). وقارن بالصارم ١٥.
(٣) في الأصل (مؤكداً).
(٤) زاد في الصارم ١٥ (الذي لا يؤذينا).

الجواب الثالث: أن مجرد نكث الأيمان، مقتض للمقاتلة ولو تجرد عن الطعن في الدين، وضرره أشد من ضرر الطعن في الدين علينا، فإذا كان أيسر الأمرين مقتضياً للمقاتلة فكيف بأشدهما؟

الجواب الرابع[١]: أن الذمي إذا سب الله والرسول، أو عاب الإسلام علانية، فقد نكث يمينه، وطعن في ديننا، ولا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك بما يردعه وينكل به، فعلم أنه لم يعاهدنا عليه، إذ لو كان معاهداً عليه لم تَجز عقوبته عليه، كما لا يعاقب على شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك. وإذا كنا عاهدناه على ألا يطعن في ديننا، ثم طعن، فقد نكث يمينه من بعد عهده، فيجب قتله بنص الآية.

قال شيخنا: «وهذه دلالة ظاهرة جدًّا[٢]، لأن المنازع سلم لنا أنه ممنوع [٣] من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه، لكنه يقول: ليس كل ما مُنع منه ينقض عهده كإظهار الخمر والخنزير». ولكن الفرق بين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما لا يضر بنا ضرراً بيِّناً[٤] كترك الغيار مثلاً وشرب الخمر وإظهار الخنزير - وبين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما فيه غاية الضرر بالمسلمين وبالدين، فإلحاق أحدهما بالآخر باطل.

يوضح ذلك الجواب الخامس: أن النكث هو مخالفة العهد، فمتى خالفوا شيئاً مما صولحوا عليه فهو نَكْثٌ مأخوذ من نكث الحبل - وهو نَقض قُواه؛ و[٥] نكث الحبل[٦] يحصل بنقض قوة واحدة كما يحصل بنقض جميع القوى، لكن قد [يبقى من قوِلها] يتمسك به الحبل[٧]، وقد يهن[٨] بالكلية. وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى تجعله حربيًّا، وقد تشعّث العهد حتى تبيح عقوبتهم،

---

(١) هو الصارم ١٦ (في الوجه الثاني).　(٢) الذي في الصارم ١٦ (وهذه دلالة قوية حسنة).

(٣) في الأصل (أن المنازع سلم أن لنا به ممنوع) صوابه - كما أثبتناه - من الصارم　(٤) في الأصل (بيننا).

(٥) في الأصل (أو). صوابه (و) من الصارم ١٦.　(٦) في الأصل (الحيل) بالياء.

(٧) كذا بالأصل. والذي في الصارم ١٦ - وعنه أخذ ابن القيم - «ولكن قد بقي من قواه ما يستمسك الحبل به».　(٨) يهن: يضعف، مضارع وهن.

كما أن فقد[١] بعض الشروط في البيع والنكاح وغيرهما[٢] قد يبطله بالكلية[٣]، وقد يبيح الفسخ والإمساك[٤].

وأما من قال: «ينتقض العهد بجميع المخالفات» فظاهرٌ[٥] على قول قاله[٦] القاضي في «التعليق». واحتج القاضي بأنهم «لو أظهروا منكراً في دار الإسلام مثل إحداث البيع والكنائس في دار الإسلام، ورفع الأصوات بكتبهم، والضرب بالنواقيس، وإطالة البناء على أبنية المسلمين، وإظهار الخمر والخنزير. وكذلك ما أخذ عليهم تركه من التشبه بالمسلمين في ملبوسهم ومركوبهم وشعورهم وكناهم. قال: والجواب أن من أصحابنا من جعله ناقضاً للعهد بهذه الأشياء - وهو ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال: «ومن نقض العهد بمخالفة شيء مما صولحوا عليه عاد حربيًّا» - فعلى هذا لا نسلم، وإن سلمناه فَلِما تبيّن فيها أنه لا ضرر على المسلمين فيها، وإنما نهوا عن فعلها لما في إظهارها من المنكر، وليس كذلك في ملتنا لأن في فعلها ضرراً بالمسلمين، فبان الفرق» انتهى كلامه[٨]. قال شيخنا:[٩] فعلى التقديرين فقد[١٠]اقتضى العقد ألا يظهروا شيئاً من عَيْب ديننا، وأنهم متى أظهروه فقد نكثوا وطعنوا في الدين، فيدخلون في عموم الآية لَفظاً ومعنى، ومثلُ هذا العموم يبلغ درجة النص.

فصل

وفي الآية دليل من وجه آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أئِمةَ الكُفرِ﴾ [التوبة: ١٢] وهم الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في ديننا؛ ولكن أقام الظاهر مقام المضمر[١١]بينهما على الوصف الذي استحقوا به المقاتلة، كقوله:

---

(١) سقطت لفظة (فقد) في مطبوعة الصارم ١٦ سهواً أو تطبيعاً. (٢) في الصارم ١٦ (ونحوهما).
(٣) الذي في الصارم ١٦ (قد يبطل البيع بالكلية كما لو وصفه بأنه فرس فظهر بعيراً).
(٤) الذي في الصارم ١٦ (وقد يبيح الفسخ كالإخلال بالرهن والضمين، هذا عند من يفرّق في المخالفة)، ثم يتشابه النصان هنا وهناك. (٥) في الصارم ١٦ (فالأمر ظاهر على قوله).
(٦) في الأصل (قال) والسياق يقتضي استبدال (قاله) به: وتتمة هذه العبارة كلها استطراد من ابن القيم.
(٧) في الأصل (فالعين). (٨) كلام القاضي أبي يعلى في «التعليق».
(٩) أي ابن تيمية في الصارم المسلول بالنص الحرفي ١٦. (١٠) كذا بالأصل والذي في الصارم ١٦ (قد).
(١١) الذي في الصارم ١٧ (وأوقع الظاهر موقع المضمر).

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأقاموا الصلاةَ إنَّا لاَ نُضيع أَجر المُصلِحينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ونظائره، فدل على أن من نكث يمينه، وطعن في ديننا، فهو من أئمة الكفر[١]. وإمام الكفر هو الداعي إليه المتَّبَعُ فيه[٢]. وإنما صار إماماً في الكفر لأجل الطعن، وإلا فإنَّ[٣] مجرد النكث لا يوجب ذلك، وهذا ظاهر: فإن الطاعن[٤] في الدين يعيبه ويذمه ويدعو[٥] إلى خلافه، وهذا شأن الإمام: فإذا طعن الذمي في الدين كان إماماً في الكفر، فيجب قتاله[٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] علة أخرى لقتاله، فأما على قراءة الكسر[٧] فتكون الآية[٨] قد تضمنت ذكر المقتضي للقتال - وهو نكث العهد والطعن في الدين - وبيان عدم المانع من القتال: وهو الإيمان العاصم. وأما على قراءة فتح الألف فالأيمان جمع يمين[٩]، وهي أحسن القراءتين، لأنه قد تقدم في أول الآية قوله: ﴿وإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] فأخبر سبحانه عن سبب القتال - وهو نكث الأيمان والطعن في الدين - ثم أخبر أنه لا أيمان لهم تعصمهم[١٠] من القتل لأنهم قد نكثوها.

والمراد بالأَيْمان[١١] هنا العهود لا القسم بالله، فإن النبي (ﷺ) لم يقاسمهم بالله عام الحديبية وإنما عاهدهم، ونسخة الكتاب محفوظة[١٢] ليس فيها قسم، وهذا

(١) فصل هذا ابن تيمية في الصارم ١٧ بأطول من هذا فقال: «لأن قوله ﴿أئمة الكفر﴾ إما أن يعني به الذين نكثوا أو طعنوا أو بعضهم، والثاني لا يجوز، لأن الفعل الموجب للقتال صدر من جميعهم، فلا يجوز تخصيص بعضهم بالجزاء، إذ العلة يجب طردها إلا لمانع، ولا مانع، ولأنه علّل ذلك ثانياً بأنهم لا أيمان لهم، وذلك يشمل جميع الناكثين الطاعنين».

(٢) في الأصل (الممتنع فيه) ولا معنى له: صوابه من الصارم ١٧.

(٣) في الأصل (وإلا في). والذي في الصارم ١٧ (لأن) من غير لفظة (وإلا).

(٤) في الصارم ١٧ (والطعن)، وقد أضاف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد لفظة [أن] ليستقيم التعبير على رأيه، فجاءت الجملة مطبوعة في الصارم هكذا (لأن الطعن في الدين [أن] يعيبه ويذمه). ولم تكن ثمة حاجة لهذه الزيادة.

(٥) في الأصل (يدعو) بغير واو العطف، وفي الصارم ١٧ (ويدعو) وهو الصواب.

(٦) زاد في الصارم (لقوله تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾).

(٧) أي على قراءة (لا إيمان لهم) بدلاً من (أيمان).

(٨) في الأصل (فيكون الأمر) ولا معنى له.

(٩) في الأصل (مهن) وهو تصحيف عجيب.

(١٠) في الأصل (يعصمهم).

(١١) في الصارم ١٧ (واليمين هنا).

(١٢) في الأصل (يحفظ) والذي في الصارم ١٧ (معروفة).

لأن كلاً من المتعاهدين يمد يمينه إلى الآخر[١]، ثم صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً وإن لم يحصل فيه مد اليمين.

وقد قيل: سمي العهد يميناً [لأن اليمين][٢] هي القوة والشدة، كما قال تعالى: ﴿**لأخَذْنَا مِنْهُ باليَمِينِ**﴾ [الحاقة: ٤٥].

ولما[٣] كان الحلف معقوداً مشدوداً[٤] سمي يميناً، فاسم اليمين جامع للعهد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذراً، ومنه قول النبي (ﷺ) «**النَّذْر خَلْفَةٌ**»[٥] وللعهد الذي بين المخلوقين، ومنه قوله تعالى: ﴿**ولا تَنقضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها**﴾[٦] [النحل: ٩١] فالنهي عن بعض العهود وإن لم يكن فيها قسم، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسيؤتيهِ أجْراً عظيماً**﴾ [الفتح: ١٠] وإن لم يكن هناك قسم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا الله الذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأرْحَامَ**﴾ [النساء: ١] معناه: تتعاهدون وتتعاقدون به، والمقصود[٧] أن كل[٨] من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهداً يقتضي ألا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين[٩] له، فيجب قتله بنص الآية، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام[١٠] في الكفر[١١]، وهو من خالف بفعل[١٢] شيء مما صُولح عليه[١٣].

---

(١) الذي في الصارم ١٧ (وهذا لأن اليمين يقال: إنما سميت بذلك لأن المعاهدين يمد كل منهما يمينه إلى الآخر، ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً).

(٢) هذه الزيادة التي يقتضيها السياق موجودة في مطبوعة الصارم ١٧.

(٣) في الصارم (فلما).

(٤) في الأصل (مسدوداً) وفي مطبوعة الصارم (مشدداً).

(٥) زاد في الصارم ١٨ (وقوله «كفارة النذر كفارة اليمين»).

(٦) زاد في الصارم ١٨ (وإنما لفظ العهد: «بايعناك على ألا نفر» ليس فيه قسم).

(٧) في الصارم ١٨ (فثبت أن كل من طعن) الخ.

(٨) في الأصل (كان).

(٩) في الأصل (لا يميز) صوابه من الصارم ١١.

(١٠) في الأصل (إمام).

(١١) سقطت عبارة (في الكفر) من مطبوعة الصارم ١٨.

(١٢) في الأصل (يفطر) وهو تحريف عجيب. صوابه (بفعل) من الصارم ١٨.

(١٣) زاد في الصارم ١٨ (من غير الطعن في الدين).

فصل

الدليل الخامس[١]: قوله تعالى: ﴿ألَا تُقَاتِلُونَ[٢] قَوْماً نَكَثُوا أيْمَانَهُمْ وَ هَمُوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣] فجعل همَّهم بإخراج الرسول موجباً لقتالهم[٣]؛ لما فيه من الأذى له[٤]. ومعلوم قطعاً أن سبه أعظم أذى له من مجرد إخراجه[٥] من بلده، ولهذا عفا (ﷺ) عامَ الفتح عن الذين همّوا بإخراجه ولم يعف عمن سبه: فالذمي إذا أظهر سبَّه (ﷺ) فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول، وبدأ بالأذى؛ فيجب قتاله.

فصل

الدليل السادس[٦]: قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بأيْدِيكُم وَيُخْزِهِمْ وينصركُمْ عَلَيهِمِ وَيَشْفِ صُدُور قَوْمٍ مُؤْمِنِين. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِم﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، ورتب على ذلك ستة أشياء[٧]: تعذيبهم بأيدي(*) المؤمنين، وخزيهم، والنصرة عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، وتوبته[٨]، على غيرهم. والتقدير: إن تقاتلوهم يحصل[٩] هذا. وإذا كانت هذه الأمور مرتبة على قتال الناكث والطاعن في الدين

---

(١) هذا الدليل الخامس مقتبس مما ذكره ابن تيمية في الصارم ١٨ فيما سماه، (الوجه الرابع)، وكأني بابن القيم حين بلغ هذا الموضع من كتابه (أحكام أهل الذمة) قد وضع نصب عينيه كتاب شيخه «الصارم» وطفق ينسخ منه نسخا حرفيًا تارة ويقتبس منه مع الاختصار تارة أخرى. ولعلنا لاحظنا أن ابن القيم قد نقل من كتاب شيخه أكثر أدلته ونصوصه حتى الآن ابتداء من الصفحة ٥ حتى الصفحة ١٨ من مطبوعة (الصارم) وسيستمر ـ بعد إيراد الدليل الخامس والدليل السادس ـ بالنقل المتتابع من الصارم ابتداء من الصفحة ١٩ حتى الصفحة ٢٤. ثم من الصفحة ٦١ حتى الصفحة ٩٢، ويتخلل ذلك كله استطراد من ابن القيم بين الفينة والفينة، حتى ليوشك أن يكون مجموع ما نقله ابن القيم من كتاب شيخه زهاء خمسين صفحة من القطع الكبير المطبوع. (٢) في الأصل (تقاتلوا).

(٣) في مطبوعة الصارم ١٨ (من المحضضات على قتالهم).

(٤) في الصارم ١٨ (وما ذاك إلا لما فيه من الأذى). (٥) في الصارم ١٨ (أغلظ من الهم بإخراجه).

(٦) هذا الدليل السادس هو في الصارم ١٨ (الوجه الخامس).

(٧) في مطبوعة الصارم (وضمن لنا ـ إن فعلنا ذلك ـ أن يعذبهم بأيدينا) إلخ، وليس فيه ذكر العدد (ستة).

(٨) حروف هذه الكلمة كلها مهملة في الأصل، وإنما كان تقدير اللفظة (توبته) لقوله في ختام الآية المستشهد بها ﴿ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم﴾. (٩) في مطبوعة الصارم ١٩ (يكن).

(*) في المطبوعة «بأذى» ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.

ـ وهي أمور مطلوبة ـ كان سببها المقتضي لها مطلوباً للشارع ـ وهو القتال ـ وإذا كانت هذه الأمور مطلوبة حاصلة بالقتال، لم يجز تعطيل القتال الذي هو سببها مع قيام المقتضي له من جهة من يقاتله: وهو النكث والطعن في الدين.

فشفاء الصدور الحاصل من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك، مقصود[1] للشارع مطلوب الحصول.

ولا ريب أن من أظهر سب رسول الله (ﷺ) من أهل الذمة فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر من سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم: فإن هذا يثير[2] الغضب لله والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظ[3] أكثر منه، بل المؤمن المسدّد[4] لا يغضب هذا الغضب إلا لله ورسوله[5]؛ والله سبحانه يحب[6] شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم؛ وهذا إنما يحصل بقتل السبّاب لأوْجُه[7]:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحداً من المسلمين، فلو أذهب التعزير والتأديب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول؛ لكان غيظهم من سب نبيّهم[8] مثل غيظهم من سب واحد منهم، وهذا باطل قطعاً.

الثاني: أن شتمه أعظم عندهم من أن يسفك دماء بعضهم بعضاً[9] ثم لو قُتل واحد منهم لم يَشْفِ صدورهم إلاَّ قتله، فَأنْ لا تُشفى صدورهم إلا بقتل الساب أوْلى وأحرى.

الثالث: أن الله جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء، والأصل عدم

(١) في الصارم ١٩ (أمر مقصود).

(٢) في الأصل (يبين) صوابه من الصارم ٢٠

(٣) كذا بالأصل، وفي الصارم (غيظاً).

(٤) في الأصل (المشدد) بالشين المعجمة.

(٥) سقطت من الصارم لفظة (ورسوله).

(٦) في الصارم ٢٠ (يطلب).

(٧) هذه الأوجه أربعة في كل من الصارم وكتاب ابن القيم هذا. وهذا يدل صراحة على أن ابن القيم كان ينقل كلام شيخه نقلاً حرفيًّا، ولكن العجيب في الأمر أنه غالباً لا يعزو النص إلى صاحبه رغم نسخه إياه كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً!! أكان يحفظ أقوال ابن تيمية عن ظهر الغيب ويمليها من حفظه وهو لا يدري؟ أم ثقل عليه أن يعيد للقارىء عبارته (قال شيخنا) في كل مرة؟ أم عد من حقه أن يروي «موافقاته» لشيخه وكأنها آراؤه وأفكاره؟

(٨) في الأصل (من سب بينهم)، وفي الصارم ٢٠ (من شتمه).

(٩) كذا بالأصل، وهو تعبير غير فصيح، والذي في الصارم ٢٠ (أن يؤخذ بعض دمائهم).

سبب(١) آخر يُحَصلِّه(٢)، فيجب أن يكون القتل والقتال هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي (ﷺ) لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خُزاعة ـ وهم القوم المؤمنون ـ من بني بكر الذين قاتلوهم، مكّنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس، فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا أو طعنوا لما فعل ذلك مع أمانه الناس(٤).

فصـل

الدليل السابع(٥) قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالداً فِيها، ذَلِكَ الخزيُ العظيم**﴾ [التوبة: ٦٣] ذكر سبحانه هذه الآية عقيب قوله: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذينَ يُؤْذُونَ النَّبيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾[التوبة: ٦١] فجعلهم مؤذين له بقـولهم «هو أذن»، ثم قال: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ**﴾ فجعلهم بهذا مُحَادِّين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادَّة له ولرسوله ؛ وإذا ثبت أنه محادٌّ فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذينَ يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ أولَئِك في الأَذَلِّينَ**﴾ [المجادلة: ٢٠] والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من(٧) كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فلبس بأذلّ، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحبْـلٍ مِنَ النَّاسِ**﴾ فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعُلم أن مَنْ له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلّةَ عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه الحادّين(٩) في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه

---

(١) في الأصل (تسبب).
(٢) في الأصل (فحصله)، تصويبه من الصارم ٢٠.
(٣) في الأصل (القتلة الذين)، وقارن بالصارم ٢٠.
(٤) في الصارم ٢٠ (للناس).
(٥) هو في الصارم ٢٠ (الموضع الرابع)، ويلاحظ هنا أن ابن القيم يختصر أدلة شيخه.
(٦) في الأصل (ورسوله).
(٧) كذا في الأصل. وفي مطبوعة الصارم ٢٢ (لأنه إن كان . . .).
(٨) قوله (يأمن به على نفسه وماله) سقط من مطبوعة الصارم ٢٢.
(٩) في مطبوعة الصارم ٢٢ (المخادعين) وما في مخطوطتنا أدق وأنسب للسياق.

الآية، وهذا ظاهر، فإن الأذلّ ليس له قوة يمتنع بها مَّن[1] أراده بسوء، فإذا كان [له][2] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه.

فصل[3]

قولهم: «ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحداً»

هذا من أولى الأشياء أن ينتقض العهد به: فإنه حراب الله وسوله باللسان، وقد يكون أعظم من الحراب باليد، كما أن الدعوة إلى الله ورسوله جهاد بالقلب وباللسان، وقد يكون أفضل من الجهاد باليد.

ولما كانت الدعوة إلى الباطل مستلزمة[4] ـ ولابد ـ للطعن في الحق كان دعاؤهم إلى دينهم وترغيبهم فيه طعناً في دين الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَّكثوا أَيْمانَهُمْ [مِنْ] بَعدِ عَهْدِهِمْ وَطَعنُوا في دِينِكُمْ فَقاتِلوا أئمة الكُفْرِ﴾. [التوبة: ١٢]

ولا ريب أن الطعن في الدين أعظم من الطعن بالرمح والسيف، فأولى ما انتقض به العهد الطعن في الدين، ولو لم يكن مشروطاً عليهم. فالشرط ما زاده إلا تأكيداً وقوة.

الباب الثالث[5]

في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبيعية وشرعية.

مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل؛ ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات. وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لِفسادِ القلب لا يُحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

---

(١) في الأصل (فمن)، صوابه من الصارم.　(٢) الزيادة من الصارم ٢٢.

(٣) ٧٢٩ أحكام جـ٢.　(٤) في الأصل (متلزمة).　(٥) ١٨ إغاثة جـ١.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ وما يدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويشقيه مايشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت، وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية؛ فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال: «شفي غيظه» فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ**﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]. فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً؛ من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفي مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أُخر أصعب من مرض العشق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكذلك الغَمُّ والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه، وإن كان بباطل توارَى ذلك واستتر، ولم يزل، وأعقب أمراضاً هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه، قال النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «**قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنما شِفاء العِيِّ السؤال** » فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره؛ وحصل له بَرْد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدَى والعلم، قال تعالى: ﴿فَمَن يُردِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يردْ أَن يضلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن. اهـ.

(١)**قوله** تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرام كَمَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجاهَدَ في سَبيلِ الله. لا يَسْتوونَ عِنْدَ الله، والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين. الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا في سَبيلِ الله بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ الله، وَأُولئِكَ هُم الفائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْه وَرِضْوانٍ وَجَنَّات لَهُمْ فِيها نَعيم مُقِيم. خالِدِينَ فِيها أَبَدًا إِنَّ الله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظيم﴾ [التوبة: ١٩، ٢٢]. فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون. وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله: ﴿إنَّما يَعْمُرُ مَساجِد الله مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْم الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلَّا الله، فَعَسَى أُولئِكَ أَن يكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدين﴾ [التوبة: ١٨]. فهؤلاء هم عمار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم.

(٢)**واختلف** نفر من الصحابة في أفضل الأعمال؛ فقال بعضهم: سقاية الحاج، وقال بعضهم: عمارة المسجد الحرام، وقال بعضهم: الحج، وقال بعضهم: الجهاد في سبيل الله، فاستفتى عمرُ في ذلك رسول الله (ﷺ) فأنزل الله

(١) ٣٥٦ طريق الهجرتين.
(٢) ٣١١ أعلام جـ٤

عز وجل: ﴿أجَعَلْتم سِقاية الحاجِّ وعمارَة المسجدِ الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

(١)**نفي** التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾.

وقد تأتي بين الفاعلين نحو: ﴿لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنينَ غيرُ أولي الضَرَرِ والمُجاهِدُونَ في سَبيلِ الله﴾ [النساء: ٩٥].

وقد تأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَستَوِي الأعمىٰ والبصيرُ وَلا الظُلُماتُ وَلاَ النُورُ وَلاَ الظِّلُّ وَلا الحرورُ وَمَا يَستوي الأحياءُ وَلاَ الأمواتُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٢]. فالأعمى والبصير الجاهل والعالم، والظلمات والنور الكفر والإيمان، والظل والحرور، الجنة والنار، والأحياء والأموات المؤمنون والكفار.

(٢)**وأما** تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن؛ بل قد جاء مقدماً كذلك في قوله: ﴿وَما أموالُكم ولا أولادكم بِالتي تقرّبكم﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿إنما أموالُكمَ وأولادُكم فِتنة﴾ [التغابن: ١٥]. وقوله: ﴿لا تلهكم أموالُكمَ وَلاَ أولادُكم عن ذِكرِ الله﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدماً كما في قوله: ﴿قُل إن كَان آباؤكُم وأبناؤكُم وَإِخوانُكُم وأزواجُكُم وَعَشِيرتكُم وَأموال اقْتَرَفتموها﴾ [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالبَنِينَ وَالقَناطِيرِ المُقنطَرةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها؛ حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، فهي في موضع عن الالتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه.

(١) ٨ بدائع جـ٤.
(٢) ٤-٧ بدائع جـ١.

ومعلوم أن اشتغال النـاس بأموالهم والتلاهي بها، أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله.

ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته، تمنعه من الخـروج عنهم، أكثـر مما يمنعـه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر، نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته.

فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبنائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم.

ثم ذكر الفروع وهم الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة.

ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب. فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً.

ثم الأزواج رابعـاً؛ لأن الـزوجـة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة. وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالباً، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل وله أحب وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب: من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه، أعظم من الثاني والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً؛ لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامناً آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ماتقدم. فإن الأوطان تتشابه وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه ويكون خيراً منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها. فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به. وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع.

(1)فصل في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس

وهما موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها. وتسمى غزوة هَوَازِن؛ لأنهم الذين أَتَوْا لقتال رسول الله (ﷺ).

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله (ﷺ)، وما فتح الله عليه من مكة، جمع مالك بن عوف النَّصْري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مُضَر وجُشَم كلهـا، وسعد بن بكر، وناسٌ من بني هلال. وهم قليل. ولم يشهدها من بني قيس بن عَيلان إلا هؤلاء. ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب. وفي جشم: دُرَيْدُ بن الصِّمَّة شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعاً مجرِّباً، وفي ثقيف سيدان لهم. وفي الأحلاف: قارب بن

(١) ٤٣٨ زاد المعاد جـ٢.

الأسود. وفي بني مالك: سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجِمَاعُ أمر الناس: إلى مالك بن عوف النصْري.

فلما أجمع السيرَ إلى رسول الله (ﷺ) ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال: بأيِّ وَادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم، مجال الخيل. لا حَزْن ضَرِس، ولا سهل دَهِس، مالي أسمع رُغَاءَ البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصبي، وثُغَاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك ـ ودُعِيَ له ـ قال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله؛ ليقاتل عنهم. فقال: راعي ضأن والله، وهل يَرُدُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمْحه، وإن كانت عليك فُضِحْت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلتْ كَعْبُ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحدّ والجدّ، لو كان يوم علاءٍ ورفعة لم يغب عنهم كعب ولا كلاب، ولوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذانك الجَذَعان من عامر؟ لا ينفعان ولا يضران، يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن ـ إلى نُحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعَلْيَاء قومهم. ثم الْقَ الصَّبَأة على مُتُون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كَبرت وكبر عقلك. والله لَتُطِيعُنِّي يا معشر هوازن، أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى، فقالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يا ليتني فيها جَذَعْ　　أخُبُّ فيها وأضعْ
أقود وَطْفاء الزمع　　كأنها شاة صَدَعْ[1]

(١) الوطفاء: المرأة كثيرة شعر هدبي العين، والزمع ـ بفتح الزاي والعين رذال الناس، والصدع: الصغيرة، أو الوسط التي لا قيمة لها.

ثم قال مالـك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا عليهم شدة رجل واحد. وبعث عيونا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوْصَالُهم. قال: ويلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْقٍ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد. فلما سمع بهم نبي الله (ﷺ) بعث إليهم عبدالله بن أبي حَدْرَد الأسلمي، وأمره أن يدخل في النـاس، فيقيم فيهم، حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم، حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله (ﷺ) وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر، فلما أجمع رسول الله السير إلى هوازن ذُكر له: أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه ـ وهو يومئذ مشرك ـ فقال: «**يا أبا أمية، أعِرْنا سلاحك هذا نَلْقَى فيه عدونا غداً**»، فقال صفوان: أغَصباً يا محمد؟ قال: «**بل عارية، وهي مضمونة حتى نُؤدِّيها إليك**»، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

ثم خرج رسـول الله (ﷺ)، معـه ألفـان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة. وكانوا اثني عشر ألفاً. واستعمل عَتَّاب بن أسيد على مكة أميراً. ثم مضى يريد لِقَاء هوازن.

قال ابن إسحاق: فحدثني **عاصم** بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبدالله قال: «لما استقبلنا وادي حُنين انْحَدَرْنَا في وَادٍ من أوْدِية تِهامة، أجوف حطوط، إنما نَنْحَدِر فيه انْحِداراً. قال: في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكَمَنُوا لنا في شِعَابه وأجنابه ومَضَايقه. وقد أجمعوا وتهيَّؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ـ ونحن منحطون ـ إلا الكتائب قد شدوا علينـا شَدَّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يَلْوِي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله (ﷺ)، ذات اليمين، ثم قال: «**إلى أَين أيُّها الناس. هَلُمَّ إليَّ. أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله**» وبقي مع رسول الله نفر من المهاجرين وأهل بيته. وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيتـه: علي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العباس،

وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن، وقتل يومئذ. قال: ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رُمْح طويل، أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدْرَك طَعن برُمحِه، وإذا فاته الناس رفع رُمْحَه لمن وراءه فاتبعوه. فبينا هو كذلك إذْ هَوَى إليه علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يُريدَانِه. قال: فيأتي عليٌّ من خلفه، فضرب عرقُوبي الجمل، فوقع على عجزه، فوثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطَنَّ قدمه بنصف ساقه، فانجعَفَ عن رَحْلِه. قال: واجتلد الناس. قال: فوالله ما رَجعتْ رَاجِعَةُ الناس من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله (ﷺ)(١).

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى من كان مع رسول الله من جُفَاة أهل مكة الهزيمة: تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الطعن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته. وصرخ جبلة بن الجنيد ـ وقال ابن هشام: صوابه: كَلَدة ـ ألاَ بطل السحر اليوم. فقال له صفوان، أخوه لأمه ـ وكان بعد مشركاً ـ: اسكت، فَض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّني رجل من هوازن.

وذكر ابن سعد: عن شيبة بن عثمان الحجبي قال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله (ﷺ) مكة عنوة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أنْ أصيب من محمد غِرَّة، فأثأر منه، فأكونَ أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يَبْقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما أتبعته أبداً، وكنت مُرْصداً لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس اقْتَحَمَ رسول الله عن بغلته، فأصلتُّ السيفَ، فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه، فرفع لي شُواظٌ من نار كالبرق، كاد يَمْحَشُني، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفت إلي رسول الله (ﷺ) فناداني: «**يا شيب، ادْن مني**»، فدنوت منه فمسح صدري، ثم قال: «**اللهم أعِذْهُ من الشيطان**» قال: **فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي**، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: «**ادن فقاتل الكفار**» فتقدمت أمامه أضرب

(١) ورواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق.

بسيفي. الله أعلم أني أحب أن أقِيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي ـ لو كان حيًّا ـ لأوقعت به السيف، فجعلت ألـزمـه فيمن لزمـه، حتى تراجع المسلمون، فكروا كَرّة رجل واحد، وقُرِّبَتْ بغلة رسول الله، فاستوى عليها وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خِباءَه، فدخلت عليه ـ ما دخل عليه أحد غيري ـ حُبًّا لرؤية وجهه، وسروراً به. فقال: «**يا شيب، الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك**» ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي. فقال: «**غفر الله لك**».

وقال ابن إسحاق: وحدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: «إني لمع رسول الله (ﷺ) آخِذٌ بحَكمة بغلته البيضاء، قد شَجَرْتها بها، وكنت امْرَءاً جَسِيماً شديدَ الصوت، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول ـ حين رأي ما رأى من الناس ـ: «**إلى أين أيها الناس؟**» قال: فلم أرَ الناس يلْوُون على شيء، فقال: «**يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السُّمرة**» فأجابوا: لبَّيْك، لبَّيْك. قال: فيذهب الرجل ليثني سيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ دِرعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويُخلِّي سبيلَه، ويَؤُمَّ الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله (ﷺ) حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. فكانت الدعوةُ أول ما كانت: للأنصار، ثم خلصت آخراً لِلْخَزْرَج. وكانوا صُبُراً عند الحرب. فأشرف رسول الله (ﷺ) في ركائِبه، فنظر إلى مُجْتلَد القوم، وهم يجتلدون فقال: «**الآن حمى الوطيس**» ـ وزاد غيره:

«**أنا النبي لا كـذب أنا ابن عبد المطلب**»

وفي صحيح مسلم: «ثم أخذ رسول الله (ﷺ) حَصَيات، فرمى بها في وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا، ورب محمد**» فما هو إلا أن رماهم، فما زلت أرى حَدَّهم كليلاً، وأمرهمَ مدبراً. وفي لفظ: أنه نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا مُلِيء عينه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين.

وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم ـ والناس يقتتلون يوم حنين ـ مثل النجاد الأسود أقْبَل من السماء، حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشكَّ أنها الملائكة».

قال ابن إسحاق: «ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف وعسكَر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث رسول الله في آثار من توجه قِبَل أوطاس أبا عامر الأشعري. فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوَشُوه القتال، فرُمِي بسهم فقُتِل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ـ وهو ابن عمه ـ فقاتل، ففتح الله عليه، فهزمهم الله، وقتل قاتلَ أبي عامر، فقال رسول الله: «**اللهم اغفر لأبي عامر وأهله، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك**» واستغفر لأبي موسى.

ومضى مالك بن عوف النصري حتى تحصن بحصن ثقيف. وأمر رسول الله بالسَّبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله، ووجَّهوا إلى الجعِرَّانة، وكان السبي: ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة. فاسْتَأنَى بهم رسول الله أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية، ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**. فقال: ابني معاوية؟ قال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين ـ وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين ـ وأعطى العباس بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعراً، فكمل له المائة، ثم أمر زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم: لكل رجل أربعاً من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد،

عن أبي سعيد الخدري قال: «لما أعطى رسول الله (ﷺ) ما أعطى من تلك العطايا الكبار في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت، في هذا الفَيء الذي أصبت قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي، قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجِدَة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وعَالَة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بي بين قلوبكم؟**» قالوا: الله ورسوله أمَنُّ وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ والفضل، قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولَصدِّقتكم: أتيتنا مكُذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا[1] تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امْرَأً من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْباً وَوَادِياً، وسلكت الأنصار شِعباً وواديًا لسلكت شِعْبَ الأنصار وواديها، الأنصار شِعَار والناس دِثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**». قال: فبكى القوم، حتى أَخْضَلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله (ﷺ) قَسْماً وحَظًّا. ثم انصرف رسول الله (ﷺ) وتفرقوا.

---

(١) اللعاعة بضم اللام ـ الشيء القليل.

وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزي ـ أخت رسول الله من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله! إني أختك من الرضاعة. قال: «**وما علامة ذلك؟**» قالت: عَضَّة عَضَضْتَنيها في ظهري، وأنا مُتَوَرِّ كُتُك، قال: فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه وأجلسها عليها، وخيَّرها، فقال: «**إن أحببت الإقامة فعندي مُحببة مكرمة، وإن أحببتِ أن أمَتّعك فترجعين إلى قومك**» قالت: بل تُمتِّعْني وتردني إلى قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد: أنه أعطاها غلاماً ـ يقال له مكحول ـ وجارية، فزوجت إحداهما من الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

وقال أبو عمر: فأسلمت فأعطاها رسول الله ثلاثة أعبد وجارية ونَعَماً وشاءً، وسماها: حذافة، قال: والشيماء لقب.

فصل

وقدم وفد هوازن على رسول الله (ﷺ) وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقان عمّ رسول الله (ﷺ) من الرضاعة، فسألوه أن يَمُنَّ عليهم بالسبي والأموال. فقال: «**إن معي من ترون، وإن أحبَّ الحديث إلى أصدقُه، فأبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم، أم أموالكم؟**» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقال: إذا صليتُ الغداة، فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله أن يَرُدَّ علينا سَبْيَنا، فلما صلى الغداة قاموا، فقالوا ذلك. فقال رسول الله (ﷺ): «**أمّا ماكان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس**». فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ) فقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أمّا أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. فقال العباس بن مرداس: وَهَّنْتُمُوني، فقال رسول الله (ﷺ): «**إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت أسْتَأْنَيْتُ سبيَهم، وقد خيرتهم فلم يعدِلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهنَّ شيء، فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقّه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا**»، فقال الناس: قد طيَّبنا لرسول الله (ﷺ) فقال: «**إنا لا نعرف**

من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرَفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم»، ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله السَّبْيَ قِبْطية قبطية.

فصل

في الإشارة إلى بعض ماتضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكمية.

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ـ وهو الصادق الوعد ـ أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً، ودَانَتْ له العرب بأَسْرِها. فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى، أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله (ﷺ) والمسلمين، ليظهرَ أمرُ الله وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة، التي لم يَلْقَ المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعدُ أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتَبدُو للمتوسِّمين(١).

(٢)**حدثنا** وكيع، عن عُبيدالله بن أبي زياد، عن ابن أبي نجيح، عن عبدالله بن عمرو قال: من أكل أجور بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم.

حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبدالله بن مسلم بن هُرمُز عن عطاء أنه كره الكراء بمكة.

حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ابن جريج قال: قرأت كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى الناس: ينهي عن كراء بيوت مكة.

حدثنا إسحاق الأزرق، عن عبدالله بن أبي سليمان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير مكة: ألا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً، فإنه لا يحل لهم.

حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر؛ أنه نهى أن تغلق دور مكة دون الحاج، وأنهم يضطربون فيما وجدوا منها فارغًا.

---

(١) ساقها المؤلف قرابة نصف كراسة لمن أرادها. (٢) ١٢٨ أحكام جـ١.

حدثنا [أبو] إسماعيل [يعني المؤدب]، عن عبدالله بن مسلم بن هرمز، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الحرم كله مسجد.

حدثنا إسماعيل بن حفص، عن إسرائيل، عن ثُوَيْر، عن مجاهد، عن ابن عمر: الحرم كله مسجد.

قلت: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وهذا لمكة كلها. قال أبو عبيد: فإذا كانت مكة هذه سننها أنها مناخ من سبق [إليها]، وأنها لا تباع رباعها، ولا يطيب كراء بيوتها، وأنها مسجد لجماعة المسلمين؛ فكيف تكون هذه غنيمة فتقسم بين قوم يحوزونها دون الناس، أو تكون فيئاً فتصير أرض خراج.

[**وهي** أرض من أرض العرب الأميين الذين كان الحكم عليهم: الإسلام أو القتل، فإذا أسلموا كانت أرضهم أرض العشر] ولا تكون خراجاً أبداً؟ ثم جاء الخبر عن النبي (ﷺ) مفسراً حين قال: «**لا تحل غنائمها**». قال: «ليس تشبه مكة شيئاً من البلاد لما خُصت به، فلا حجة لمن زعم أن الحكم على غيرها كالحكم عليها؛ وليست تخلو بلاد العنوة ـ سوى مكة ـ من أن تكون غنيمة، كما فعل رسول الله (ﷺ): [بخيبر] أو تكون فيئاً كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السواد وغيره من أرض الشام ومصر». انتهى.

فغَلِطَ في مكة طائفتان: طائفة ألحقت غيرها بها فجوزت ألا تقسم ولا يضرب عليها خراج، ولا تكون فيئاً؛ وطائفة شبهت مكة بغيرها فجوزت قسمتها، وضرب الخراج عليها؛ وهي أقبح الطائفتين وأسوؤهم مقالة؛ وبالله التوفيق.

فصل فيما في الشرك والزنى واللواطة من الخبث[1]

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ

(١) ٥٩ إغاثة جـ١.

إنَّهُمْ كَانوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

وقال تعالى في حق الزناة: ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ والخبيثُون لِلْخَبِيثَاتِ﴾. [النور: ٢٦].

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به[1] وخوفه ورجائه. ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَساً ـ بفتح الجيم ـ ولم يقل: إنما المشركون نجس ـ بالكسر ـ فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس ـ بالكسر ـ هو المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلاً أن يخالط ويلابس لقذارته، ونُفْرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب، أو تؤذيهما معاً. والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها، كما يتأذى من شم رائحة النتن، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقه، حتى ليوجد لرائحة عرقه نتناً. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقاً.

---

(١) هذا إذا لم يكن على سبيل التعظيم والخوف منه، كما يحلف أكثر العامة بالأولياء والأنبياء إذ أرادوا عدم الحنث ويحلفون بالله كذباً من غير خوف منه ولا رهبة.

قالت أم سُلَيم، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»(١).

فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض(٢).

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مَقْتاً لديه. ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الألهية، وسوء ظن برب العالمين. . .

فصل(٣)

في الأمكنة التي يمنع أهل الذمة من دخولها والإقامة بها.

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذينَ آمَنُو إنَّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِد الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا، وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ الله مِنْ فَضلهِ إنْ شَاءَ، إنَّ الله عليم حَكيمٌ**﴾ [التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النبي (ﷺ) فقال: «**انطلقوا إلى يهود**» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي (ﷺ) فناداهم فقال: «**يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال: «**ذلك أريد**». فقال: «**أسلموا تسلموا**». فقالوا: قد بلغت

(١) رواه مسلم عن ثابت عن أنس بن مالك. وروى البخاري عن أنس «أن أم سليم كانت تبسط للنبي، صلى الله عليه وسلم، نطعاً. فيقيل عندها على ذلك النطع. فإذا قام أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ثم جعلته في سكة قال. فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصى أن يجعل في حنوطه» انظر المنتقي (١: ٣١ رقم ٧٢).

(٢) كما جاء ذلك في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قبض روح المؤمن والكافر. رواه الإمام أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح.

(٣) ١٧٥ أحكام جـ١.

يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله (ﷺ): «**ذلك أريد**» ثم قالها الثالثة فقال: «**اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله**». متفق عليه، ولفظه للبخاري؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس! قال: اشتد برسول الله (ﷺ) وجعه، فقال: «**ائتوني بكتف أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده أبدًا**»؛ فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا: ماله؟ أهجر؟ استفْهِموه. فقال: «**ذروني، الذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه**». فأمرهم بثلاث فقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم**»، والثالثة إما سكت عنها، وإما قالها فنسيتها. متفق عليه، ولفظه للبخاري. . . .

فصل[1]

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فعنده: لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها، ولكن لا يستوطنون به. وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم، وكأنّ أبا حنيفة رحمه الله تعالى قاس دخولهم مكة على دخولهم مسجد رسول الله (ﷺ) ولا يصح هذا القياس، فإن لحرم مكة أحكاماً يخالف بها المدينة، على أنها ليست عنده حَرماً[2].

فإن قيل: الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام، [و] لم يمنع أهل الكتاب منه: ولهذا أذن مؤذن النبي (ﷺ) يوم الحج الأكبر: «**أنه لا يحج بعد العام مشرك**» والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب، فلم يتناولهم المنع.

قيل: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين، فابن عمر وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لا أعلم شركاً أعظم من أن يقول: المسيح ابن الله وعُزَيْرٌ ابن الله! وقد قال تعالى فيهم: ﴿**اتخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا**

(١) ١٨٨ أحكام جـ١.

(٢) لأن المدينة ـ عند أبي حنيفة ـ كغيرها. قال الماوردي في «الأحكام السلطانية ١٦٢»: «وأباحه ـ أي أباح حرم المدينة ـ أبو حنيفة، وجعل المدينة كغيرها. وفيما قدمناه من حديث أبي هريرة دليل على أن حرم المدينة محظور، فإن قتل صيده، أو عضد شجره، فقد قيل: إن جزاءه سلب ثيابه، وقيل: تعزيره»:

أُمِرُوا إلا لِيعبُدُوا إلهاً وَاحِداً، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ، سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]
والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين»، لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله: ﴿إِنْ الذينَ آمَنوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصابِئِينَ وَالنَّصارىٰ وَالْمَجُوسَ وَالذينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧]. قال شيخنا: «والتحقيق أن أصل دينهم دينُ التوحيد، فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارىء عليهم، فهم منهم باعتبار ما عرض لهم، لا باعتبار أصل الدين، فلو قدّر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي، وهو كونهم نَجَساً، والحكم يعم بعموم علّته».

فإن قيل: فالآية نبهت على دخولهم الحَرَمَ عوضاً عن دخول عبّاد الأوثان فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ خِفتُمْ عَيلَةً فَسَوْفَ يُغنيكُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨] فإنها لما نزلت انقطع عنهم ماكان المشركون يجلبون إليهم من الميرة، فأعاضهم الله بالجزية.

قيل: ليس في هذا ما يدل على دخول أهل الجزية المسجد الحرام بوجه ما، بل تؤخذ منهم الجزية وتحمل إلى من بالمسجد الحرام وغيره. على أن الإغناء من فضل الله وقع بالفتوح والفيء والتجارات التي حملها المسلمون إلى مكة.

فإن قيل: فالآية إنما منعت قربانهم المسجد الحرام خاصة، فمن أين لكم تعميم الحكم للحرم كله؟

قيل: المسجد الحرام يراد به في كتاب الله تعالى ثلاثة أشياء: نفس البيت، والمسجد الذي حوله، والحرم كله.

فالأول كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]

والثاني كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ كَفَرُوا وَيَصدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الحَرامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلناس سَوَاء الْعَاكِفُ فيهِ وَالْبادِ﴾ [الحج: ٢٥].

على أنه قد قيل: إن المراد به ها هنا الحرمُ كلّه، والناس سواء فيه. والثالث كقوله: ﴿سُبْحانَ الّذي أَسْرى بِعبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ وإنما أسرى به من داره من بيت أم هانىء.

وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا﴾ [التوبة: ٢٨] [أن المراد] مكة كلها والحرم، لم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه.

ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها، ولم يكونوا يمنعون من المدينة، كما في الصحيح أن رسول الله (ﷺ) مات ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله، فلم يُجلهم رسول الله (ﷺ) عند نزولها من الحجاز، وأمر مؤذنه أن يؤذن بأن «**لا يحج بعد العام مشرك**».

فإن قيل: فما تقولون في دخولهم مساجد الحِل؟

قيل: إن دخلوها بغير إذنٍ مُنعوا من ذلك ولم يمكنوا منه، لأنهم نَجَسٌ، والجُنُبُ والحائض أحسن حالاً منهم، وقد مُنِعا من دخول المساجد[1]. وإن دخلوها بإذن مسلم، ففيه قولان للفقهاء هما روايتان عن أحمد.

وَوَجْهُ الجواز أن رسول الله (ﷺ) أنزل الوفود من الكفار في مسجده، فأنزل فيه وفد نجران ووفد ثقيف وغيرهم.

وقال سعيد بن المسيب: كان أبو سفيان يدخل مسجد المدينة وهو على شركه، وقدم عُمَير بنُ وهبٍ ـ وهو مشرك ـ فدخل المسجد، والنبي (ﷺ) فيه، ليفتك به، فرزقه الله تعالى الإسلام.

وَوَجْهُ المنع أنهم أسوأ حالاً من الحائض والجُنُب، فإنهم نجسٌ بنص القرآن، والحائض والجُنُب ليسا بنجسٍ بنص السنة.

ولما دخل أبو موسى على عمر بن الخطاب وهو في المسجد أعطاه كتاباً فيه حساب عمله، فقال له عمر: ادع الذي كتبه ليقرأه. فقال: إنه لا يدخل المسجد. قال: ولِمَ؟ قال: إنه نصراني. وهذا يدل على شهرة ذلك بين الصحابة ، ولأنه قد انضم إلى حَدَث جنابته حَدَثُ شركه، فتغلّظ المنع.

وأما دخول الكفار مسجد النبي (ﷺ) فكان ذلك لما كان بالمسلمين حاجة إلى ذلك، ولأنهم كانوا يخاطبون النبي في عهودهم، ويؤدون إليه الرسائل، ويحملون منه الأجوبة، ويسمعون منه الدعوة، ولم يكن النبي (ﷺ) ليخرج من المسجد لكل من قَصَدَهُ من الكفار، فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك أعظم من المفسدة التي فيه، بخلاف الجُنب والحائض، فإنه كان يمكنهما التطهّر والدخولُ

(١) قال ابن قدامة في المغني (ش١٠/٦١٨): «ولأن حدث الجنابة والحيض والنفاس يمنع المقام في المسجد، فحدث الشرك أولى».

إلى المسجد. وأما الآن فلا مصلحة للمسلمين في دخولهم مساجدهم والجلوس فيها، فإن دعت إلى ذلك مصلحة راجحة جاز دخولها بلاإذن. والله أعلم.

(١)**وأجاب**: [أما] سبب وضع الجزية فهو قوله تعالى: ﴿**قاتِلُوا الذينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرِ، ولا يُحرمُونَ ما حرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلا يَدِينونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكِتَاب حتى يُعطُوا الجزية عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرون**﴾. [التوبة: ٢٩].

فأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله (ﷺ) أخذها من مجوس هجر: ذكره البخاري.

وذكر الشافعي أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**سنّوا بهم سنة أهل الكتاب**» وهذا صريح في أنهم ليسوا من أهل الكتاب....

(٢)**والمقصود** ذكر بعض الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية، وهذه الحكمة منتفية في حق غيرهم، فيجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

والمسألة مبنية على حرف: وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم، أو مظهراً لصغار الكفر وإذلال أهله؛ فهي عقوبة؟ فمن راعى فيها المعنى الأول قال: لا يلزم من عصمها لدم من خف كفره بالنسبة إلى غيره ـ وهم أهل الكتاب ـ أن تكون عاصمة لدم من يغلظ كفره.

ومن راعى فيها المعنى الثاني قال: المقصود إظهار صَغار الكفر وأهله وقهرهم؛ وهذا أمر لا يختص أهل الكتاب بل يعم كل كافر.

قالوا: وقد أشار النص إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿**حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] فالجزية صغار وإذلال. ولهذا كانت بمنزلة ضرب الرق.

قالوا: وإذا جاز إقرارهم بالرق على كفرهم جاز إقرارهم عليه بالجزية بالأولى، لأن عقوبة الجزية أعظم من عقوبة الرق؛ ولهذا يسترق من لا تجب عليه الجزية من النساء والصبيان وغيرهم....

(١) ١ أحكام جـ١. (٢) ١٥ أحكام جـ١.

[1]**فإن قيل**: فالنبي (ﷺ) لم يأخذها من أحد من عبَّاد الأوثان مع كثرة قتاله لهم.

قيل: أجل، وذلك لأن آية الجزية إنما نزلت عام «تبوك» في السنة التاسعة من الهجرة بعد أن أسلمت جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عبّاد الأوثان، فلما نزلت آية الجزية أخذها النبي (ﷺ) ممن بقي على كفره من النصارى والمجوس. ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة حين قدم المدينة، ولا من يهود خيبر؛ لأنه صالحهم قبل نزول آية الجزية. وهذه الشبهة هي التي أوقعت عند اليهود أن أهل خيبر لا جزية عليهم، وأنهم مخصوصون بذلك من جملة اليهود، ثم أكدوا أمرها بأن زوروا كتاباً فيه أن رسول الله (ﷺ) أسقط عنهم الكُلَف والسُّخَر والجزية، ووضعوا فيه شهادة سعد بن معاذ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما. وهذا الكتاب كذب مختلق بإجماع أهل العلم من عشرة أوجه...

[2]**أحدها**: أنَّ فيه «شهادة سعد بن معاذ». وسعد قد توفي قبلَ ذلك في غزوة الخندق[3].

ثانيها: أن فيه «وكَتَبَ معاوية بن أبي سفيان». هكذا، ومعاوية إنما أَسلم زمَنَ الفَتْح، وكان من الطُّلَقاء[4].

ثالثها: أن الجزية لم تكن نَزَلَتْ حينئذ، ولا يعرفها الصحابة ولا العرب. وإنما أُنْـزِلَت بعـد عام تَبُـوك، وحينئذ وضَعَها النبي (ﷺ) على نصارى نَجْران ويَهُودِ اليَمَن، ولم تؤخذ من يهود المدينة، لأنهم وادَعُوه قبل نزولِها، ثم قَتَل مَنْ قَتَل مِنهم، وأَجلَى بَقِيَّتهم إلى خيبر وإلى الشام، وصالحه أَهلُ خيبر قبلَ فَرْضِ الجِزْيَة. فلما نزلتْ آيَةُ الجِزية استقرَّ الأمر على ماكان عليه، وابتدأَ ضَرْبَها على من لم يتقدَّم له معه صلح، فمِن هاهنا وقعَت الشُّبهةُ في أهل خيبر.

---

(١) ٦ أحكام جـ١. (٢) ١٠٢ المنار.

(٣) أي بعـدهـا بشهر، وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة: قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «الإصابة»: «ورُمي سعد بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قُريظة، ثم انتقض جرحه فمات، وذلك في سنة خمس».

(٤) أي زمنَ فتحِ مكة سنة ثمان من الهجرة، بعد فتح خيبر، وقد فُتحت خيبر في سنة سبع من الهجرة. والطلقاء هم الذين خلى عنهم الرسول يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يَسْترقهم.

رابعها: أنَّ فيه «وَضَعَ عنهم الكُلَفَ والسُّخَر». ولم يكن في زمانه كُلَفٌ ولا سُخَرٌ ولا مُكُوس.

خامسها: أنه لم يَجعل لهم عهداً لازماً، بل قال: «**نُقِركم ما شئنا**». فكيف يَضَعُ عنهم الجزية التي يصير لأهل الذمة بها عهدٌ لازِمٌ مؤبَّد، ثم لا يُثْبِتُ لهم أماناً لازماً مؤبداً؟

سادسها: أن مِثلَ هذا مّما تتوفر الهِمَمُ والدواعي على نقله، فكيف يكون قد وقع، ولا يكون عِلمُه عند حَمَلَة السُّنَّة: من الصحابة والتابعين وأَئمَّة الحديث، ويَنفردُ بعِلْمه ونَقْلِهِ اليهود؟

سابعها: أن أهل خيبر لم يتقدم لهم من الإحسان ما يُوجِبُ وَضْع الجزية عنهم. فإنهم حاربوا الله ورسوله، وقاتلوه وقاتلوا أصحابه، وسَلُّوا السيوف في وجوههم، وسَمُّوا النبي (ﷺ) وآوَوْا أَعداءَه المحاربين له المحرِّضين على قتاله. فمن أَين يقع هذا الاعتناءُ بهم؟ وإسقاطُ هذا الفرض الذي جعله الله عقوبةً لمن لم يَدِنْ منهم بدين الإسلام؟

ثامنها: أن النبي (ﷺ) لم يُسقطها عن الأبعدين، مع عدم معاداتِهم له كأهل اليمن، وأهل نجران. فكيف يضعها عن جيرانه الأدْنَيْن[1]، مع شدَّة معاداتهم له، وكفرهم وعِنادهم؟ ومن المعلوم: أنه كلَّما اشتد كُفرُ الطائفة وتغلَّظَتْ عداوتُهم، كانوا أَحقَّ بالعقوبة لا بإسقاط الجزية.

تاسعها: أن النبي (ﷺ) لو أسقط عنهم الجزية ـ كما ذكروا ـ لكانوا من أحسن الكفار حالاً، ولم يَحسُن بعد ذلك أن يَشترط لهم إخراجَهم من أرضِهم وبلادهم متى شاء، فإن أهل الذمة الذين يُقِرُّون بالجزية لا يجوز إخراجُهم من أرضهم وديارهم، ماداموا ملتزمين لأحكام الذمة فكيف إذا رُوعي جانبهم بإسقاط الجزية، وأُعفوا من الصغار الذي يلحقهم بأدائها؟ فأيُّ صغارٍ بعد ذلك أَعظَمُ من نَفْيِهم من بلادهم، وتشتيتهم في أرض الغُرْبَة؟. فكيف يجتمع هذا وهذا؟.

عاشرها: أن هذا لو كان حقًّا لَمَا اجتَمَعَ أصحابُ رسول الله (ﷺ) والتابعون والفقهاءُ كلهم على خلافه، وليس في الصحابة رجلٌ واحدٌ قال: لا تجِبُ

---

(١) في آخر «الموضوعات الكبرى» للقاري: (عن الخيبريين الأدْنَيْن).

الجزيةُ على الخيبريَّة(١)، لا في التَّابعين، ولا في الفقهاء؛ بل قالوا: أَهلُ خَيْبَرَ وغيرهم في الجِزْيَةِ سواءٌ، وعَرَّضوا بهذا الكتاب المكذوب. وقد صرَّحوا بأنه كَذِب، كما ذَكَرَ ذلك الشيخُ أبوحامد، والقاضي أبو الطيِّب، والقاضي أبو يَعلَى وغيرهُم.

وذكَرَ الخطيبُ البغدادي هذا الكتاب، وبيَّنَ أنه كذِبٌ من عِدَّة وجوه(٢). وأُحْضِرَ هذا الكتاب بين يَديْ شيخ الإِسلام(٣)، وحَوْلَه اليهود يَزُفُّونه ويُجِلُّونه، وقد غُشِّيَ بالحَرير والدِّيباج، فلما فَتَحَهُ وتأَمَّلَه بَزَقَ عليه، وقال: هذا كذِبٌ من عِدَّة أوجه، وذكَرَها. فقاموا من عنده بالذُّلِّ والصَّغَار.

فصــل ومن تلاعب الشيطان بهم أيضاً(٤)

أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا ثمنها، وهذا من عدم فِقْههِمْ وفهمهم عن الله تعـالى دينه. فإنَّ ثمنَها بدلٌ منها فتحريمها تحريمُ لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريمَ الخمر والمَيْتَةِ والدم ولحم الخنزير يتناولُ تحريم أعيانها وأبدالها .

ومن تلاعبـه بهم أيضاً، اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله (ﷺ) على ذلك، ولعنته تتناولُ فِعلهم .

---

(١) أي أهلِ خيبر وهم اليهود.

(٢) وقـد ذكَـرَ ذلـك غيرُواحـد ممن ترجموا للخطيب البغدادي، مثل ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» ٤ :١٨، وتاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» ٣ :١٤، والحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٢ : ١٠١ ـ ١٠٢، والسخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» ص١٠،وقال: كان ذلك من اليهود في سنة ٤٤٧ . وبعد أنِ ذكَرَ الحافظ ابن كثير جوابَ الخطيب البغدادي وكشْفَه كذبَ ذلك الكتاب قال: «وقد سُبِقَ الخطيب إلى هذا النقد، سَبَقه محمد بن جرير، كَما ذكرتُ ذلك في مصنَّف مفرد».
واستُفيدَ من هذا ومما يذكـره المؤلف ابن القيم من مجيء اليهود بالكتاب في زمن الشيخ ابن تيمية، وتكذيب الشيخ للكتاب: أنه قد تكرّر من اليهود محاولَةُ خَدْع المسلمين بهذا الكتاب المزوّر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أزمان متعددة، في زمن ابن جرير،وقد ولد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠، وفي زمن الخطيب البغدادي، وقد ولد سنة ٣٩٢ وتوفي سنة ٤٦٣، وفي زمن ابن تيمية، وقدولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ رحمهم الله تعالى.
وصَدَق عبدُالله بن سلام رضي الله عنه إذ قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يَكشف له طبيعة اليهود: إنّ اليهود قومٌ بُهْت. كما رواه البخاري في «صحيحه» ٦ :٢١٦ و٧ :٢١٣ و٨ :١٣٥ . والبُهْت جمع بَهُوت، وهو صيغة مبالغة من البُهْت؛ وهو الباطل الذي يُتَحيَّرُ من بطلانه.

(٣) يعني الشيخَ ابن تيمية رحمه الله تعالى. (٤) ٣١٨ إغاثة جـ٢.

ومن تلاعبه بهم أيضاً: أنهم كانوا يَقْتُلون الأنبياء الذين لا تُنالُ الهداية إلا على أيديهم ، ويتخذون أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم. ولا يلتفتون: هل ذلك التحريم، والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟ .

قال عَدِيُّ بن حاتم: أتيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسألته عن قوله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله**﴾ [التوبة: ٣١]

فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم. فقال: «**حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم. فكانت تلك عبادتهم إيَّاهم**» رواه الترمذي وغيره.

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان؛ أن يَقتل أو يُقاتل مَنْ هُداه على يديه، ويَتَّخذ مَنْ لم تضمن له عصمته ندًّا لله يحرم عليه، ويُحَلِّلُ له.

ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحْيى عليهما السلام، وقتْلِهم لهما، حتى سلط الله عليهم بُخْتُنَصَّر وسَنْجاريب وجنودهما. فنالوا منهم ما نالوه .

[1] **قال** أبو عمر في الجامع: باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع، قال أبو عمر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿**اتخذوا أحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١] روي عن حذيفة وغيره قال: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحَلُّوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم. وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله (ﷺ) وفي عنقي صَلِيب، فقال: يا عدي ألْقِ هذا الوثَنَ من عنقك، وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ﴿**اتخذوا أحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١] قال: فقلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أرباباً، قال: «**بلى، أليس يُحِلُّون لكم ما حرم عليكم؛ فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل لكم، فتحرمونه؟**» فقلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**».

قلت: الحديث في المُسْنَد والترمذي مطولاً.

وقال أبو البختري في قوله عز وجل: ﴿**اتخذوا أحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ قال: أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم،

(١) ١٧١ أعلام جـ٢.

ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية.

وقال وكيع: ثنا سفيان والأعمش جميعاً، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي ثابت، عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة في قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله﴾: أكانوا يعبدونهم؟ فقال: لا، ولكن كانوا يُحلُّون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه.

وقال تعالى: ﴿وَكَذلِكَ مَا أرسَلنا مِن قَبلكَ في قَريَةٍ من نَّذيرٍ إلاَّ قَالَ مُترفُوهَا إنّا وَجَدنا آباءنَا علىٰ أمّةٍ، وإنّا علَى آثارهِم مقْتَدونَ قَالَ أو لو جئتُكم بأهْدَى ممَّا وَجَدتُّم عَلَيهِ آباءكُم﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فمنعهم الاقتداءُ بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إنا بِمَا أرسِلتُم بِه كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: ﴿إذ تَبَرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذابَ، وَتقطَّعَتْ بِهمُ الأسبابُ، وَقَالَ الَّذينَ اتّبعوا: لو أنَّ لنا كَرَّةً فَنتبرأ مِنهُم كَمَا تَبَرءوا مِنَّا، كَذلِكَ يُريهمُ الله أعمَالَهُم حَسَرَاتٍ عَليهِم﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

وقال تعالى معاتباً لأهل الكفر وذامّاً هم: ﴿مَا هذهِ التماثِيلُ الَّتي أنتم لَها عَاكِفُونَ قَالَوا وَجدنا آباءنا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣].

وقال: ﴿وقَالُوا رَبَّنا إنَّا أَطَعنَا سَادَتنَا وَكُبَراءنَا فأضَلُّونَا السبيلاَ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كُفرُ أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلاً فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر في مسألة فأخطأ وَجْهَها، كان كل واحد مَلوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قوماً بَعدَ إذ هَداهُم حتَّى يُبينَ لهم مَّا يَتَّقونَ﴾ [التوبة: ١١٥]....

(١)**ومن** نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق

---

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه[1] بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ **هُوَ الَّذِي أرسَلَ رَسُولَه بالهُدَى وَدِيْنِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِينِ كُلِّهِ وَكَفى بالله شَهِيداً** ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

[2]﴿ **إنَّمَا النَّسيء زِيَادَةٌ في الكُفرِ يُضَلُّ به الذين كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحرمونه عاماً** ﴾ [التوبة: ٣٧] ومعنى النسيء تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته، ومنه النسيئة في البيع. وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها: عن القتال وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضاً. إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى أشهر الحِلِّ، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حَرَّموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحِل، ويقولون: نسأنا الشهر. واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله (ﷺ) فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضع الله . . . . .

[3]**وعير** سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿ **يأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا مَا لَكُم إذَا قِيلَ لَكُم انفرُوا فِي سَبيلِ الله اثَّاقَلْتُم إلَى الأرضِ أَرضِيتُم بِالحَيوةِ الدُّنيا**

(١) الإشارة إلى ما ذكره من الأدلة على صدق الرسول (ﷺ) عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها ا. هـ (ج).

(٢) ٤٠٧ تهذيب السنن جـ٢.	(٣) ٩٥ فوائد.

مِن الآخِرةِ فَمَا مَتَاعُ الحيوةِ الدُّنيا فِي الآخرةِ إلا قَلِيل﴾ [التوبة: ٣٨]. وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

فصل (١)

لما بايع الرسول (ﷺ) أهل العقبة، أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل؛ فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي. ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليّ مكانه، ونهض الصديق لرفقة السفر، فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق، فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه، وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، إلى أن انتهيا إلى الغار، فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له إن كان ثَمَّ مؤذ، وأنبت الله شجرة لم تكن قبل، فأظلت المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار، فحاكت ثوب نسيجها على منوال الستر(٢)، فأحكمت الشقة حتى عمي على القائف المطلب، وأرسل حمامتين فاتخذتا هناك عشًّا جعل على أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فلما وقف القوم على رءوسهم، وصار كلامهم بسمع الرسول والصديق. قال الصديق وقد اشتد به القلق: «يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه». فقال رسول الله (ﷺ): «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

لما رأى الرسول حزنه قد اشتد، لكن لا على نفسه قوى قلبه ببشارة: «**لا تحزن إن الله معنا**»، فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظاً، كما ظهر حكماً ومعنى، إذ يقال: رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات (ﷺ) قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل أمير المؤمنين، فأقاما في الغار ثلاثاً ثم خرجا منه، ولسان القدر يقول: «**لتدخلنها دخولاً لم يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك**». فلما استقلا على البيداء، لحقهما سراقة بن مالك، فلما

---

(١) ٧٠ فوائد.

(٢) يأتي في سورة يس إن شاء الله بسط هذا.

شارف الظفر، أرسل عليه الرسول سهماً من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما، أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شبعان: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»، كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام وفي بذل النفس، وفي الزهد وفي الصحبة، وفي الخلافة وفي العمر، وفي سبب الموت لأن الرسول (ﷺ) مات عن أثر السم، وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه: «**ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر**»، فهو خير من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصديق أعلن به؛ وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة، والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار، ويصيح: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فألقى له حب المال على روض الرضا، واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق، يغرد بفنون المدح. ثم قال في محاريب الإسلام يتلو: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار. واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار. كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفار: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ [التوبة: ٤٠].

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زل ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا. تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار. ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾.

من كان قرين النبي في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه؟ من أول من صلى معه؟ من آخر من صلى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن

حديد الألحاظ، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره ولكن أين الفرار.

كم وقى الرسول بالمال والنفس؛ وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس؛ فضائله جلية وهي خلية عن اللبس؛ يا عجبا ممن يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار.

لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث.

فقال الرسول: «**ما ظنك باثنين والله الثالث**».

فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث، فزال القلق، وطاب العيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رءوس منابر الأمصار: ﴿**ثاني اثنين إذ هما في الغار**﴾.

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية؛ فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية.

مهلاً، مهلاً، فإن ذم الروافض قد فار، والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا. ولكن أخذنا بقول عليٍّ، وكفانا. رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا.

تالله لقد أخذت من الروافض بالثار، تالله لقد وجب حق الصديق علينا، فنحن نقضي بمدائحه، ونقر بما نقرّ به من السني عيناً، فمن كان رافضيًّا فلا يعد إلينا، وليقل: لي أعذار.

[1]**إن** من عرف الله أحبه ولابد[2]، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبداً، ولهذا قال حكاية عن نبيه (ﷺ) إنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿**لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنا**﴾، [التوبة: ٤٠] فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن! وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟

---

(١) ٢٨٠ طريق الهجرتين.

(٢) الضمير يعود إلى الله في قوله أحبه.

(١)**فقال** تعالى: ﴿وَلَو أرادُوا الخُرُوجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ولكِن كَرِه الله انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

والتثبيط ردّ الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس: يريد خذهم وكسلهم عن الخروج. وقال في رواية أخرى: حبسهم. قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين.

وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد فقال:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَارتَابَت قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَو أرادُوا الخُرُوجَ لأعَدُّوا لَه عُدَّةً ولَكِن كَرِه الله انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٥، ٤٦].

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه؛ فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ [التوبة: ٤٧].

والخبال الفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين؛ لأفسدوا عليهم أمرهم فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف، قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالاً عجزاً وجبناً يعني يجبنوهم عن لقاء العدو: بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم. ثم قال: ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ [التوبة: ٤٧]أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد.

قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم، يعني بالتفريق بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو، وقال الحسن لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات

---

(١) ١٠١ شفاء العليل.

البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب قال لبيد

أرانـــا مــوضعين لحتـم غــيب وسحـــر بالـطعـــام وبالـــشراب

أي: مسرعين ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تبـالهـن بـالـعـرفـان لـمـا عـرفـنـي وقلـن امـرؤ بـاغ أكـل وأوضعـا

أي: أسرع حتى كلت مطيته. ﴿**يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم**﴾ [التوبة:٤٧] قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، ومعناه على هذا القول.. وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم. قلت: فتضمن سماعين معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم أي: جواسيس.

والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿**سماعون للكذب**﴾ أي قابلون له ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصد بينهم عيوناً له. فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها، وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة؛ إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له فكيف يعاقبهم عليه.

قيل: هذا سؤال له شأن وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه والجميع بالنسبة إليه سواء. وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل.

والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم؛

بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم؛ فإنه أمرهم به. قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه؟ ولا يخفى على من نور الله بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعا لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونصرة له وللمؤمنين وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً. وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه؛ بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين؛ فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه. ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه. فكان مكروهاً له من هذا الوجه ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه، وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم. وهذا الخروج المكروه له ضدان:

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب وهذا الضد هو الذي يحبه.

والثاني التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً. وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه، وأحدهما أكره له من الآخر لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بدّ من أحد المكروهين إليه سبحانه؛ فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون.

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة.

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له؛ فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه وأليم عقابه وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر.

(١)**فأهل** الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة الركب وهذا الوفد هم الذين ﴿كره الله انبعاثهم فثبَّطهم. وقيل اقعُدوا مع القاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته، وأمر قلوبهم أمراً كونيًّا قَدَريًّا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه، فلو عاينتَ قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات. ونابت عنها الأحزان ـ لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية ـ كما تقدم ـ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: **﴿أفَمَن وعَدْنَاهُ وَعداً حَسَناً فهو لاَقِيهِ، كَمن مَّتَّعناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا. ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحضَرِينَ﴾**

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ ٣.

[القصص: ٦١] وقوله تعالى: ﴿وقَدِّمُوا لِأنفسِكُم. واتَّقُوا الله. وَاعلَمُوا أنّكُم مُلاقُوهُ، وَبشّرِ المُؤمِنِين﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

(١) **فإن** قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه! قلت: لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة؛ بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ومفوتًا لمصلحة راجحة وقد أشار تعالىٰ إلى ذلك في قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعَدُّوا له عُدَّةً، ولكن كره الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ، وقيل: اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضَعوا خِلالكم، يبغونكم الفتنة وفيكم سَمَّاعُون لهم. والله عليم بالظالمين﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧].

فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله، (ﷺ) للغزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم ثَبَّطَهُمْ عنه.

ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله (ﷺ) فقال: ﴿لَو خَرَجُوا فِيكُم مَّازادُوكُم إلاَّ خَبالاً﴾ أي فساداً وشرًّا ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يبْغُونَكُمُ الفِتْنَة وَفيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولَّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر، ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب. وقس عليه...

(٢) **قال** تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يقُولُ ائْذَن لي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] نزلت في الجَدِّ بن قَيْس لما غزا رسولُ الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، تَبُوك قال له: «**هل لك يا جَدُّ في بلاد بني الأصفر، تتخذ منهم السراري والوصفاء؟**» فقال جَدُّ: ائْذَنْ لي في القعود عنك. فقد عرف قومي أني مُغْرَم بالنساء، وأني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأنزل الله تعالى،

---

(١) ٢٠١ مدارج جـ ٢		(٢) ١٥٨ إغاثة جـ ٢.

هذه الآية. قال ابن زيد: يريد لا تفتني بصباحة وجوههن. وقال أبو العالية: لا تُعَرِّضني للفتنة. وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ﴾ قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظمُ».

فالفتنة التي فرّ منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه، بل خلص من الافتتان. ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان.

فمن الأول: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طـه: ٤٠].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

ويطلق على ما يتناول الأمرين، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَنْ يقولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١، ٣] ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها(١).

(٢)**الوجه** السادس: أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعته، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته ويعذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

---

(١) تكملة البحث في الصافات والتغابن / وتقدم في سورة البقرة كما سيأتي في سياق غزوة تبوك آخر السورة إن شاء الله تعالى.

(٢) ٣٥ إغاثة جـ١.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: «في الحياة الدنيا» بعد فصل آخر ليس بموضعه، على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة».

وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب.

فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير، وأوضحه. فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغار منه وكره .

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم، فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضاً من جنس ما قبله، فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولّى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبي أولادهم، فإن الإرادة هٰهنا كونية بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان لابد، وما لم يشأ لم يكن.

والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلّاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصَب، كقوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**السفر قطعة من العذاب**».

وقوله: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**» أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم.

وهكذا من الدنيا كلُّ همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى وآله وسلم، في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: من حديث أنس رضي الله عنه: «**من كانت الآخرة هَمه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع له شَملْه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له** ».

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نُصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: ابن آدم، تَفَرَّغْ لعبادتي أملأ صدرك غنىً، وأسُد فقرك، وإن لا تفعلْ ملأت يديك شغلاً، ولم أسد فقرك**»

وهذا أيضاً من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم.

كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب». ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي. وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه.

كما في الحديث الصحيح: عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم،: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً**».

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً...

فصل(١)

وأما الرّغبةُ في الله وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلى لقائه فهي رأس مال العبد ومِلاكُ أمره وقِوامُ حياته الطيبة، وأصلِ سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمِرَ، وبذلك أُرسلت الرُّسلُ، وأُنزلت الكتب.

ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلّا بأن تكونَ رغبتهُ إلى الله عز وجل وَحدَه، فيكون هو وحدَه مرغوبه ومطلوبه ومرادَه كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضوا مَا آتَاهُمُ الله ورسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا الله سيؤتِينا الله مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى الله رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغبٌ في الله، وراغبٌ فيما عند الله، وراغبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والرَّاضي بالدُّنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومَن كانت رغبتهُ في الله كفاه الله كلَّ مهمّ، وتولّاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومَن آثر الله على غيره آثره الله على غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيءٌ أَحبَّ إليه منه، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه، إلّا فيما يُقرّبه إليه ويعينه عَلَى سفره إليه.

ومن علامات المعرفة الهيبةُ فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء به....

(٢)**كان** رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة، يقال له: مَخْشيُّ بن حمير قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله، لكأنَّا بكم غداً مُقرَّنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وأنا ننقلب قبل أن ينزل فينا

(١) ٤٣٢ روضة المحبين.
(٢) ٩ زاد المعاد جـ ٣.

قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله (ﷺ) لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا**» فانطلق إليهم عمار. فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ [التوبة: ٦٥]. فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفا عنه في هذه الآية. وتسمى عبدالرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر. اهـ.

(١)**وتأمل** قوله الحق: ﴿**نَسوا الله فنسيَهُمْ**﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩]. كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذاتها وفرحها، عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم، المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها. وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم. . .

(٢)**قال** تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَموالاً وأولاداً فَاستَمتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [التوبة: ٦٩]. فذكر تعالى الأصلين: وهما داء الأولين والآخرين، أحدهما: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها؛ فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا؛ بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده. والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله: ﴿**وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا**﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال ساعية في نيل شهواتها فإذا نالتها، فإنما هي في خوض بالباطل

---

(١) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ ١. (٢) ٤٠ مفتاح جـ ١.

الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل. ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والنصب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً. ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعو إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان، وسواء كان المعنى: وخضتم كالحزب الذي خاضوا، أو كالفريق الذي خاضوا فإن الذي يكون للواحد والجمع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤]. لكن لا يجري على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاءوا، وإنما يجيء غالباً في اسم الجمع كالحزب والفريق، أو حيث لا يذكر الموصوف وإن كان جمعاً كقول الشاعر:

وإن الذي حانت[1] بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به**﴾ ثم قال: ﴿**أولئك هم المتقون**﴾.

ونظيره الآية التي نحن فيها وهي قوله: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾.

أو كان المعنى على القول الآخر: وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا؛ فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك: اضرب كالذي ضرب، وأحسن كالذي أحسن، ونظائره.

وعلى هذا فيكون العائد منصوباً محذوفاً، وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين، فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أن من كانت هذه حالته فقد حبط عمله في الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين.

ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم كيف دخلوها: ﴿**قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِينِ**﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٦]. فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما ماهما والله ولي التوفيق.

---

(١) في المطبوعة «جاءت تقبح» والصواب ما أثبتناه (ج).

(1)**وقد** أكَّده سبحانه بضَرْبٍ من الأَوْلى، وهو أن مَنْ قبلنا كانوا أقوى منا؛ فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبلِكُم كَانُـوا أَشَدَّ مِنكم قُوَّةً وأَكْثَرَ أموالاً وأولاداً، فَاسْتَمتَعُوا بخَلاقِهِم، فَاسْتَمتَعتُم بخَـلاقِكُم كَمَا استَمتَـعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم بخلاقِهِمُ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا، أُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ**﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به، فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي أنتم كالذين من قبلكم.

وقيـل: نَصْب بفعـل محذوف، تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم، والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل.

وقيـل: إن التشبيه في العـذاب، ثم قيل: العـامـلُ محذوف، أي لَعَنَهم وَعَذَّبهم كما لعن الذين من قبل.

وقيل: بل العامل ما تقدم، أي وَعَدَ الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولَعَنهم كَلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه أَلْحَقهم بهم في الوعيد، وسَوَّى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال، وكَوْنُهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فَرْقٌ غيرُ مؤثر، فعلَّق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وأَلْغى الوصفَ الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال: ﴿**فَاستَمتَعُوا بخَلاقِهِم، فَاستَمتَعتُم بخَـلاقِكُم كَما استَمتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم بخلاقِهِم، وَخُضْتُم كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [التوبة: ٦٩]. فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع.

وقـولـه: ﴿**أُولئـكَ حَبِـطَتْ أعـمالُهم**﴾ هو الحكم، والـذين من قبل هم الأصل، والمخاطَبُون الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر، عن الحسن في قوله: ﴿**فَاستَمتَعُوا بِخَلاقِهِم**﴾ قال: بذنبهم، ويروى عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا، وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

(1) ١٣٤ أعلام جـ ١.

وحقيقة الأمر أن الخَلَاق هو النصيب والحظُّ، كأنه الذي خُلق للإنسان وقُدِّر له، كما يقال: قَسْمه الذي قُسِم له، ونصيبه الذي نصب له أي أثبت، وقِطه الذي قُطَّ له أي قُطِع.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وما له في الآخِرَةِ مِنْ خلاق**﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقول النبي (ﷺ): «**إنما يَلْبَسُ الحرير في الدنيا مَنْ لا خَلَاق له في الآخرة**» والآية تتناول ما ذكره السلف كله، فإنه سبحانه قال: ﴿**كَانُوا أشَدَّ مِنكُم قوةً**﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخَلَاقُ، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخَلَاقَ الذي استمتعوا به، ولو أرادوا بذلك الله والدارَ الآخرة لكان لهم خَلاق في الآخرة، فتمتُّعهم بها أخْذُ حظوظهم العاجلة، وهذا حال مَنْ لم يعمل إلا لدنياه، سواء كان عَمَله من جنس العبادات أو غيرها، ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال: ﴿**فاستَمْتَعتُم بخَلاقِكُم كَما اسْتَمتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم بخَلاقِهم**﴾ [التوبة: ٦٩]. فدلَّ هذا على أن حكمهم حكمهم، وأنه ينالهم ما نالهم؛ لأن حُكْم النظير حُكْمُ نظيرِهِ. ثم قال: ﴿**وَخُضتُم كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ فقيل: الذي صفة لمصدر محذوف، أي كالخوض الذي خاضوا.

وقيل: لموصوف محذوف، أي كخوض القوم الذي خاضوا، وهو فاعل الخوض.

وقيل: الذي مصدرية كما، أي كخوضهم، وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخَلَاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخَلَاق.

فالأول البِدَع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذبِّت الرسل، وعُصِي الرب، ودُخِلت النار، وحَلَّت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احْذَروُا من الناس صِنْفَين: صاحب هَوى فتنته هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مَفْتُون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصْبَرَه، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدَعُ فنفَاها، والدنيا فأباها، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُم أئمَّةً يهدُونَ بأمرنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنـونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر تُتْرَكُ الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر: ٣]. وقوله تعالى: ﴿**واذكُرْ عِبَادَنَا إبراَهِيمَ وَإسحَاقَ وَيعقُوبَ أولى الأيْدِيَ والأبصَارِ**﴾ [ص: ٤٥].

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحبُّ البصرَ الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**».

فقوله تعالى: ﴿**فاستمتعتم بخلاقكم**﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهُو دَاء العُصَاة وقوله: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ إشارة إلى الشبهات وهو داء المبتدِعَةِ وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان فَقَلَّ من تجده فاسدَ الاعتقاد إلا وفسادُ اعتقاده يَظْهر في عمله.

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة مَنْ يستمتع بخَلاقه كما استمتع الذين من قبله بخَلاَقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذَّم والوعيد كما للذين من قبلهم.

ثم حَضّهم على القياس والاعتبار بمن قبلهم فقال: ﴿**أَلَم يَأْتِهِم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم قَوم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْم إِبْرَاهِيمَ وَأَصحاب مَديَنَ وَالْمُؤتَفِكَاتِ أَتَتهُم رُسُلُهُم بِالبينـاتِ فَما كَانَ الله لِيَـظْلِمَهُم وَلَكِن كَانُـوا أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ**﴾ [التوبة: ٧٠]. فتـأمل صحةَ هذا القياس وإفادتَهُ لمن عُلِّقَ عليه من الحكم، وأن الأصل والفرعَ قد تساويا في المعنى الذي عُلّق به العقاب، وأكده كما تقدم بضرب من الأوْلى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذرْ على الله عقابُ

الأقوى منهم بذنْبه فكيف يتعذر عليه عقاب مَنْ هو دونه؟

(١)**قال** عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء». وقال مطرف بن عبدالله ـ أو غيره: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة، أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حَدَّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة، علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة، أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلاً عن أن يقطعه عن طلب مَنْ نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ المُؤمِنِينَ وَالمُؤمناتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبرَ﴾ [التوبة: ٧٢]. فيسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها.

(٢)**الرابع** والأربعون: أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ الله المُؤمِنِينَ وَالمُؤمنات جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

(٣)**وتأمل** قوله تعالى: ﴿وَعَدَ الله المُؤمِنِينَ وَالمُؤمناتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالدينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر﴾ كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته؛ ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل

---

(١) ٩٣ مدارج جـ ٣. (٢) ٢١٧ مدارج جـ ٢.

(٣) ١٦٦ بدائع جـ ٢.

مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

(١) **الخامس** والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات، لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يُعْطَى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألـوه. والـراضـون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

(٢) فصل في هديه في الجهاد والغزوات

لما كان الجهاد ذرْوَة سَنام الإسلام وقُبَّته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعْلَوْن في الدنيا والآخرة ـ: كان رسول الله (ﷺ) في الذِّروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسِّنان. وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه فقال: ﴿**وَلو شِئنا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً، فَلا تُطعِ الكَافِرِينَ، وَجَاهِدهُم بِهِ جِهاداً كَبِيراً**﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]. فهذه سورة مكية، أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ وَمَأوَاهُم جَهَنَّمُ وبِئسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهـاد المنـافقـين أصعب من جهـاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثةِ الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه ـ وإن كانوا هم الأقلِّين عدداً ـ فهم الأعظمون عند الله قدراً.

---

(١) ٢١٧ مدارج جـ ٢.	(٢) ١٠٢ زاد المعاد جـ ٢.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق، مع شدة المعارض ـ مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ـ كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر. وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي (ﷺ): «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**[1]» كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له. فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه، والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟ بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما. وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده وهو واقف بينهما، يُثبِّط العبد عن جهادهما، ويخذله ويُرجف به ولا يزال يُخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات.

[2]**قوله** تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِن آتانا من فضلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [التوبة: ٧٥]. فهذا نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه: فعليَّ؛ إذ ليس ذلك من شرط النذر؛ بل إذا قال: إنْ سلمني الله تصدقت، أو لأتَصدَّقن، فهو وعد وعده الله فعليه أن يفي به، وإلا دخل في قوله: ﴿**فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوم يَلْقَونَهُ بِما أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وبِما كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعد العبد ربَّه نذرٌ يجب عليه أن يفي له به؛ فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مَجْرَى عقود المعاوَضات لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله علي كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وُجِدَ، فيجب فعل المشروط عنده؛ لالتزامه له بوعده.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد. وتارة يكون

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد. (٢) ١١٢ أعلام جـ ٢.

بالشروع كشروعه في الجهاد والحج والعمرة. والالتزام بالوعد آكد من الالتزام بالشروع، وآكد من الالتزام بصريح الإيجاب.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومَدَح مَنْ وفى بها نذره له، وأمر بإتمام ما شرع فيه له من الحج والعمرة، فجاء الالتزام بالوعد آكد الأقسام الثلاثة، وإخلافه يُعْقِبُ النفاق في القلب.

وأما إذا حلف يميناً مجردة: ليفعلن كذا، فهذا حَضٌّ منه لنفسه، وحث على فعله باليمين، وليس إيجاباً عليها، فإن اليمين لا توجِبُ شيئاً ولا تحرمه، ولكنَّ الحالفَ عقد اليمين بالله ليفعلنه، فأباح الله سبحانه له حَلَّ ما عقده بالكفارة، ولهذا سماها الله تَحِلَّة، فإنها تحل عقد اليمين.

وليست رافعة لإثم الحِنْث كما يتوهمه بعض الفقهاء، فإن الحِنْثَ قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، فيؤمر به أمر إيجاب أو استحباب، وإن كان مباحاً، فالشـارع لم يُبِحْ سبب الإثم، وإنما شرَعَها الله حَلاًّ لعقد اليمين كما شرع الله الاستثناء مانعاً من عقدها.

فظهر الفرق بين ما التزم لله وبين ما التزم بالله؛ فالأول ليس فيه إلا الوفاء، والثاني يخيَّرُ فيه بين الوفاء وبين الكفارة حيث يسوغ ذلك.

وسر هذا أن ما التزم له[1] آكد مما التزم به، فإن الأول متعلق بإلـهيته، والثاني بربوبيته؛ فالأول من أحكام ﴿**إياك نعبد**﴾ والثاني من أحكام ﴿**إياك نستعين**﴾ وإياك نعبد قسم الله من هاتين الكلمتين، وإياك نستعين قسم العبد كما في الحديث الصحيح الإلهي: «**هذه بيني وبين عبدي نصفين**»...

(٢)**وأما** ما احتجوا به من قوله تعالى: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذا مَا أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحمِلُكُمْ عَلَيهِ**﴾ [التوبة: ٩٢]. والذي دعاهم إلى ذلك، أن جواب إذا هو قوله تعالى: ﴿**تَولَّوا وَأعيُنُهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ [التوبة: ٩٢]. والمعنى: إذا أتوك ولم يكن عندك ماتحملهم عليه تولوا يبكون، فيكون الواو في ﴿**قلت**﴾ مقدرة لأنها

---

(١) أي لله

(٢) ٢١ بدائع جـ ١.

معطوفة على فعل الشرط وهو ﴿أتوك﴾ هذا تقرير احتجاجهم ولا حجة فيه؛ لأنه جواب إذا في قوله: ﴿قلت﴾ لا أجد والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه فعبر عن هذا بقوله: ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ لنكتة بديعة وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه، فإنه يكون تبيين حزنهم خارجاً عن إخباره. وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤد هذا المعنى فتأمله فإنه بديع.

فإن قيل فبأي شيء يرتبط قوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأعيُنُهُم تَفِيضُ﴾ وهذا عطف على ما قبله فإنه ليس بمستأنف.

فالجواب أن ترك العطف هنا من بديع الكلام لشدة ارتباطه بما قبله ووقوعه منه موقع التفسير؛ حتى كأنه هو وتأمل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أن أوحَينَا إلى رَجُلٍ مِنّهُم أن أنذِرِ الناسَ وَبَشر الَّذين آمنُوا[1] أنَّ لَهُم قَدَم صِدقٍ عِندَ ربّهِمْ قَالَ الكَافِرُون إنَّ هذا لساحر مُّبِينٌ﴾[يونس: ٢]. كيف لم يعطف فعل القول بأداة عطف لأنه كالتفسير لتعجبهم والبدل من قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ [يونس:٢]. فجرى مجرى قوله: ﴿وَمَن يَّفعَل ذَلِكَ يَلقَ أثَاماً يُضَاعفَ لَهُ العَذَابُ يَومَ القِيَامَةِ وَيَخلُد فِيه[2] مهَاناً﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]. فلما كان مضاعفة العذاب بدلاً وتفسيراً لأثاماً لم يحسن عطفه عليه. وزعم بعض الناس أن من هذا الباب قول عمر رضي الله عنه في الحديث الصحيح: لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله (ﷺ) لها. فقال: المعنى. أعجبها حسنها وحب رسول الله (ﷺ) وليس الأمر كذلك، ولكن قوله: حب رسول الله (ﷺ) بدل من قوله هذه وهو من بدل الاشتمال والمعنى: لا يغرنك حب رسول الله (ﷺ) لهذه التي قد أعجبها حسنها. ولا عطف هناك ولا حذف وهذا واضح بحمد الله.

...[3] **من** أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور

(١) في المطبوعة بزيادة ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ والصواب حذفها كما في المصحف. المراجع.

(٢) في المطبوعة ﴿فيها﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) ١٤٠ فوائد.

والمنهي. **فأعلم** الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها. قال تعالى: ﴿**الأعرَابُ أَشَدُّ كُفراً ونفاقاً وأَجْدَرُ ألا يَعلَمُوا حُدُودَ ما أَنزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٩٧]. .

فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً، وبالله التوفيق.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَالسَّابقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجرينَ والأنصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإِحسانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٠]. فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان، فلا مطمع لمن خرج عن طريقتهم فيها.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَت قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَت عَلَيهِمْ آيَاتُه زَادَتهُمْ إِيماناً وَعَلَى رَبهِمْ يَتَوكَّلُونَ الَّذينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقناهُمْ يُنفِقُونَ أُولئك هُمُ الْمُؤمِنُونَ حقًّا لَهُم دَرجَاتٌ عِندَ رَبهم وَمَغفِرةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. فوصفهم بإقامة حقه باطناً وظاهراً وبأداء حق عباده.

وفي صحيح مسلم: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما كان يوم حنين أقبل نفر من صحابة النبي (ﷺ) فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد وفلان شهيد، حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله (ﷺ): «**كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة**» ثم قال رسول الله (ﷺ): «**يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**» قال: فخرجت فناديتُ: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وللبخاري معناه. وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله (ﷺ) أمر بلالاً ينادي في الناس: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**» وفي بعض طرقه «**مؤمنة**»، وفي الحديث قصة.

وفي صحيح مسلم: من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله (ﷺ) قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني من يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء**

(١) ٨٨ حادي الأرواح.

كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وأن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» الحديث. . .

(١) **﴿وَالسَّابقونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهَاجرينَ والأنصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحسان رَّضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١٠٠]. فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضى الله عنهم، ورضوا عنه وهم أصحاب رسول الله (ﷺ) وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعون بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفيًا ليتميزوا به عمن بعدهم. فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عن الله.

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان، ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة للإحسان. فإن الباء ههنا للمصاحبة. والإحسان في المتابعة شرط في حصول رضى الله عنهم وجناته.

(٢) **فنقول**: الكلام في مقامين: أحدهما: في الأدلة الدالة على وجوب اتباع الصحابة، الثاني: في الجواب عن شبه النفاة.

فأما الأول فمن وجوه: أحدها: ما احتج به مالك، وهو قوله تعالى: **﴿وَالسَّابقونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهَاجرينَ والأنصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحسان رَّضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١٠٠]. فوجه الدلالة أن الله تعالى أثنى على من اتبعهم، فإذا قالوا قولاً فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محموداً على ذلك، وأن يستحق الرضوان، ولو كان اتباعهم تقليداً محضاً كتقليد

---

(١) ٤٢ التبوكية.　　(٢) ١٢٣ أعلام جـ ٤.

بعض المفتين لم يستحق من اتبعهم الرضوان، إلا أن يكون عاميًّا، فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ.

فإن قيل: اتباعهم هو أن يقول ما قالوا بالدليل وهو سلوك سبيل الاجتهاد؛ لأنهم إنما قالوا بالاجتهاد، والدليل عليه قوله: ﴿**بإحسان**﴾ ومَنْ قلدهم لم يتبعهم بإحسان؛ لأنه لو كان مطلق الاتباع محموداً لم يفرق بين الاتباع بإحسان أو بغير إحسان.

وأيضاً فيجوز أن يراد به اتباعهم في أصول الدين، وقوله: ﴿**بإحسان**﴾ أي بالتزام الفرائض واجتناب المحارم، ويكون المقصود: أن السابقين قد وجب لهم الرضوان وإن أساءوا؛ لقوله (ﷺ): «**وما يُدْريك أن الله قد اطَّلَع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وأيضاً فالثناء على من اتبعهم كلهم، وذلك اتباعهم فيما أجمعوا عليه.

وأيضاً فالثناء على من اتبعهم لا يقتضي وجوبه، وإنما يدل على جواز تقليدهم، وذلك دليل على جواز تقليد العالم كما هو مذهب طائفة من العلماء، أو تقليد الأعلم كقول طائفة أخرى. أما الدليل على وجوب اتباعهم فليس في الآية ما يقتضيه. فالجواب من وجوه: أحدها: أن الاتباع لا يستلزم الاجتهاد لوجوه.

أحدها: أن الاتباع المأمور به في القرآن كقوله: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبكُم الله**﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿**واتَّبِعُوهُ لَعلَّكُم تَهتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمِنِينَ**﴾ [النساء: ١١٥]. ونحوه لا يتوقف على الاستدلال على صحة القول مع الاستغناء عن القائل.

الثاني: أنه لو كان المراد اتباعهم في الاستدلال والاجتهاد لم يكن فرق بين السابقين وبين جميع الخلائق؛ لأن اتباع موجب الدليل يجب أن يتبع فيه كل أحد، فمن قال قولاً بدليل صحيح وجب موافقته فيه.

الثالث: أنه إما أن تجوز مخالفتهم في قولهم بعد الاستدلال أو لا تجوز، فإن لم تجز فهو المطلوب، وإن جازت مخالفتهم فقد خولفوا في خصوص الحكم واتبعوا في أحسن الاستدلال، فليس جعل من فعل ذلك متبعاً لموافقتهم في الاستدلال، بأولى من جعله مخالفاً لمخالفته في عين الحكم.

الرابع: أن من خالفهم في الحكم الذي أفتوا به لا يكون متبعاً لهم أصلاً،

بدليل أن من خالف مجتهداً من المجتهدين في مسألة بعد اجتهاد، لا يصح أن يقال: «اتبعه»، وإن أطلق ذلك فلابد من تقييده بأن يقال: اتبعه في الاستدلال أو الاجتهاد.

الخامس: أن الاتباع افتعال من اتبع، وكون الإنسان تابعاً لغيره نوع افتقار إليه ومَشْي خلفه، وكل واحد من المجتهدين المستدلين، ليس تبعاً للآخر ولا مفتقراً إليه بمجرد ذلك حتى يستشعر موافقته والانقياد له، ولهذا لا يصح أن يقال لمن وافق رجلاً في اجتهاده أو فتواه اتفاقاً: إنه متبع له.

السادس: أن الآية قُصد بها مدح السابقين والثناء عليهم، وبيان استحقاقهم أن يكونوا أئمة متبوعين، وبتقدير ألا يكون قولهم موجباً للموافقة ولا مانعاً من المخالفة ـ بل إنما يتبع القياس مثلاً ـ لا يكون لهم هذا المنصب، ولا يستحقون هذا المدح والثناء.

السابع: أن من خالفهم في خصوص الحكم فلم يتبعهم في ذلك الحكم ولا فيما استدلوا به على ذلك الحكم، فلا يكون متبعاً لهم بمجرد مشاركتهم في صفة عامة، وهي مطلق الاستدلال والاجتهاد، ولا سيما وتلك الصفة العامة لا اختصاص لها به، لأن ما ينفي الاتباع أخص مما يثبته. وإذا وجد الفارق الأخص والجمع الأعم ـ وكلاهما مؤثر ـ كان التفريق رعاية للفارق أولى من الجمع رعاية للجامع.

وأما قوله: ﴿**بإحسان**﴾ فليس المراد به أن يجتهد، وافَقَ أو خالف؛ لأنه إذا خالف لم يتبعهم فضلاً عن أن يكون بإحسان، ولأن مطلق الاجتهاد ليس فيه اتباع لهم، لكن الاتباع لهم اسم يدخل فيه كل مَنْ وافقهم في الاعتقاد والقول، فلابد مع ذلك أن يكون المتبع محسناً بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ لئلا يقع الاغترار بمجرد الموافقة قولاً.

وأيضاً فلابد أن يحسن المتبع لهم القول فيهم، ولا يقدح فيهم، اشترط الله ذلك لعلمه بأن سيكون أقوام ينالون منهم. وهذا مثل قوله تعالى بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا ولإِخوانِنَا الَّـذِين سَبقُونَا بِالإِيمانِ وَلاَ تَجعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠]. . .

[(١)] **وأما** ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿**لَا تَعلَمهُم نَحْنُ نَعلَمهُم**﴾ [التوبة:١٠١]. وبقوله: ﴿**وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعْلَمونهمُ الله يَعلَمُهم**﴾ [الأنفال:٦٠]. فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر.

على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة، فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد على نحو تعدي عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار فقوله: ﴿**لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ لا تنفي عنـه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك.

وكذلك قوله: ﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته.

قال: هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار ويحتج بقوله: ﴿**واسأل القرية**﴾ [يوسف:٨٢]. .

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم.

وليس ما قاله هؤلاء بقوي؛ فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم فهو (ﷺ) كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه.

والظاهر بل المتعين أنه (ﷺ) لو عرف أشخاصهم؛ لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله عز وجل. والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى فإن قوله: ﴿**تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ**

---

(١) ٦٢ بدائع جـ ٢.

الله وَعَدُوَّكُم وآخرينَ مِن دُونِهِم لا تَعلَمُونَهُم﴾ [الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان:

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله. وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم كما أمكن مثله في الإنس.

القول الثاني إنهم المنافقون، وعلى هذا فقوله ﴿**لا تعلمونهم**﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم، لا على معرفة نفاقهم لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب فيكون كقوله تعالى: ﴿**لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ فتأمله...

(١) **في** حديث أبي لبابة لما بلغ النبي (ﷺ) ارتباطه قال: «**لو أتاني لاستغفرت له وإذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله**» فأنزل الله تعالى: ﴿**وآخرُونَ اعتَرَفُوا بذنُوبِهِم**﴾ [التوبة: ١٠٢]. إلى قوله: ﴿**عَسَى الله أن يتُوبَ عَلَيهم**﴾ فأطلقه النبي (ﷺ) حينئذ.

وفي هذا ما يدل على صحة قول المفسرين: أن عسى من الله واجب.

وفيه: أن فاطمة جاءت تحله فقال: لا إلا رسول الله (ﷺ) فقال: «**فاطمة بضعة مني**». **فإن قيل:** فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق اليوم.

قيل: لا إما لأنه مختص بالنبي (ﷺ) وإما لأن فاطمة بضعة منه قطعاً والله أعلم.

(٢) **الزكاة** في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما. قال الله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرهُم وَتُزَكِّيهم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣]. فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة، لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا

---

(١) ٢١٢ بدائع جـ ٣.

(٢) ٤٦ إغاثة جـ ١.

استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته. كما قال تعالى: **﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** [النور: ٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

فصل في غزوة تبوك[1]

وكانت في شهر رجب سنة تسع، قال ابن إسحاق: وكانت في زمن عُسْرة في الظهر والزاد والماء، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شُخُوصهم على تلك الحال.

وكان رسول الله (ﷺ) قلَّما يخرج في غزوة إلا كَنَّى عنها، وورَّي بغيرها، إلا ما كان من غزوة تَبوك؛ لبعد الشُّقة، وشدة الزمان، فقال رسول الله (ﷺ) - ذات يوم وهو في جهازه - للجدِّ بن قيس، أحد بني سلمة: «**يا جَدُّ، هل لك العامَ في جِلَاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله! أو تأذنُ لي ولا تَفْتِنِّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عَجباً بالنساء منيٍّ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله (ﷺ) وقال: «**قد أذنت لك**» ففيه نزلت الآية: **﴿ومنهم مَن يقولُ ائْذَنْ لِّي ولا تَفْتنِّي﴾** [التوبة: ٤٩] وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله فيهم: **﴿وقالوا: لَا تَنْفِروا في الحرِّ﴾**. الآية [التوبة: ٨١] ثم إن رسول الله جَدَّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله. فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بِأَحْلَاسِها وأَقْتَابها وعُدَّتها، وألف دينار عَيْنًا.

(١) ٣ زاد المعاد جـ ٣.

وذكر ابن سعد قال: بلغ رسول الله (ﷺ) أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجُذَام وعامِلة وغسَّان، وقدموا مقدماتهم إلى البَلْقاء، وجاء البَكاءُون ـ وهم سبعة ـ يستحملون رسول الله (ﷺ) فقال: ﴿**لا أجد ما أحْمِلُكم عَلَيهِ، تَوَلَّوا وأعيُنُهُمْ تفيضُ مِنَ الدّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدوُا ما يُنفِقُون**﴾ [التوبة:٩٢] وهم: سالم بن عمير، وعُلْبَةُ بن يزيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن غنمة، وسلمة بن صَخْر، والعِرْباض بن سارية، وفي بعض الروايات: وعبدالله بن مغفل ـ ومعقل بن يسار. وبعضهم يقول: البكاءون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مزينة. وابن إسحاق يعد فيهم: عمرو بن الحمام بن الجَموح. وأرسل أبا موسى أصحابُه إلى رسول الله ليحملهم، فوافاه غضبان، فقال: «**لا والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه**» ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم. ثم قال: «**ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفَّرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير**».

فصل

وقام عُلْبَةُ بن يزيد، فصلى من الليل وبكى، وقال: «اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يَحْمِلني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عِرض»، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي (ﷺ): «**أين المتصدق هذه الليلة؟**» فلم يقم إليه أحد، ثم قال: «**أين المتصدق؟ فليقم**» فقام إليه، فأخبره، فقال النبي (ﷺ): «**أَبْشِرْ، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبتْ في الزكاة المتقبلة**» وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم، فلم يعذرهم ـ قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً ـ وكان عبدالله بن أُبيٍّ ابن سَلُول قد عسكر على ثَنِيَّة الوَداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقل العسكرين، واستخلف رسول الله (ﷺ) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ـ وقال ابن هشام سِباع بن عُرفطة. والأول أثبت ـ فلما سار رسول الله (ﷺ) تخلَّف

عبدالله بن أُبيٍّ ومَن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين، من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، ومُرارة بن الربيع، وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة وأبو ذر وشهدها رسول الله (ﷺ) في ثلاثين ألفا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرون ليلة، يقصر الصلاة، وهرقل يومئذ بِحمص.

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسول الله (ﷺ) الخروج خَلَّف عليَّ بن أبي طالب على أهله، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وَتَخَفُّفًا منه، فأخذ عليٌّ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله (ﷺ) وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلَّفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: **«كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارْجِعْ فأخْلُفْني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لاَ نبيَّ بعدي»** فرجع عليّ إلى المدينة. ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله (ﷺ) أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عَرِيشَيْن لهما في حائطه، قد رشَّتْ كل واحدة منهما عريشها، وبَرَّدت له ماء وهيَّأتْ لَه فيه طعاماً. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنَعتا له، فقال: رسول الله (ﷺ) في الضِّحِّ والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مُهَيَّأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله، فَهَيئا لي زادا، ففعلتا. ثم قَدَّم ناضِحَه، فارْتَحَلَه، ثم خرج في طلب رسول الله (ﷺ) حتى أدركه حين نزل تَبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُمير بن وهب الجُمَحي في الطريق يطلب رسول الله، فترافقا، حتى إذا دنيا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلف عني، حتى آتي رسول الله، ففعل. حتى إذا دنا من رسول الله، وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل فقال رسول الله (ﷺ): **«كُنْ أبا خيثمة»** قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل، فسلم على رسول الله، فقال له رسول الله: **«أولى لك يا أبا خيثمة»** فأخبر رسول الله خبَره، فقال له رسول الله: **«أولى لك خيراً»**، ودعا له بخير وقد كان رسول الله (ﷺ) حين مرَّ بالحِجر بِديَار ثَمُود قال: **«لا تشربوا من مائها شيئاً،**

ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عَجِين عَجَنْتُموه فاعْلِفُوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنَّ أحد منكم إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس، إلا رجلين من بني ساعدة: خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره، فأمَّا الذي خرج لحاجته، فإنه خُنق على مَذْهَبه. وأما الذي خرج في طلب بعيره: فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلَي طَيِّء، فأُخْبرَ بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: **«ألم أنْهَكُم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه»** ثم دعا للذي خُنق على مذهبه فَشُفِيَ، وأمَّا الآخر: فأهدته طَيء، لرسول الله (ﷺ) حين قدم المدينة.

قلت: والذي في صحيح مسلم، من حديث أبي حميد، انطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله (ﷺ): **«سَتَهُبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم منكم أحد، فمن كان له بعير فلْيَشُدَّ عِقالَه»**. فهَبَّت ريح شديدة. فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طَيء.

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري: أنه قال: لما مرّ رسول الله (ﷺ) بالحِجْر سَجّى ثوبه على وجهه، واسْتَحَثَّ راحلته، ثم قال: **«لا تدخلوا بُيُوتَ الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»**.

قلت: في الصحيحين: من حديث ابن عمر: أن رسول الله (ﷺ) قال: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكين. فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ لا يصيبكم مثل ما أصابهم»**. وفي صحيح البخاري: **«أنه أمرهم بإلْقَاء العجين وطَرْحِه»**. وفي صحيح مسلم: **«أنه أمرهم أن يَعْلِفُوا الإبل العجين، وأن يهُرْيقُوا الماء، ويَسْتقُوا من البئر التي كانت تَردها الناقة»**. وقد رواه البخاري أيضاً، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه من روى الطرح.

وذكر البيهقي: أنه نادى فيهم: **«الصلاة جامعة»**، فلما اجتمعوا قال: **«عَلاَمَ تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟»** فناداه رجلٌ، فقال: نَعْجَب منهم يا رسول الله فقال: **«ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم. استقيموا وسَدِّدُوا، فإن الله عز وجل لا يَعْبَأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»**.

فصل

قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ): فدعا رسول الله (ﷺ) فأرسل الله سبحانه سحابة، فأمطرت حتى ارْتَوَى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء. ثم إن رسول الله سار، حتى إذا كان ببعض الطريق ضَلَّت ناقته، فقال زيد بن أبي الصَّلْت ـ وكان منافقاً ـ أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله: «**إن رجلاً يقول** ـ وذكر مقالته ـ **وإني والله لا أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلني الله عليها. وهي في الوادي في شِعْب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامِها، فانْطَلِقُوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فأتَوْهُ بها**». وفي طريقه تلك خَرَصَ حديقة بعشَرة أوْسُق.

ثم مضى رسول الله (ﷺ) فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: «تخلف فلان» فيقول: «**دَعُوهُ، فإن يك فيه خير فسيُلْحِقُه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوَّم على أبي ذر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبع أثر الرسول (ﷺ) ماشياً، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله: «**كن أبا ذر**» فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، والله هو أبو ذر، فقال رسول الله (ﷺ): «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَث وحده**»... [1]

[2]فصل في رجوع النبي (ﷺ) من تبوك وما هَمّ المنافقون من الكيد به، وعِصْمة الله إياه

ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة قال: ورجع رسول الله (ﷺ) قافِلاً من تَبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق: مكَر برسول الله ناسٌ من

(١) تركنا بقية سياق الغزوة اختصاراً قرابة نصف كراسة.

(٢) ١٦ زاد المعاد جـ ٣.

المنـافقين، فتآمروا أن يطرحوه من عَقَبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله أُخْبِرَ خبرَهم، فقال: «**من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي، فإنه أوسع لكم**»، وأخذ رسول الله العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادي، إلا النفر الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله لَمّا سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وقد همُّوا بأمر عظيم، وأمر رسول الله عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، فمشيا معه، وأمر عَمّاراً أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وَكْزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله (ﷺ) وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله، فرجع ومعه مِحْجَن، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمون، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظُهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله، فلما أدركه قال: «**اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار**»، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي (ﷺ) لحذيفة: هل عرفت من هؤلاء الرهط ـ أو الركب ـ أحداً؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون، فقال رسول الله (ﷺ): «**هل علمتم ما كان شأن الركب، وما أرادوا؟**» قالوا: لا، والله يا رسول الله، قال: «**فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا اطّلعتُ في العقبة طرحوني منها**» قالوا: أولا تأمر بهم يا رسول الله إذاً، فنضرب أعناقهم؟ قال: «**أكره أن يتحدث الناس، ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه، فسمّاهم لهما، وقال: اكتُماهم**».

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: «**إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء الله غداً عند وجه الصبح. فانطلق حتى إذا أصبحتَ فاجمعهم**» فلما أصبح قال: «**ادْعُ عبدالله بن أبي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر الأعرابي، وعامر ـ أو أبا عامر ـ والجِلاس بن سُوَيد بن الصامت ـ وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة، وإن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنا إذاً لغنم، وهو الراعي، ولا عقل لنا وهو العاقل ـ**» وأمره أن يدعو مُجَمِّع بن

حارثة، ومليحًا التيمي، وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام، وانطلق محارباً في الأرض، فلا يُدْرَى أين ذهب. وأمره أن يدعو حِصن بن نُمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله: «**ويحك، ما حملك على هذا؟**» قال: حملني عليه: أني ظننت أن الله لا يطلعك عليه، فأما إذا أطلعك الله عليه وعلمت، فأنا أشهد اليوم أنك رسول الله، وإني لم أؤمن بك قط قبل هذه الساعة، فأقال رسول الله (ﷺ) عَثْرَتَه، وعفا عنه. وأمره أن يدعو طعيمة بن أُبَيْرِق، وعبدالله بن عيينة ـ وهو الذي قال لأصحابه: اسهروا هذه الليلة تسْلَمُوا الدهر كله، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل ـ فدعاه، فقال: «**ويحك، ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلتُ؟**» فقال عبدالله: والله يا رسول الله، لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك، إنما نحن بالله وبك. فتركه رسول الله (ﷺ) وقال: ادعُ مُرَّة بن الربيع ـ وهو الذي قال: نقتل الواحد الفرد، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ـ فدعاه رسول الله، فقال: «**ويحك، ما حملك على أن تقول الذي قلت؟**» فقال: يا رسول الله، إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به، وما قلت شيئاً من ذلك. فجمعهم رسول الله (ﷺ) ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ الذين حاربوا الله ورسوله، وأرادوا قتله. فأخبرهم رسول الله بقولهم ومنطقهم، وسِرِّهم وعلانيتهم، وأطلع الله سبحانه نبيه على ذلك بعلمه. ومات الاثنى عشر منافقين محاربين لله ولرسوله. وذلك قوله عز وجل: ﴿**وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ [التوبة: ٧٤] وكان أبو عامر رأسهم. وله بنوا مسجد الضِّرار، وهو الذي كان يقال له: الراهب، فسماه رسول الله: الفاسق، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة. فأرسلوا إليه فقدم عليهم، فلما قدم عليهم أخزاه الله وإياهم، فانهارت تلك العقبة بهم في نار جهنم.

قلت: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وهَم من وجوه:

أحدها: أن النبي (ﷺ) أسرَّ إلى حذيفة أسماء أولئك المنافقين، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره. وبذلك كان يقال لحذيفة: «إنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره» ولم يكن عمر ولا غيره يعلم أسماءهم. وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه يقول عمر: «انظروا. فإن صلى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق منهم».

الثاني: ما ذكرناه من قوله: «فيهم عبدالله بن أبي» وهو وهم ظاهر. وقد ذكر

ابن إسحاق نفسه: أن عبدالله بن أبي تخلف عن غزوة تبوك.

الثالث: أن قوله: «وسعد أبي سَرْح» وهم أيضاً، وخطأ ظاهر؛ فإن سعد بن أبي سرح لم يعرف له إسلام ألبتة، وإنما ابنه عبدالله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتد ولحق بمكة حتى استأمن له عثمان النبي (ﷺ) عام الفتح، فأمنه وأسلم فحسُن إسلامه ـ ولم يظهر منه بعد ذلك شيء ينكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر ألبتة. فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش؟

الرابع: قوله: «وكان أبو عامر رأسهم» وهذا وهم ظاهر، لا يخفى على من دون ابن إسحاق، بل هو نفسه قد ذكر قصة أبي عامر هذا في قصة الهجرة: عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ «أن أبا عامر لما هاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً. فلما افتتح رسول الله مكة خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام. فمات بها طريداً وحيداً غريباً». فأين كان الفاسق وغزوة تبوك. ذهاباً وإياباً؟

فصل[1]

فلما دنا رسول الله (ﷺ) من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا		من ثَنِيَّات الوَداع
وجب الشكر علينا		ما دعا للّه داع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا، ويقول: إنما كان ذلك عند مَقدمه المدينة من مكة. وهو وهَم ظاهر. لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجّه إلى الشام.

فلما أشرف على المدينة قال: **«هذه طَابة، وهذا أُحُدُ، جبل يُحِبُّنا ونُحِبُّه»**...

[2]**ولما** دخل رسول الله (ﷺ) المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس. فجاءه المخلَّفون. فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له. وكانوا بضعة

---

(١) ٢٠ زاد المعاد جـ ٣.		(٢) ٢١ زاد المعاد جـ ٣.

وثمانين رجلاً. فقبل منهم رسول الله (ﷺ) علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكَل سرائرهم إلى الله. وجاءه كَعْبُ بن مالك. فلما سلَّم عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغضب، ثم قال له: «**تعال**»، قال: فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتَعْتَ ظَهْرك؟**» فقلت: بلى والله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سَخَطه بعذر، ولقد أعطيتُ جَدَلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب، ترضى به عني، لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطك عليَّ. ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قَطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك. فقال رسول الله (ﷺ): «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**» فقمت. وثار رجال من بني سَلِمة، فاتبعوني يؤنبونني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله (ﷺ) بما اعتذر إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبَك استغفار رسول الله (ﷺ) لك قال: فوالله، مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل الذي قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن كلامنا - أيُّها الثلاثة - من بين من تخلَّف عنه. فاجتنبنا الناسُ، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي: فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله (ﷺ) فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تَسَوَّرْت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة،

أنْشـدك الله، هل تعلمني أحِبُّ الله ورسـولـه؟ فسكت. فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتَوَلَّيْتُ حتى تَسَوَّرت الجدار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة وإذا نَبطِيٌّ من أنباط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعب بن مالك فطفِقَ الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة، فالحق بنـا نُواسِـك، فقلت، لما قرأتهـا: وهـذا أيضاً من البلاء، فتيممتُ بها التَّنور. فَسَجَرْتها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسول الله (ﷺ) يأتيني، فقال: إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا. ولكن اعتزلها ولا تَقْرَبها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامـرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجـاءت امـرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائـع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: **«لا، ولكن لا يقربك»**. قلت: والله ما به حركة إلى شيء. والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال كعب: فقال لي بعض أهلي، لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله، لا أستأذن فيها رسول الله وما يدريني ما يقول رسول الله، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كَملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ: سمعت صوت صارخ أوفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبْشِرْ، فَخَرَرْتُ ساجداً، فعرفت أنْ قد جاء فَرَجٌ من الله، وآذن رسول الله (ﷺ) بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا. وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرسا، وسعى ساع من أسْلَم، فأوفى على ذِرْوة الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نَزَعْتُ له ثَوْبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرت

ثوبين فلبستهما. فانطلقت إلى رسول الله (ﷺ) فتلقَّاني الناس فوجاً فَوْجاً يهنئونني بالتوبة وهم يقولون: لِيَهْنِكَ توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله (ﷺ) جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ـ ولا أنساها لطلحة ـ فلما سلَّمتُ على رسول الله قال ـ وهو يَبْرُق وجهُه من السرور ـ «**أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذُ ولدتك أمك**».

قال: قلت: أهو من عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**». وكان رسول الله (ﷺ) إذا سُرَّ اسْتَنَار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنْخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**». قلت: فإني أمسك سَهْمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي: أن لا أتحدث إلا صِدْقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) إلى يومي هذا ما أبلاني. والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، فأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ**﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿**يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٧] فوالله ما أنعم الله عليَّ نعمة قطُّ ـ بعد أن هداني للإسلام ـ أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله (ﷺ): أن لا أكون كَذَبته، فأهلِك كما هَلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، قال: ﴿**سَيَحلِفُونَ بِالله لَكُم إذا انقلَبْتُم إلَيْهِمْ**﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿**فَإِنَّ الله لا يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] قال كعب: وكنا تخلَّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرْجَأ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿**وَعَلى الثلاثة الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكر الله مما خلفنا: عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرْجَاؤه عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه[1]».

---

(١) رواه البخاري بهذا السياق في التفسير. ورواه أحمد ومسلم، وعند أحمد زيادة يسيرة.

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبدالله بن صالح: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**وآخرون اعترَفُوا بِذُنوبِهِم خلطُوا عَمَلاً صالِحاً وآخرَ سَيّئاً**﴾ [التوبة:١٠٢] قال: كانوا عشرة رهط، تخلفوا عن رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله أَوْثَقَ سبعةٌ منهم أنفسَهم بسَوَاري المسجد. وكان مَمَرُّ النبي (ﷺ) إذا رجع في المسجد عليهم، فلما رآهم، قال: «**من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟**» قالوا: هذا أبو لُبَابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله، أوثقوا أنفسهم، وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي (ﷺ) ويعذرهم، فقال: «**وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين**». فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن بالله لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وآخرونَ اعتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَملاً صَالحاً وآخرَ سَيئاً عسى الله أن يَتُوبَ عَلَيهِمْ**﴾ - وعسى من الله واجب - ﴿**إنّ الله غفورٌ رحيم**﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي (ﷺ) فأطلقهم، وعذرهم، فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، قال: «**ما أمرت أن آخذ أموالكم**»، فأنزل الله: ﴿**خُذْ مِنْ أموَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهم بِهَا، وَصَلِّ عليهم**﴾ يقول: استغفر لهم ﴿**إنَّ صَلَاتَكَ سكَنٌ لَهم**﴾ [التوبة:١٠٣] فأَخذ منهم الصدقة، واستغفر لهم، وكان ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرْجِئُوا لا يدرون: أَيُعَذَّبُون، أم يُتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**لَقَد تابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَعَلَى الثلاثة الَّذينَ خُلِّفُوا**﴾ إلى قوله: ﴿**إنَّ الله هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] تابعه عطية بن سعد(١).

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير بنحوه.

فصل[١]

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد[٢].

فمنها: جواز القتال في الشهر الحرام ـ إن كان خروجه في رجب محفوظاً ـ على ما قاله ابن إسحاق، ولكن ههنا أمر آخر، وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهرالحرام، بخلاف العرب. فإنها كانت تحرمه، وقد تقدم في نسخ تحريم القتال قولين. وذكرنا حُجَجَ الفريقين.

ومنها: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه، ليَتَأَهَّبُوا له، ويُعِدُّوا له عُدَّتَهُ، وجواز ستر غيره عنهم، والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أن الإمام إذا اسْتَنْفَر الجيش لزمهم النَّفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى اسْتُنْفِر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه. وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حصر العدوّ البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذا أحد الروايتين عن أحمد. وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شَقِيقُ الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقَرينُهُ، بل جاء مقدماً على الجهاد بالنفس في كل موضع، إلا موضعاً واحداً. وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس. ولا ريب أنه أحد الجهادين. كما قال النبي (ﷺ): **«من جَهَّزَ غازياً فقد غَزا»** فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله ولا ينتصر إلا بالعَدَد والعُدَد، فإن لم يقدر أن يُكثِّر العدد وجب عليه أن يُمِدّ بالمال والعُدَّة، وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن، فوُجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

ومنها: ما برَّز به عثمان بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي (ﷺ): **«غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت»**، ثم قال: **«ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»** وكان قد أنفق ألف دينار وثلاثمائة بعير بُعدتها وأحلاسها وأقتابها.

(١) ٢٦ زاد المعاد جـ ٣.
(٢) أي غزوة تبوك.

ومنها: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَج عن هؤلاء العاجزين، بعد أن أتوا رسول الله (ﷺ) ليحملهم، فقال: ﴿**لَا أَجِدُ مَا أَحمِلُكُم عَلَيهِ**﴾ [التوبة: ٩٢] فرجعوا يبكون، لما فاتهم من الجهاد. فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

ومنها: استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء والمعذورين والنساء والذرية، ويكون نائبه من المجاهدين، لأنه من أكبر العَوْن لهم. وكان رسول الله يستخلف ابن أم مكتوم، فاستخلفه بِضْع عشرة مرة، وأما في غزوة تبوك: فالمعروف عند أهل الأثر: أنه استخلف علي بن أبي طالب، كما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص، قال: خَلَّف رسول الله (ﷺ) عليًّا في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، تُخَلِّفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي**» ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله. وأما الاستخلاف العام: فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري. ويدل على هذا، أن المنافقين لما أرْجَفُوا به، وقالوا: خَلَّفه استثقالاً، أخذ سلاحه، ثم لحق بالنبي (ﷺ) فأخبره فقال: «**كذبوا، ولكن خَلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع، فاخْلُفني في أهلي وأهلك**»...

فصل(١)

ومنها: انعقاد اليمين في حال الغضب؛ إذا لم يخرج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفذُ حكمه، وتصح عقوده. فلو بلغ به الغضب إلى حد الإغلاق لم ينعقد يمينه ولا طلاقه. وقال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**لا طلاق ولا عَتاق في إغلاق**» يريد: الغضب.

ومنها: قوله (ﷺ): «**ما أنا حملتكم. ولكن الله حملكم**» قد يتعلق به الجبري، ولا متعلَّق له به. وإنما هذا مثل قوله: «**والله لا أعطي أحداً شيئاً، ولا أمنع، وإنما أنا قاسم، أضع حيث أُمرت**» فإنه عبدالله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أمره ربه بشيء نفذه، فالله هو المعطي والمانع والحامل؛ والرسول منفذ لما أُمِرَ به. وأما قوله تعالى: ﴿**وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيتَ وَلٰكِنَّ الله رَمَى**﴾ [الأنفال: ١٧]

---

(١) ٣٢ زاد المعاد جـ ٣

فالمراد به: القبضة من الحصباء التي رمى بها وُجُوهَ المشركين فوصلت إلى عيون جميعهم. فأثبت الله سبحانه له الرمي باعتبار النبذ والإلقاء. فإنه فعله، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلى جميع المشركين، وهذا فعل الرب تعالى، لا تصل إليه قدرة العبد، والرمي يطلق على الحذف، وهو مَبْدَؤه، وعلى الإيصال، وهو نهايته.

فصل

ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله (ﷺ) أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكاراً فهو توبة وإقلاع. وقد قال أصحابنا وغيرهم: من شُهد عليه بالردة، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: لم يكشف عن شيء منه بعد. وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الردّة كفاه جحدها. ومن لم يقل بتوبة الزنديق، قال: هؤلاء لم تقم عليهم بينة، ورسول الله (ﷺ) لا يحكم عليهم بعلمه، والذي بلّغ رسول الله عنهم قولَهم لم يُبلِّغه إياه نصاب البينة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبدالله بن أبي، وكذلك غيره أيضاً: إنما شهد عليه واحد.

وفي هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبدالله بن أبيّ وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدًّا، كالمتواترة عند النبي (ﷺ) وأصحابه، وبعضهم أَقَرَّ بلسانه، وقال: ﴿**إنما كنا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ [التوبة: ٦٥] وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله: «**إنك لم تعدل**» والنبي (ﷺ) لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل: ما قامت عليهم بينة، بل قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

فالجواب الصحيح إذن: أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي (ﷺ) مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله، وجمع كلمة الناس عليه. وكان في قتلهم تنفير، والإسلام بَعْدُ في غُرْبَةٍ، ورسول الله أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختص بحال حياته (ﷺ) وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه: «**أنْ كان ابنَ عمتك**» وفي قسمه بقوله: «**إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه

الله» وقول الآخر له: «إنك لم تعدل» فإن هذا محض حقه؛ له أن يستوفيه، وله أن يتركه. وليس للأمة بعده ترك استيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه، ولابُدّ. ولتقرير هذه المسائل موضع آخر. والغرض التنبيه والإشارة.

فصل

ومنها: أن أهل العهد والذمة، إذا أحدث أحد منهم حَدثاً فيه ضرر على المسلمين، انتقض عهده في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمه وماله هَدَر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة: «**فمن أَحْدَث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس**» وهذا لأنه بالإحداث صار مُحَارباً، حكمه حكم أهل الحرب.(١).

فصل(٢)

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها، وهدمها كما حرق رسول الله (ﷺ) مسجد الضرار وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه؛ لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً ومأوى للمنافقين المحاربين لله ورسوله.

وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله: إما بهدم وتحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله، أحق بذلك وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق: كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكاملها يباع فيها الخمر. وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقاً. وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية. وهم رسول الله (ﷺ) بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم. كما أخبر هو عن ذلك.

---

(١) ساق المؤلف رحمه الله ما تضمنته هذه الغزوة في قرابة كراستين، وهي فوائد عظيمة منوعة نقلنا بعضها في هذه السورة وتركنا الباقي اختصاراً.

(٢) ٣٥ زاد المعاد جـ ٣.

ومنها: أن الوقف لا يصح على غير برّ ولا قُرْبة، كما لم يصح وقف هذا المسجد؛ وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد. نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيُّهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق. فلو وضعا معاً: لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز. ولا تصح الصلاة في هذا المسجد؛ لنهي رسول الله (ﷺ) عن ذلك، ولَعْنِه مَن اتخذَ القبر مسجداً، أو أوْقَدَ عليه سراجاً. فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغُرْبتُه بين الناس كما ترى.

فصل(١)

في أمر مسجد الضرار

الذي نهى الله رسوله أن يقوم فيه، فهدمه

أقبل رسول الله من تبوك حتى نزل بذِي أُوان ـ وبينها وبين المدينة ساعة ـ وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العِلّة والحاجة، والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «**إني على جناح سفر وحالِ شغل ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه**» فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء. فدعا مالك بن الدُّخْشُم ـ أخا بني سلمة بن عوف ـ ومعن بن عدي العجلاني، فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه**»،فخرجا مُسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ـ وهم رهط مالك بن الدخشم ـ فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، ودخل إلى أهله، فأخذ سَعَفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً. ثم خرجا يشتدّان حتى دخلاه ـ وفيه أهلُه ـ فحرقاه وهدماه، فتفرقوا عنه، فأنـزل الله فيه: ﴿**وَالَّـذِينَ اتَّخَذُوا مَسجِداً ضِرَاراً وكُفراً وَتفريقاً بَينَ المؤمِنينَ**﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠] إلى آخر القصة. وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم: ثعلبة بن حاطب.

---

(١) ١٩ زاد المعاد جـ ٣.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبدالله بن صالح: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً**﴾: «هم أُناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستمِدُّوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي (ﷺ) فقالوا: إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿**لا تقم فيه أبدا، لمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم**﴾ يعني مسجد قباء ﴿**أحقُّ أن تقوم فيه**﴾ إلى قوله ﴿**فانهارَ به في نار جهنم**﴾ يعني قواعده ﴿**لا يزال بنيانهم الذي بَنَوْا رِيبَةً في قلوبهم**﴾ يعني الشك ﴿**إلا أن تَقَطَّع قلوبهم**﴾ [التوبة: ١٠٨ ـ ١١٠] يعني بالموت».

(١)**ومنها** جواز إنْشَاد الشعر للقادم، فرحاً وسروراً به، ما لم يكن معه لَهْوٌ من محرم، كمِزْمَار وشَبَّابة وعود، ولم يكن غناء يتضمن رُقْية الفواحش. وما حرم الله. فهذا لا يحرمه أحد. وتعلق أرباب السماع الفسقي به كتعلق من يستحل شرب الخمر المسكر قياساً على أكل العنب وشرب العصير الذي لا يسكر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: ﴿**إنَّما البَيعُ مِثلُ الربَا**﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ومنها: استماع النبي (ﷺ) مدح المادحين له، وترك الإنكار عليهم. ولا يصح قياس غيره عليه في هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق. وقد قال: «**احْثُوا في وجوه المداحين التراب**». **ومنها**: ما اشتملت عليه قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا من الحِكَم والفوائد الجمّة، فنشير إلى بعضها:

فمنها: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره، وفي ذلك من التحذير والنصيحة، وبيان طرق الخير والشر، وما يترتب عليهما؛ ما هو من أهمّ الأمور.

ومنها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع. ومنها: تسلية الإنسان نفسه عما لم يُقَدَّر له من الخير بما قُدِّر له من

---

(١) ٣٦ زاد المعاد جـ ٣.

نظيره، أو خير منه. ومنها: أن بَيْعة العَقَبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كَعْباً كان لا يراها دون مشهد بدر.

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يَسْتُر عن رعيته بعض ما يَهِمُّ به ويقصده من العدو، ويُورِّي به عنه استُحِب له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة.

ومنها: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة؛ لم يجز.

ومنها: أن الجيش في حياة النبي (ﷺ) لم يكن لهم ديوان، وأن أولَ من دوَّنَ الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهذا من سنته التي أمر النبي (ﷺ) باتباعها، وظهرت مصلحتها، وحاجة المسلمين إليها.

فصل(١)

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد؛ فالعارف همته تصحيح الأساس وأحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿**أَفَمَن أَسَّسَ بُنيَانَه عَلى تَقوىٰ مِنَ الله ورِضوَانٍ خَيرٌ أم مَّن أَسَّسَ بُنيَانَه عَلى شَفَا جُرفٍ هَارٍ فانهارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾ [التوبة: ١٠٩] فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية، حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء. فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس؛ وهذا الأساس أمران: **صحة** المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس، واحفظ القوة،

---

(١) ١٥٤ فوائد.

ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة، والمادة الفاسدة موجودة، والاستفراغ معدوماً.

فأقر السلام على الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديع

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من أعدائك، إذا أطاف به العدو ولم يجد منه مدخلاً فييأس منك، ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره، وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن.

(1)**قال** تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَموَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقًّا فِي التَّوراةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاستَبشِرُوا بِبَيعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١١١] فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم؛ بحيث إذا بذلوها فيه، استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد.

أحدها: إخبارهم سبحانه وتعالى بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

---

(١) ٦٤ حادي الأرواح.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب إعلاماً لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقًّا عليه.

السابع: انه أخبر عن محل هذا الوعد وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم؛ بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة وقوله: ﴿**بايعتم به**﴾ أي عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم، وهم: التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون. وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة.

والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته، والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي (ﷺ) اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن: سائحات وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم ولا إدامة صيام؛ وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله،

وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين: فهذا علانية، وهذا في القلب كما في المسند عنه (ﷺ): «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**».

وجعل القنوت والتوبة قرينين: هذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره.

وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين: فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أنف لم يرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلاماً بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قريناً لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان، وذلك أمر غيره بحفظها.

وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع. فالسلعة النفس والله سبحانه المشتري لها، والثمن لها جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له　　　فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وفي جامع الترمذي: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا أن سلعة الله الجنة**» قال: هذا حديث حسن غريب.

(١)**وأما** قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ فكان تقديم الأنفس هو الأولى؛ لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد وهي السلعة التي استامها ربها وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته،

---

(١) ٧٨ بدائع الفوائد جـ ١.

فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها فإن العبد وما يملكه لسيده ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها؛فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسناً لا مزيد عليه.

(1)**ويتعلق** بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، وهو تقديم الأموال على الأنفس في الجهاد؛ حيث ما وقع في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله**﴾.

وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: ﴿**وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُم وأَنفُسِكُم**﴾ [الصف: ١١]. وقوله: ﴿**وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِم**﴾ [التوبة: ٢٠].

وهو كثير، فما الحكمة في تقديم المال على النفس وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله.

فيقال أولاً: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس. فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه؛ فإن كان عاجزاً وجب عليه أن يكتري بماله، وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا. ومن تأمل أحوال النبي (ﷺ) وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول.

والمقصود تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادراً على أن يُغزي بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال فكيف يقال لا يجب به.

ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس؛ لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال وهذا بين.

وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر.

وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب، وهي أن المال محبوب النفس

---

(١) ٧٧ بدائع الفوائد جـ ١.

ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها؛ فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له فهذا غاية الحب؛ فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه فإذا أحب شيئاً بذل له محبوبه من نفعه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية؛ ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم، فلم يرض الله من محبيه بهذا بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها.

وأيضاً فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولاً يقي به نفسه، فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقاً للواقع.

(1)**فصل:** الكلام على واو الثمانية، قولهم: إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحداً واحداً.

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿**التَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السائحون الراكعون السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمعرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [التوبة: ١١٢]. فقيل الواو في ﴿**والناهون**﴾ واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهاً أخرى:

منها: أن هذا من التفنن في الكلام أن يعطف بعضه ويترك عطف بعضه.

ومنها أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل وهاتان الصفتان متعديتان متعلقتان بالغير فقطعتا عما قبلهما بالعطف.

ومنها: أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون

---

(١) ٥١ بدائع جـ٣.

بالمعـروف والناهون عن المنكر، وكل هذه الأجوبة غير سديدة وأحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد:

فتارة: يتوسط بينها حرف العطف؛ لتغايرها في نفسها، وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة: لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة: يتوسط العاطف بين بعضها ويحذف مع بعض بحسب هذين المقامين.

فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد؛ حسن إسقاط حرف العطف.

وإن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها؛ حسن إدخال حرف العطف.

فمثال الأول ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ**﴾ وقوله: ﴿**مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ**﴾ [التحريم: ٥].

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ**﴾ [الحديد: ٣].

وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿**حمٓ تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَـزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّولِ**﴾ [غافر: ١-٣]. فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين[1] الأخيرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد؛ لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر، ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه:

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة، وتغفر تلك السيئة، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير، أبين، كان العطف أحسن؛ ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿**هُو الأَوَّلُ والآخِـرُ والـظَّاهِرُ والباطِنُ**﴾ [الحديد: ٣]. وترك في قوله ﴿**المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَام**

---

(١) في نسخة الآخر.

المُؤمِنُ المُهيمِنُ﴾ وقوله: ﴿الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِرُ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤]. وأما ﴿شَدِيدُ العِقَابِ ذِي الطَّولِ﴾ [غافر:٣]. فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر؛ فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي (ﷺ) بقوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فأوليته أزليته وآخريته أبديته.

فإن قلت فما تصنع بقوله: ﴿**والظاهر والباطن**﴾ فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه فيجتمع في حقه الظهور والبطون، والنبي (ﷺ) فسر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة.

قلت: هذا سؤال حسن، والذي حسن دخول الواو ههنا أن هذه الصفات متقابلة متضادة، وقد عطف الثاني منها على الأول للمقابلة التي بينهما، والصفتان الأخريان كالأوليين في المقابلة ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الآخرين.

فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه فيها؛ لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها فيها كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد؛ فلم يحتج إلى عطف فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة؛ حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته مطلوب تعيينه لا يكتفى فيه بحصول الوصف الآخر؛ بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه ونهيه عن المنكر بصريحه.

وأيضاً فحسن العطف ههنا ما تقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدين: أحدهما طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين فحسن لذلك العطف.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿**عَسى رَبُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزْوَاجاً خَيراً مِنكُن مُسلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ**﴾ [التحريم:٥]. إلى قوله: ﴿**ثيبات وأبكاراً**﴾ فقيل: هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين؛ لأن الأوصاف

التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما؛ فتعين العطف لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُم كَلبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم﴾ [الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا.

والثاني: أن يكون دخول الواو ههنا إيذاناً بتمام كلامهم عند قولهم: ﴿سبعة﴾، ثم ابتدأ قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ وذلك يتضمن تقرير قولهم: ﴿سبعة﴾ كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوي. وهذا اختيار السهيلي، وقد تقدم الكلام عليه، وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ ليس داخلاً في المحكي بالقول والظاهر خلافه والله أعلم.

الموضع الرابع قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أَبوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]. فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار: ﴿حتى إِذَا جَاءوهَا فُتِحَتُ أبوَابُها﴾ لما كانت سبعة وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها ففتحت في وجوههم لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه. وأما الجنة فلما كانت دار[1] الكرامة وهي مأدبة[2] الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنهم[3] جاءوها بعد ما فتحت أبوابها وحذف الجواب تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره كعادتهم في حذف الأجوبة وقد أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم والله أعلم.

[4]**وتوبة** العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها فتوبته

---

(١) في المطبوعة (ذات) والصواب ما أثبتناه كما هو في المخطوطة. المراجع.

(٢) نسخة مائدة كذا في المخطوطة.

(٣) في المطبوعة (أنها) والصواب ما أثبتناه كما في المخطوطة. المراجع. (٤) ٣١٢ مدارج جـ ١.

بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة.

قال الله سبحانه وتعالى: **﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِنَ بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمُ إنَّهُ بِهِم رَءوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا. حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ. وَضَاقَتْ عَلَيهِم أَنفُسُهُم. وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا. إِنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا، هدايته لعبده قبل الاهتداء(١). فيهتدي بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى، الهدى بعده. كما أن من عقوبة الضلالة، الضلالة بعدها. قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدى﴾**[محمد: ١٧]. فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً.

وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُم﴾** [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر» فهو المعدُّ. وهو الممدّ. ومنه السبب والمسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

---

(١) فقد أعطاه ربه هداية الفطرة **﴿إِنَّا خَلَقنَا الإِنسَانَ مِنُ نُّطفَةٍ أَمشَاجٍ نَّبتَلِيهِ. فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعا بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَّإِمَّا كفُوراً﴾** [الإنسان: ٢، ٣]. فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة في سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي خلقها الله، فعقلها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها. زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر والتأمل صفاء ونوراً، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسوله، صلى الله عليه وسلم **﴿وَمَنْ لَم يَجعَلِ الله لَه نُوراً فَمَا لَه مِن نُورٍ﴾** [النور: ٤٥].

[1] **فاعلم** الآن: أن التوبة نهاية كل عارف. وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية. والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله (ﷺ) في آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره، قال الله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِنَ بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُمْ. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٧].

وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها (ﷺ) بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد.

وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصرُ الله وَالفَتْحُ وَرَأَيتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفواجاً فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَاستَغفِرهُ إنه كان تَوَّابَا**﴾ [سورة النصر]. وفي الصحيح؛ أنه (ﷺ) ما صلى صلاة ـ بعد ما نزلت عليه هذه السورة ـ إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي**» وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهم منها علماء الصحابة ـ كعمر بن الخطاب، وعبدالله بن عباس، رضي الله عنهم ـ: أنه أجل رسول الله (ﷺ) أعلمه الله إياه.

فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر أمره، على ما كان عليه (ﷺ) مقاماً وحالاً. وآخر ما سُمع من كلامه عند قدومه على ربه: «**اللهم اغفر لي. وألحقني بالرفيق الأعلى**».

وكان، (ﷺ) يختم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال: «**آيبُون، تائبُون، لربنا حامدون**».

وشرع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة: شرع

---

(١) ٤٣٥ مدارج جـ ٣.

أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار فيقول عند النوم: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» وأن ينام على سيد الاستغفار...

فصل(١)

ومنها عِظَمُ مِقْدار الصِّدْق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنَّجَاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجى إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلك إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء: هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس، فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم.

وجعل عَلم المنافقين الذي تميزوا به: هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم. فجميعُ ما نَعاه عليهم: أصله الكذب في القول والفعل.

فالصدق بريد الإيمان ودليله، ومَرْكبه وسائقه وقائده، وحليته ولباسه، بل هو لُبّه وَرُوحُه.

والكذب بريد الكفر والنفاق، ودليله، ومركبه وسائقه، وقائده وحليته، ولباسه ولُبُّه. فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويَطْرُد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه.

والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المتخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد من نعمة بعد الإسلام أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده. والله المستعان.

---

(١) ٥٠ زاد المعاد جـ ٣.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَبيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِن بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم إِنَّهُ بِهِم رَءوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] هذا من أعظم ما يُعَرِّف العبدَ قدر التوبة وفضلَها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن. فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات، بعد أنْ قَضَوْا نَحْبَهم، وبَذَلُوا نفوسهم وأموالهم وديارَهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي (ﷺ)، يوم توبة كعب خيرَ يوم مرَّ عليه مُنذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حقَّ معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبودية، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر. هذا إذا سَلِم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسبحان من لا يَسَعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك. فإن وضع عليهم عدله فَعَذَّب أهل سماواته وأرضه: عَذَّبَهم وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم: فرحمته خير لهم من أعمالهم. ولا ينجي أحداً منهم عملُه.

فصل

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين ـ في أول الآية وآخرها ـ فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها. فالخير كله منه وبه وله. وفي يديه، يُعْطِيه من يشاء إحْسَاناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.

فصل

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] قد فسرها كعب بالصواب وهو أنهم خُلِّفوا من بين مَن حلف لرسول الله (ﷺ) واعتذر من المتخلفين. فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم. وليس ذلك تَخَلُّفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا، كما قال تعالى: ﴿ما كَانَ لأَهلِ المدينَةِ وَمَن حَولَهُم مِنَ الأعرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ الله﴾ [التوبة: ١٢٠] وذلك لأنهم

تخلفوا بأنفسهم، بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خَلَّفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم. والله أعلم.

(١)**قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٩]. قال غير واحد من السلَفِ: هم أصحاب محمد (ﷺ) ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتمُّ في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن مَنْ خالفهم في شيء ـ وإن وافقهم في غيره ـ لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثَبَتَ له قِسْط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب؛ بحيث لا يستحق اسمَ المؤمنِ وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم، ففرق بين المعية المطلقة ومطلق المعية، ومعلوم أن المأمور به الأول لا الثاني.

فإن الله تعالى لم يرد منا أن نكون معهم في شيء من الأشياء وأن نُحَصِّلَ من المعية ما يطلق عليه الاسم، وهذا غلط عظيم في فَهْم مراد الرب تعالى من أوامره؛ فإذا أمرنا بالتقوى والبر والصدق والعفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحو ذلك، لم يرد منا أن نأتي من ذلك بأقلِّ ما يطلق عليه الاسم وهو مطلق الماهية المأمور بها، بحيث نكون ممتثلين لأمره إذا أتينا بذلك، وتمام تقرير هذا الوجه بما تقدم في تقرير الأمر بمتابعتهم سواء.

(٢)فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾ منزلة «الصدق».

وهي منزلة القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق

---

(١) ١٣٢ أعلام جـ ٤.
(٢) ٢٦٨ مدارج جـ ٢.

الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه. ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته. ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين.

في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل وَمَعِين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولئك مَعَ الَّذينَ أَنعَم الله عَلَيهِم مِّنَ النبيّينَ وَالصِّدّيقينَ وَالشُّهَدَاء والصَّالِحِينَ**﴾ فهم الرفيقُ الأعلى ﴿**وَحَسُنَ أولئك رفيقاً**﴾ [النساء: ٦٩]. ولا يزال الله يُمِدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدَقَه فهو خير له. فقال: ﴿**فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَو صَدَقُوا الله لَكَانَ خيراً لَّهُمُ**﴾ [محمد: ٢١].

وأخبر تعالى عن أهل الْبِرِّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿**وَلٰكِنَّ البرَّ مَن آمَنَ بالله وَاليَومِ الآخِرِ وَالْمَلائكةِ وَالكِتَاب وَالنَّبِيِّينَ وَآتى المَالَ عَلى حُبِّه ذَوِي القُربٰى وَاليَتَامىٰ وَالمَسَاكِينَ وَابنَ السَّبيل. وَالسَّائِلِينَ وَفي الرِّقَاب وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالموفُونَ بعهدِهِم إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البأسِ أولئكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأولئِكَ هُمُ المتقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

[1]**قال** تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَت سُورَةٌ نَّظَرَ بَعضُهُم إِلَى بَعضٍ هَل يَرَاكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة.

وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيراً لأَسمَعَهُم وَلَو أَسمَعَهُمُ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض؛ فالأول مانع من الفهم والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصود ردية وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة: فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قلوبهم﴾ [التوبة: ١٢٧].

كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبراً أو إعادة عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول. فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، ولأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ [الصف: ٥]. وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك، عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية، فعاقبه

---

(١) ٩٧ شفاء.

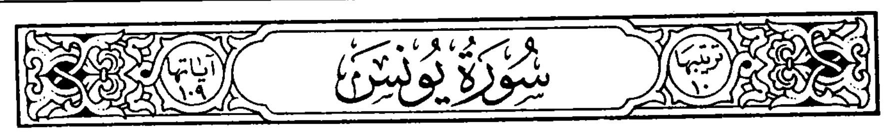
على معصيتـه الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها، وصـار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه وقد قال تعالى: ﴿أَنَّى[1] يُصرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]. ﴿أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿فَمَا لَهُم عَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]. فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين فكيف ينفي ذلك عليهم.

قيل: هم دائرون بين عدله، وحجته عليهم فمكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهيأ لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردى وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً فآثروا الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم فهم سدّوا على أنفسهم باب الهـدى إرادة منهم واختياراً، فسـدّه عليهم اضـطراراً؛ فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون فلا أقبح من فعلهم ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة. ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين والشاء والذياب، ومعـطيهـا آلاتهـا وصفاتها وقواها، وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها وبعضها بإرادتها ومشيتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك، إلى ما خفي عليهم بوجه مّا إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين

(١) في المطبوعة ﴿فأنّى﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** سبحانه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِنْهُم أن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. [يونس: ١-٢]. فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُّبِينٌ﴾. [يونس: ٢]. وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله، ﷺ، بطريق الخير والشر وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم؟! وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وإن تعجب فعجبٌ قولُهم﴾ [الرعد: ٥].

(٢)**وقال** تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم الله الذي خَلَقَ السَّموات والأَرْض في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى على العَرْشِ يُدبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إلَّا مِنْ بَعدِ إِذْنِهِ ذلكُمُ الله رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿هو الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ ما خَلَقَ الله ذَلِكَ إلَّا بالحَقِّ﴾. [يونس: ٣ـ ٥]. وقوله: ﴿الٓمٓ. الله لا إلـهَ إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ﴾. [آل عمران: ١ ـ٣]. فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضًا، فبالحق كان الخلق والأمر وعنه صدر الخلق والأمر. . . .

(٣)**ثم** تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة؟ لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون، والإجارات والمعاملات والعدد، وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة؛ بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك. وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿هُوَ الذِي جَعَلَ

---

(١) ٢٧١ التبيان. (٢) ٢٣٨ طريق الهجرتين. (٣) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ ١.

الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلَّا بالحقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿وجَعَلْنَا الليلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لتبتغوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُم ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾. [الإسراء: ١٢].

(١) **وإذا** فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح. وكيف يكون حال الحيوان لو أمسكت عنه، وجعل الليل عليه سرمدًا والدنيا مظلمة عليه؟ فبأي نور كانوا يتصرفون؟ وكيف كانت تنضج ثمارهم، وتكمل أقواتهم وتعتد صورهم وأبدانهم؟ فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تُحصى، ولكن تأمل الحكمة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء والراحة. وأيضًا لو دامت على الأرض لاشتد حرها بدوام طلوعها عليها فاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم والعزيز الحكيم أن جعلها تطلع عليهم في وقت دون وقت، بمنزلة سراج يرفع لأهل الدار مليًا ليقضوا مأربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدءوا، وصار ضياء النهار وحرارته وظلام الليل وبرده على تضادهما وما فيهما، متظاهرين متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم اقتضت حكمته أن جعل للشمس ارتفاعًا وانحطاطًا لإقامة هذه الفصول الأربعة من السنة وما فيها من قيام الحيوان والنبات. ففي زمن الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيها مواد النار ويغلظ الهواء بسبب البرد فيصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة فتنشره قزعًا(٢)، ثم يرسل عليه المؤلفة فتؤلف بينه حتى يصير طبقًا واحدًا، ثم يرسل عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء فتلقحه كما يلقح الذكر الأنثى فيحمل الماء من وقته، فإذا كان بروز الحمل وانفصاله أرسل عليه الريح الذارية فتذروه وتفرقه في الهواء؛ لئلا يقع صبة واحدة فيهلك ما على الأرض وما أصابه ويقل الانتفاع به. فإذا أسقي ما أمر بسقيه

(١) ٣٠٤ مختصر الصواعق جـ ١. (٢) القزعة: السحابة الخفيفة البيضاء.

وفرغت حاجتهم منه أرسل عليه الرياح السائقة. فتسوقه وتزجيه إلى قوم آخرين وأرض أخرى محتاجة إليه. فإذا جاء الربيع تحركت الطبائع وظهرت المواد الكامنة في الشتاء فخرج النبات، وأخذت الأرض زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج كريم. فإذا جاء الصيف سخن الهواء وتحللت فضلات الأبدان، فإذا جاء الخريف كسر ذلك السموم والحرور. وبرد الهواء واعتدل وأخذت الأرض والشجر في الراحة والجموم والاستعداد للحمل الآخر.

واقتضت حكمته سبحانه أن أنزل الشمس والقمر في البروج وقدر لهما المنازل؛ ليعلم العباد عدد السنين والحساب من الشهور والأعوام، فتتم بذلك مصالحهم وتعلم بذلك آجال معاملاتهم، ومواقيت حجهم وعباداتهم ومدد أعمارهم، وغير ذلك من مصالح حسابهم. فالزم مقدار الحركة، ألا ترى أن السنة الشمسية مسير الشمس من الحمل إلى الحمل؟ واليوم مقدار مسيرها من المشرق إلى المغرب وتحركه الشمس والقمر لكمال الزمان من يوم خلقا إلى أن يجمع الله بينهما ويعزلهما عن سلطانهما، ويرى عابديهما أنهم عبدوا الباطل من دونه(1). قال تعالى: **﴿هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَد السِّنِينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ إلَّا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**. [يونس: ٥].

وقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا الليلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهار مُبْصِرةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكم ولِتَعْلَمُوا عَدَد السِّنِينَ والحِسَابَ وكُلَّ شيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾**. [الإسراء: ١٢].

واقتضت حكمته سبحانه في تدبيره أن فاوت بين مقادير الليل والنهار، ولم يجعلهما دائمًا على حد سواء ولا أطول مما هما عليه وأقصر؛ بل جاء استواؤهما وأخذ أحدهما من الآخر على وفق الحكمة، حتى إن المكان الذي يقصر أحدهما فيه جدًّا، لا يتكون فيه حيوان ونبات كالمكان الذي لا تطلع عليه شمس أو لا تغرب عنه، فلو كان النهار مقدار مئة ساعة أو أكثر أو كان الليل كذلك لتعطلت المصالح التي نظمها الله بهذا المقدار في الليل والنهار.

---

(1) كذا بالأصل والظاهر أنه سقط بعض كلام حتى صارت الجملة غامضةً.

ثم تأمل الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء، لم تقتض المصلحة أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيها شيء من العمل، وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في النهار، و لإفراط الحر فيه فاحتاجوا إلى العمل في الليل في نور القمر من حرث الأرض وقطع الزرع وغير ذلك، فجعل ضوء القمر في الليل معونة للناس على هذه الأعمال، وجعل في الكواكب جزءًا يسيرًا من النور ليسد مسد القمر إذا لم يكن، وجعلت زينة للسماء ومعالم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ودلالات واضحات على الخلاق العليم، وغير ذلك من الحكم التي بها انتظام هذا العالم، وجعلت الشمس على حالة واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان لئلا تتعطل الحكم المقصودة منها، وجعل القمر يقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكم المقصودة من جعله كذلك، وإن كان في نوره من التبريد والتصلب ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتنضم المصلحة وتتم الحكمة من هذا في هذا التسخين والتبريد.

ثم تأمل اللطف والحكمة الإلهية في جعل الكواكب السيارات ومنازلها تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها؛ لأنها لو ظهرت دائمًا أو اختفت دائمًا لفاتت الحكمة المطلوبة منها، كما اقتضت الحكمة أن يظهر بعضها، ويحتجب بعضها فلا تظهر كلها دفعة واحدة، ولا تحتجب دفعة واحدة بل ينوب ظاهرها عن خفيها في الدلالة، وجعل بعضها ظاهرًا لا يحتجب أصلاً بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها حيث شاءوا.

ثم تأمل حال النجوم واختلاف مسيرها: ففرقة منها لا تريم مراكزها من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة كالجيش الواحد، وفرقة منها مطلقة تنتقل في البروج وتتفرق في مسيرها، وكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق. وذلك من أعظم الدلالات على الفاعل المختار العليم الحكيم على كمال علمه وحكمته.

وتأمل كيف صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، يدور على

هذا العالم هذا الدوران العظيم السريع المستمر بتقدير محكم لا يزيد ولا ينقص ولا يختل نظامه، بل هو تقدير العزيز العليم، كما أشار تعالى إلى أن ذلك التقدير صادر عن كمال عزته وعلمه قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَليمِ﴾. [الأنعام: ٩٦].

(١)ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه؟ فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء. وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استترعنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم.

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص؛ لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ الليلَ في النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهَارَ في الليلِ﴾. [فاطر: ١٣]. وفيه قولان: أحدهما: أن المعنى: يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار، في غير زمن

---

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ ١.

الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي إليه الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان، ولا نبات، لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار، ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا لا ضوء فيه أصلاً، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر، أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة، كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس، لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم.

فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام، بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفًا، بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانًا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه!.

(١)**توعد** سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل

---

(١) ٩٥ فوائد.

عن آياته ولم يرج لقاءه. فقال: ﴿إِنَّ الذينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بهَا والذينَ هُم عنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [يونس: ٧، ٨]. وعيَّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا مَا لَكُم إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إِلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. [التوبة: ٣٨]. وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ما أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. وقوله: ﴿وَيَومَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّم يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُم﴾. [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُم يومَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا. إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا. كَأَنَّهُمْ يَومَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لبِثْنَا يَومًا أَوْ بَعْضَ يَومٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ. قَالَ إِن لَبِثْتُم إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجرمِينَ يَومَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُم إِنْ لَبِثْتُم إِلَّا عَشْرًا. نَحنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُم إِلَّا يَومًا﴾. [طه: ١٠٢ - ١٠٤]. والله المستعان وعليه التكلان.

(١)**قال** تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِم رَبُّهُم بإِيمَانِهِم تَجْرِي مِنْ تحتِهِم الأَنْهَارُ فِي جنَّاتِ النَّعيم دَعْوَاهُم فيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وتَحِيَّتُهُم

---

(١) ٢٩٨ حادي الأرواح.

فِيهَا سَلَامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ . [يونس: ٩، ١٠].

قال حجاج: عن ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم**﴾ قال: إذا مر بهم الطير ليشتهونه قالوا: سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله تعالى: ﴿**وتَحِيَّتُهم فيها سَلَامٌ**﴾. قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله تعالى: ﴿**وآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ**﴾.

قال سعيد: عن قتادة قوله تعالى: ﴿**دعواهُم فيها سُبحَانَك اللهمَّ**﴾ يقول: ذلك دعاؤهم فيها وتحيتهم فيها سلام.

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم فيأتيهم ما دعوا به.

ومعنى هذه الكلمة: تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به.

وذكر سفيان، عن عبدالله بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله، ﷺ، عن سبحان الله: فقال: «**تنزيه الله عن السوء**».

وسأل ابن الكواء عليًّا عنها فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه.

وقال حفص بن سليمان بن طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه، عن طلحة بن عبيدالله قال: سألت رسول الله، ﷺ، عن تفسير سبحان الله فقال: «**هو تنزيه الله عن كل سوء**». فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئًا قالوا: سبحان الله، وعن آخر دعواهم عندما يحصل لهم، وهو قولهم: الحمد لله رب العالمين. ومعنى الآية أعم من هذا، والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء، ويراد به المسألة.

وفي الحديث: «**أفضل الدعاء: الحمد لله رب العالمين**». فهذا دعاء ثناء وذكر يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله: تسبيح، وآخره: حمد يلهمونها كما يلهمون النفس. وفي هذا إشارة إلى أن التكليف في الجنة يسقط عنهم ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى التي يلهمونها.

وفي لفظة: اللهم إشارة إلى صريح الدعاء، فإنها متضمنة لمعنى، ياالله فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا الشيء

قالوا: سبحانك اللهم فذكروا بعض المعنى ولم يستوفوه مع أنهم قصروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على أن أول دعائهم التسبيح وآخره الحمد، وقد دلَّ الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النفس فلا تختص الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية فهو لا يليق بحالهم والله تعالى أعلم بالصواب.

...[1] **فنقول**: إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم. فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول، ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علمًا.

بل تجاوز للأمة عما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به، وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به، إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه.

فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم. هذه قاعدة الشريعة، وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته.

فإن خواطر القلوب وإرادة النفوس لا تدخل تحت الاختيار، فلو ترتبت عليها الأحكام لكان في ذلك أعظم حرج ومشقة على الأمة، ورحمة الله تعالى وحكمته تأبى ذلك.

والغلط والنسيان والسهو وسَبْقُ اللسان بما لا يريده العبد بل يريد خلافه والتكلم به مكرهًا وغير عارف لمقتضاه من لوازم البشرية لا يكاد ينفك الإنسان من شيء منه؛ فلو رتب عليه الحكم لحرجت الأمة وأصابها غاية التعب والمشقة؛ فرفع عنها المؤاخذة بذلك كله حتى الخطأ في اللفظ من شدة الفرح والغضب والسكر كما تقدمت شواهده، وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان

---

(١) ١١٧ إعلام جـ٣.

بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولَغْو اليمين؛ فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده بالتكلم في حال منها؛ لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذه به.

أما الخطأ من شدة الفرح فكما في الحديث الصحيح حديث فَرَحِ الرب بتوبة عبده وقول الرجل: «**أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**».

وأما الخطأ من شدة الغضب فكما في قوله تعالى: ﴿**ولو يُعَجِّلُ الله للناس الشرَّ استعجَالَهُم بالخَيْرِ لَقُضِيَ إليهِمْ أَجَلُهُم**﴾. [يونس: ١١]. قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله حال الغضب، لو أجابه الله تعالى لأهلك الداعي ومن دعي عليه، فقضى إليهم أجلهم.

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع النبي، ﷺ، من وقوع الطلاق والعَتَاق فيه هو الغضب. وهذا كما قالوه؛ فإن للغضب سكرًا كسكر الخمر أو أشد.

وأما السكران فقد قال الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَـارَى حتَّى تَعْلَمُـوا مَا تَقُـولُـونَ**﴾. [النساء: ٤٣]. فلم يرتب على كلام السكران حكمًا؛ حتى يكون عالمًا بما يقول؛ ولذلك أمر النبي، ﷺ، رجلاً يشكك المقر بالزنا ليعلم هل هو عالم بما يقول أو غير عالم بما يقول، ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال السكر: «هل أنتم إلا عبيد لأبي» ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة «أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون».

وأما الخطأ والنسيان فقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾. وقال الله تعالى: «**قد فعلت**» وقال النبي، ﷺ: «**إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

وأما المكره فقد قال الله: ﴿**مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِه وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمَانِ**﴾. [النحل: ١٠٦]. والإكراه داخل في حكم الإغلاق.

وأما اللغو فقد رفع الله تعالى المؤاخذة به حتى يحصل عَقْدُ القلب.

وأما سَبْقُ اللسان بما لم يرده المتكلم فهو دائر بين الخطأ في اللفظ والخطأ في القصد؛ فهو أولى أن لا يؤاخذ به من لغو اليمين، وقد نصَّ الأئمة على مسائل من ذلك تقدم ذكر بعضها.

وأما الإغلاق فقد نص عليه صاحب الشرع، والواجب حَمْلُ كلامه فيه على

عمومه اللفظي والمعنوي؛ فكل مَنْ أغلق عليه باب قصده وعلمه كالمجنون والسكران والمكره والغضبان فقد تكلم في الإغلاق، ومن فسره بالجنون أو بالسكر أو بالغضب أو بالإكراه فإنما قَصَدَ التمثيلَ لا التخصيص، ولو قدر أن اللفظ يختص بنوع من هذه الأنواع لوجَبَ تعميمُ الحكم بعموم العلة؛ فإن الحكم إذا ثبت لعلة تعدّى بتعديها وانتفى بانتفائها. . .

[1]**والله** سبحانه وتعالى رفع المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرهًا، لما لم يقصد معناها ولا نواها، فكذلك المتكلم بالطلاق والعتاق والوقف واليمين والنذر مكرهًا، لا يلزمه شيء من ذلك؛ لعدم نيته وقصده، وقد أتى باللفظ الصريح؛ فعلم أن اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به.

والله تعالى رفع المؤاخذة عمن حدَّث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل، كما رفعها عمن تلفظ باللفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة، ولهذا لا يكفر من جَرَى على لسانه لفظ الكفر سَبْقًا من غير قصد لفرح أو دهش وغير ذلك، كما في حديث الفرح الإلـهيِّ بتوبة العبد، وضرب مثل ذلك بمن فَقَدَ راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، فأيس منها ثم وجدها فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**». ولم يؤاخذ بذلك، وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ بذلك. ومن هذا قوله تعالى: ﴿**ولو يُعَجِّلُ الله للنَّاسِ الشرَّ استِعْجَالَهُم بالخيرِ لَقُضِيَ إليهم أَجَلُهُمْ**﴾.

قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك مَنْ يَدْعُو عليه، ولكنه لا يستجيبه لعلمه بأن الداعي لم يقصده.

ومن هذا رفعه، صلى الله عليه وآله وسلم، حكم الطلاق عمن طلق في إغلاق، وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: هو الغضب، وكذلك فسره أبو داود، وهو قول القاضي إسماعيل بن إسحاق أحد أئمة المالكية ومُقَدَّم فقهاء أهل العراق منهم؛ وهي عنده من لَغْو اليمين أيضًا، فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي

---

(١) ٦٣ أعلام جـ ٣.

يمين الإغلاق، وحكاه شارح أحكام عبدالحق عنه، وهو ابن بزيزة الأندلسي، قال: وهذا قول عليّ وابن عباس وغيرهما من الصحابة إن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لا تلزم.

وفي سنن الدارقطني بإسناد فيه لين من حديث ابن عباس يرفعه: «**لا يمين في غَضَب، ولا عتاق فيما لا يملك**». وهو وإن لم يثبت رفعه فهو قول ابن عباس.

وقد فسر الشافعي: «**لا طلاق في إغلاق**» بالغضب، وفسره به مسروق؛ فهذا مسروق والشافعي وأحمد وأبو داود والقاضي إسماعيل، كلهم فسروا الإغلاق بالغضب، وهو من أحسن التفسير؛ لأن الغضبان قد أغلق عليه باب القصد بشدة غضبه وهو كالمكره بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره.

(١) **ذلك** قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ استعجَالَهُم بالخيرِ لَقُضِيَ إليهم أَجَلُهُم**﴾. [يونس: ١١].

قال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه.

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**». قال رسول الله، ﷺ: «**أخطأ من شدَّة الفرح**». ولم يكن بذلك كافرًا لعدم قصده. وذكر النبي، ﷺ، ذلك تحقيقًا لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويًا والعقل ضعيفًا حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة، وتارة من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

(٢) **قال** تعالى: ﴿**قُلْ لو شَاءَ اللهُ ما تَلَوتُهُ عليكُم ولا أدراكم به فَقَدْ لبِثْتُ فيكُم عُمُـرًا منْ قَبْله أَفَـلا تَعْقِلُونَ**﴾. [يونس: ١٦]. فتأمل هاتين الحجتين

---

(١) ١٦٦ روضة المحبين. (٢) ٩٩ مختصر الصواعق جـ ١.

القاطعتين بهذا اللفظ الوجيز: إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي، ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفوني وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أحفظ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صاحبتم أنتم في أسفاركم من تتعلمون منه وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين، والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له؟ . . . .

(١) **إنه** سبحانه أخبر: أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالى: ﴿**قُلْ لَو شَاءَ الله ما تَلَوتُهُ عليكُم ولَا أَدْرَاكُم به**﴾. [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدورًا لي لكان مقدورًا لمن هو من أهل العلم والكتابة، ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به ألبتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبًا وافتراء كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو: أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه،

---

(١) ١١٧ التبيان.

فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾. تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه.

وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ، ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يُوحى إليَّ تاليًا له ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته. اهـ.

(1)**ومن** آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض، والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء الله سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل.

وتسمى رياح الرحمة: المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح. ورياح العذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر. وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها. فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله على متونها، وريح تغذي

---

(1) ٢٠٠ مفتاح دار السعادة جـ ١.

النبات. ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة، وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها، وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر، وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿**هو الذي يُسَيِّرُكُم في البَر والبحر حتَّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبة وفَرِحُوا بهَا جَاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وجَاءَهُم المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**﴾. [يونس: ٢٢]. فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد، فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه، من الشدة والقوة والبأس ما يفلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها، وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه؛ لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء، فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة.

فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة، ولا عقدة تشاهد. . .

[(١)] **ومن** هذا البـاب ذكر الرياح في القرآن جمعًا ومفردة، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة.

وسر ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها ومايكسر سورتها ويصدم حدتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفـة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها فكانت في الرحمة ريحًا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها فتمتثل ما أمرت به، وتصيب ما أرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم، فقال: ﴿إذ أرْسَلنَا عَليهم الرِّيحَ العَقِيم﴾. [الذاريات: ٤١]. وهي التي لا تلقح ولا خير فيها، والتي تعقم ما مرَّت عليه.

ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا في قوله في سورة يونس: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُم في البرِّ والبَحْرِ حتَّى إذَا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بهَا جَاءَتها رِيحٌ عَاصِفٌ﴾. [يونس: ٢٢]. فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة، سيرها من وجه واحد[(٢)] فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهـلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعًا لتوهم أن تكون ريحًا عاصفة بل هي مما يفرح بها لطيبها.

فلينزه الفَطِنُ بصيرتَه في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحًا، ويتغذى بها عن الطعام والشراب والحمد لله الفتاح العليم. فمثل هذا الفصـل يعض عليه بالنواجذ وتثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب.

قـوله تعالى: ﴿إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهم قَادِرُونَ عَلَيها أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كأَن لَّم

(١) ١١٨ بدائع جـ ١.

(٢) في الأصل: إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، ولعل الصواب ما أثبتناه. (ج).

(٣) ١٥٣ إعلام جـ١.

تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتفكَّرُونَ﴾. [يونس: ٢٤].

[(١)] **شبه** سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزيَّن في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها، سُلِبَها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتُعْشِبُ ويَحْسُنُ نباتُها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيبُ ظنه، وتصبح يداه صِفرًا منها؛ فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عُرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: **﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ﴾**. [يونس: ٢٥]. فسماها هنا: دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله.

[(٢)] **وقال** خالقها سبحانه: **﴿إنَّما مَثَل الحَياة الدُّنيَا كَماءٍ أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو إلى دَارِ السَّلام ويَهدي من يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ﴾**. فأخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

وقال تعالى: **﴿واضرِب لَهُم مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكَانَ الله على كُلِّ شيَءٍ مُقْتَدِرًا المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا والبَاقِياتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيرٌ أَمَلاً﴾**. [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّما الحيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينَةٌ وتَفاخُرٌ بَيْنَكم وتَكَاثُرٌ في الأَمْوالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا**

---

(١) ١٥٣ أعلام جـ ١. (٢) ٩٤ الفوائد.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وفي الآخرةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورِضْوَان ومَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾. [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفضَّةِ والخَيْلِ المَسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والحَرْثِ ذَلكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ. قُل أَؤُنَبِّئُكم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم للذينَ اتَّقَوا عِنْدَ ربِّهم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِن الله والله بَصيرٌ بالعِبَادِ﴾. [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بالحَيَاةِ الدُّنيَا ومَا الحياةُ الدّنيَا في الآخِرَةِ إلَّا مَتَاع﴾ [الرعد: ٢٦] (١).

(٢)**قال** الله عز وجل: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلَامِ﴾. [يونس: ٢٥] وهذا حثٌّ على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل.

ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى: ﴿ورِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ﴾. [التوبة: ٧٢]. وأتى به منكرًا في سياق الإثبات. أي: أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منــك يقــنعــني ولــكن ... قليلــك لا يقــال لــه قليــل

وفي الحديث الصحيح ـ حديث الرؤية ـ **«فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه»**.

وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تجلى لهم. ورأوا وجهه عيانًا: نسوا ما هم

---

(١) تقدم آخر البحث في أول هذه السورة على قول الله تعالى: **﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة﴾**. الآية.

(٢) ٨٠ مدارج جـ ٢.

فيه من النعيم، وذهلوا عنه، ولم يلتفتوا إليه.

ولا ريب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟ وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجل منه، ولا أكمل ولا أجمل: قرة عين ألبتة؟

وهذا - والله - هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمَّه العافون. وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال لا يعبد الله طلبًا لجنته ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار - أعاذنا الله منها - فإن لأربابها في عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه والبعد عنه، أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم بل التهاب هذه النار في قلوبهم هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم ومنها سرت إليها، فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو الجنة، ومهربهم من النار، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١)**حدثنا** إسحاق بن إبي إسرائيل، حدثنا أيوب بن أبي شبيب الصنعاني قال: كان فيما عرضنا على رباح بن زيد: حدثني عبدالله بن نمير: سمعت عبدالرحمن بن يزيد يقول: سمعت عبدالله بن عمر يقول: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**لا تنسوا العظيمتين**» قلنا: وما العظيمتان يا رسول الله؟ قال: «**الجنة والنار**».

وذكر أبو بكر الشافعي، من حديث كليب بن حرب قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**اطلبوا الجنة جهدكم واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات فلا تلهينكم عن الآخرة**».

---

(١) ٧٠ حادي الأرواح.

الباب الحادي والعشرون

في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.

الاسم الأول: الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية ومنه الجنين؛ لاستتاره في البطن، والجان لاستتاره عن العيون، والمجن لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه، والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة ومنه قول الشاعر:

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت ... فلو جن إنسان من الحسن جنت

أي: لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك.

ومنه سمي البستان جنة؛ لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

والجُنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿**اتَّخذوا أيمانهم جُنَّة**﴾. [المجادلة: ١٦، المنافقون: ٢]. أي: يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم.

(١) **الاسم** الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿**لهم دار السَّلام عند ربِّهم**﴾. [الأنعام: ١٢٧]. وقوله: ﴿**والله يدعو إلى دَارِ السَّلامِ**﴾. [يونس: ٢٥]. وهي أحق بهذا الاسم فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى: السلام الذي سلمها وسلم أهلها ﴿**تَحِيَّتُهُم فيها سَلامٌ**﴾. [يونس: ١٠]. ﴿**والملائِكَةُ يَدْخُلونَ عليهِم من كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم**﴾. [الرعد: ٢٣، ٢٤]. والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم كما قال تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَا يَدَّعُون سَلامٌ قَوْلاً مِن ربٍّ رحِيمٍ**﴾. [يس: ٥٧ - ٥٨]. وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة، وكلامهم

---

(١) ٧٢ حادي الأرواح.

كلهم فيها سلام أي: لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾. [مريم: ٦٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾. [الواقعة: ٩٠، ٩١]. فأكثر المفسرين حاموا حول المعنى وما وردوه وقالوا أقوالاً لا يخفى بعدها عن المقصود. وإنما معنى الآية والله أعلم: فسلامٍ لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين أي: فسلامه لك كائنًا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وأنكادها ومن النار وعذابها، فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله: أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. وهذا أول البشرى التي للمؤمن في الآخرة.

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدًا كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. [هود: ١٠٨]. وقال: ﴿إِنَّ هذا لرزقُنا ما له من نَفَادٍ﴾. [ص: ٥٤]. وقال: ﴿أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها﴾. [الرعد: ٣٥]. وقال: ﴿وما هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. [الحجر: ٤٨]. وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها إن شاءالله تعالى.

الاسم الرابع: دار المقامة قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغفورٌ شَكُور. الذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فيها نَصَبٌ﴾. [فاطر: ٣٤، ٣٥]. قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود: أقاموا فيها أبدًا لا يموتون ولا يتحولون منها أبدًا. قال الفراء والزجاج: المقامة مثل الإقامة يقال: أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقامًا.

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾. [النجم: ١٥].

والمأوى: مفعل من أوى يأوى إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به.

وقال عطاء، عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.

وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء.

وقال كعب: جنة المأوى: جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء.

وقالت عائشة رضي الله عنها، وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان.

والصحيح: أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى: ﴿وأمَّا مَنْ خَافَ مقام ربِّه ونَهى النَّفسَ عن الهوى فإنَّ الجنَّة هي المأوى﴾. وقال في النار: ﴿فإنَّ الجَحِيمَ هي المأوى﴾. [النازعات: ٤١]. وقال: ﴿ومأْوَاكُم النَّار﴾. [الجاثية: ٣٤].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل: هي اسم لجنة من الجنان.

والصحيح: أنـه اسم لجملة الجنـان، وكلهـا جنات عدن، قال تعالى: ﴿جنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحمنُ عِبَادَه بالغَيْب﴾. [مريم: ٦١].

وقـال تعـالى: ﴿جنَّات عَدْنٍ يدْخُلُونَها يُحَلَّونَ فيهَا مِنْ أَسَاورَ مِنْ ذَهَبٍ ولؤلؤًا ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. [فاطر: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾. [التوبة: ٧٢].

والاشتقـاق يدل على أن جميعها جنات عدن، فإنه من الإقامة والدوام، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه.

قال الجـوهري: ومنه جنات عدن أي: إقامة، ومنه سمي المعدِن بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء. ومركز كل شيء معدنه. والعادن الناقة المقيمة في المرعى(١).

(٢)**قـوله** تعالى: ﴿والله يدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. للذينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيَادَةٌ ولا يَرْهَقُ وُجوههم قَتَرٌ ولا ذِلَّة أُولئكَ أَصْحَابُ الجنَّة هُم فيهَا خَالِدُونَ﴾. [يونس: ٢٥، ٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول الله، ﷺ، الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده.

كما روى مسلم في صحيحه: من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب قال: قرأ رسول الله، ﷺ: ﴿للذينَ أَحْسَنُوا الحُسنَى وزِيَـادة﴾. قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعدًا ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما**

---

(١) بقية الأسماء في مواضعها في القرآن. (٢) ٢٠٥ حادي الأرواح.

هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون الله، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مسلم بن سالم البلخي، عن نوح بن أبي مريم، عن ثابت، عن أنس قال: سئل رسول الله، ﷺ، عن هذه الآية: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحُسنى وزِيادة﴾**. قال: «**للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة، والزيادة: وهي النظر إلى وجه الله**».

وقال محمد بن جرير: حدثنا ابن حميد: حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة، عن النبي، ﷺ، في قوله تعالى: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحُسنى وزِيادة﴾**. قال: «**الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن جل جلاله**». **قلت**: عطاء هذا هو الخراساني وليس عطاء بن أبي رباح.

قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبدالرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال: سمعت زهيرًا، وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا صفوان بن صالح: حدثناالوليد بن مسلم: حدثنا زهيربن محمد، قال: حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبيّ بن كعب قال: سألت رسول الله، ﷺ، عن الزيادة في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحسنى وزِيادة﴾**. قال: «**الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل**»...

وقال أسد السنة: حدثنا قيس بن الربيع، عن أبان، عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: «**يبعث الله عز وجل يوم القيامة مناديًا ينادي: يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم، إن الله وعدكم الحسنى، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل**»...

(1)**فتأمل** قوله: **﴿أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذَا هِيَ تَمُور. أَمْ أَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرسِلَ عَلَيْكم حَاصِبًا﴾**. [الملك: ١٦، ١٧]. كيف

(١) ١١٥ بدائع جـ ١.

أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفوق المطلق، ولم يرد سماء معينة مخصوصة.

ولما لم تفهم الجهمية هذا المعنى أخذوا في تحريف الآية عن مواضعها.

وكذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عن رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ ولاَ فِي السَّماءِ**﴾. [يونس: ٦١]. بخلاف قوله في سبأ: ﴿**عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأَرْضِ**﴾. [سبأ: ٣]؛ فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله وهو السموات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس.

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: ﴿**وهو الله في السَّموات وفي الأرضِ يَعلَمُ سِرَّكُم وجَهْركم**﴾. [الأنعام: ٣]؛ فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية بما لا يليق بها فقال: الوقف التام على ﴿**السموات**﴾ ثم يبتدىء بقوله: ﴿**وفي الأرض يعلم**﴾ وغلط في فهم الآية وإن معناها ما أخبرتك به وهو قول محققي أهل التفسير.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿**فَوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُم تنطِقُون**﴾. [الذاريات: ٢٣]. إرادة لهذين الجنسين أي: رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضًا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿**يُسَبِّحُ لله ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ**﴾. [الجمعة: ١]. في جميع السور لما كان المراد، الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿**ولهُ منْ في السَّموات والأرضِ ومَنْ عِندهُ لا يَستَكْبرونَ عن عِبادَتهِ ولا يستحسِرُونَ**﴾. [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿**تُسَبِّحُ له السَّمواتُ السَّبْعُ**﴾. [الإسراء: ٤٤]. مجموعة إخبارًا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط بل قال: السبع.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿**وفي السَّماءِ رِزْقُكم ومَا تُوعَدُونَ**﴾. [الذاريات: ٢٢]. فالرزق: المطر، وما وعدنا به: الجنة، وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات فكان لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿**قُل لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ**﴾. [النمل: ٦٥]. لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه، وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعًا وإفرادًا وتقديمًا وتأخيرًا إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه. فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿**قل مَنْ يَرزُقُكم مِنَ السَّماء والأرض أَمَّن يملِكُ السَّمعَ والأَبْصَارَ**﴾. [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ: ﴿**قُلْ مَنْ يرزُقُكم مِنَ السَّمواتِ والأَرْضِ قُلِ اللهُ**﴾. [سبأ: ٢٤].

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقًا، فتدبر السياق تجده نقيضًا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، أن فاعل هذا هو الله الذي لا إلـه غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئًا من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللهُ**﴾. أي: لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه

السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لاسيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه.

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿**اللهُ الذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيبسُطُه في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ**﴾. [الروم: ٤٨].

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره.

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولابد من الوحي الذي به الحياةالحقيقية الأبدية وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿**قُل مَنْ يَرْزُقكم منَ السَّموات والأَرْض قُل اللهُ**﴾. [سبأ: ٢٤]. ولم يقل: سيقولون الله، فأمر تعالى نبيه، ﷺ، أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر.

(١)**وأما** تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره وهو: أن غالبًا تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض، لسعتها وعظمها وما فيها من كواكبها

---

(١) ٧٤ بدائع جـ ١.

وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عن رَبِّكَ مِنْ مِثقالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولاَ في السَّماءِ**﴾. [يونس: ٦١]. وتأخيرها عنها في سبأ فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿**لا تأتينا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى ورَبِّي لتَأْتِيَنَّكُم عالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولاَ في الأَرْضِ**﴾. [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا، لأن الساعة إنما تأتي من قبلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدىء وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: ﴿**ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمواتِ ومَنْ في الأَرْضِ**﴾. [الزمر: ٦٨]. وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس: فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها وأنه لا يغيب عنه منها شيء؛ اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم، ما يشهد أنه كلام الله وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا!!

(١)**ومن** ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله، ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده، وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله: ﴿**وإن كُنتُم في رَيْبٍ مِما نَزَّلنَا على عَبْدِنَا**﴾. الخ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ استَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كُنتُم صَادِقِينَ**﴾. [يونس: ٣٨].

---

(١) ٩٧ مختصر الصواعق جـ ١.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾. [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾. [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم سجل عليهم تسجيلاً عامًا في كل مكان وزمان بعجزهم، ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾. [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا.

وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾. [المؤمنون: ٦٨ ـ ٧٠].

فدعا سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة، وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا. فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلى مراتب الصدق.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾. [يونس: ٣٩]. فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة.

---

(١) ١٣٨ أعلام جـ ١.

فائدة[١]

اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر، أيهما أفضل، ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ**[٢] **إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسمِعُ الصُّمَّ ولَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ومِنْهُم مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ ولَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ**﴾. [يونس: ٤٢-٤٣]. قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان دليلاً على أن السمع أفضل **قال** ابن الأنباري: هذا غلط وكيف يكون السمع أفضل وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلى النجاة، والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه، وبذهابه شينة، وفي الحديث: «**من ذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا دون الجنة**».

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي، ﷺ، فيقفون على صحته ثم يكذبونه، فأنزل الله فيهم: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾. أي: المعرضين ﴿**ولو كانوا لا يعقلون**﴾، ﴿**ومنهم من ينظر إليك**﴾ بعين نقص ﴿**أفأنت تهدي العمى**﴾ أي: المعرضين ﴿**ولو كانوا لا يبصرون**﴾.

قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأَعْمَى والأَصَمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ**﴾. [هود: ٢٤].

قلت: واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة. وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع.

قالوا: ولهذا يكون فاقده أقل علمًا من فاقد البصر؛ بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم ألبتة.

---

(١) ١٦٤ بدائع جـ٣. (٢) في المطبوعة ﴿يستمع﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

قال مفضلو البصر: أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى، وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف ما يسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، قالوا: وأيضًا فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية، والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل، والبصر أتم وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه.

(١)**وحلف**، ﷺ، في أكثر من ثمانين موضعًا. وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع:

فقال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحقٌّ هو قل إي وربِّي إنَّه لحق﴾. [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾. [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾. [التغابن: ٧].

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يومًا وهو خصم له، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود فتهيأ للحلف، فقال له القاضي إسماعيل: أوتحلف؟ ومثلك يحلف يا أبا بكر؟ فقال: وما يمنعني من الحلف، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم.

وكان، ﷺ، يستثني في يمينه تارة، ويكفرها تارة، ويمضي فيها تارة، والاستثناء يمنع عقد اليمين، والكفارة تحلها بعد عقدها، ولهذا سماها الله ﴿تحلة﴾. [التحريم: ٢].

---

(١) ٨٤ زاد المعاد جـ ١.

(١)الباب السابع

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه

قال الله عز وجل: **﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربِّكمْ وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ﴾**. [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: **﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنينَ﴾**. [الإسراء: ٨٢].

وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين. ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك.

ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها؛ وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي **«لحم جمل غثّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتَقَى، ولا سمين فينتقل»**(٢).

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

---

(١) ٤٤ إغاثة جـ ١.

(٢) من وصف المرأة الأولى لزوجها في حديث أم زرع الذي رواه البخاري.

لولا التنافس في الدنيا لما وُضِعت　　كتب التناظر لا المغني ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقدًا　　وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى؛ والعلم واليقين من كتاب الله تعالى وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول(١):

نهاية إقدام العقول عقال　　وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا　　وحاصل دنيانا أذًى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا　　سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمنُ على العَرْشِ استَوَى﴾. [طه: ٥]. ﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾. [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ﴾. [الشورى: ١١]. ﴿ولاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. [طه: ١١٠] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا قد ذكرناه في كتاب الصواعق(٢). وغيره. وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح». والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

---

(١) هو الفخر الرازي، قال هذا في غير موضع من كتبه، مثل كتاب أقسام اللذات.
(٢) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. أنفس وأقوى ما ألف في هدم طواغيت الملاحدة، والمتفلسفة والمفتونين بهم من المؤولين والمحرفين للنصوص. وقد طبع مختصره في مكة المكرمة بأمر جلالة الملك العالم العادل الصالح المصلح عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله تعالى.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًا للرشد، مبغضًا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية.

(1)**وقال** تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ للمُؤمِنِينَ**﴾. [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿**هذا بصائر من ربِّكم**﴾. عام مطلق، وقوله: ﴿**وهدًى ورَحمة لِقَومٍ يُوقِنُون**﴾. خاص بأهل اليقين.

ونظير ذلك قوله: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وَهُدًى ورَحْمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ**﴾.

ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿**هُدًى للمُتَّقِينَ**﴾. [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿**يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾. [المائدة: ١٦].

ونظيره أيضًا؛ قوله: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ**﴾. [آل عمران: ١٣٨]. وقد أخبر أنه هدى عام لجميع المكلفين. فقال: ﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ومَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ولَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم الهُدَى**﴾. [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعلة، أي مبصرة لمن تبصَّر. ومنه قوله تعالى: ﴿**وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً**﴾. [الإسراء: ٥٩]. أي مُبَيِّنة موجبة للتَّبصر.

وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا. يقال: أبصرته، بمعنى: أريته، وأبصرتـه، بمعنى: رأيتـه. فمُبصِرَة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلِطوا في الآية، وتحيَّروا في معناها.

فإنه يقال: بَصُرَ به، وأبصره، فيُعَدَّى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال:

---

(١) ١٦٩ إغاثة جـ ٢.

أبصرته كذا، أر: أريته إياه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُر هو به.

فههنا بَصيرة، وتَبْصِرَة، ومُبصِرة. فالبَصيرة: المبينة التي تُبصر، والتَّبصرة مَصْدَرٌ، مثلُ التَّذكرة، وسُمِّي بها ما يُوجب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبْصِرةٌ، لكونها آلةَ التبصُّر، ومُوجبه.

فالقرآن بَصيرةٌ وتَبصرَة، وهُدًى وشفَاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدًى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهُـدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين فهو في نفسه هُدًى ورحمة، وشِفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتَّعظ واستشفى، كان بمنزلة مَن استعمل الدَّواء الذي يحصـل به الشفـاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهُدى. فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرحم ،ويتَّعظ المتقون الموقنون.والهدى في الأصل مصدر هدى يهدي هُدى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، كما في الأثر: «**من ازداد علمًا ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدًا**». ولكن يسمَّى هُدى؛ لأن من شأنه أن يهدي.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدى، بمعنى هادٍ، فهو مصدر بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى: العادل، وزور بمعنى: الزائر، ورجل صَوْمٌ أي: بمعنى صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهدي به. فالله الهادي، وكتابه الهُدى الذي يهدي به على لسان رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم.

فههنا ثلاثـة أشياء: فاعـل، وقـابـلٌ، وآلة. فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلبُ العبد، والألة: هو الذي يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزَّل، والله سبحانه يهدي خلقه هُدى، كما يقال: دلَّهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبيَّنَ لهم بيانًـا. والمقصود: أن المحلَّ القابل هو قلب العبد المتَّقي، المنيب إلى ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنَّه وصل أثر فعله إلى محل قابل، فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا

وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى في السورة التي نزلها: ﴿فأمَّا الذينَ آمنوا فزادَتْهُم إيمانًا وهُمْ يَستَبْشِرون. وأمَّا الذينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ فَزادَتْهُم رجْسًا إلى رِجْسِهِمْ﴾. [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقال: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ للمؤمِنينَ ولاَ يَزيدُ الظَّالِمينَ إلاَّ خَسارًا﴾. [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحلِّ تارة، ولعدم آلةِ الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي، تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿ولوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيرًا لأَسْمَعَهُم ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُمْ مُعْرِضُون﴾. [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به. وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظةالعالية، التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكَّد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكِبْرُ والإعراضُ، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتَّبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتَّصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتَّصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة .والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبةالخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأنْ هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلَّبون في نور هُداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتحيِّرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم

من الهدى. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحمَتِهِ فَبذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. [يونس: ٥٨].

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، وهما اتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده. فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة.

والخوف والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة.

ومثل هذا بمسافرين، أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضلّ الطريق فلم يَدْر أين يتوجه؟ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ الله مَا لا يَنْفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْد إِذْ هَدَانَا الله كالذِي استَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدَى﴾. [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى، هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبرِّ والفاجر.

وقد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صَلواتٌ من ربِّهم ورحمة وأولئك هُمُ المُهْتَدُون﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١)﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحمته فبذلك فَلْيَفْرَحُوا﴾. فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك. يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرة

---

(١) ٢٨١ طريق الهجرتين.

وسرورًا. ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾. [الصافات: ٦١]. ﴿وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنافِسُونَ﴾. [المطففين: ٢٦].

(١)**الوجه** الخامس والعشرون: أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وفسر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل.

(٢)قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: «**فضل الله**» الإسلام و«رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «**فضله**» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض. فجعلهم مسلمين بفضله. وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يلقى إلَيْكَ الكِتَابُ إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. [القصص: ٨٦]. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «**فضل الله**»: القرآن، و«رحمته»: أن جعلنا من أهله.

قلت: يريد بذلك: أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

والفرح: لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب. فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكمُ موعِظَةٌ من ربِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورَحمة للمؤمنينَ﴾. [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخبر سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة ـ التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء

---

(١) ٥١ مفتاح جـ ١. (٢) ١٥٦ مدارج جـ ٣.

الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه ـ وهو أشد ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما أتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب في المنام. ثم انقضى المنام. وولى الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: **﴿لا تَفرحْ إنَّ الله لا يُحبُّ الفَرِحينَ﴾**. [القصص: ٧٦]. وقوله: **﴿إنَّه لَفَرِح فَخُور﴾**. [هود: ١٠].

والمقيد: نوعان أيضًا. مقيد بالدنيا. يُنسِي صاحبه فضل الله ومنته. فهو مذموم. كقوله: **﴿حتَّى إذَا فَرِحوا بِما أُوتُوا أخذناهم بَغْتَةً فإِذَا هُمْ مُبْلِسُون﴾**. [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالمسبب.

فالأول: كقوله: **﴿قُلْ بِفَضلِ الله وبِرَحمتِهِ فَبذلك فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون﴾**. [يونس: ٥٨].

والثاني: كقوله: **﴿فَرِحينَ بِما آتاهُم الله مِنْ فَضْلِه﴾**. [آل عمران: ١٧٥].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى: **﴿وإذَا مَا أُنْزِلَت سورة فَمنهُم مَن يقول أَيُكم زادَتْهُ هذه إيمانًا فأمَّا الذينَ آمَنُوا فَزادتهم إيمانًا وهُمْ يستبشرونَ﴾**. [التوبة: ١٢٤]. وقال: **﴿والذيْنَ آتيناهُم الكِتابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إليكَ﴾**. [الرعد: ٣٦]. .

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته

له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله.

والاستبشار يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذينَ لم يَلْحَقُوا بهم مِنْ خَلْفِهِم**﴾. [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فَرِحٍ راضٍ. وليس كل راضٍ فرحًا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم(١).

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**يا أيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتكم موعِظَةٌ منْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورَحمةٌ للمُؤمِنينَ**﴾. فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين.

فقال: ﴿**والنَّجم إذَا هَوى مَا ضَلَّ صَاحِبُكم ومَا غَوى**﴾. [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. خلفاءه بضدهما فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًا لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه، ومن

---

(١) سيأتي قريباً مزيد بحث للبشرى والفرح والسرور على قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. (٢) ١٥ إغاثة جـ ١.

لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنه		نجا وبه الداء الذي هو قاتله

(١) **وليس** المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُمْ مَوعِظَةٌ منْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدور وهُدًى ورَحْمَةٌ للمؤمنِينَ. قُلْ بفضلِ الله وبِرحْمَتِهِ فبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**. [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة.

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن. وقالت طائفة من السلف: فضله: القرآن، ورحمته: الإسلام.

والتحقيق: أن كلًا منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام فقال: **﴿وكذلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أمرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ﴾**. [الشورى: ٥٢].

والله سبحانه إما رفع من رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما.

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن كقوله: **﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا﴾**. [البقرة: ٢٨]. وقوله: **﴿ولَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها﴾**. [المؤمنون: ٦٢]. قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفًا قط، بل سماها روحًا ونورًا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

---

(١) ٣١ إغاثة جـ ١.

(١)قال: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قد جَاءَتكم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُور وهُـدًى ورَحْمَة للمُؤمِنينَ﴾. ثم أعاد سبحانه ذكرهما، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحمَتِهِ فَبِذَلِك فَلْيَفرحُوا﴾.

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة، والصحيح: أنهما الهـدى والنعمـة، ففضله: هداه، ورحمتـه: نعمتـه، ولـذلك يقرن بين الهدى والنعمـة، كقـولـه في سورة الفـاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستَقيم. صِراطَ الذينَ أنْعمتَ عليهم﴾.

ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾. [الضحى: ٦-٨]. فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه.

ومن ذلك قول نوح: ﴿يا قَومِ أرَأَيْتُم إنْ كُنْت عَلَى بَيِّنَةٍ من رَبِّي وآتَاني رَحمَةً مِنْ عِنده﴾. [هود: ٢٨].

وقـول شعيب: ﴿أرَأَيْتُم إنْ كُنْتُ عَلَى بيِّنـةٍ مِنْ رَبِّي ورَزَقَني مِنْـهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. [هود: ٨٨].

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وعَلَّمنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. [الكهف: ٦٥].

وقال لرسوله: ﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبينًا ليغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّم مِن ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّر ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ويَهْدِيَك صِرَاطًا مُسْتَقيمًا ويَنْصُرَكَ الله نَصْرًا عَزِيزًا﴾. [الفتح: ١-٣].

وقال: ﴿وأنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم وكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿ولَولا فَضْلُ الله عَلَيكُم ورَحْمَتُهُ مَا زَكَى منكُم مِنْ أَحَدٍ أبدًا﴾.

ففضله: هدايته، ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم. وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ولاَ يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣].

(١) ١٣٢ فوائد.

والهدى: منعه من الضلال، والرحمة: منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة، في قوله: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عليكَ القُرآنَ لِتَشْقَى﴾. [طه: ١، ٢]. فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿فَلاَ يَضِلُّ ولاَ يَشْقَى﴾.

فالهدى والفضل، والنعمة والرحمة، متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض.

كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى: ﴿إنَّ المجرمين في ضَلَالٍ وسُعُرٍ﴾. [القمر: ٤٧]. والسعر: جمع سعير. وهو: العذاب الذي هو غاية الشقاء.

وقال تعالى: ﴿ولَقَد ذَرَأْنَا لجهنَّم كثيراً منَ الجنِّ والإنس لَهُم قُلُوبٌ لَا يفقهون بهَا ولَهم أعين لا يُبْصِرونَ بها ولهم آذانٌ لَا يسمَعُونَ بها أولَئِكَ كالأَنْعَام بَل هُم أَضلُّ أُولئكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾. [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى عنهم: ﴿وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِل مَا كُنَّا في أصحَابِ السَّعير﴾. [الملك: ١٠].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك. قال تعالى: ﴿فَمن يُرِدِ الله أن يهديهُ يَشرَحْ صَدْرَهُ للإِسلَامِ ومَن يُرد أن يُضِلَّه يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿أفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. [الزمر: ٢٢].

وكذلك يجمع بين الهدى والإنابة، وبين الضلال وقسوة القلب؛ قال تعالى: ﴿الله يَجْتَبي إليْهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إليه مَنْ يُنِيب﴾. [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ للقَاسِيَةِ قُلوبُهم مِنْ ذِكْرِ الله أُولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. [الزمر: ٢٢].

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع. وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إلـه إلا الله.

(١)**قال** تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم ما أنزلَ الله لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعلتُم مِنْه حَرَامًا وحَلَالاً قل ءآلله أَذِنَ لَكُم أَمْ على الله تَفْتَرُونَ﴾. [يونس: ٥٩].

---

(١) ٢٤٤ أعلام جـ ١.

فقسم الحكم إلى قسمين: قسم أذن فيه وهو الحق، وقسم افتري عليه وهو ما لم يأذن فيه، فأين أذن لنا أن نقيس البلوط على التمر في جريان الربا فيه؟ وأن نقيس القزدير على الـذهب والفضة، والخردل على البر؟ فإن كان الله ورسوله وصَّانا بهذا فسمعًا وطاعة لله ورسوله، وإلا فإنا قائلون لمنازعينا: أم كنتم شهداء إذ وصَّاكم الله بهذا؟ فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله، ﷺ، فهو عين الباطل.

وقد أمرنا الله بردِّ ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله، ﷺ، فلم يُبح لنا قط أن نردَّ ذلك إلى: رأي ولا قياس ولا تقليد إمام، ولا منام ولا كشوف ولا إلهام، ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الملوك، ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المسلمين أضر منها: فكل هذه طواغيت من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد حاكم إلى الطاغوت.

(١)**وقال** ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال، وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا؛ فينبغي هذا، ولا نرى هذا، ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**قُل أَرَأَيْتُم ما أَنْزَلَ الله لَكُم مِنْ رِزقٍ فجعلتُم مِنْـهُ حَرَامًا وحَلالاً قُل ءَآلله أَذِنَ لكُم أم على الله تَفْتَرُونَ**﴾. [يونس: ٥٩]. الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله.

(٢)**وفي** سنن أبي داود: من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله**».

وفيه أيضًا: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله**» قالوا: يا رسول الله: تخبرنا من هم؟ قال: «**هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إنَّ وجوههم لنور وإنهم لعلى نور ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**» وقرأ هذه الآية:

---

(١) ٣٩ أعلام جـ ١.		(٢) ٤٤١ روضة.

﴿ألا إنَّ أولِياءَ الله لَا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يونس: ٦٢].

وفي لفظ لغيره: «إنَّ لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا لعلنا نحبهم قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال تباذلوها ولا أرحام تواصلوها هم نور ووجوههم نور وعلى كراسي من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إنَّ أولِياءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يونس: ٦٢]. . . .

(١)**والفرق** بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

أن أولياء الرحمن ﴿لا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هُمْ ﴿الذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هُمُ المُفْلِحُونَ﴾.

وفي وسطها في قوله: ﴿ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليَوم الآخِرِ﴾. إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الذينَ صَدَقُوا وأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٧٧]. وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿لهم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم ومَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَريم﴾. [الأنفال: ١ ـ ٤]. وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿هُم فيهَا خَالِدُونَ﴾. [المؤمنون: ١ ـ ١١]. وفي آخر سورة الفرقان، [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧]. وفي قوله: ﴿إنَّ المسلمين والمسلمات﴾. [الأحزاب: ٣٥]. إلى آخر الآية. وفي قوله: ﴿ألا إنَّ أَولياءَ الله لَا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ الذينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقونَ﴾. وفي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ الله ورَسُولَهُ ويَخْشَ الله ويَتَّقه فأُولئكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾. [النور: ٥٢]. وفي قوله: ﴿إلَّا المُصلِّينَ الذينَ هُم على صَلاتِهم دَائِمُونَ﴾. إلى قوله: ﴿في جَنَّات مُكْرَمُونَ﴾. [المعارج: ٢١، ٣٥]. وفي قوله: ﴿التائبون العَابِدونَ الحامِدونَ﴾. [التوبة: ١١٢]. إلى آخر الآية.

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوًا

---

(١) ٣٢٣ الروح.

ولعبًا، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الافتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني.

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدي رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشًا، وعدلوا عن هدي نبيه وطريقته. **﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**. [الأنفال: ٣٤].

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان، وإخوان الشياطين ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور، علمت أنه من أوليائه. فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسنة وأهلها، ونفرته عنهم، ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك، لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء.

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني، فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد، ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم، وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الشيطاني نسبته إما شرك أو فجور وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالاً يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق **﴿ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه﴾**. [الأنعام: ١٣٧].

فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائنًا ما كان. وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا وهو بريء منه في الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن.

وقد يكون الرجل صادقًا ولكن يكون ملبوسًا عليه بجهله، فيكون حاله

شيطانيًا مع زهد وعبادة وإخلاص، لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان.

وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق.

ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة.

والفرقان أعز ما في هذا العالم وهو نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور، خيرها وشرها وصالحها وفاسدها فمن عدم الفرقان وقع ولابد في أشراك الشيطان فالله المستعان وعليه التكلان.

(1)**البشرى:** يراد بها أمران: أحدهما: بشارة المخبِر. والثاني سرور المخبَر.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. [يونس: ٦٤]. فُسِّرت البشرى بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي، ﷺ: «**هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرَى له**».

وقال ابن عباس: بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تُزفُّ كما تزف العروس، تبشر برضوان الله.

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء.

وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح؛ فالثناء: من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى: ﴿**وبشِّر الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحات أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾. [البقرة: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿**وأبشروا بالجنَّة التي كنتُم تُوعدون**﴾. [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة، تؤثر فيه نضارة وبهجة، وبشرة محزنة تؤثر فيه بُسورًا وعُبوسًا. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

---

(1) ١٥٩ مدارج جـ ٣.

(١)**قوله:** «هو أصفى من الفرح» واحتج على ذلك: بأن «الأفراح ربما شابها أحزان» أي: ربما مازجها ضدها. بخلاف السرور.

فيقال: والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان. فلا فرق.

قوله: «ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع».

يريد: أن الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: **﴿حتَّى إذا فَرِحوا بِما أوتُوا أخذناهُم بَغتَةً﴾**. [الأنعام: ٤٤]. وفي قوله تعالى: **﴿لا تَفرَحْ إنَّ الله لاَ يُحبُّ الفَرِحينَ﴾**. [القصص: ٧٦]. وقوله تعالى: **﴿إنَّه لفرح فخور﴾**. [هود: ١٠]. فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها. وبالعكس.

فيقال: ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: **﴿فَرِحينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ﴾**. [آل عمران: ١٧٠]. وقوله تعالى: **﴿فَبِذلِكَ فليَفْرَحُوا﴾**. [يونس: ٥٨]. فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره.

قوله: «وورد اسم السرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة».

يريد بهما: قوله تعالى: **﴿فأمَّا مَنْ أُوتيَ كِتَابَهُ بيمينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسيراً. وينْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾**. [الانشقاق: ٧ ـ ٩]. والموضع الثاني: قوله: **﴿ولقَّاهُمْ نَضْرَةً وسُرُورًا﴾**. [الإنسان: ١١]. فيقال: وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع على وجه الذم. كقوله تعالى: **﴿وأمَّا مَنْ أُوتيَ كتابَهُ وراءَ ظَهرِهِ فَسوفَ يَدعُو ثُبورًا. ويَصْلَى سَعيراً. إنَّه كَانَ في أهلِهِ مَسْرُورًا﴾**. [الانشقاق: ٧ ـ ٩]. فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. فلا يظهر ما ذكره من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح. لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليه اسمه دون السرور، فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور، وأمر الله به في قوله تعالى: **﴿فبذلكَ فليَفْرَحُوا﴾**. وأثنى على السعداء به في قوله: **﴿فرحينَ**

---

(١) يعني: صاحب المنازل.

بما آتاهم الله من فضله﴾. [المائدة: ٢٣].

(١)**التوكل** مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالى: **﴿وعلى الله فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مؤمنينَ﴾**. [المائدة: ٢٣].

فجعل التوكل شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل.

وفي الآية الأخرى: **﴿وقالَ مُوسَى يا قَوْمِ إنْ كُنتُم آمَنْتُم بالله فَعَلَيْهِ تَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُسلمينَ﴾**. [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

وقال تعالى: **﴿وعَلى الله فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾**. [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠، المائدة: ١١، التوبة: ٥١، إبراهيم: ١١، المجادلة: ١٠، التغابن: ١٣]:

فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم، دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه.

وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد.

والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه: أحدها: في سورة أم القرآن فقال: **﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستَعين﴾**. [الفاتحة: ٥]. الثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: **﴿ومَا تَوْفِيقي إلاَّ بالله عليْهِ تَوَكَّلْتُ وإليْهِ أُنيب﴾**. الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: **﴿رَبَّنَا عليكَ تَوَكَّلْنا وإلِيْكَ أَنَبْنَا وإلِيْكَ المَصير﴾**. [الممتحنة: ٥]. الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد، ﷺ: **﴿واذْكُر اسمَ ربِّكَ وتَبَتَّل إليهِ تبتِيلاً رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرب لا إلـه إلا هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾**. [المزمل: ٨، ٩]. الخامس: قوله: **﴿ولله غَيْبُ السموات والأَرْضِ وإليهِ يرجِعُ الأَمـرُ كُلُّهُ فاعْبُـدْهُ وتَـوكَّـلْ عليْـهِ ومـا رَبُّـكَ بغـافِلٍ عمَّا تَعْمَلُونَ﴾**. [هود: ١٢٣]. السادس: قوله: **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكاةَ واعْتَصِمُوا بالله هُوَ**

---

(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

مَوْلَاكُم فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير﴾. [الحج: ٧٨]. السابع: قوله: **﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إلـه إلاَّ هُوَ عليهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ مَتَاب﴾**. [الرعد: ٣٠]. فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية. فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه.

وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة. فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمَنَّا بِهِ وعليْهِ تَوَكَّلْنَا﴾**. [الملك: ٢٩]. ونظيره قوله: **﴿وعَلى الله فتَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤمِنين﴾**. [المائدة: ٢٣]. وقوله تعالى: **﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ المؤمِنون﴾**. [آل عمران: ١٢٢].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: **﴿وقال مُوسى يا قَومِ إن كُنتُمْ آمنْتُمْ بالله فَعَلَيْه توكلوا إن كنتم مُسلمين﴾** [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿يا أيُّهَا النبيُّ اتَّقِ الله ولا تُطعِ الكافرينَ والمُنَافقينَ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿وتَوَكَّل علَى الله وكَفَى بالله وكِيلًا﴾**. [الأحزاب: ١-٣]. وقوله: **﴿ومَنْ يَتَّقِ الله يجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ومَنْ يَتوكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**. [الطلاق: ٢، ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: **﴿وَمَا لَنَا ألاَّ نَتَوكَّلَ على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾**. [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى لنبيه، ﷺ: **﴿فَتَوَكَّلْ على الله إنَّكَ عَلى الحَقِّ المُبين﴾**. [النمل: ٧٩]. فأمر سبحانه بالتوكل عليه وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: **﴿إنَّكَ على الحَقِّ المُبين﴾**. فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: **﴿وما لَنَا ألَّا نتوكَّل على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾**. [إبراهيم: ١٢]. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم،

وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًّا من توكله.

فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

وأما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لابد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟

وإذا كان على الباطل علمًا وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك.

فلما كان الباطل لا يتعلق به. بل هو مقطوع ألبتة كان صاحبه كذلك.

ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على

البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل، والله أعلم.

[(١)] فائدة

قوله تعالى: ﴿**وأَوْحَينَا إلى مُوسَى وأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَومِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا واجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وبَشِّرِ المؤمِنِينَ**﴾. [يونس: ٨٧]. هو من أحسن النظم وأبدعه فإنه ثنى أولاً إذ كان موسى وهرون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء وإذا تبوءاالبيوت لقومهما فهم تبع لهما.

ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة لأن إقامتها فرض على الجميع.

ثم وحده في قوله: ﴿**وبَشِّرِ المؤمِنِينَ**﴾. لأنَّ موسى هو الأصل في الرسالة، وأخوه رِدأً ووزيرًا، فكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة.

وأيضا فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولاً واحدًا كقوله تعالى: ﴿**إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمِينَ**﴾. [الشعراء: ١٦]. فهذا الرسول هو الذي قيل له: وبشر المؤمنين. اهـ.

[(٢)] **وأما** الشد على القلب ففي قوله تعالى: ﴿**وقالَ موسَى رَبَّنَا إنَّك آتيتَ فِرعَونَ وملأه زِينة وأَمْوالاً في الحَيَاةِ الدُّنيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عنْ سَبيلك ربَّنا اطمِس على أَمْوالِهِم واشدُدْ على قُلُوبِهِم فَلا يؤمِنُوا حتَّى يَروا العَذَابَ الأَليم قال قَد أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيما**﴾. [يونس: ٨٨، ٨٩]. فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع.

ولهذا قال ابن عباس: يريدا منعها، والمعنى: قسِّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، وهذا مطابق لما في التوراة أن الله سبحانه قال لموسى: اذهب إلى فرعون فإني سأقسيٍّ قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر.

وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودًا عليه فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضي المقدر يكون ظلمًا وجورًا وسفهًا وهو فعل جاهل ظالم سفيه.

(١) ١٠ بدائع جـ ٤.		(٢) ٩٦ شفاء العليل.

(١) **الأصل** في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.

فأبقوا كل شيء على أصله: وهذا غاية الفقه وأسد ما يكون من النظر.

قالوا: ولله تعالى حِكَم في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار؛ وفي كتبهم من البشارات بالنبي، ﷺ، وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر.

وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان، فبقاؤهم من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد.

وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿**فاسْأَلُوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُم لا تَعْلمُونَ**﴾. [النحل: ٤٣]. ذكر هذا عقب قوله: ﴿**ومَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إليهم فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

يعني: سلوا أهل الكتاب هل أرسلنا قبل محمد رجالاً يُوحى إليهم أم كان محمد بدعًا من الرسل، لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمرًا منكرًا لم يطرق العالم رسول قبله؟ وقال تعالى: ﴿**واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ آلهَةً يُعْبَدُونَ**﴾. [الزخرف: ٤٥].

والمراد بسؤالهم سؤال أممهم عما جاؤوهم به: هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلـه غيره؟

قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك: وهم أهل الكتاب. وقال ابن الأنباري: التقدير: وَسلْ من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير، فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولاً، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان. فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته، ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من

---

(١) ١١ أحكام جـ ١.

الرسل، ولا جاء بضد ما جاءوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد(١) ولا اقتران في الزمان. وهذه من أعظم آيات صدقه.

وقال تعالى: ﴿**فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أنْزَلْنَا إليك فاسألِ الذينَ يَقْرءونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ**﴾. [يونس: ٩٤].

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا. قالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا؛ وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أُتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم. وإلا فالآية(٢) من أعلام نبوته، ﷺ.

وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

كما قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهَةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا**﴾. [الأنبياء: ٢٢]. وقوله: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذَنْ لاَبْتَغَوا إلى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً**﴾. [الإسراء: ٤٢]. وقوله: ﴿**قُلْ إنْ كَانَ للرحمن ولدٌ فأنا أوَّل العابدين**﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿**ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُك**﴾. [الزمر: ٦٥]. ونظائره: فرسول الله، ﷺ، لم يشك ولم يسأل.

وفي تفسير سعيد: عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله، ﷺ، قال: «**لا أشكُّ ولا أسأل**».

وقد ذكر ابن جريج: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم. وهذا اختيار ابن جرير. قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي؛ لأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، كعبدالله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم،

---

(١) في الأصل: شاعر.

(٢) في الأصل: وإلا في الآية.

دون أهل الكذب والكفر بك، وكذلك قال ابن زيد: قال: هو عبدالله بن سلام. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب.

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها؛ وأين كان عبدالله بن سلام وقت نزول هذه الأية؟ فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله، ﷺ، أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه؟

وقال كثير من المفسرين: هذا الخطاب للنبي، ﷺ، والمراد غيره؛ لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، وكقوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ الله ولا تُطعِ الكَافِرِينَ والمُنافِقينَ**﴾. [الأحزاب: ١]. والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي، ﷺ، والخطاب شامل للخلق؛ والمعنى: وإن كنتم في شك؛ والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿**قُل يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أعبُدُ الذينَ تَعبُدونَ مِنْ دونِ الله**﴾. [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة: كان الناس في عصر النبي، ﷺ، أصنافًا، منهم كافر به مكذب، وآخر مؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلًا ويؤخر رجلًا، فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع كما قال: ﴿**يا أَيُّها الإِنسانُ ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريم**﴾. [الانفطار: ٦]. و﴿**يا أيُّها الإِنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كدحًا فمُلاقيه**﴾. [الانشقاق: ٦]. ﴿**وإذَا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنيبًا إليه**﴾. [الزمر: ٨].

وهذا ـ وإن كان له وجه ـ فسياق الكلام يأباه فتأمله وتأمل قوله تعالى: ﴿**يقرءونَ الكِتَابَ مِنْ قَبلِكَ**﴾. [يونس: ٩٤]. وقوله: ﴿**إنَّ الذينَ حَقَّتْ عليهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ**﴾. [يونس: ٩٦]. وقوله: ﴿**ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ**﴾. [يونس: ٩٩].

وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض. ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي، ﷺ، قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف

الشاك. وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم: وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بينًا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلًا عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنًا فما مقصود الخطاب والمراد به؟

قيل: المقصود؛ به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط ولم يسأل قط ولا عرض له ما يقتضي ذلك. وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾** [يونس: ١٠٠].

وإذنه هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه، كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية. قال ابن المبارك عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها فإن هداها بيد خالقها، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك فإنه سبحانه قال: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾**. [يونس: ٩٩، ١٠٠]. أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: **﴿قُلِ انظُروا ماذَا فِي السَّموات والأَرْضِ وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُر عن قَومٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾**. [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير: يقول تعالى: يا محمد قل لهؤلاء السائلينك الآيات على صحة ما تدعو إليه: من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا

---

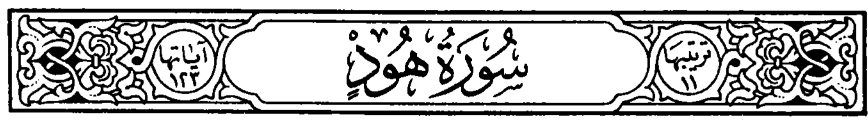
(١) ٦٠ شفاء العليل.

في السموات من الآيات الدالة على حقيقة[1] ما أدعوكم إليه من توحيد الله: من شمسها وقمرها واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها؟! فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبرًا ودلالة، على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين

---

(١) في المطبوعة «حقية» ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قوله** تعالى: ﴿وأنْ استغْفِروا ربَّكم ثُمَّ توبُوا إلَيهِ يُمَتِّعكُم مَّتاعاً حَسَناً إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ﴾ [هود:٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين. فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي، ﷺ، إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**». **وقال**: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**».

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إنَّ الأبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] يختص بيوم المعاد فقط؛ بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال: ﴿وَإنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهِيمَ إذ جَاءَ رَبَّه بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصآفات: ٨٣-٨٤]. وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿يومَ لَا ينفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إلَّا مَن أَتَى الله بقلب سليم﴾. [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. . . .

. . . (٢) **قال** تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

(١) ١٦٣/ الجواب الكافي.		(٢) ٧٠ روضة المحبين.

عَمَلاً﴾ [الملك:٢] . وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموتِ والحياة وتزيين الأرض بما عليها؛ أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً فيكون عملُه موافقاً لمحابِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالَم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقَدَره ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً . . .

(١) **قال:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]. وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢] .

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغناء والعافية والجاه والقدرة وتأتي الأسباب، أعظم الابتلائين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر» والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد تكون أعظم النعمتين. وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين. والسؤال عن أيهما أفضل؟ كالسؤال عن الحسّ والحركة أيهما أفضل؟ وعن الطعام والشراب أيهما أفضل؟ وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل؟ فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا

(١) ١٦٠/ عدة الصابرين.

يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدور الذي يقدَّر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنيًّا كان أو فقيراً معافى أو مبتلى. وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل: وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل؟ وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها، والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال، ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب**»، والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لابد له منهما. فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

(١) **وقال** تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**﴾ [هود: ٧]. فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر(٢) في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضاً فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً بعد أن كان غيباً في علمه، فابتلى أبوي الإنس والجن كلًّا منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه؛ فلهذا قال للملائكة: ﴿**إِنِّي أَعلَم مَا لاَ تَعلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]. واستمر هذا الابتلاء في

---

(١) ٣٥ شفاء العليل.

الذرية إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياء بأممهم وابتلي أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله إني مبتليك ومبتل بك.

وقال: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشر وَالخَير فِتنَةً وَإِلَينَا تُرجَعونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال: ﴿وَجَعَلنَا بَعضَكُم لِبَعض فِتنة﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع وأعمى، فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً، فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه شكراً لله، وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كانا عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر: وقال الغنى، إنما أوتيته كابراً عن كابر.

وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضدّ ما كان عليه وأنعم بذلك عليه.

ولهذا ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال، حتى جعله بشراً سويًّا يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه كما قال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امرِىءٍ مِّنهُم أَن يُدخَلَ جَنَّة نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقنَاهُم مِّمَّا يَعلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨-٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة، وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أيّ شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحنُ خَلَقنَاكُم فَلَولاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]. وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته

وصـدق رسله، فدعـاهم منهم ومن خلقـه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد.

فصـل[(١)]

وسبب الخـذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه؛ كما قال تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّـمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْـدِي**﴾ [القصص:٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله. قال الفراء: أي: على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أعطيته، وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبدُالله بن الحارث بن نوفل سليمانَ بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَم أَكْفُرُ**﴾ [النمل:٤٠]. ولم يقل: هذا من كرامتي.

ثم ذكر قارون، وقوله: ﴿**إِنَّما أوتيته عَلى عِلمٍ عِندي**﴾ [القصص:٧٨]. يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِن أَذَقنَاهُ رَحمَةً مِّنَّا مِن بَعدِ ضَرَّاءَ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾ [فصلت:٥٠]. أي: أنـا أهله، وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالكِ بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًّا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظهـا منهـا الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿**وَلَئِن أَذَقنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعنَاها مِنهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِن أَذَقنَاهُ نَعماءَ بَعدَ ضَرَّاءَ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذهب

(١) ٢٠٥/ الفوائد.

السيئات عني ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته، ومَنِّه، لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر، فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله ـ سبحانه ـ لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر: هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده؛ وهو الحكيم العليم.

والصبر(١) نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**». وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. وقال تعالى: ﴿بَلَى، إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

---

(١) ٥٥/ التبيان.

(١) **قال** في الآية الأخرى: ﴿أم يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُل فَأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادعُوا مِن استَطَعتُم مِّن دونِ الله إن كُنتُم صَادِقِينَ فَإن لَّم يَستَجِيبُوا لَكُم فَاعلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلمِ الله وَأن لَّا إِلَهَ إلَّا هُو فَهَل أَنتُم مُّسلِمُونَ؟﴾ [هود:١٣].

وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتملاً على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق. ونظير هذا قوله: ﴿قُل: أنزَلَهُ الَّذِي يَعلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ﴾ [الفرقان:٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيباً وردًّا على من قال: ﴿افتَرَاه﴾ [الفرقان:٤].

(٢) **قال** تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيهِم أعمَالَهُم فِيهَا وَهُم فِيهَا لَا يُبخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيس لَهُم فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس؛ حيث فهموا منها أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس ـ من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب.

قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه، جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعمَلون﴾ قالوا: والمؤمن يريد الدنيا والآخرة.

فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختار الفراء هذا القول

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣.	(٢) ١٧٣ عدة الصابرين.

وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس، وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهـذا لا يكون مؤمناً ألبتة؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله؛ فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته؛ فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه، في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارىء الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارىء، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء؛ كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح: حدثنا قطن بن الحباب، عن عبد الوارث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرقٍ: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره. فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا، بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياءً وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياءً وسمعة قال: فإني لم أقبل من ذلك شيئاً اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك وجهك ودارك فيقول صدقتم اذهبوا بهم إلى الجنة**». هذا حديث غني عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه.

ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿**نُوَفِّ إليهم أَعْمَالَهُم**

فِيهَا﴾ [هود: ١٥]. وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن؛ لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، وما ينقلبون إليه فهؤلاء يعجل لهم جزاء حسناتهم في الدنيا، فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالاً قالوا: فإن قيل الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار، وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: **﴿وحبط مَا صَنَعوا فِيهَا وَبَاطِل مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾** [هود: ١٦]. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه، وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد؛ فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا جواب ابن الأنباري وغيره. والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة؛ لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار وإن أدخلها بحبوط عمله الذي له النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق.

وذلك قوله: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الآخِرَةِ نَزد لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ**

حَرثَ الدُّنيَا نُؤتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرةِ مِن نَّصِيب﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاَهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَّشكُوراً﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً، وتجتمع على معنى واحد: وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه؛ لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها يعمل وهي غاية سعيه؛ فهي له. بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيها يلحق؟.

قيل: من ها هنا نشأ الإشكال وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً؛ فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان؛ تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا؛ فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنيَا وَمِنكُم مَن يُرِيد الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله، ﷺ، يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية» والذين أرادوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله، ﷺ، بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبه له وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً؛ فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا

فهذا لا يجامع الإيمان أبداً، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصل لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة، كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله، ﷺ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد يجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة والله المستعان.

∴(١) **قالوا:** وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداًللدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء.

فهاهنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القُذَّة بالقذة قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيهِم أَعمَالَهُم فِيهَا وَهُم فِيهَا لاَ يُبخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وقوله تعالى: ﴿**من كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاَهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً**﴾ [الإسراء: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الآخِرَةِ نَزِد لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنيَا نُؤتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله، ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له.

(١) ٢٤٠ عدة الصابرين.

كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغـازي، والمتصـدق، والقـارىء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم.

وفي سنن النسائي: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي، ﷺ، فقال يا رسول الله رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله، ﷺ: **«لا شيء له»** فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله، ﷺ: **«لا شيء له»** ثم قال: **«إن الله تعالى لا يقبل إلَّا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه»**، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس، فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

(١)**قوله** تعالى: **﴿مَثَلُ الفَرِيقَينِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ والسَّمِيعِ ، هَل يَستَـوِيَـانِ مَثَلاً؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** [هود: ٢٤]. فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون.

ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإِخْبَاتِ إلى ربهم، فوصفهم بعبُودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم، من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصَمَّ عن سماعه؛ فشبه بمن بَصَرُه أعمى عن رؤية الأشياء وسَمْعُه أصَمُّ عن سَماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نَفَى التسويةَ عن الفريقين بقوله: **﴿هَل يَستوِيَان مَثَلاً﴾**.

(٢)**فقال** نوح عليه السلام لقومه: **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُم عِندِي خَزَائِنُ الله، وَلَا أَعلَمُ الغَيبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزدَرِي أَعيُنُكُم: لَن يُؤتِيَهُمُ الله خَيراً. الله أَعلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِم. إِنِّي إِذاً لَمِنَ الـظَّالِمِينَ﴾** [هود: ٣١]. قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عَلَيَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله.. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أَهَّلَهم لقبول دينه

---

(١) ١٥٤/ الأعلام / جـ١.

(٢) ١٧٠/ المدارج/ جـ٣.

وتـوحيده، وتصديق رسله، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم. يضع العطاء في مواضعـه. وتكـون هذه الآية مثـل قوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُم بِبعضٍ لِّيَقـولُـوا: أَهؤلاءِ مَنَّ الله عَلَيهُمُ مِن بَينِنَـا؟ أَلَيس الله بأَعلَم بالشَّـاكِـرِينَ؟﴾ [الأنعام:٥٣]. فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلَهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهلَ العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

. . .(١)**قال** نبي الله هود، صلى الله على نبينـا وعليه وسلم، وقد خوفه قومه بآلهتهم وأوليائهم: ﴿إِنِّي أُشهِـدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

أي مع كونـه سبحانه آخذاً بنواصي خلقه، يُصرفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم، لا يتصرف فيهم إلا بالعـدل والحكمـة، والإحسـان والرحمة. فقـولـه: «مـاض فيَّ حكمـك» مطابق لقـول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذُ بِنَـاصِيَتِهَـا﴾ وقـولـه: «عـدل في قضـاؤك» مطابق لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سَمَّى بها نفسه: ما علم العباد منها وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده. فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسـلاً. وهـذه الوسيلة أعـظم الـوسـائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمـطلوب، ثم سألـه أن يجعـل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان. وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاء همه وغمه. فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبع والأصدئة، وغيرها. فأَحْرِ بهذا العلاج ـ إذا صدق العليل في استعماله ـ أن يزيل عنه داءَه، ويعقبه شفاء تامًّا، وصحة وعافية والله الموفق.

(٢)**قال** هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ

(١) ٢٧٧/ زاد المعاد/ جـ٣. (٢) ٢٣/ الفوائد.

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقوله: «**ماضٍ فيَّ حكمك عدل في قضاؤك**» تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما: مضاء حكمه في عبده، والثاني يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: **﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾** ثم قال: **﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**، أي؛ مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم، في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته. وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه. . .

...[1]**من** أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه: **﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** [هود:٥٣]. ومع هذا فبينته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله: **﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غَير جَزِع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم ـ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـ: أنه بريء من دينهم وآلهتهم، التي يوالون عليها ويعادون. ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو

(١) ٤٦٤/ مدارج/ جـ٣.

يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه. وفي ضمن ذلـك: أنهم أضعف وأعجـز وأقل من ذلك، وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعـوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه، فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه ـ في قوله وفعله ـ يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه؛ فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسلَه على أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قوماً غيرهم، ولا يضره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بَيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»(١).

(٢) **النوع** السابع عشر: إخباره سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه أحدهما: قوله حاكياً عن نبيه هود: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦].

والثاني: قوله: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦]. قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿**إلا هو آخذ بناصيتها**﴾، كان في معنى: لا

(١) هذا البحث من تفسير الشيخ لقول الله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو**﴾. [آل عمران: ١٨] وقد تقدّم هناك بكامله.
(٢) ٢٠٢/ شفاء العليل.

تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة فأتبع ذلك قوله: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي أنه على الحق، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلاً حسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان طريقه حسنة وليس ثم طريق.

وذكر في معنى الآية أقوال أخر هي من لوازم هذا المعنى وآثاره كقول بعضهم: إن ربي يدل على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم؛ فإن تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته وإحسانه وعدله وحكمته.

وقال بعضهم: معناه: لا يخفى عليه شيء ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى: لا مسلك لأحد ولا طريق له إلا عليه كقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا المعنى حق ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبين، فإن الناس كلهم لا يسلكون الصراط المستقيم حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه، ولما أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿إلينَا مَرجِعُهُم﴾ [لقمان: ٢٣]. ﴿إنَّ إلينَا إيَابَهم﴾ [الغاشية: ٢٥]. ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالمِرصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ﴿وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنتَهى﴾ [النجم: ٤٢]. وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم، فهو كونه يقول الحق ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل كله صواب وخير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلا ما يحمد عليه لكونه حقًّا وعدلاً وصدقاً وحكمة في نفسه، وهذا معروف في كلام العرب. قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط		إذا اعوج الموارد مستقيم

وإذا عرف هذا فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة يحمد عليها وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها، فلا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والإحسان والرحمة والعدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق.

قال[1] هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إلا هُوَ آخِذُ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾. [هود: ٥٦]. فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء.

---

(١) ٨٧/ شفاء العليل.

ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم، وقال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فإنه لا يشاء إلا العدل.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هو آخذ بناصيتها﴾ كان في معنى لا يخرج من قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة فأتبع قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة وليس ثم طريق.

ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه كما قال: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾.

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: (له الملك وله الحمد)، ومن باب: (ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك). ومن باب ﴿الحَمْدُ لِلّه رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]. قال الفراء: يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]. قال: وهذا كما تقول في الكلام: طريقك عليّ وأنا على طريقك لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثل قوله: ﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. على أحد القولين في الآية.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه ﴿ومنها﴾ أي ومن السبيل - ما هو ﴿جائر﴾ عن الحق ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ فأخبر عن عموم مشيئته، وأن طريق الحق عليه موصلة إليه، فمن سلكها فإليه يصل ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وشرعه وقدره، وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾** [الأحزاب: ٥].

(١)**﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [هود: ٥٦]. فأخبر عن عموم قدرته تعالى وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذ بنواصيهم، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم. ثم عقب ذلك بالإخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحساناً إليهم، وحماية وصيانة لهم، ولا حاجة إليهم ولا بخلاً عليهم، بل جوداً وكرماً، ولطفاً وبراً، ويثيبهم إحساناً وتفضلاً ورحمة، لا لمعاوضة واستحقاق منهم ودين واجب لهم يستحقونه عليه، ويعاقبهم عدلاً وحكمة، لا تشفياً، ولا مخافة، ولا ظلماً كما يعاقب الملوك وغيرهم؛ بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان، في أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك، ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان، وما تضمنته من الرد على الطائفتين؛ فإنها من كنوز القرآن، ولقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها. فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب عن أفعاله وشرعه، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد ردًّا على منكري ذلك.

وكون كل دآبة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها، ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بإقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى؛ ردًّا على منكري ذلك من القدرية. فالطائفتان ما وفوا الآية معناها ولا قدروها حق قدرها؛ فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه، وهدايته وإضلاله، وفي نفعه وضره، وعافيته وبلائه، وإغنائه وإفقاره، وإعزازه وإذلاله،

(١) ٧٩/ المفتاح: جـ٢.

وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم.

. . .[1]**والدين** دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده. فالدين كله أمراً أو جزاء لله، والمحبة بأصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه الله وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه؛ لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده. فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**» وهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وكل من الأمرين محبوب للرب فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه، ويحب من يحبها. وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه. فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿**إِنِّي أُشهِدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة، والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء، أوجب له ذلك العلم والعرفان إذا نادي على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿**إِنِّي أُشهِدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ**﴾. الآية.

---

(١) ٢٨٠/ الجواب الكافي.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿**مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا الأمر إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟ **ثم** أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم، وهو سبحانه ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح «ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك. أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي وحزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرحاً مكانه» وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري، والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره، وكلا الحكمين ماض في عبده، وكلا القضائين عدل فيه. فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب. وبالله التوفيق(١).

(٢)(**فإن قلت**) فإذا استوى ذكر التاء وتركها في الفعل المتقدم ـ وفاعله مؤنث غير حقيقي ـ فما الحكمة في اختصاصها في قصة شعيب بالفعل وحذفها في قصة صالح ﴿**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ**﴾ قلت: الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه: ﴿**وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾ [هود: ٦٦]. فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوى التذكير.

(١) طرق الشيخ البحث على هذه الآية وآية النحل وآية الحجر في تفسير الفاتحة: وفيها نقلناه هنا وفي سورة النحل برقم.

(٢) ١٢٦/ بدائع / جـ١.

بخلاف قصة شعيب فإنه لم يذكر فيها ذلك. هذا جواب السهيلي.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله، وهو أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيحسن فيها التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر، فيكون التأنيث أحسن. **وقد** أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة اللفظ.

أحدها الرجفة في قوله في الأعراف: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين**﴾ [الأعراف: ٩١].

الثاني: الظلة بقوله: ﴿**فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوم الظُّلَّة**﴾.

الثالث الصيحة ﴿**وَأَخَذَتِ الَّذينَ ظَلَموا الصَّيحَة**﴾ [هود: ٩٤]. وجمع لهم بين الثلاثة؛ فإن الرجفة بدأت بهم فأصحروا إلى الفضاء خوفاً من سقوط الأبنية عليهم فصهرتهم الشمس بحرها، ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس فنزل عليهم منها العذاب وفيه الصيحة، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلة أحسن من ذكر الصياح، وكان ذكر التاء والله أعلم.

...(1)**قال** الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَلَقَد جَاءَت رُسُلُنَا إبرَاهِيم بالبُشرَى قَالُوا سَلاماً، قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعَجلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رأى أَيدِيَهُم لاَ تَصِلُ إِلَيهِ نَكِرَهُم وَأَوجَسَ مِنهُم خِيفَةً قَالُوا لا تَخَف إِنَّا أُرسِلنَا إِلَى قَوم لُوطٍ. وَامرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرنَاهَا بِإِسحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسحَقَ يَعقُوبَ**. إلى قوله... **يُجَادِلُنَا فِي قَوم لُوطٍ. إِنَّ إِبرَاهِيم**...﴾ الآية [هود: ٦٩-٧٥].

وقال تعالى في سورة الصافات ﴿**فَبَشَّرنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ١٠١].

وقال في الذاريات: ﴿**وَبَشَّروهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾.

وقال في سورة الحجر: ﴿**وَنَبِئهُم عَن ضَيفِ إِبرَاهِيمَ. إِذ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَال إِنَّا مِنكُم وَجِلُونَ. قَالُوا لَا تَوجَل إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**. إلى قوله... **فَلا تَكُن مِن القَانِطِينَ. قَالَ وَمَن يَقنَطُ مِن رَّحمَةِ رَبِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: ٥١-٥٦]. وقال تعالى: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمُهُ يَحيَى لَم نَجعَل لَّهُ مِن قَبلُ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٧].

(1) ١٤/ تحفة المودود.

قال: ﴿فَنَادَتْهُ الملائِكَة وَهُوَ قَائِم يُصَلِّي فِي المِحرَابِ أَنَّ الله يُبَشرُكَ بِيَحيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]. ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه، استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

ولما ولد النبي عليه السلام بشرت به ثويبة أبا لهب وكان مولاها، وقالت: قد ولد الليلة لعبد الله ابن، فأعتقها أبو لهب سروراً به، فلم يضيع الله ذلك له، وسقاه بعد موته في النقرة التي في أصل إبهامه، فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، والفرق بينهما أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به.

ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير، فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنئوه. وكانت الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين، والرفاء الالتحام والإتفاق، أي تزوجت زواجاً يحصل به الإتفاق والالتحام بينكما والبنون، فيهنئون سلفاً وتعجيلاً، ولا ينبغي للرجل أن يهنىء بالابن ولا يهنىء بالبنت، بل يهنىء بهما أو يترك التهنئة بهما ليتخلص من سيئة الجاهلية؛ فإن كثيراً منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها. وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط: روينا عن الحسن البصري: أن رجلاً جاء إليه، وعنده رجل قد ولد له غلام، فقال له: يهنئك الفارس، فقال له الحسن: ما يدريك فارس هو أم حمار، قال فكيف نقول؟ قال: قل بورك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده ورزقت بره، والله أعلم.

(1)﴿فَما لَبِثَ أَن جاء بِعِجلٍ حَنِيذٍ﴾ و«الحنيذ» المشوي على الرضَف وهي الحجارة المحماة. وفي الترمذي عن أم سلمة «أنها قربت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جَنباً مشوياً، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ» قال الترمذي: حديث صحيح. وفيه أيضاً عن عبدالله بن الحرث قال: «أكلنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شواء في المسجد».

وفيه أيضاً: عن المغيرة بن شعبة قال: «ضِفْتُ مع رسول الله، صلى الله

---

(١) ٣٦١/ زاد المعاد/ جـ٣.

عليه وسلم، ذات ليلة، فأمر بجنْب فَشُوِي، ثم أخذ الشَّفرة فجعل يحزُّ لي بها منه، قال: فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشَّفرة، فقال: ما له؟ تَرِبت يداه».

أنفع الشواء: شواء الضأن الحَوْلي، ثم العجل اللطيف السمين. وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء، والمرناضين. والمطبوخ أنفع، وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المطَجَّن. وأردؤه: المشوي في الشمس. والمشوي على الجمر: خير من المشوي باللهب، وهو الحنيذ

(١) **وإسماعيل** هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه «أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره» وفي لفظ «وحيده» ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده.

والذي غرَّ أصحاب هذا القول: إن في التوراة التي بأيديهم «اذبح ابنك إسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك» ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله.

وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق؟ والله تعالى قد بشر أم إسحق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿**لا تَخَف إنَّا أرسِلنَا إلَى قوم لُوطٍ. وَامرَأتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرنَاهَا بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعقُوب**﴾. فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه.

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق، بل لكانت القراءة ﴿**وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعقُوبَ**﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق،

---

(١) ٢٨/ زاد المعاد / جـ ١.

قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به، لأن البشارة قول: ﴿وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية.

ولما كانت البشارة قولاً كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية لا بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحق يعقوب. والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقـدوم أخيه وثقله في أثـره: لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه ألبتة.

ثم يضعف الجر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين الجار والمجرور.

ويدل عليه أيضاً: أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال: ﴿فَلَمَّا أَسلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِين. وَنَادَينَاهُ أَن يا إبراهِيمُ، قَد صَدَّقتَ الـرُّؤيـا، إنَّـا كَذَلِـكَ نَجزِي المُحسِنِينَ إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظِيم . وَتَركنَا عَلَيهِ فِي الآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إبرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ إنَّهُ مِن عِبَادِنَا المُؤمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرنَاهُ بإسحاق نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣-١١٢] فهذه بشارة من الله تعالى له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله: جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته، ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه،

وإقامة لذكر الله. **ومعلوم** أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحق وأمه. **ولهذا** اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل، زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام ـ كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم ـ لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه.

ولما ذكر إسحق سماه عليماً، فقال تعالى: ﴿**هَل أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبرَاهِيم المُكرَمِينَ** ـ إلى أن قال ـ **قَالوا: لَا تَخَفْ، وَبَشّروهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٩] وهذا إسحق بلا ريب؛ لأنه من امرأته، وهي المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية. **وأيضاً** فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد. وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلا، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه ـ وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ـ خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذْ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر، وفدى الذبيح، وصدَّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل، صلى الله عليه وسلم، غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة

سارة، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة. وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟ هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية. فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها ـ على البعد والوحدة، والغربة، والتسليم إلى ذبح الولد ـ آلت إلى ما آلت إليه: من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه: أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره، قال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١)(**وأما** السؤال الثالث والعشرون) وهو ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة.

فجوابه أن السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله فيستحيل أيضاً جمعه فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضاً بمعنى العطف والحنان، فلا تجمع أيضاً، والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة، فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات لا يقال رحمات. وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمى مطلقاً من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جداً أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ أعم وأتم معنى من أن يقال فلله الحجج البوالغ، وكان قوله: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾

---

(١) ١٨٢/ البدائع/ جـ٢.

[إبراهيم: ٣٤] أتم معنى من أن يقال وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أتم معنى من أن يقال حسنات، وكذا قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جداً، وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما البركة فإنها لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئاً بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر يتعاقب الأفراد على الدوام شيئاً بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها، لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه عَلَيْكُمْ أَهلَ البَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

فصل(١)

(واعلم) أن الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان:

أحدهما مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله. والثاني مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح «احتجت الجنة والنار» فذكر الحديث وفيه «فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء» فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة وإنما يدخلها الرحماء.

ومنه قوله، صلى الله عليه وسلم: «**خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**».

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحمَةً﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك.

وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف، وحكى فيه

---

(١) ١٨٣/ البدائع/ جـ٢.

الكراهة قال: إن مستقر رحمته ذاته. وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة.

ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدًّا وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يقال: أجمعنا في مستقر جنتك؛ فإن الجنة نفسها هي دار القرار وهي المستقر نفسه كما قال: ﴿حَسُنَت مُستَقرًّا وَمقَاماً﴾ [الفرقان: ٧٦] فكيف يضاف المستقر إليها، والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة، فتأمله، ولهذا قال: مستقر رحمته ذاته.

والصواب أن هذا لا يمتنع، وحتى لو قال صريحاً: اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع، وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذاباً، فإذا أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبينه ويميزه من غيره، كأنه قيل: في المستقر الذي هو رحمتك لا في المستقر الآخر.

ونظير هذا أن يقول: اجلس في مستقر المسجد، أي: المستقر الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة.

وأيضاً فإن الجنة وإن سميت رحمة؛ لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة.

ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة، فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهر جدًّا فلا يمتنع الدعاء بوجه والله أعلم.

وهذا بخلاف قول الداعي: (يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث)؛ فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى، وهي متعلق الاستغاثة فإنه لا يستغاث بمخلوق؛ ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين؛ متوسلاً إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو اسم (الحي القيوم) فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها، إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي

أثبت متكلموا أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر، والعلم والإرادة، والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة. فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته.

كما أن المستعيذ بعزته في قوله: (أعوذ بعزتك) مستعيذ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين. وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي، ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» يدل على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة فإنه لا يستعاذ بمخلوق.

وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿**رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحمَةً وَعِلماً**﴾ [غافر: ٧] فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحمَتِي وَسِعَت كُلَّ شيءٍ**﴾ [الأعراف: ١٥٦] وسعتها عموم تعلقها بكل شيء كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم.

فصل

(**وأما** البركة) فكذلك نوعان أيضاً: .

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل؛ فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح: ﴿**وَجَعلَنِي مُبَارَكاً أَينَمَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ [الملك: ١]. ﴿تَبَارَكَ الله أحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٤]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَمَا بَينَهُما وَعِندَه عِلمُ السَّاعَةِ وَإليهِ تُرجَعونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبدِهِ﴾. [الفرقان: ١]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيراً مِن ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾ [الفرقان: ١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله؛ ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك: تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك: أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك المرتفع. ذكره البغوي.

وقيل: تبارك: أي: البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء(١) بكل بركة.

وقيل معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه. ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلا منه تبارك وتعالى.

---

(١) في نسخة: حاز كل بركة

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها: أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها: بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى، هذا لازم وهذا متعد؟ فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى: ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب (الفتح المكي) وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً، ورسوله مباركاً، وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة. وتدبر قول النبي، ﷺ، في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء؟ أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى. فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً، فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه، فيصير بذلك مباركاً ﴿**فتبارك الله رب العالمين**﴾ [المؤمنون: ٤] ﴿**وتبارك الذي له ملك**

السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط، وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**» وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» فدل على أن الله سبحانه وتعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ماأذن لنا فيه من ذلك؛ فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه وبالله التوفيق.

(١)**وذكر** ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف على سدوم فيقول: ويل لك سدوم يوماً ما لك، فجاءت إبراهيم الرُّسلُ وكلّمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: **﴿يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا﴾** [هود: ٧٦]. قال: **﴿وَلَمَّا جَاءَت رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِم وَضَاقَ بِهِم ذَرعاً﴾** [هود: ٧٧] فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يُهرَعون إليه فقال: **﴿يَا قَوْمِ هؤلاءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** [هود: ٧٨] أزوِّجكم بهن **﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾** [هود: ٧٨] وجعل لوطٌ الأضياف في بيته وقعد عَلى باب البيت وقال: **﴿لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** [هود: ٨٠] قال: أي: عشيرة تمنعني. قال: ولم يُبْعَث نبيٌّ بعد لوط إلَّا في عزّ من قومه، فلما رأت الرّسلُ ما قد لقي لوطٌ في سببهم **﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِليكَ فَأَسرِ بِأَهلِكَ بِقِطعٍ مِنَ اللَّيلِ وَلاَ يَلتَفِت مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا امرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُم إِنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبحُ أَلَيسَ الصُّبحُ بِقَرِيبٍ﴾** [هود: ٨١] فخرج [عليهم] جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَست أعينهم. قال: والطمسُ أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهلُ سماء الدنيا نَبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارةً من سِجيلٍ قال: عَلَى أهل بواديهم وعَلَى رُعاتهم وعَلَى مسافريهم، فلم

(١) ٣٩٢/ روضة المحبين

ينفلت منهم إنسان.

وقال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَناحَه تحت مدائن قوم لوطٍ؛ فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوات الدَّجاج والدِّيكة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلَها ثم أتبعوا بالحجارة.

وفي تفسير أبي صالح: عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أغلق لوطٌ عَلَى ضيفه الباب فخلعوا الباب ودخلوا، فَطَمَسَ جبريل أعينَهم فذهبت أبصارهم فقالوا: يا لوط جئتنا بالسحرة؟ وتوعدوه، فأوجس في نفسه خيفةً قال: يذهب هؤلاء ونؤذي فقالوا: لا تخف إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ. قال لوط: الساعةَ. قال جبريل: أَلَيْسَ الصُّبْحُ بقريبٍ؟ قال: فرفعت المدينةُ حتى سمع أهل السماء نبيحَ الكلاب ثم أُقْلِبت ورمُوا بالحجارة.

وقال حُذيفة بن اليمان: لما أُرسلت الرسلُ إلى قوم لوطٍ لتهلكهم قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرات، وطريقهم عَلى إبراهيم [قال] فأتوا إبراهيمَ فبشّروه بما بشروه، ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرى يجادِلنا في قَوْمِ لُوطٍ**﴾ [هود: ٧٤] قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأَتَوا لوطاً وهو في أرضٍ يعمل فيها فحسبهم ضيفاً، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله، فأتَوا معه فالتفتَ إليهم فقال: أما تَرَون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحدٌ شرٌّ منهم قال: فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوءُ امرأتُه فأتت قومه فقالت: لقد تضيف لوطاً الليلةَ قومٌ ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهاً ولا أطيبَ ريحاً منهم، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه حتى دفعوا الباب حتى كادوا أن يقلبوه عليهم، فقال مَلَكٌ بجناحه فَصفَقَه دونهم، ثم أغلق الباب ثم عَلَوْا الأجاجير(١) فجعل يخاطبهم فقال: ﴿**هؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ حتى بلغ ﴿**أَوْ آوي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قَالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إليك**﴾ [هود: ٧٨ - ٨١]. فطمس [جبريل] أعينَهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عَمِيَ قال: فباتوا بشرِّ ليلةٍ

(١) الأجاجير: جمع إجّار وهو السطح.

عُمْياً ينتظرون العذاب. قال: وسار بأهله واستأذن جبريلُ عليه السلام في هلاكهم فأُذن له، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فألوى بها حتى سمع أهل السماء الدُّنيا ضُغَاءَ كلابهم، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال: فسمعت امرأته الوَجْبَةَ وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب.

قول(١) لوط لقومه: **﴿يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾** [هود: ٧٨]. يجمع أنواعاً من الاستعطاف:

أحدها: خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله: **﴿يا قوم﴾**، ولم يقل: يا هؤلاء.

الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: **﴿هؤلاء بناتي﴾**.

الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور.

الرابع: ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن.

الخامس: تذكيرهم بالله بقوله: **﴿فاتقوا الله﴾**.

السادس: المطالبة بحفظ الذمام وترك الأذى بقوله: **﴿ولا تخزون﴾**.

السابع: التوبيخ الشديد بقوله: **﴿أليس منكم رجل رشيد﴾**.

فصل (٢)

وأما الود فهو خالص الحبّ وألْطَفُه وأرَقُّه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدت الرجل أوَدُّه وُدًّا إذا أحببته والوِدُّ والوُدّ والوَد المَوَدَّة، تقول بودّي أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المُسائِلُ عنا … وبوديكَ أن ترى أكفاني

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء. والوِدُّ الوديد بمعنى المودود، والجمع أَوُدٌّ مثل قدْحٍ وأقدُح وذئبٍ وأذْؤُب، وهما يتوادّان وهم أوِدّاء، والوَدُود المحب ورجالٌ وُدَدَاء يستوي فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفاً داخلاً عَلَى وصف للمبالغة.

قلت: الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المَوَدَّة.

واختُلِفَ فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٍّ كضَرُوبٍ بمعنى

---

(١) ٢٢٢/ البدائع/ جـ٣. (٢) ٥٢ روضة المحبين.

ضارب، وقَتُول بمعنى قاتلٍ، ونَؤُم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعل كغفورٍ بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الوَدُود الحبيب. والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه [يحب التوابين وأنه] يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفُه.

...[1] **قال** شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيُّها الرجلُ المعلمُ غيرَه ... هَلَّا لنفسِك كان ذا التعليمُ؟
تصفُ الدواءَ لذي السِّقام من الضنى ... ومن الضنى تُمسِي وأنت سقيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُق وتَأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ ذميمُ
ابدأْ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبلُ ما تقولُ ويُقْتَدى ... بالقول منك وينفعُ التعليمُ

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠] وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

[2]**ومن** كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة

(١) ٤٤٧ مدارج جـ١. (٢) ١٤٥ مدارج جـ١.

العظيم ليست كمخالفة من دونه ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنُّذُر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾** [هود: ١٠٣] وقال: **﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾** [النازعات: ٤٥] وقال: **﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾** [ق: ٤٥] وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: **﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ. ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾**

(١)**لما** ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَن خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾** [هود: ٤٥]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية. وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات(٢) ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركاً متبعاً هواه لم يكن صابراً ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيماناً.

---

(١) ١٣٠ فوائد. (٢) هكذا الأصل ولعل في الكلام سقطاً تقديره «لأن الإيمان» إلخ وبه ينتظم الكلام.

فصـــــل(١)

وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين.

«**قلت**»: ههنا أقوال سبعة: أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبداً؛ بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات، فيثني عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ [إبراهيم: ٤٧] لم يقل: وعيده؛ بل قال: ﴿**وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد وقد زال الإمكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجح:

فلم يبقَ إلا صادقُ الـوعد وحدَه　　ومـا لوعيد الحق عين تعـاين
وإنْ دخلوا دارَ الشقـاء فإنهم　　على لذةٍ فيهـا نعيم مبـاين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد　　وبينهـما عنـد التجلي تبـاين
يسمى عذاباً من عذوبةِ طَعْمِهِ　　وذاك له كالقشر والقشرُ صاين

وهذا في طرف. والمعتزلة الذين يقولون: لا يجوز على الله أن يخلف وعيده؛ بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب، في طرف. فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلاً، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلاً، والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله عز وجل.

(الثالث): قول من يقـول: إن أهلهـا يعـذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخالفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي، ﷺ، فأكذبهم فيه.

وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه فقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُم عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا**

(١) ٢٥٤ حادى الأرواح.

لَا تَعلَمُونَ، بَلَى مَن كَسَبَ سَيئَةً وَأَحَاطَت بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدعَونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنهُم وَهُم مُعرِضُونَ، ذَلِكَ بِأَنَّهم قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَاماً مَعدُودَاتٍ وَغَرَّهُم فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود فهم شيوخ أربابه والقائلين به، وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده.

قال تعالى: ﴿وَمَا هم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقال: ﴿وَمَا هُم مِنهَا بِمُخرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. وقال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخرجُوا مِنها مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخرجُوا مِنهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿لَا يُقضَى عَلَيهِم فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَدخُلُونَ الجنةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب. حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضاً يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة طردًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه ثم تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور: حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن قال: قال عمر: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه».

وقال: حدثنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب قال: «لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه» ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً**﴾ [النبأ:٢٣] فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج بن منهال، كلاهما عن حماد بن سلمة، وحسبك به. وحماد يرويه عن ثابت وحميد، وكلاهما يرويه عن الحسن وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به. وقال: قال عمر بن الخطاب. ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر، فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا، فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة، لكانوا أول منكر له.

قال: ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه؛ إنما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريباً منه. ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم كما قال النبي، ﷺ، أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون.

ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ [هود:١٠٧] وقوله: ﴿**وَمَا هُم مِنها بِمُخرَجِينَ**﴾ [الحجر:٤٨] بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافه؛ لكن إذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق ناراً ولم يبق فيها عذاب.

قال أرباب هذا القول: وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**قَالَ النَّارُ مثوَاكُم خَالِدِيْنَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام:١٢٨] قال: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارًا.

قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصًا بأهل القبلة فإنه سبحانه قال: ﴿وَيومَ يحشُرُهُم جميعاً يَا مَعشَرَ الجنِّ قَد استَكثَرتُم مِن الإِنس وَقَالَ أَولِيَاؤُهُم مِنَ الإِنس رَبَّنَا استَمتَعَ بَعضُنَا ببَعض وَبَلَغنَا أَجلَنَا الَّذي أَجَّلتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثوَاكُم خَالدينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ. وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعضَ الظَّالِمِينَ بَعضًا بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩] وأولياء الجن من الإنس يدخل فيه الكفار قطعاً؛ فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلنَا الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّونَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبصِرُونَ وَإِخوَانُهُم يَمُدُّونَهُم فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢] وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَولِيَاءَ مِن دُونِي وَهُم لَكُم عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشَّيطَانِ﴾ [النساء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزبُ الشَّيطَانِ أَلَا إِنَّ حِزبَ الشَّيطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾(١) [المجادلة: ١٩].

(٢)(**الطبقة** التاسعة): طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله ويترك محارم الله، مقتصراً على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا يزيد على ما فرض عليه. هذا من المفلحين بضمان رسول الله، ﷺ، لمن أخبره بشرائع الإسلام فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال، صلى الله عليه وسلم: «**أفلح إن صدق**». وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿إِن تَجتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَنُدخِلكُم مُدخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وصح عنه، ﷺ، أنه قال: «**الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة**» فإن غشى أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحًا لم يخرجوا من طبقتهم، فكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما الحسنات الماحية، والثاني اجتناب الكبائر. وقد نص عليها سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ

(١) استطرد المؤلف في البحث في عدة صحائف فراجعها إن شئت.　　(٢) ٣٨٠/ طريق الهجرتين

الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١].

(**الطبقة** العاشرة): طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله، إما قطعاً عند قوم، وإما رجاء وظنًّا عند آخرين. وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح؟

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية فعليك بمعاودته هناك. وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته، ويكون لا له ولا عليه. وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا.

(١)...**وجاءته** ﷺ الغامدية، فقالت: إني قد زنيت فَطَهِّرْني، وإنه ردها، فقالت: ترددني كما ردَّدت ماعزاً فوالله إني لحبلى، فقال: «**اذهبي حتى تَلِدِي**»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، فقالت: هذا قد ولدته، فقال: «**اذْهَبي فأرضعيه حتى تفطميه**»، فلما فطمته أتته به وفي يده كِسْرَة من خبز؛ فقالت: هذا قد فطمته وأكَلَ الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صَدْرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحَجَر فرمى رأسها فنضح الدم عَلى وجهه، فسبها، فسمع نبي الله، ﷺ سبه إياها، فقال: «**مهلا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابَهَا صاحبُ مَكْس لغفر له**». ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت، ذكره مسلم.

وجاءه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حَدًّا فأقمه عليّ، ولم يسأله عنه، وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي، ﷺ، فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقم في كتابَ الله، قال: «**أليس قد صليت معنا**»؟

(١) ٣٧٠/ الأعلام/ جـ٤.

قال: نعم، قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك ـ أو قال حدّك ـ»، متفق عليه.

وقد اختلف في وجه هذا الحديث؛ فقال طائفة: أقر بحد لم يُسَمِّه فلم يجب على الإمام استفساره[1]، ولو سماه لحده كما حد ماعزاً، وقالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القُدْرَة عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب.

وسأله ﷺ رجل فقال: أصبت من امرأة قبلة، فنزلت ﴿وأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ . إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي» متفق عليه.

وقد استدل به من يرى أن التعزير ليس بواجب، وأن للإمام إسقاطه، ولا دليل فيه، فتأمله.

(٢)**وسأله** ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقى امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيء إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وأَقِمِ الصلاة طَرَفَي النهارِ وزُلَفًا من الليل إِن الحَسَنات يُذْهِبنَ السَّيئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فقال له النبي، ﷺ: «تَوَضَّأ ثم صلِّ» فقال معاذ: فقلت يارسول الله ألهُ خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة».

(٣)**قال** الله تعالى: ﴿فَلَولَا كَانَ مِنَ القُرُونِ مِن قَبلِكُم أُوْلُو بَقِيَّةٍ يَنهَونَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّن أَنجينَا مِنهُم﴾ [هود: ١١٦].

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي، ﷺ، في قوله: «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبي للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبدالرحمن بن مهدي، عن زهير، عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حَنْطَب ـ عن المطلب بن حنطب، عن النبيِّ ﷺ

(١) في نسخة: «استفصاله».
(٢) ٢٧٨/ الأعلام/ جـ٤.
(٣) ١٩٤/ مدارج/ جـ٣.

قال: «**طوبى للغرباء**»، قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يزيدون إذا نقص الناس**».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً ـ لم ينقلب على الراوي لفظه وهو: «**الذين ينقصون إذا زاد الناس**» ـ فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتُقىً إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**النُّزَّاع من القبائل**» وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال النبي، ﷺ، ذات يوم، ونحن عنده: «**طوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**».

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبدالله عن سليمان بن هرمز، عن عبدالله بن عمرو، عن النبي، ﷺ، قال: «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**».

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**الذين يحيون سنتي، ويعلمونها الناس**». **وقال** نافع: عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد،فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي، ﷺ، وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي، ﷺ، وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**».

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جدًّا: سموا «غرباء»؛ فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء. وأهل

السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً مـن تناءت دياره ... ولـكِنَّ من تَنأَيْـنَ عنه غريـب

ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب. فقيل له: يا موسى، الوحيد: من ليس له مثلي أنيس. والمريض: من ليس له مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة».

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله، ﷺ، أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «**بدأ غريباً**» وأنه «**سيعود غريباً كما بدأ**» وأن «**أهله يصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله، ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بَقوْا في مكانهم. فيقال لهم: «**ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟** فيقولون: **فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده**».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي، ﷺ، قال ـ عن الله تعالى ـ: «**إن أغبط أوليـائي عندي: لمؤمن، خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته، أحسنَ عبـادة ربـه، وكـان رزقه كَفافاً، وكان مع ذلك غامضاً في الناس لا يشار إليه**

بالأصابع، وصبر على ذلك حتى لقى الله، ثم حَلَّت منيته، وقَلَّ تُراثه، وقَلَّتْ بَواكيه». **ومن** هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي، ﷺ: «**رُبَّ أشعثَ أغبر، ذي طِمْرَين لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأبَرَّه**».

وفي حديث أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن النبي، ﷺ، قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة**»؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**كل ضعيف أغْبَر، ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**» وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء ـ الذين غبطهم النبي، ﷺ: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائِمٌ لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهلَ شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي، ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهلُ الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غريباً في حَيِّه وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل، بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقًّا. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله، ﷺ، وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقة واحدة قليلة جدًّا، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الـرسول؟ فإن نفس ما جاء به : يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الـذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي، ﷺ : «**مروا بالمعروف. وانهوا عن المنكر. حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعاً وهوًى متبعاً، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يَدَ لك به، فعليـك بخاصة نفسك. وإياك وعوامَّهم، فإن وراءكم أياماً صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**» ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت ـ إذا تمسك بدينه ـ أجر خمسين من الصحابة.

ففي سنن أبي داود والـترمـذي ـ من حديث أبي ثعلبـة الخُشَني ـ قال: «سألت رسول الله، ﷺ، عن هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيكُم أَنفُسَكُم. لَا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهتَدَيتُم**﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: **بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مُؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامَّ، فإن من وراءكم أيام الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**». قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**» **وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم**. **فإذا** أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله، ﷺ، وأصحابه.

فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه: فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته، لمخالفة نِسَبهم. غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف

النوع الثاني من الغربة

غربة مذمومة: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها، فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

النوع الثالث: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم. وهي الغربة عن الوطن، فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء؛ فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها.

وقد قال النبي، ﷺ، لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»** وهكذا هو في نفس الأمر؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحيَّ على جنات عدن فإنها		منازلك الأولى. وفيها المخيَّم
ولكننا سَبْيُ العدو فهل ترى		نعود إلى أوطاننا، ونَسلم؟
وأيُّ اغتراب فوق غربتنا التي		لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى		وشَطَت به أوطانه ليس يَنْعَم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة		من العمر إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً، وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يَحُثُّ بها داعٍ إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملتَ أنها ... منازل تُطْوَى والمسافر قاعد

وقال[1]: ﴿**وما كان رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرَى بظلمٍ وأهلها مُصلِحون**﴾ [هود: ١١٧]. وفي الآية قولان: أحدهما: ماكان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ماكان ليهلكها ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأنعام أيضاً ﴿**ذَلِكَ أَن لَّم يَكُن رَّبُّكَ مُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ وَأَهلُهَا غَافِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣١].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم، وشركهم وهم غافلون لم يُنذَروا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه. وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه. وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قَدَّره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب.

وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر. كجعل السم سبباً للموت، والنار سبباً للإحراق والماء سبباً للإغراق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين

(١) ٢١٧ ـ مدارج / ج١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قلت** أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق ويقال: دلَّى الشيء في مهواة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلى الشيء بنفسه ومنه قوله تعالى: **﴿فَأَرسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدلَى دَلوَه﴾** [يوسف: ١٩] قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر. ودلاها بالتخفيف، إذ نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا، إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة وهي التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه، ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله (ﷺ) في هَدْيه ودَلِّه وَسَمتِه، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدلُّ مايدل من ظاهره على باطنه، والسَّمت هيأته ووقاره ورزانته.

(٢)فصل

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه، المتعوِّضَة بغيره عنه. فإذا امتلأ القلب من محبة الله، والشوق إلى لقائه: دفع ذلك عنه مرض عشق الصور. ولهذا قال تعالى في حق يوسف: **﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالفَحشَاءَ، إنَّه مِن عِبَادِنَا المُخلَصِينَ﴾** [يوسف: ٢٤] فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته فصَرْفُ المسبب صرف لسببه. ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ. يعني فارغاً مما سوى معشوقه قال تعالى: **﴿وَأَصبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إن كَادَت لَتُبدي بِه﴾** [القصص: ١٠] أي فارغاً من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

والعشق مركب من أمرين: استحسان المعشوق، والطمع في الوصول إليه. فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء.

---

(١) ١١٥ إغاثة جـ١ (٢) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول: قد استقرت حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره على وقوع التناسب، والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع. فسرُّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي: إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو لعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر. فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر(١).

(٢)**قال** تعالى: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصرِفَ عَنه السّوء والفحشَاءَ إنّه مِن عِبَادِنَا المُخلصِين**﴾ [يوسف: ٢٤] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء.

ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص؛ استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخلَصِين**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] قال تعالى: ﴿**إنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهم سُلطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ من الغَاوِينَ**﴾ [الحجر: ٤٢] فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان.

(٣)فصل

ودواء هذا الداء القتَّال؛ أن يعرف: أن ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولاً. ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وأن يرجع بقلبه إليه. وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالفَحشَاءَ، إنَّه مِن عِبَادِنَا المُخلَصِينَ**﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما تمكن من قلب فارغ كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى		فصادف قلباً خالياً فتمكنا

(١) تقدم في آخر الأعراف بقية لهذا البحث. (٢) ٧٢ مفتاح جـ١. (٣) ٢٨٧ الجواب الكافي.

وليعلم العاقل أن العقل والشرع ؛ قد يوجبان : تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها . فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران : أمر علمي ، وأمر عملي ، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له .

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا ؛ إلا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له .

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولابد، كما قيل :

فما في الأرض أشقى من محب — وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين — مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم — ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق — وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه . . .

(١)**وقد** سئل أبو الوفا بن عقيل عن هذه المسألة(٢)؟ فقال : ليس ذلك حكماً بالفراسة ، بل هو حكم بالأمارات . وإذا تأملتم الشرع وجدتموه يجوّز التعويل على ذلك . ومال أصحاب مالك رحمه الله إلى التوصل بالإقرار بما يراه الحاكم ؛ وذلك مستند إلى قوله تعالى : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [يوسف : ٢٥] . ولذا(٣) حكمنا بعقد الأزْج ، وكثرة الخُشُب في الحائط ، ومعاقد القُمُط الخُصِّ ، وما يخص المرأة والرجل في الدعاوى . وفي مسألة العطار والدباغ إذا اختصما في الجلد ، والنجار والخياط إذا تنازعا في المنشار والقدوم ، والطباخ والخباز إذا تنازعا في القِدْر، ونحو ذلك . فهل ذلك إلا اعتماد على الأمارات؟

---

(١) ٤ الطرق الحكمية . (٢) أي الحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر فيها الحق (ج) .
(٣) في نسخة (ومتى) .

وكذلك الحكم في التأمل والنظر في أمر الخنثى، والأمارات على أحد حاليه. والنظر في أمارات جهة القبلة. واللَّوْث في القسامة. انتهى.

والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال، ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالِية، كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام: أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها. وحكم بما يعلم الناس بطلانه، ولا يشكون فيه، اعتماداً منه على نوع ظاهر، لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله.

فههنا نوعان من الفقه، لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطابق بين هذا وهذا. فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد. ومجيئها بغاية العدل، الذي يفصل بين الخلائق(١)، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحَسُن فهمه فيها: لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة. علمها من علمها وجهلها من جهلها.

ولا تنس في هذا الموضوع قول نبي الله سليمان (ﷺ) للمرأتين اللتين ادعتا الولد. فحكم به داود (ﷺ) للكبرى. فقال سليمان: «**ائتوني بالسكين أشقه بينكما**» فسمحت الكبرى بذلك، وقالت الصغرى: «**لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها**» فقضى به للصغرى. فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة؟

فاستدل برضا الكبرى بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلى التأسِّي بمساواة الصغرى في فقد ولدها وشفقة الصغرى عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: دل على أنها أمه، وأن الحامل لها على الامتناع من الدعوى: ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم. فاتضحت وقويت هذه القرينة عنده، حتى

(١) في نسخة «يسع الخلائق».

قدمها على إقرارها: فإنه حكم به لها مع قولها «هو ابنها» وهذا هو الحق.

فإن الإقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبدا. ولذلك ألغينا إقرار المريض مريض الموت بمال لوارثه لانعقاد سبب التهمة. واعتماداً على قرينة الحال في قصده تخصيصه.

ومن تراجم قضاة السنة والحديث على هذا الحديث: ترجمة أبي عبد الرحمن النسائي في سننه قال: «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله: أفعل كذا؛ ليستبين به الحق».

ثم ترجم عليه ترجمة أخرى أحسن من هذه. فقال: «الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم من الحق غير ما اعترف به» فهكذا يكون الفهم عن الله ورسوله.

ثم ترجم عليه ترجمة أخرى فقال: «نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله، أو أجل منه» فهذه ثلاث قواعد.

ورابعة: وهي ما نحن فيه. وهي الحكم بالقرائن وشواهد الحال.

وخامسة: وهي أنه لم يجعل الولد لهما، كما يقوله أبو حنيفة.

فهذه خمس سنن في هذا الحديث.

ومن ذلك: قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته، ولم ينكرها، بل لم يعبه، بل حكاها مقرراً لها، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ. قَالَتْ: مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؟ قَالَ: هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا، إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ: إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥ :٢٨]. فتوصل بقدِّ القميص إلى تمييز الصادق منهما من الكاذب. وهذا لَوْث في أحد المتنازعين، يبين به أولاهما بالحق.

وقد ذكر الله سبحانه اللوث في دعوى المال في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر، وأمر بالحكم بموجبه(١). وحكم النبي (ﷺ)

(١) سورة المائدة الآيات (١٠٦ ـ ١٠٨).

بموجب اللوث في القسامة، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يميناً ويستحقوا دم القتيل. فهذا لَوْث في الدماء. والذي في سورة المائدة لوث في الأموال. والذي في سورة يوسف لوث في الدعوى في العِرْض ونحوه.

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة معه رضي الله عنهم برجم المرأة التي ظهر بها حمل، ولا زوج لها ولا سيد. وذهب إليه مالك وأحمد ـ في أصح روايتيه ـ اعتماداً على القرينة الظاهرة.

وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ـ ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة ـ بوجوب الحد برائحة الخمر من فيِّ الرجل، أوقَيْئِه خمراً، اعتماداً على القرينة الظاهرة.

ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم. وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار. فإنهما خبران يتطرق إليهما الصدق والكذب، ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق إليه شبهة. وهل يشك أحد رأى قتيلاً يَتَشَحَّط في دمه، وآخرَ قائماً على رأسه بالسكين: أنه قتله؟ ولا سيما إذا عُرف بعداوته له. ولهذا جوز جمهور العلماء لولي القتيل أن يحلف خمسين يميناً: أن ذلك الرجل قتله. ثم قال مالك وأحمد: يقتل به. وقال الشافعي: يقضى عليه بديته.

وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس ـ وليس ذلك عادته ـ وآخر هارباً قدَّامه بيده عمامة، وعلى رأسه عمامة: حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً. ولا نحكم بها لصاحب اليد التي قد قطعنا وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة بالقرينة الظاهرة التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف.

وهل القضاء بالنكول إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة، التي علمنا بها ظاهراً قرينة ظاهرة، دالة على صدق المدعي، فقدمت على أصل براءة الذمة.

وكثير من القرائن والأمارات أقوى من النكول. والحس شاهد بذلك. فكيف يسوغ تعطيل شهادتها؟.

ومن ذلك: أن النبيّ (ﷺ) أمر الزبير أن يقرر عَمّ حُيَيٍّ بن أخطب بالعذاب على إخراج المال الذي غَيَّبه، وادعى نفاده. فقال له: «**العهد قريب. والمال أكثر من ذلك**» فهاتان قرينتان في غاية القوة: كثرة المال، وقصر المدة التي ينفق كله فيها.

وشرح ذلك. أنه (ﷺ) لما أجْلَى يهود بني النّضير من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، غير الحلقة والسلاح. كان لابن أبي الحقيق مال عظيم، يبلغ مَسْك ثور من ذهب وحُليّ. فلما فتح رسول الله (ﷺ) خيبر - وكان بعضها عنوة وبعضها صلحاً - ففتح أحد جانبيها صلحاً. وتحصن أهل الجانب الآخر. . .(١).

(٢)«**الشغف**» يقال: شغف بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أي وصل حبه إلى شِغَاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز ﴿**شَغَفَهَا حبًّا**﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.

قال الكلبي: حجبَ حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّهُ شِغَاف قلبها، أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السُّدِّي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف ﴿**شَعَفَهَا**﴾ بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شَعَف الجبال، لرءوسها.

(٣)**فصل** وأما الشغف فمن أسمائها أيضاً: قال الله تعالى: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ قال الجوهري وغيره: والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب يقال: شَغَفَه الحب أي بلغ شَغافَه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ ثم قال: دخل حُبُّه تحت الشَّغاف.

فصل وأما الشَّعف بالعين المهملة ففي الصحاح: شَعَفه الحُبُّ أي أحرق قلبه، وقال أبو زيدٍ: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ وقرأ الحسن: ﴿**قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا**﴾ قال: بطنها [حُبًّا].

---

(١) ذكر المؤلف في بدائع الفوائد بحثاً حول ما تقدم هنا جـ٣ ص١١٨ يحسن الرجوع إليه (ج).

(٢) ٢٨ مدارج جـ٣ (٣) ٢٨ روضة المحبين.

(١)**قالت** امرأة العزيز للنسوة لما أرتهنّ إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمتُنَّنِي فِيه﴾ [يوسف:٣٢] أي: هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني عَلَىَ محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَد رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفسِهِ فاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢] أي فمع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبُعد عن الخنا، والمحبُّ وإن عَيّب محبوبَه فلا يجري [عَلَى] لسانه إلا محاسنه ومدحه.

ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسرُوراً﴾ [الإنسان:١١] فجمّل ظواهرهَم بالنضرة وبواطنهم بالسرور ومثله قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشهى إليهم وأقرّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه فنضّر وجوهَهم بالحسن، ونعمّ قلوبَهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان:٢١] أيّ مُطَهِّراً لبواطنهم من كلّ أذىً. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قولُه تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ فهذا زينةُ الظاهر ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦] فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً﴾(٢) [الصافات: ٦، ٧] فزيّن ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين.

(٣)من أثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: مَن تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعدّ الله فيها من الثواب لمن أطاعه. والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفَوْتَيْن، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجلٌ غلب عقلُه عَلَى هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العُدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى عَلَى الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق، صلوات الله وسلامُه عليه،

---

(١) ٢٤٩ روضة. (٢) كانت في النسختين: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً» وهو جمع من آيتين أخريين كل منهما من سورة. (٣) ٤٩٠ روضة.

بين الأمرين، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن عَلَى ارتكاب الحرام، فقالت المرأةُ: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ﴾(١) [يوسف: ٣٢، ٣٣]. فاختار السجن عَلَى الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوَّته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ﴾ فلا يَرْكن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلَّت عنه عصمةُ الله وأحاط به الخذلان.

وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبِّهم إليه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً﴾. [الإسراء: ٧٤]. ولهذا كان من دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» وكانت أكثر يمينه: «**لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**» كيف وهو الذي أُنزل عليه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه؛ أن من آثر الألم العاجلَ عَلَى الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدُّنيا المسرَّة التامَّة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله.

وفي بعض الآثـار الإلهية يقـول الله سبحـانه وتعالى: «**بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي**». وكل من خرج عن شيءٍ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجلّ منه.

ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له؛ أبدانَ طيرٍ خُضْرٍ جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديلَ معلقةٍ بالعـرش، ولما تركوا مساكنهم له عوّضهم مساكنَ طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

(٢)**فصل** وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصِّدّيق (ﷺ) من العفاف أعظَم ما يكون، فإن الدّاعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حقّ غيره، فإنه

---

(١) وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكـرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية. وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله، والانصراف أثر فعله.. وهو فعل النسوة. أ. هـ.

(٢) ٣٤١ روضة.

(ﷺ) كان شابًا والشبابُ مركب الشهوة، وكان عزباً ليس عنده ما يعوّضه، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقطَ من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبدُ لا يأنف مما يأنَف منه الحر، وكانت المرأة ذاتَ مَنْصِب وجمال، والدّاعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلْفَةُ تعرّض الرجل وطلبه وخوفِه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامّةُ والمُراودةُ التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار لتعلمَ عفافه من فجوره، وكانت في محلّ سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليقَ الأبواب لتأمنَ هجومَ الداخل عَلَى بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة ومع هذا كلّه فعفّ لله ولم يُطِعْها وقدّم حقَّ الله وحقَّ سيدها عَلَى ذلك كلّهِ، وهذا أمرٌ لو ابْتُلي به سواه لم يُعْلم كيف كانت تكون حاله. فإن قيل: فقد همّ بها. قيل: عنه جوابانِ:

أحدهما: أنه لم يَهُمّ بها بل لولا أن رأى برهانَ ربّه لهمّ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب أن همّه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمُّها كان همَّ إصرار بذلت معه جُهْدَها، فلم تصل إليه فلم يستوِ الهَمّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمّ همّان: همُّ خطَرات، وهمُّ إصرار، فهمُّ الخَطرات لا يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣].
قيل: هذا قد قاله جماعةٌ من المُفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم.

وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسُف عليه السلام.

والصواب معهم لوجوهٍ: أحدُها: أنه متصلٌ بكلام المرأةِ وهو قولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١: ٥٣]. ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللَّبْس، فإن غايَته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلّمت بقولها: ﴿**الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**﴾، والسياق صريحٌ في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿**ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٥٠]. فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غَيبته ولم يُمكِنْهن إلَّا قولُ الحق فقال النسوة: ﴿**حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**﴾ وقالت امرأةُ العزيز: ﴿**أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

فإن قيل: لكن قوله: ﴿**ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾ الأحسنُ أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم أنه (ﷺ) قال: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته (ﷺ) بربه ونفسه فإنه لما أظهر براءتَه ونزاهتَه مما قُذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يُبرِّئها فإنها أمّارة بالسوء لكن رحمةَ ربه وفضله هو الذي عصمه، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ فالصوابُ أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلَّها في نَسقٍ واحدٍ يَدُلّ عليه وهو قول النسوة: ﴿**مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿**أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ فهذه خمسة ضمائرَ بين بارزٍ ومستترٍ ثم اتّصل بها قولُه: ﴿**ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾ فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يَفصِل الكلام عن نظمه ويُضْمَرُ فيه قولٌ لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿**لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أوّل الأمر، فالآن يعلم أني لم أخُنْه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وما أُبرّيءُ نفسي، ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تَبرِّيءْ نفسها، وهي أن النفس أمّارةٌ بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة! أقرّت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن

نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها عَلَى ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبدَه وإلّا فهو عُرْضةٌ للشرّ.

فوازِنْ بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلامَ يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى. وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يُسْتَبْعَد أن تقول المرأة هذا وهي عَلَى دين الشرك، فإن القوم كانوا يُقِرُّون بالرَّبّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قولَ سيدها لها في أول الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

فصل(١)

وأما النفس الأمارة فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز.

﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَداً﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتناكَ لَقَد كِدت تَركَنُ إِلَيهِم شَيئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكان النبي (ﷺ) يعلمهم خطبة الحاجة: «**الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له**» فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه؛ هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله. فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة واللوامة، كما أكرمه بالمطمئنة، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها. وأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها

(١) ٢٧٥ الروح.

ويسـددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن البـاطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته. وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتهـا بالقبـول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الأمارة. . .(١).

(٢)من ترك محبوبه حـراماً فبذل لـه حـلالاً أو أعاضـه اللـه خـيراً منـه

عنوانُ هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصـدّيق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجنَ عَلَى الفاحشة؛ فعوّضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوَّأُ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً في الوصل الحلال فتزوّجها، فلما دخل بها قال: هذا خيرٌ مما كنت تريدين.

فتأمّل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أن مَكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلّ له العزيزَ وامرأتَه، وأقرَّت المرأة والنّسوةُ ببراءتَه، وهذه سُنَّته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس؛ سخر الله له الريح يسير عَلَى مَتْنِها حيث أراد(٣).

ولما ترك المهـاجـرون ديارَهم لله وأوطـانَهم التي هي أَحبُّ شيءٍ إليهم؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا وملَّكهم شرقَ الأرض وغربَها، ولو اتقى الله السارِقُ وترك سرقة المال المعصوم لأتاه الله مثله حلالاً قال الله تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** [الطلاق: ٢ - ٣].

(٤)**﴿قـل بفضـل الله وبـرحمته فبذلك فليفرحوا﴾**[يونس: ٥٨]. فالافتخار على ظاهره والافتقار والانكسار في باطنه ولا ينافي أحدهما الآخر.

---

(١) وسيأتي بحث الأنفس قريباً في سورة الرعد إن شاء الله.		(٢) ٤٧٥ روضة.

(٣) في ن ونسخة الأمير: حتى غابت الشمس غضباً لله؛ أعاضه الله عنها الريح يركب هو وعسكره على متنها إلخ.		(٤) ٨٦ مدارج جـ٣

وتأمل قول النبي (ﷺ): «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمـة الله عليه، وإعـلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: ﴿**اجعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأرضِ إنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]. فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمناً لمصلحة تعـود على العـزيز وعـلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسناً. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يُحَسِّنها ويُهَجِّنها. وصورته واحدة.

(١)**ومنه** قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم والأول يكبره في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات.

وكذلك إذا أثنى الـرجـل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفي بذلك حقًّا له يحتاج فيه إلى التعريف لحاله، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله.

والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير، وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم.

(٢)**قـال** شيخنا رضي الله عنه: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها، وليس من جنسها قِصَّة يوسف حين كاد الله له في أخذ أخيه كما قَصَّ ذلك تعالى في كتابه، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة:

أحدها: قوله لفتيانه: ﴿**اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم فِي رِحالِهِم لَعَلَّهُم يَعرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُـوا إِلَى أَهلِهِم لَعَلَّهُم يَرجِعُـونَ**﴾ [يوسف: ٦٢]. فإنـه تسبَّبَ بذلـك إلى رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني: منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها. ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم. ومنها: أنه رأى لو ما أخذ

---

(١) ١٣٩ مفتاح جـ١ (٢) ٢٢٤ أعلام جـ٣.

الثمن منهم. ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ليكون أدعى لهم إلى العَوْد. ومنها: أنه علم أن أمانتهم تُحْوجهم إلى العَوْد ليردوها إليه؛ فهذا المحتال به عمل صالح.

والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضاً منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاء.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جَهَّزَهم بجَهَازهم جعل السِّقَاية في رَحْل أخيه. وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيهِ أَخَاهُ قَالَ إِنّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئس بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]. وفيه قولان:

أحدهما: أنه عرفه أنه يوسُفُ ووطَّنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له بأنه يوسف، وإنما أراد إني مكان أخيك المفقود فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء.

ومَنْ قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رَحْل أخيه والأخ لا يشعر، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له إني أنا أخوك، قال: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: فقد علمتَ اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحتمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدسُّ صُوَاعي هذا في رَحْلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك، قال: فافعل؛ وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

ومثل هذا النوع ما ذكر أهل السير عن عدي بن حاتم؛ أنه لما هم قومه بالردة بعد رسول الله (ﷺ) كَفَّهم عن ذلك، وأمرهم بالتربص، وكان يأمر ابنه إذا رعى إبل الصدقة أن يبعد، فإذا جاء خاصَمَه بين يدي قومه وهَمَّ بضربه، فيقومون

فيشفعون إليه فيه، ويأمره كل ليلة أن يزداد بعداً، فلما كان ذات ليلة أمره أن يبعد بها جدًّا، وجعل ينتظره بعدما دخل الليل وهو يَلُوم قومه على شفاعتهم ومَنْعِهم إياه من ضربه، وهم يعتذرون عن ابنه، ولا ينكرون إبطاءه، حتى إذا انهار الليل ركب في طلبه فلحقه، واستاق الإبل حتى قدم بها عَلَى أبي بكر رضي الله عنهما؛ فكانت صدقات طيء مما استعان بها أبو بكر في قتال أهل الردة.

وكذلك في الحديث الصحيح أن عديًا قال لعمر رضي الله عنه: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أعرفك، أسلمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، وعرفت إذ أنكروا.

ومثل هذا ما أذن فيه النبي (ﷺ) للوَفْدِ الذين أرادوا قتل كعب بن الأشْرَف أن يقولوا. وأذن للحجاج بن علاط عام خيبر أن يقول.

وهذا كله من الاحتيال المُبَاح؛ لكون صاحب الحق قد أذن فيه ورضي به، والأمر المحتال عليه طاعة لله وأمر مباح.

الضرب الثالث: أنه أذَّنَ مؤذن ﴿أَيَّتُهَا العيرُ إِنَّكُم لَسارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيهِم مَّاذا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ، وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنابِهِ زَعِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُم كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُه مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُم استَخرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيأخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللهُ﴾ [يوسف: ٧٠ - ٧٦]. وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين.

أحدهما: أنه من باب المعاريض وأن يوسف نَوَى بذلك أنهم سرقوه من أبيه؛ حيث غَيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليه، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسفُ بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه، ثم قال بعض الموكلين وقد فقدوه ولم يدر من أخذه: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا، وعَنَى أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سَرِقَةَ الصُّواع

فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي، وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُم لَسَارِقُونَ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾ وهو صادق في ذلك، فصَدَقَ في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً.

وتأمل قول يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر لفظاً، تحرِّيًا للصدق؛ فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقًّا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

ومثل هذا قول الملكين لداود عليه السلام: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢-٢٣] أي غلبني في الخطاب، ولكن تخريج هذا الكلام على المعاريض لا يكاد يتأتى، وإنما وجهه أنه كلام خرج على ضرب المثال: أي إذا كان كذلك فكيف الحكم بيننا.

ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: «**مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيراً أتبلغ به في سَفَرِي هذا**» وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية، كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة ليتم الامتحان.

ولهذا قال نصر بن حاجب: سئل ابن عيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي قد فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه، لم يأثم في ذلك؟ فقال: ألم تسمع قوله: «**ليس بكاذب مَنْ أصلح بين الناس يكذب فيه**» فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض، وذلك إذا أراد به مرضاة الله، وكره أذى المؤمن، ويندم على ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم ولا طمعاً في شيء يصيب منهم؛ فإنه لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره مَوْجِدَتهم وخاف عداوتهم.

قال حذيفة: إني أشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن أقدم على ما هو أعظم منه. قال سفيان: وقال الملكان: ﴿خَصمَانِ بَغَىٰ بَعضُنَا عَلَىٰ بَعضٍ﴾ [ص: ٢٢] أرادامعنى شيء، ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

وقال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال يوسف: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة.

فصل

وقد احتج بعضُ الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصُّلُ إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق.

قال شيخنا رضي الله عنه: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظَلَم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتصَّ منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم والميثاقِ الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكْرَمَ من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه[1] أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغَ الكتابُ أجَلَه ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك، فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء؛ فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به، وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانه مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً؛ فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جُرْم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلابد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذَبْح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصًّا كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى

(١) في نسخة «من الإيذاء له أعظم مما ـ إلخ».

امتحانه وابتلاءه لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه، وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ الله نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه كما نَسَبَه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُم يَكِيدُونَ كَيداً وَأَكِيدُ كَيداً﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وفي قوله: ﴿وَمَكَروا مَكراً وَّمَكَرنَا مَكراً﴾ [النمل: ٥٠] وفي قوله: ﴿وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ الله، وَالله خَيرُ الماكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاء وخِداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فاعتدوا عَلَيه بِمثل مَا اعتَدَىٰ عَلَيكم﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه.

فإن المكر إيصالُ الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة.

ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحَسَن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها؛ فهي سيئة له حسنة من الحَكَمِ العَدْل.

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة.

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كادَتْهُ بما أظهرت أنه راوَدَهَا عن نفسها ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ[1] بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخواتِكَ فَيَكِيْدُواْ لك كَيداً﴾ [يوسف: ٥]. وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ مِن كَيدكُنَّ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. وقال تعالى في حق النسوة: ﴿فَاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ﴾

(١) في نسخة «حتى استجار بالله من كيدهن».

[يوسف: ٣٤]. وقال للرسول: ﴿ارجعْ إلى رَبِّكَ فَاسأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوةِ اللاتي قَطَّعنَ أيديهُنَّ إنَّ رَبِّي بِكيدِهِنَّ عليمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة مَنْ صبر على كيد الكائد له بَغْياً وعُدْواناً.

فصل

وكيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: وهو الأغلب: أن يفعل تعالى فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له؛ فيكون الكيد قدراً زائداً محضاً ليس هو من باب لا يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف؛ فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقى الصُّوَاع في رَحْل أخيه، وأن أَذَّنَ مؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إن كُنتم كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]. أي جزاء السارق أو جزاء السَّرَقِ ﴿قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ في رَحلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُه﴾ [يوسف: ٧٥]. أي جزاؤه نفس السارق، يستعبده المسروق منه إما مطلقاً وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

ثم في إعراب هذا الكلام وجهان؛ أحدهما: أن قوله: ﴿جَزاؤه مَنْ وُجِدَ في رَحلِهِ﴾ جملة مستقلة قائمة من مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ جملة ثانية كذلك مؤكدة للأولى مُقَررة لها، والفرق بين الجملتين أن الأولى إخبار عن استحقاق المسروق لرقبة السارق، والثانية إخبار أن هذا جزاؤه في شرعنا وحكمنا؛ فالأولى إخبار عن المحكوم عليه، والثانية إخبار عن الحكم، وإن كانا متلازمين، وإن أفادت الثانية معنى الحصر فإنه لا جزاء له غيره.

والقول الثاني: أن ﴿جزاؤه﴾ الأول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية، والمعنى جزاء السارق أن مَنْ وجد المسروق في رَحْله كان هو الجزاء، كما تقول: جزاء

السرقـة مَنْ سرق قطعت يدُه، وجـزاء الأعمال مَنْ عمل حسنة فبعشر أو سيئة فبواحدة، ونظائره.

قال شيخنا رضي الله عنه: وإنما احتمل الوجهين لأن الْجَزَاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس فعل العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الـواصل إلى المعاقب؛ والمقصود أن إلهام الله لهم هذا الكلام كيدٌ كاده ليوسف خارج عن قدرته. إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: لا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سَرَق؛ فإن مجرد وجوده في رَحْله لا يوجب ثبوت السرقة، وقد كان يوسف عادلاً لا يأخذهم بغير حجة.

وقد كان يمكنهم أن يقولوا: يفعل به ما يفعل بالسراق في دينكم، وقد كان في دين ملك مصر ـ كما قاله أهل التفسير ـ أن يضرب السارق ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]. أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر؛ إذ لم يكن في دينه طريق له إلى أخذه.

وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلاً على بابه، أي إلا أن يشاء الله ذلك فيهيىء له سبباً يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل يعتقل بها، فإذا كان المراد من الكَيْد فعلاً من الله ـ بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصـودُه من الانتقـام من الظالم ـ كان هذا خارجاً عن الحيل الفقهية؛ فإن كلامنا في الحيل التي يفعلها العبد، لا فيما يفعله الله تعالى.

بل في قصة يوسف تنبيه على بطلان الحيل وأن مَنْ كاد كيداً محرماً؛ فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وبمثل عمله، وهذه سنة الله في أرباب الحيل المحرمة أنه لا يبارك لهم فيما نالوه بهذه الحيل، ويهيىء لهم كيداً على يد من يشاء من خلقه يُجْزَوْنَ به من جنس كيدهم وحيلهم.

وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلقُ؛ فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

وفيها دليل على أن وجود المسروق بيد السارق كافٍ في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزلة إقراره، وهو أقوى من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالحَبَلِ، أو الرائحة في الخمر كما اتفق عليه الصحابة.

والاحتجاج بقصة يوسف على هذا؛ أحسن وأوضح من الاحتجاج بها على الحيل. وفيها تنبيه على أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلى المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿**نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾

قال زيد بن أسلم وغيره: بالعلم.

وقد أخبر تعالى عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿**وَتلكَ حُجَّتُنَا آتَينَاهَا إِبرَاهِيمَ عَلَى قَومِهِ، نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة.

وقال في قصة يوسف: ﴿**كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ، مَا كَانَ لِيَأخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ الله، نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾ [يوسف: ٨٦]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفي الذي يتوصل به صاحبه إلى المقاصد المحمودة.

وقال: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ فَافسَحُواْ يَفْسَحِ الله لَكُم، وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُوا يَرفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُواْ العِلمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والايمان.

النوع الثاني من كيده لعبده المؤمن: هو أن يُلْهمه تعالى أمراً مباحاً أو مستحبًا أو واجباً يُوَصله به إلى المقصود الحسن؛ فيكون على هذا إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده تعالى أيضاً، وقد دل على ذلك قوله: ﴿**نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ**﴾ فإن فيها تنبيهاً على أن العلم الدقيق الموصل إلى المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يخصم به المبطلَ صفةُ مدحٍ؛ وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات؛ فإن هذا كيد لله، والله هو الذي يكيد الكائد ومحال أن يشرع الله تعالى أن يكاد دينه.

وأيضاً فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يقصد به غير مقصوده الشرعي.

ومحال أن يشرع الله لعبده أو يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له.

فهذا هو الجواب عن احتجاج المتحيلين بقصة يوسف عليه الصلاة والسلام. وقد تبين أنها من أعظم الحجج عليهم وبالله التوفيق.

(١)**وأما** قياس الشبه فلم يَحْكِهِ الله سبحانه إلا عن المبطلين؛ فمنه قوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجَدُوا الصُّوَاع في رَحْل أخيهم: ﴿**إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبلُ**﴾ [يوسف: ٧٧]. فلم يَجْمعوا بين الأصلِ والفرعِ بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحَدَهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مُجَرَّد الشَّبَه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مَقِيس على أخيه، بينهما شَبَه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قَرَابة الأُخُوَّة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقًّا، ولا دليل على التساوي فيها؛ فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها.

(٢)**الصبر** كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري؛ فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري. ولذلك كان صبر يوسف الصديق (ﷺ) عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد.

ومن الصبر الثاني: إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل (ﷺ) والكليم وصبر نوحٍ وصبر المسيح وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله. ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾ [الأحقاف: ٣٥].

(٣)**وفي** كتاب الأدب للبخاري: سئل رسول الله (ﷺ) عن الإيمان؟ **فقال: الصبر، والسماحة**» ذكره عن موسى بن إسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا

(١) ١٤٨ أعلام جـ١. (٢) ٣١ عدة الصابرين. (٣) ١٦٠ مدارج جـ٢.

عبدالله بن عبيد بن عمير، عن أبيه، عن جده ـ فذكره. وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهاناً، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به، وإعطاؤه. فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبعد منه. فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «الصبل الجميل» هو الذي لا شكوى فيه ولا معه. و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه. و«الهجر الجميل» هو الذي لا أذى معه.

وفي أثر إسرائيلي: «أوحى الله إلى نبي من أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني. فماطلته بالإجابة. فشكاني. فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟». وقال ابن عيينة في قوله تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾ [السجدة: ٢٤]. قال: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء.

والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر. فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**﴾ [يوسف: ٨٦]. وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ. وَأَنتَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة. فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عَرَتْـك بَلية فاصبر لها		صبر الكريم. فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما		تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

(١)**وقال** حَسان بن أبي جبلة: من بث فلم يصبر، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي (ﷺ) وإن صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله.

وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى: ﴿**فَصَبرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف: ٨٣]. قال: لا شكوى فيه ورفعه ابن أبي الدنيا أيضاً. وقال مجاهد: فصبر جميل في غير

(١) ١٠١ عدة الصابرين

جزع. وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل قال: الرضاء بالمصيبة والتسليم.

وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَابيضَّت عَيناهُ مِنَ الحُزْنِ فَهوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]. قال كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً.

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور. وقال همام عن قتادة في قوله تعالى ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي: كميد أي كمد الحزن.

وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله؛ من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم.

فصل(١)

ويشبه هذا قول يوسف الصديق ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤيَايَ مِن قَبلُ قَد جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَد أَحسَنَ بِي إِذ أَخرَجَنِي مِنَ السِجنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدوِ مِن بَعدِ أَن نَّزَغَ الشَّيطَانُ بَينِي وَبينَ إِخوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُو العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلِيَتَلَطَّف وَلاَ يُشعِرَنَّ بِكُم أَحداً﴾ [الكهف: ١٩]. فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقاً ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محناً ومصائب وباطنها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

وقد قال (ﷺ): **«لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن»**. فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب.

(١) ٣٤ شفاء.

(١)**وقول** يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَـذا تَأْوِيلُ رُؤيَايَ من قَبلُ قد جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَد أَحسَنَ بي إذ أَخرَجَني مِنَ السِجنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته، وتفتيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب. وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ البدوِ﴾ ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه. فقال: ﴿مِن بَعدِ أَن نزَغَ الشَّيطَانُ بَيني وَبَينَ إِخوَتي﴾ [يوسف: ١٠٠]. فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم.

(٢)**قوله** تعالى، عن يوسف نبيه، أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيّ في الدُّنيا وَالآخِرةِ تَوَفَّني مُسلِماً وأَلحِقني بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره ـ سبحانه ـ وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

. . .(٣) **قال** الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. فأثبت لهم إيماناً مع الشرك. وهذا الإيمان وإن لم يؤثر في إخراجهم من النار كما أثر إيمان أهل التوحيد، بل كانوا معه خالدين فيها بشركهم وكفرهم، فإن النار إنما سعرها عليهم الشرك والظلم، فلا يمتنع في الرحمة والحكمة والعدل أن يطفئها ويذهبها بعد أخذ الحق منهم، فيجتمع ضعف أسباب تسعيرها وقوة أسباب زوالها فهذا غير ممتنع في الحكمة الإلهية. ولم يخبر به الرسول بامتناعه وأنه لا يكون في موضع واحد، ولا دل على ذلك نقل ولا عقل. بل الذي دل عليه النقل والإجماع أنهم خالدون فيها أبداً، وأنهم ليسوا بخارجين منها، ولا يموتون فيها؛ ولا يحيون. وهذا متفق عليه بين المسلمين. وإنما الشأن في أمر آخر. . .

(٤) **وقال**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم

(١) ٣٨٠ مدارج جـ٢.
(٢) ٢٠١ فوائد.
(٣) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١.
(٤) ٢٨٢ مدارج جـ١.

ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله. وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار. ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة. لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. [فصلت:٤٦][1].

(٢)**ولما** كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شِعَار حزبه المُفْلِحِين، وأتباعه من العالمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به، وتبليغ معانيه كان العلماءُ من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما: حفاظ الحديث، وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأئمة مَعَاقد الدين ومَعَاقله، وحَمَوْا من التغيير والتكدير موارِدَه وَمناهله، حتى ورَد مَنْ سَبَقَتْ له من الله الحسنى تلك المناهِلَ صافية من الأدناس لم تَشُبْها الآراء تغييراً، ووردوا فيها عيناً يَشْرَبُ بها عباد الله يفجرونها تفجيراً.

(٣)**ولما** كان التبليغُ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدقَ فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفُتْيَا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالماً بما يبلغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حَسَنَ الطريقةِ، مرضِيَّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله.

وإذا كان مَنْصِبُ التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا يُنْكَر فضله، ولا يجهل

(١) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية ص٨٩ في قوله: «فصل: هاهنا أصل آخر...».
(٢) أعلام جـ١	(٣) ١٠ أعلام جـ١

قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟ . . .

(١)**فحقيق** بمن أقِيمَ في هذا المنصب أن يُعِـدَّ له عُدَّتـه، وأن يتأهب له أهْبَتَه، وأن يعلم قَدْرَ المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به؛ فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأربـاب فقـال تعالى: ﴿وَيَستَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلِ الله يُفتِيكُم فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ في الكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٧]. وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفاً وجلالة؛ إذ يقول في كتابه: ﴿يَستَفتُونَكَ قُلِ الله يُفتِيْكُمْ في الكَلاَلِةِ﴾ [النساء:١٧٦]. وليعلم المفتي عمن ينوب في فَتْوَاه، ولْيُوقِنْ أنه مسئول غداً ومَوْقُوف بين يدي الله.

فصـل

وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، عبدُ الله ورسوله، وأمينه على وَحْيه، وسفيره بينه وبين عباده؛ فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿قُلْ مَا أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ، وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]. فكانت فتاويه (ﷺ) جوامعَ الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتِّباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحدٍ من المسلمين العُدُولُ عنها ما وَجَدَ إليها سبيلاً، وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿فإِن تَنَازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوه إِلَى الله والرَّسول إن كُنتم تُؤمنونَ بِالله واليومِ الآخِرِ، ذَلكِ خيرٌ وأحْسَنُ تأويلاً﴾ [النساء:٥٩].

(٢)**قال** تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَني﴾.

قال الفراء وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني: ومن اتبعني يدعو إلى أمته كما أدعو. وهذا قول الكلبي قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة. ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إلى الله﴾، ثم يبتدىء بقوله: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه وأتباعه على بصيرة. والقولان متلازمان

(١) ١١ اعلام جـ١. (٢) ١٥٤ مفتاح جـ١.

فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه؛ بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء.

(١) **فهؤلاء** خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ذَلِكَ الفَضلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾ [النساء: ٦٩]. فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(٢) **وقد** أخبر الله تعالى عن رسوله (ﷺ) أنه قال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وأخبر تعالى عنه أنه سراج منير، وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه هو المفلح لا غيره، وان من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه المتنازعون وينقادَ لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن. فكيف يجوز على من أخبر الله تعالى عنه بما ذكر أن يكون قد أخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما الهدى في خلاف ظاهره، والحق في إخراجه عن حقائقه وحمله على وحشي اللغات ومستكرهات التأويلات . . .

(٣) **والدعاء** إلى أحكام الله دعاء إلى الله؛ لأنه دعاء إلى طاعته فيما أمر ونهى، وإذاً فالصحابة رضوان الله عليهم قد اتبعوا الرسول (ﷺ) فيجب اتباعهم إذا دعوا إلى الله.

(٤) **قال** تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.
(٢) ٦ مختصر الصواعق جـ١.
(٣) ١٣١ أعلام جـ٤.
(٤) ٤٠٢ زاد المعاد جـ٤.

نصرنا﴾ [يوسف: ١١٠]. فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك، إنما يأتيهم من عند الله كما قال في قصة نوح: **﴿وأُوحي إلى نُوح أَنَّه لن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلَّا مَن قد آمنَ، فلا تَبتئس بِمَا كَانُوا يَفعَلُونَ﴾**. [هود: ٣٦]. وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: **﴿فَلَمَّا استيئَسُوا مِنهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾**. [يوسف: ٨٠]. فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين.

وقد حدثنا ابن أبي أويس: حدثنا مالك، عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه» فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع. وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء ويصف ناقة:

صفراء من تِلْدِ بني العباس ... ضُرتها كالظبي في الكناس
تَدرُّ أم تسمع بالإيساس ... فالنفس بين طمع وياس

فجعل الطمع بإزاء اليأس.

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش، عن سلام، عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي (ﷺ) فقالا: علمنا شيئاً، ثم قال: «**لا تيأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كان عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه**».

وحدثنا علي بن عبدالله: حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس» قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يوسف والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ثم** تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات؟ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لاشك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم: ﴿**أفي الله شكٌّ فاطرِ السَّموات والأرْض**﴾ [إبراهيم: ١٠١]. فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه. وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى: ﴿**الله الَّذي رَفَعَ السَّمواتِ بِغير عَمدٍ تَرونَها ثُمَّ استوى على العرْش وَسَخَّر الشَّمْسَ وَالقمر كُلٌّ يجري لأجَل مسَمَّى يُدَبِّر الأمر يُفصِّل الآيات لَعَلَّكُم بِلقَاء رَبِّكُم تُوقنون وهو الَّذي مَدَّ الأرْضَ وَجَعَل فِيها رَواسيَ وأنْهاراً وَمِن كُلِّ الثَّمرات جعل فِيها زَوْجَيْن اثنين يُغشِي اللَّيْل النَّهار إنَّ في ذلك لآياتٍ لقَوم يَتفكَّرون وفي الأرْض قِطَعٌ متَجَاوِرَاتٌ**﴾ [الرعد: ٢-٤]. وقال تعالى ﴿**إنَّ فِي السَّمواتِ والأرْض لآيات للمُؤمِنين وفي خلْقِكُم وَمَا يَبثُّ من دَابَّةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**وآياته يُؤمِنون**﴾ [الجاثية: ٣-٦]. وقال تعالى: ﴿**خَلق السَّمواتِ بِغير عمد تَرونَها وألْقَى فِي الأرض رَوَاسِي أن تَمِيدَ بكم وَبثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فِي ضَلَال مُبِين**﴾ [لقمان: ١٠-١١]

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَفِي الأرْض قِطَعٌ مُتَجَاوِرَات وجنات مِن أعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيل صِنْوان وَغير صِنوان يُسْقَى بماء واحدٍ ونُفَضِّل بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الأكُلِ إنَّ فِي ذَلكَ لآيات لِقَومٍ يَعْقِلُون**﴾ [الرعد: ٤] ثم إنه سبحانه يصرف ما

---

(١) ٢١٢ مفتاح جـ ١. (٢) ١٤٤ طريق الهجرتين.

أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه إلى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلى طبيعة أخرى. وهذا كما خلق كل دآبة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها، وأمشى بعضاً عن بطنه وبعضاً على رجلين وبعضاً على أربع، حكمة بالغة وقدرة باهرة. وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده ويظهر ملكه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١)**الثالث** والعشرون إن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ماقد أكثرت الأمم في وصفه وتجربته على مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علمًا بجميع ما أودع واحدًا من ذلك النوع من الحكم والمصالح، هذا إلى ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته، فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصور الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات، ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضاً، ولا هو مقتض له. فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختياراً ومشيئة، فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات. وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا

---

(١) ٢٣١ شفاء.

به الأرْض بَعد مَوتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَآبَّة وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحاب المُسخَّر بَيْنَ السَّماء والأرضِ لآياتٍ لِقوم يعْقِلُون﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَمِن آياته خَلق السَّموات والأرض واختلاف ألسِنَتِكُم وألْوَانِكُم إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للعالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: **﴿هُوَ الَّذِي أنْزَل مِنَ السَّماءِ مَاء لَكُم مِنْهُ شرَابٌ وَمِنْهُ شَجرٌ فِيه تُسيمُونَ يُنْبت لَكُم به الزَّرْع وَالزَّيْتُون والنَّخيل والأعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمرات إنَّ في ذَلِك لآيَة لِقوم يَتَفَكَّرُونَ﴾** [النحل: ١٠-١١].

(١) **ومن** آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة. فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها. وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت. وهذه تربة، وتلاصقها رمال. وهذه صلبة، ويلاصقها ويليها رخوة. وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء. وهذه حصى كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر. وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره. وهذه سبخة مالحة. وهذه بضدها. وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم. وهذه مشجرة بالجبال. وهذه لا تصلح إلا على المطر وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها، ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن

---

(١) ١٨٦ التبيان.

تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات، وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وأنشأ منها أولياءه، وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك. ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة - كما نشاهده في الصيف - فاحترقت أبدان الحيوان والنبات. وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة. وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه. ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية. وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور. فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها. وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا

يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغنى عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غنى عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات. ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج. وحرارة الصيف للإنضاج. هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع. كما قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

(١)**قال** تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]. وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خُلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث، وقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلٰهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

(١) ١٢٦ مدارج جـ ١.

(١) **التعجب** كما يدل على محبة الله للفعل نحو: «**عجب ربك من شاب ليست له صبوة**». «**ويعجب ربك من رجل ثار من فراشه ووطائه إلى الصلاة**». ونحو ذلك فقد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿**وَإِنْ تَعجب فَعَجَب قولُهم**﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿**بَل عَجِبْت وَيَسْخَرُونَ**﴾ [الصافات: ١٢] ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُون بالله**﴾ [البقرة: ٢٨]. وقوله: ﴿**وَكَيْفَ تَكفُرونَ وَأَنْتُم تُتْلَى عَلَيْكُم آيات الله**﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿**كَيْفَ يَكُون لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ**﴾ [التوبة: ٧]. وقد يدل على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله نحو: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي الله قَومًا كَفَرُوا بَعْد إِيمَانِهِمْ**﴾ [آل عمران: ٨٦].

(٢) **قال** الله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرهًا وَوَضَعته كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُون شَهْراً**﴾ [الأحقاف: ١٥]. فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهراً، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿**حولين كاملين**﴾، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضى الله عنهم.

فذكر البيهقي وغيره عن حرب بن أبي الأسود الرملي: أن عمر أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا رضي الله عنه، فقال ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه فسأله؟ فقال: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرضِعنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَراد أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَة**﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقال: ﴿**وَحَمْلُه وفِصَالُه ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾ [الأحقاف: ١٥]. فستة أشهر حمله وحولين تمام الرضاعة لا حدّ عليها فخلى عنها.

وفي موطأ مالك؛ أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم. فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿**وَحَمْلُه وَفِصَالُه ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾ وقال: ﴿**وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ [لقمان: ١٤]. فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت.

---

(١) ٨ بدائع جـ ٤.		(٢) ١٥٨ تحفة المودود.

وذكر داود بن أبي هند: عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهراً، كما قال تعالى: ﴿**وَحَمْلُه وفِصَالُه ثَلاثُون شَهْراً**﴾ انتهى كلامه.

وقال تعالى: ﴿**يَعْلم مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأرحَام وَمَا تَزْدَادُ**﴾ [الرعد: ٨]. قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصاناً من الولد. وما تزداد، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها، وقال أيضاً الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

وقال الحسن: ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزداد: المرأة تلد لعشرة أشهر، وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل، فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً. فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

وقال قتادة: الغيض: السقط، وما تزداد، فوق التسعة أشهر، وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل، تغيض وتزداد فعلان متعديان مفعولهما محذوف وهو عائد على ما الموصولة. والغيض: النقصان. ومنه وغيض الماء، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه، عليه السلام: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله**:

١ ـ لا يعلم متى مجيء الساعة إلا الله. ٢ ـ ولا يعلم ما في غد إلا الله.

٣ ـ ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله. ٤ ـ ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله.

٥ ـ ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله».

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه، والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان ا. هـ. (١)

(٢)**(قاعدة):** الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع ـ وكان حييًا ـ استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولابد. **فما** أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنىٰ والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها		فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

(٣)﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه.

(١) سيأتي في سورة الأحقاف زيادة بحث حول هذا إن شاء الله (ج).

(٢) ٢٧٠ طريق الهجرتين.		(٣) ١٢٩ الجواب الكافي.

[1]**ومن** عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ [الأنفال: ٥٣]. فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾.

[2]فصل

ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل وتمنع الواصل. فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة، سببًا يجلبه وآفة تبطله. فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته. فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها. ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه وواصل إلى الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

[3]**والمقصود** أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم، إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب

---

(١) ٩٧ الجواب الكافي.　(٢) ١٤٣ الجواب الكافي.　(٣) ٢٠٥ بدائع جـ ٢.

ولابد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ الله لا يُغير مَا بِقَوم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوم سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَه وَمَا لَهُم مِنْ دُونِه مِنْ وَال﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم؛ وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل.

إذا كنت في نعمة فارعها		فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس. ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له. والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شروراً فلأنها آلام نفسية وبدنية فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات. ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ الله﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد فسَّر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق. ومرادهم: هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه: دعوة الحق: التوحيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص. والدعاء الخالص لا

يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الإلٰهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

(١) **قال** تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِم نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد: ١٦]. فاحتج على تفرده بالإلٰهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلٰهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار. والقهر التام يستلزم **الوحدة** فإن الشركة تنافي تمام القهر.

(٢) **وقد** ذكر الله المثلين المائي والناريَّ في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾ [الرعد: ١٧]. شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأَوْدِيَة، فقلب كبير يَسَع علماً عظيماً كوادٍ كبير يسع ماءاً كثيراً، وقلبٌ صغير إنما يَسَعُ بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقَدرها، واحتملت قلوبٌ من الهُدى والعلم بقَدرها؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرضَ ومَرَّ عليها احتمل غُثَاء وَزَبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات لِيَقْلَعَها ويذهبها كما يثير الدواء وقْت شربه من البدن أخْلاطه فيتكدَّر بها شاربُه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها؛ وهكذا يضربُ الله الحقَّ والباطل، ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ**﴾ وهو الخَبَثُ الذي يخرج عند سَبْك الذهب والفضَّة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمي ويطرح ويذهب جُفَاء؛ فكذلك الشهواتُ والشبهات يرميها قلبُ المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغُثَاء والخَبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم،

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ١٥٢ أعلام جـ١.

كذلك يستقر في قرار القلب وجذْرِه الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره؛ ومَن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبَّرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق.

(١)**قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ﴾** [الرعد: ١٧].

شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً. فقال: **﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رَابِياً﴾** هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء.

وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون. ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر. فقال: **﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّار ابتِغاء حِلْيَة أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه﴾** يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده.

وضرب سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها،

(١) ٦١ مفتاح جـ١.

وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه. فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم. قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١)**فضرب** لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يجعل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشَبَّهَة بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً وقلب صغير إنما يسع بقدره. وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَولَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُم فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ فهذا المثل الناري. ثم قال: ﴿أَو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْق يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره(٢).

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

(٣)**الوجه** الثاني عشر: أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين

---

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

(٢) ٤٩ مفتاح جـ١.

لا يبصرون فقال: ﴿أَفَمَن يَعلم أنَّما أنْزِل إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. فما ثم إلا عالم أو أعمى. وقد وصف أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

(١) **قوله** تعالى: ﴿أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾ قسم الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق. والثاني: العمي فدل على أنه لا واسطة بينهما.

(٢) **الصبر** باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.

وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبدالقادر في (فتوح الغيب): «لابد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب: فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله أما واجباً وأما استحباباً، ولا يتم ذلك إلا بالصبر. وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة، وذلك أيضاً موقوف على الصبر. فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها. ففرضه الصبر عليها. وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد: أصحهما أنه مستحب. فرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفاً، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف. فقيام عبودية الأمر والنهي

(١) ٨٨ مفتاح جـ ١. (٢) ٢٥ عدة الصابرين.

والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها.

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائماً يحوم على هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: **﴿يا بني أقِمِ الصَّلاَةَ وأمُرْ بالمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ المُنكَرِ واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾** [لقمان: ١٧]. فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: **﴿إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أوْلُو الألْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ. والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أوْلَئِكَ لَهُم عُقْبَى الدَّارِ﴾** [الرعد: ١٩-٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف؛ فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه وبينهم وبين خلقه. ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل. ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام: بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد. وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل.

وأمر أن يوصل ما بيننا وبين رسوله: بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء والرضا لحكمه والتسليم له وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين: بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين

الزوجات: بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء: بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم.

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد: بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا.

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس: بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا.

وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه. فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل. ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب. ولا يمكن أحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال: ﴿**والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم**﴾ [الرعد: ٢٢]. فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال: ﴿**وأَقَامُوا الصَّلاَةَ**﴾. وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ**﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إنَّ الله مَعَ الصَّابرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرًّا وعلانية؛ فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم. ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا: أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرءون بالحسنة السيئة فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: ﴿**ويدْرَءونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئةَ**﴾. وقد فسَّر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اتبع السيئة الحسنة تمحها**» والتحقيق أن الآية تعم النوعين. والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات

الإسـلام والإيمان كلهـا واشتملت على فعـل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾[آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿**إِنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ**﴾ [يوسف: ٩٠]. وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فكل موضع قرن فيه التقوى فيه بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة: فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

(١)**ويذكر** عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها؛ كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله؛ كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده؛ كتب الله له تسعمائة درجة». وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم**﴾ ثم قال: «صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهو عنه». وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به والله أعلم.

(٢)**وروى** شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**أول من يدعي إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء**». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم: حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامـر العقيلي، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**عـرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فخور**».

وروى الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه واللفظ له من حديث

---

(١) ٧٤ عدة الصابرين.　　(٢) ٨٤ حادي الأرواح.

أبي عشانة المعافري أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**هل تدرون أول من يدخل الجنة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**».

(١)**ومن** شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر ـ التي فطر عليها الحيوان ـ الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال والأنتان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته. وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه. ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضروريًا ويقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً**﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]. فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية: من الفرح، والألم، والحب، والخوف ـ أنه من عند الله. تكلم به حقًّا. وبلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد في القلب من أعظم

(١) ٤٧١ مدارج جـ ٣.

الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يَرْتَدُّ أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد».

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله ﴿بَلْ هُو آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقوله: ﴿وَليَعلمِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ أنَّه الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا به﴾ [الحج: ٥٤]. وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أوتُوا العِلْم الَّذِي أنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله: ﴿أفَمَن يَعْلم أنَّما أنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]

وقوله ﴿وَيقول الذين كفروا: لولاَ أنزِل عليه آية من ربِّه، قل إن الله يُضِل مَنْ يَشاء وَيَهْدِي إليه من أناب﴾ [الرعد:٢٧]. يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذي يهدي ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال: ﴿الَّذِينَ آمنوا وتَطْمَئِنُ قُلوبهم بِذِكْر الله﴾ أي بكتابه وكلامه ﴿ألا بِذِكر الله تَطْمَئِنُّ القُلوب﴾ [الرعد: ٢٨]. فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه؛ من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة؛ أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

(١) **ومتى** انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحول الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أفَمَن هُو قَائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقوله: ﴿شَهِد الله أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ هو والملائِكة وأولُو العِلم قائماً بالقِسْطِ لاَ إلهَ إلاَّ هو العزِيز الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. فكل ما تراه في الوجود - من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعثنا عَلَيكُم عِباداً لَنَا أوْلِي بَأسٍ شَدِيد فجَاسُوا خِلاَل الدِّيارِ﴾ [الإسراء: ٥].

---

(١) ٤٢٥ مدارج جـ١.

وأما المسألة الحادية والعشرون وهي:[1] هل النفس واحدة أم ثلاث؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة﴾ [الفجر: ٢٧]. وبقوله تعالى: ﴿لا أقسِم بِيَوم القِيامَة ولاَ أقْسِم بالنَّفْس اللَّوامة﴾ [القيامة: ١، ٢]. وبقوله تعالى: ﴿إنَّ النَّفس لأمارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها: بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى: ﴿الَّذِين آمَنوا وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهم بِذِكرِ الله ألا بِذكـر الله تَطْمئِنُّ القُلوب﴾ [الرعد: ٢٨]. فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزاله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه

(١) ٢٦٧ الروح.

أغراضاً لسهام البلاء؛ ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع. وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة؛ أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب؛ حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً، فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمناً حقًّا. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، : «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نور الله قلبه**».

فصل

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها

وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ لِكَيلَا تَأسَوا عَلَى ما فَاتَكُم وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم**﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَمَن يُؤمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: ١١]. قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصًا ونصحاً؛ فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره؛ بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لأن يخرمن السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم، «**صريح الإيمان**». وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب؛ ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته. فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو انصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في

غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

فصـــل

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له، والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضـاء القـوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك. وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال؛ إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمـأنينة له بدون التحقق بـ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة: المصدقة. وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله. وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالى. وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها، وروى منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت[1] جاشا لأمره وطاعته، وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلى الله. وقال أيضاً: هي التي أيقنت بلقاء الله. فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل.

---

(١) هكذا ولعله: سكنت أو بردت.

فصـل

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل فقد باشرت روح الطمأنينة. وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**والَّذين آتَيْنَاهم الْكِتَاب يَفْرَحونَ بما أنزل إلَيْكَ**﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة؛ دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له؛ على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿**فَرِحين بِمَا آتاهم الله مِن فَضْلِه وَيستبشِرونَ بالَّذِينَ لم يلْحَقُوا بهم مِنْ خَلْفِهم**﴾ [آل عمران: ١٧].

والفرح صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فَرِحٍ راضٍ. وليس كل راض فرحًا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم.

(٢)**والفرق** بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِل إلَيكَ**﴾ [الرعد: ٣٦] فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله

(١) ١٥٨ بدائع جـ ٣.

(١) ٣٠٢ الروح.

أحق بالفرح به. وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنْزِلَت سُورَةٌ فمنهم مَن يَقول أيُّكم زادَتْه هذِه إيماناً فأمَّا الذِينَ آمنُوا فزَادَتْهُم إيماناً وَهُم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُل بِفَضلِ الله وبِرَحْمَتِه فبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُو خَيرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. قال أبوسعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته: الإسلام الذي هداكم إليه: والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له. فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه. فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه؛ أفضل ما يعطاه بل هو أجل عطاياه. والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر وهو فرحه بما منّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه وبه وكلما تمكن في ذلك قوى فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر، ولقد ضرب له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مثلاً ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس

منهـا فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته.

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهـو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبـال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب فالحكم لله العلي الكبير.

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًا عنك: ﴿يَاأَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ارْجِعي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِية فادْخُلِي في عِبَادِي وادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح! منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه. ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلى عليها أهلها ويشيعها مقربوها، هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله؛ فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله؛ فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه وبياض وجهه وإعطائه النور التام، والناس في الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهائه إلى باب الجنـة، وقـد أزلفت له في المـوقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم.

(١)**استدل** على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى عز وجل اختار النكاح لأنبيائه ورسله فقال تعالى: ﴿**وَلَقَد أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لهُم أَزْوَاجاً وذُرِّيةً**﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال في حق آدم: ﴿**وَجَعَل مِنْها زَوجَها لِيَسْكُنَ إلَيْهَا**﴾ واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات. واختار لنبيه محمد، ﷺ، أفضل الأشياء فلم يحب له ترك النكاح بل زوجه بتسع فما فوقهن. ولا هدي فوق هديه. ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي، ﷺ، يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه ألا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به ويثيبه على قضاء وطره ووطرها فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه. فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له، فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له ستراً من النار.

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة .

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له فإن في الحديث المرفوع : «**ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والمجاهد**» .

(١)**فصل** ومن هذا قوله تعالى : ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾ [الرعد : ٤٣] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له . ولابد أن تعلم هذه الشهادة . وتقوم بها الحجة على المكذبين له ، وكذلك قوله : ﴿**قُلْ : أيُّ شيْءٍ أكْبَر شَهَادة؟ قل : الله شَهيد بَيني وبَيْنَكُم**﴾ [الأنعام : ١٩] . وكذلك قوله : ﴿**لَكِن الله يَشْهَد بِمَا أنْزَل إلَيْكَ أنْزَلَهُ بِعِلْمِه وَالمَلائِكَةُ يَشهدون وكَفى بالله شَهِيداً**﴾ [النساء : ١٦٦] . وكذلك قوله : ﴿**يَس . والقُرآن الحَكِيم إنَّك لَمِن المُرْسَلِين**﴾ [يَس : ١-٣] وقوله : ﴿**وَالله يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولَه**﴾ [المنافقون : ١] . وقوله : ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**﴾ [الفتح : ٢٩] . فهذا كله شهادة منه لرسوله . قد أظهرها وبينها . وبيَّن صحتها غاية البيان . بحيث قطع العذر بينه وبين عباده . وأقام الحجة عليهم . فكونه سبحانه شاهداً لرسوله : معلوم بسائر أنواع الأدلة : عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها .

ومن نظر في ذلك وتأمله ؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة . وأعدلها وأظهرها . وصدقه بسائر أنواع التصديق : بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه ، وبفعله وإقراره ، وبما فطر عليه عباده : من الإقرار بكماله ، وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به . وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة ، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد . ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به : من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة ، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودِينِ الحقِّ لِيُظْهِره عَلى الدين كُلِّه . وكفى بالله شَهيداً**﴾ [الفتح : ٢٨] . فيظهره ظهورين : ظهوراً بالحجة ، والبيان ، والدلالة . وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة ، والتأييد . حتى يظهره على مخالفيه . ويكون منصوراً .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٤٦٩ مدارج جـ ٣ .



بسم الله الرحمن الرحيم

...[1]**الوجه** العشرون: إنه قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة، ما لم يكن يحصل بدون ذلك.

فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان وبقيت يتحدث بها الناس على ممر الزمان.

ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التي دمرت ما مرت عليه.

ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة.

ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى من شاء الله فهلك بها من هلك عن بينة، وحي بها من حي عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه. ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك الآية العظيمة التي يترتب عليها من الإيمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلاً مع عدمها. وقد بينا أن الموقوف على الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فلله كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلاً بالإيمان، وقد فتحت لأولي النهى من باب وصلوا منه إلى الهدى والإيقان!!.

وكم حصل بها من محبوب للرحمن. وغيظ للشيطان وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلى مصالحها وحكمها، وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب، وخرب بعض البيوت بالنسبة إلى مصلحة العامة. وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون، للأمم من الهدى والإيمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتى تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلى بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة.

ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يذكر بها أمته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) ٢٢٣ شفاء.

مُوسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظُّلُماتِ إلى النُّور وَذَكِّرهُم بأيَّام الله إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لكُل صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذ قَالَ مُوسى لِقَومِهِ اذكُرُوا نِعمَةَ الله عَلَيكُم إذ أَنجاكُم مِن آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ وَيُذَبحُونَ أبنَاءَكُم وَيَستَحيُونَ نِساءَكُم وَفي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِكُم عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٥، ٦] فذكرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكهم وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت، فإنهم صاروا إلى النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا وسومه لهم سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته وهو أن يربى هذا المولود الذي ذبح فرعون ماشاء الله من الأولاد في طلبه، في حجر فرعون وفي بيته وعلى فراشه.

فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه على يد الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على الألف لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب الذي كان فيه مفسدة حزونة يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سبباً لأعظم المصالح في حقه وحق يوسف وحق الإخوة وحق امرأة العزيز وحق أهل مصر وحق المؤمنين إلى يوم القيامة، فكم جنى أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة!!.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب، اضمحلت وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها والشجرة التي جنيت ثمار تلك النعم منها.

وكذلك الأسباب التي أوصلت خليل الرحمن إلى أن صارت النار عليه برداً وسلاماً: من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها وإيقاد النيران العظيمة له وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرناً بعد قرن. فكم لله سبحانه في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة ونعمة سابغة ورحمة وحجة وبينة لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات!! وحكمته وكماله المقدس يأبى ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة، وبين جعل صاحبها إماماً للحنفاء إلى يوم القيامة!!.

وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير. ولكن الإنسان كما قال الله تعالى ظلوم جهول: ظلوم لنفسه، جهول بربه وعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله، (ﷺ)، من مكة على تلك الحال ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح به بشر حبوراً لله، وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به والملائكة من فوقهم، والوحي من الله ينزل عليه وقد أدخله حرمه ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟!.

ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم؛ لما ظهرت آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم، ولهذا أمرهم موسى أن يلقوا أولاً ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الرب تعالى وكمال اقتداره وحكمته أن يخلق مثل جبريل، صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح.

ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام والأرض والسماء والجنة والنار(١).

---

(١) بقية البحث نقل منه قسم تقدم في سورة المائدة. جـ٢ ص ٣٤٨

(١) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾ (٢) [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم﴾ [النحل: ٤٤] فكل ما بيَّنه رسولُ الله، (ﷺ)، فعن ربه سبحانه، بينه بأمره وإذنه، وقد علمنا يقيناً وقوعَ كل اسم في اللغة على مسماه فيها، وأن اسم البر لا يتناول الخردل، واسم التمر لا يتناول البلوط، واسم الذهب والفضة لا يتناول القزدير، وأن تقدير نصاب السرقة لا يدخل فيه تقدير المهر، وأن تحريم أكلِ الميتة لا يدل على أن المؤمن الطيب عند الله حيًّا وميتاً إذا مات صار نجساً خبيثاً، وأن هذا من البيان الذي وَلّاه الله رسولَه وبعثه به أبعد شيء وأشده منافاة له، فليس هو مما بعث به الرسول قطعاً، فليس إذاً من الدين.

وقد قال النبي، (ﷺ)، : **«ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يَدُلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»** ولو كان الرأي والقياس خيراً لهم لدلّهم عليه، وأرشدهم إليه، ولقال لهم: إذا أوجَبْتُ عليكم شيئاً أو حرمته فقيسوا عليه ما كان بينه وبينه وَصْفٌ جامع أو ما أشبهه، أو قال ما يدل على ذلك أو يستلزمه، ولما حذّرهم من ذلك أشَدَّ الحذر كما ستقف عليه إن شاء الله. وقد أحكم اللسانُ كلَّ اسم على مسماه لا على غيره.

وإنما بعث الله سبحانه محمداً، (ﷺ)، بالعربية التي يفهمها العربُ من لسانها، فإذا نص سبحانه في كتابه أو نص رسوله على اسم من الأسماء وعلق عليه حكماً من الأحكام، وَجَبَ ألا يوقع ذلك الحكم إلا على ما اقتضاه ذلك الاسم، ولا يتعدى به الوضع الذي وضعه الله ورسوله فيه، ولا يخرج عن ذلك الحكم شيء مما يقتضيه الاسم؛ فالزيادة على ذلك زيادة في الدين، والنقص منه نقص في الدين؛ فالأول القياس، والثاني التخصيص الباطل، وكلاهما ليس من الدين، ومن لم يَقِفْ مع النصوص فإنه تارة يزيد في النص ما ليس منه ويقول: هذا قياس، ومرةً ينقص منه بعض ما يقتضيه ويخرجه عن حكمه ويقول: هذا تخصيص، ومرة يترك النص جملة ويقول: ليس العمل عليه، أو يقول: هذا خلاف القياس أو

---

(١) ٢٤٥ أعلام جـ ١.

(٢) يأتي إن شاء الله تقسيم اللسان عند قول الله تعالى: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ [مريم: ٥٠].

خلاف الأصول.

(١)**وأما** معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه التي تخصه، وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان. ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة. كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء. والعبد منساق زمنه، وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا في أحب الأمور إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به. ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقد فسرت ﴿أَيَّامِ اللَّهِ﴾ بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد. والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين. وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدَّث بها «أياماً» لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء. فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل. ويعمي بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق. ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسدَ رأيه ونظره. فأَرَتْهُ نفسه الحَسنَ في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنَّى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟.

---

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.

(١)**ومن** منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة «الشكر».

وهي من أعلى المنازل. وهي فوق منزلة «الرضى» وزيادة. فالرضى مندرج في الشكر. إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ـ كما تقدم ـ والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر.

وقد أمر الله به. ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه. فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده. قال الله تعالى: ﴿وَاَشكُرُوا نِعمَةَ الله إن كُنتُم إيَّاهُ تعبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] وقال: ﴿وَاشكُرُوا لِي وَلَا تكفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيم، (ﷺ)، : ﴿إِنَّ إبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً. وَلَمْ يكُ مِنَ المُشرِكِين شَاكِراً لأنعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّه كَانَ عَبداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وَجَعل لكم السَّمع وَالأبصَارَ وَالأفئدَةَ لَعلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿واعبُدوهُ وَاشكُرُوا لَهُ إليه تُرجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَسَيَجزي الله الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإذ تَأَذَّنَ رَبكُم لَئِن شَكَرتُم لأزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفرتُم إنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِّكُل صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

وسمى نفسه «شاكراً» و«شكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وإعادته للشاكر مشكوراً كقوله: ﴿إِنَّ هذا كَانَ لَكُم جَزَاءً. وَكَان سَعيكُم مشكُوراً﴾ [الإنسان: ٢٢] ورضى الرب عن عبده به. كقول: ﴿وَإن تَشكرُوا يَرضَهُ لَكُم﴾ [الزمر: ٧] وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

(١) ٢٤٢ مدارج جـ ٢.

وفي الصحيحين: عن النبي، (ﷺ)؛ أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً؟»**.

وقال لمعاذ: **«والله يا معاذ، إني لأحبك. فلا تنسَ أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»**.

وفي المسند والترمذي: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله، (ﷺ)، كان يدعو بهؤلاء الكلمات: **«اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ. وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكُرْ لي ولا تمكر بي. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني لك، شكَّاراً لك. ذكَّاراً لك. رهّاباً لك. مطاوعاً لك. مخبتاً إليك. أوّاهاً منيباً. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسْلُل سخيمة صدري»**. . .

(١) **والشكر** معه المزيد أبداً. لقوله تعالى: **﴿لَئِن شَكَرتُم لَأَزِيدَنَّكُم﴾** [إبراهيم: ٧] فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي: يقول الله عز وجل: **«أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب»**.

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله، (ﷺ): **«إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده»** وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكري صامت ... عما فعلتَ. وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أُسِرها ... إني إذاً لندى الكريم لسارق

فصل

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و«الشكر» أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث **«الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»**.

---
(١) ٢٤٦ مدارج جـ ٢.

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. و«الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون: بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً. ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها. كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس. فإن الشكر يقع بالجوارح. والحمد يقع بالقلب واللسان.

فصل(١)

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها. فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به، حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد، فقال: «أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها» فأعجبه ذلك منه، وقال: «ما أحسن تقسيمه!».

(٢) **قوله** تعالى إخباراً عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ما نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر؛ فكما لا نكون نحن رُسُلاً فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلُنا لا مَزية لكم علينا، وهذا من أبْطَلِ القياس؛ فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجَعْل بعضِ هذا النوع شريفاً وبعضه دَنِيًّا،

---

(١) ١٧١ فوائد. (٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

وبعضه مرءوساً وبعضه رئيساً، وبعضه ملِكاً وبعضه سُوقة، يبطل هذا القياس، كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله: ﴿أَهُم يَقسِمُونَ رَحمَةَ رَبِّكَ نحنُ قَسمنا بَيْنَهم مَعِيشَتَهُم في الحَيـاةِ الدُّنيا وَرفَعنا بَعضهم فوقَ بَعضٍ درَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعْضاً سُخرِيًّا وَرحمَةُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وأجابت الرُسلُ عن هذا السؤال بقولهم: ﴿إن نَحنُ إلَّا بَشَرٌ مِثلُكُم وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وأجاب الله سبحانه عنه بقوله: ﴿الله أعلَم حَيثُ يَجعَل رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقالَ المَلأُ مِن قَومِهِ الَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرفناهُم في الحَيَاةِ الدُّنيا ما هَذا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكُم يَأكُلُ مِمَّا تَأكُلُون مِنهُ وَيَشرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَراً مِثلَكُم إنَّكُم إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤] فاعتـبروا المُسَـاواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب، وهذا مجرد قياس شَبَه وَجْمع صُوري. ونظير هذا قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

ومن هذا قياسُ المشركـين الربا على البيع بمجرد الشَّبَه الصُّوري، ومنه قياسُهم الميتة على الذكِيِّ في إباحة الأكل بمجرد الشبه. . . .

(١)**قالت** الرسل لقومهم: ﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّل عَلَى الله وَقَدْ هدَانا سُبُلَنا﴾ [إبراهيم: ١٢] فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق ـ لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره ـ مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل أدخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

---

(١) ٢٥٧ طريق الهجرتين.

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟ وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك. فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع ألبتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

فصل(١)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم أَعمَالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّت بِهِ الرِّيحُ فِي يومٍ عَاصِفٍ، لا يَقدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. فشبه تعالى أعمالَ الكفار في بُطْلَانها وعدم الانتفاع بها برَمَادٍ مَرّتْ عليه ريحٌ شديدة في يوم عاصف؛ فشبه سبحانه أعمالهم في حُبُوطها وذَهَابها باطلا كالهَبَاء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكَوْنَها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره، برمادٍ طَيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ فلا يقدر صاحبُه على شيء منه وقتَ شدة حاجته إليه؛ فلذلك قال: ﴿لَا يَقدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيءٍ﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشَرْعه.

(١) ١٧٠ أعلام جـ ١.

والأعمال أربعة: فواحِدٌ مقبول وثلاثة مردودة؛ فالمقبول: الخالصُ الصوابُ، فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شَرَعَه الله على لسان رسوله، والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سرٌّ بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مُراده طعْمَةً للنار، وبها تَسعَّر النار على أصحابها، وينشىء الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا، كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً ورَوْحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رَمَادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وَقودُ النار..

(1) **وباعث** الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاث أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين؛ فيرد جيش الهوى مغلولاً (2) وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ نَحنُ أَوْلِيَاؤُكُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى؛ فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية؛ فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم وهذه حال العاجز الضعيف.

الثانية: أن يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى
بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من

(1) ٢٠ عدة الصابرين.
(2) لعلها: مغلوبًا.

الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها، (ﷺ): **«العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»** وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم: المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

ومنهم: المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام.

ومنهم: الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها.

ومنهم: من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم: من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

ومنهم: من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق.

ومنهم: من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر يستعمله في: رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله، بمنزلة رجل قهر مسلماً وباعه للكفار وسلمه إليهم وجعله أسيراً عندهم.

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى

عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له، سلط عليه عقوبة له.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١] قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

والثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء ألبتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخلوهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه، كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

(١)**قال** أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: سمعت ابن أبي الدنيا يقول: إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي

(١) ١٠١ شفاء.

غيره، لقد حدثنا أبو عبدالله أحمد بن محمد بن سعيد القطان: ثنا عبيد الله بن بكر السهمي، عن أبيه؛ أن قوماً كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر فيقول: أتدرون ما تقول هؤلاء؟ فيقولون: لا. فيقول: تقول كذا وكذا؛ فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب. إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا. قال تقول: للسخلة الحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال: فانتهينا إلى الراعي فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم ولدت سخلة عام أول فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها، وهو يرغو ويحنو عنقه إليها فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه، قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه قال: فأناخوا البعير وحطوا عنه فإذا هو كما قال: فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت. وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح: ﴿وَقَالَ الشَّيطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُم فَأَخلَفتُكُم وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيكُم مِّن سُلطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوتُكُم فَاستَجَبتُم لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصرِخِكُم وَمَا أَنتُم بِمُصرِخِيَّ إِنِّي كَفَرتُ بِمَا أَشرَكتُمُونِ مِن قَبلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(١)فائدة

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس؛ بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر: على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.

(١) ٩ بدائع جـ ٤.

(١) **قوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذنِ رَبِّهَا وَيَضرِبُ اللهُ الأَمثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] فشَبَّهَ سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تُثْمِرُ العملَ الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: «الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله» فإنها تُثْمِر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مَرْضيٍّ لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير عليّ بن أبي طَلْحة: عن ابن عباس قال: «كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، أصلها ثابت، قول: لا إله إلا الله، في قلب المؤمن، وفرعُها في السماء يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء».

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعُه في السماء خشية الله» والتشبيه على هذا القول أَصَحُّ وأظهْرُ وأحسن؛ فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتةِ الأَصْلِ الباسِقَةِ الفرْعِ في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعُها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثَبَاتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومُرَاعاتها حق رعايتها.

فمن رَسَخَتْ هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتَّصَف قلبُه بها وانْصَبَغَ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغةً منها؛ فَعَرفَ حقيقةَ الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتُصَدِّقها جوارحه، ونَفَى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبُه لسانَه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحُه لمن شهد له بالوحدانية طائعةً سالكةً سبلَ ربها(٢) ذُللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلبُ سوى معبوده الحق بدلاً؛ فلا ريب أن هذه

(١) ١٧١ أعلام جـ١.
(٢) في المطبوعة «ربه» والصواب ما أثبتناه.

الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعِدِ إلى الله كل وقت؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى. وهذه الكلمة الطيبة تثمر كَلِماً كثيراً طيباً يقارنه عملٌ صالح، فيرفع العمل الصالح الكلمَ الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعه﴾ [فاطر: ١٠] فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً مُتَّصفاً بموجبها قائماً قلبُه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رَفَعَتْ هذا العمـلَ من هذا الشـاهـد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها مُتَّصلة، وهي مخرجة لثمرتها كلَّ وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يَخْرُجُ منه كلامٌ طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] قال: ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وَحْدَه لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذِكرُه في السماء، ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل المؤمن، والنخلة مشبهـةٌ به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبةً فالمؤمنُ المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة. وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علمُ الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلـك أن الشجـرة لابـد لها من عروق وساقٍ وفروع ووَرَق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به؛ فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعُها الأعمال، وثمرتُها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسَّمْتِ الصالح والهَدْي والدَّلِّ المرضي، فيستدل على غَرْسِ هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقادُ مطابقاً لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسلُه، والإخلاصُ قائم في القلب والأعمالُ موافقة للأمر، والهَدي والدَّلُّ والسَّمْت مُشَابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلُها ثابت وفرعُها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس عُلم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قَرَار. ومنها: أن الشجرة لا تَبْقَى حيةً إلا بمادة تَسْقيها وتُنْميها، فإذا قُطِعَ عنها السقي أوشَكَ أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إنْ لم يتعاهَدْهَا صاحبُها بِسَقْيها كلَّ وقتٍ بالعلم النافع والعمل الصالح والعَوْد بالتذكُّرِ على التفكر والتفكر على التذكر، وإلا أوشَكَ أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**إن الإيمان يَخْلُقُ في القلب كما يَخْلُقُ الثوبُ فجدِّدُوا إيمانَكم**».

وبالجملة فالغَرْسُ إن لم يتعاهده صاحبه أوشَكَ أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظَّفَهَا عليها وجعلها مادةً لسَقْيِ غراس التوحيد الذي غَرَسَه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابُدَّ أن يُخَالـطه دَغَـل ونَبْت غريب ليس من جنسه، فإن تَعَاهده رَبُّه ونَقَّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإن تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومَنْ لم يكن له فِقْـهُ نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربْحٌ كبير وهو لا

يشعر؛ فالمؤمن دائماً سعيُه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التُّكْلَان.

فهذا بعض ما تَضَمَّنه هذا المثَلُ العظيم الجليل من الأسرار والحِكم، ولعلها قَطْرة من بَحْر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجبُ التوبة والاستغفار، وإلَّا فلو طَهُرَتْ منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكَتِ النفوس، وخلصت الأعمال، وتجرَّدت الهمم للتلقي عن الله ورسوله؛ لَشَاهَدْنَا من معاني كلام الله وأسراره وحِكَمه ما تضمحِلُّ عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدرَ علوم الصحابة ومعارفهم، وأنَّ التفاوت الذي بين علومهم وعلوم مَنْ بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومَنْ يختص برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قَرَار، فلا عِرْقٌ ثابت، ولا فَرْع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، فلا ظِلّ، ولا جَنيّ، ولا ساقٌ قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق ولا أعلاها مُونِق، ولا جَني لها، ولا تعلو بل تُعلَى.

وإذا تأمل اللبيبُ أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجَدَه كذلك؛ فالخسران الوقوفُ معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثلُ كلمةٍ خبيثة ـ وهي الشرك ـ كشجرة خبيثة يعني الكافر، اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عملَ المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثلُ الكافر، ليس لقوله ولا لعمله

أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لَقِيَ رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مَصْعَدا، إلا أن تلزم عُنُقَ صاحبها حتى يوافي بها [يوم] القيامة.

وقوله: «اجتثت» أي: استؤصلت من فوق الأرض.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعَدْله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يُثَبِّتُ الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحْوَجَ ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يُضِل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضَلّ هؤلاء بعَدْله لظُلْمهم، وثَبَّتَ المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿**يُثَبِّتُ الله الَّذينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم:٢٧] كنز عظيم مَنْ وُفِّقَ لمظنته وأحْسَنَ استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حُرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طَرْفَةَ عينٍ فإن لم يثبته وإلا زالَتْ سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خَلْقه عليه عبده ورسوله: ﴿**وَلَولاَ أن ثَبتنَاك لَقَد كِدْتَّ تركَنُ إليهِم شَيئاً قَليلاً**﴾ [الإسراء:٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿**إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أنّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال:١٢] وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسأله ويثبتهم**» وقال تعالى لرسوله: ﴿**وكلًّا نَقُصُّ عَلَيكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبت بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ [هود: ١٢٠] فالخلق كلهم قسمان: مُوَفَّق بالتثبيت، ومَخْذُول بترك التثبيت، ومادةُ التثبيتِ أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعلِ ما أُمِر به العبدُ، فبهما يثبتُ الله عبدَه، فكل من كان أثبتَ قولاً وأحسنَ فعلاً كان أعظَمَ تثبيتاً.

قال تعالى: ﴿**وَلَو أنهُم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَان خَيراً لَهُم وأشَدَّ تثبيتاً**﴾ [النساء: ١٦٦] **فأثبت** الناس قلباً أثبتهم قولاً.

والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبدَه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى

الصادق من أثبت الناس وأشجَعهم قلباً، والكاذب من أمْهَن الناس وأخْبَثِهم وأكثرهم تَلَوُّناً وأقلهم ثباتاً، وأهلُ الفِرَاسة يعرفون صدق الصادق من ثَبَات قلبه وقت الإخبار وشجاعَتِهِ ومَهابته، ويعرفون كذبَ الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضُهم عن كلام سَمِعَه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً، إلا أني رأيت لكلامه صَوْلَةً ليست بصَولة مُبْطِل، فما مُنِحَ العبدُ منحة أفْضَلَ من منحة القول الثابت. ويجد أهلُ القول الثابت ثمرته أحوجَ ما يكونون إليه في قبورهم ويوم مَعَادهم. كما في صحيح مسلم: من حديث البَرَاء بن عازب، عن النبي، (ﷺ)، أن هذه الآية نَزَلَت في عذاب القبر.

وقد جاء هذا مبيناً في أحاديث صحاح؛ فمنها ما في المسند: من حديث داود بن أبي هند عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: كنا مع النبي، (ﷺ)، في جنازة، فقال: **«يا أيها الناس إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ بيده مِطْرَاق فأقعده فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له: صدقت، فيفتح له بابٌ إلى النار فيقال له: هذا منزلك لو كَفَرْتَ بربك، فأما إذ آمنت فإن الله أَبْدَلَكَ به هذا، ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينهض له، فيقال له: اسْكُنْ، ثم يُفْسَح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا اهْتَدَيْتَ، ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: هذا منزلك لو آمَنْتَ بربك، فأما إذ كفرتَ فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه المَلَكُ بالمطراق قمعةً يسمعه خلقُ الله كلهم إلا الثقلين»** قال بعض أصحابه: يا رسول الله، ما مِنَّا من أحد يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْرَاق إلا هيل عند ذلك، فقال: رسول الله، (ﷺ): **﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾** [إبراهيم: ٢٧]. وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب.

وروى المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء قال: قال رسول الله،

(ﷺ)، وذكَرَ قَبْضَ روحِ المؤمن فقال: «يأتيه آتٍ، يعني في قبره، فيقول: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، (ﷺ)، قال: فينتهره فيقول: ما ربك؟ وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حيث يقول الله: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيقال له: صدقت» وهذا حديث صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، (ﷺ): ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ﴾ قال: «إذا قيل له في القبر: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونَبِيِّي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقْتَ، على هذا عشْتَ، وعليه مت، وعليه تُبْعَثُ». وقال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، وعن زاذان، عن البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله، (ﷺ)، وذكر قَبْضَ روح المؤمن، قال: «فترجِعُ روحه في جَسَده، ويُبْعَثُ إليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه ويَنْتَهِرَانه ويقولان: مَنْ ربك؟ فيقول: الله، وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان له: وما يُدْرِيك؟ قال: فيقول: قرأتُ كتابَ الله فآمنتُ به وصَدَّقتُ، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾» رواه ابن حِبَّان في صحيحه، والإمامُ أحمد.

وفي صحيحه. أيضاً: من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «إن الميت ليسْمَعُ خَفْقَ نعالهم حين يُوَلونَ عنه مُدبْرِين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسِهِ، والزكاة عن يمينه، وكان الصيام عن يساره، وكان فعلُ الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيُؤتَى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مَدْخَل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل،

فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دَنَتْ للغروب فيقال له: أخبرنا عن ما نسألك عنه، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال له: أرأيتَ هذا الرجُلَ الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد، (ﷺ) فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسولُ الله، وأنه جاء بالبينات من عند الله فَصَدَّقناه، فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك مُتَّ، وعلى ذلك تُبْعَثُ إن شاء الله، ثم يُفْسَحُ له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً. ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب. وذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾».

فصل(١)

وأما المسألة الحادية عشر، وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق؟ فقال أبو عمر بن عبد البر فى (كتاب التمهيد): والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق من كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجـاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال الله تعالى: **﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِـلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾** وقد ثبت في الصحيح؛ أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

وفي الصحيحـين: عن أنس بن مالك، عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم؛ أنه قال: **«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم»** وذكر الحديث..

---

(١) ١٠٣ الروح.

(١)**قال** هناد بن السرى في كتاب الزهد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبي، (ﷺ)، عليَّ فذكرت ذلك له فقال: «**والذي نفسي بيده إنهم ليعذبون في قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم**».

قلت: وأحاديث المسألة في القبر كثيرة كما في الصحيحين، والسنن: عن البراء بن عازب؛ أن رسول الله، (ﷺ) قال: «**المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾**. وفي لفظ: «**نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي ومحمد نبيي فذلك قول الله ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾**».

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولاً كما تقدم.

وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة. وحديثه في المسند وصحيح أبي حاتم؛ أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً، كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي فيقولون: إنك ستصلي، أخبرنا عما نسألك عنه أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه**

(١) ٦٦ الروح.

رسول الله جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له :هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدىء منه وتجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير معلق في شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾» وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال: «ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾» [طه: ١٢٤].

وفي الصحيحين من حديث قتادة، عن أنس؛ أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن يقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقول: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة» قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، «فيراهما جميعاً»، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «فأما الكافر والمنافق فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين». . . .

[1]**(فصل)** ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿رَبِّ اجعَل هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فها هنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدعُونَنِي إِليهِ وإِلَّا تَصرِف عَنِّي كَيدَهُنَّ أَصبُ إِليهِنَّ وأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ فَاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] وصرف كيدهن هو

(١) ٥٩ شفاء.

صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن وتلك أفعال اختيارية وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله وهو فعل النسوة.

[1] **(فصل)** ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم إنه قال: ﴿رَبِّ اجعلني مُقيمَ الصلاةِ وَمِن ذُرِّيتي﴾ وقوله: ﴿فَاجعَلْ أَفئدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوي إِليهم﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلنَا في قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأفةً وَرَحمَةً وَرَهبانِيَّةً﴾ [الحديد:٢٧] وقوله حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: ﴿وَاجعَلهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦]. وقال في الطرف الآخر: ﴿فَبِمَا نَقضِهِم مِيثَاقَهم لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلنَا قُلُوبَهُم قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣] وقال: ﴿وَجَعَلنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً.

والتحقيق أن هذا ناشىء عن الأكنة والوقر فهو موجب ذلك ومقتضاه.

فمن فسر الأكنة والوقر به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما وبكل حال، فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم والله جاعله، فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعاله وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعول مخلوق له وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته.

فإن قيل: هذا كله معارض بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله.

قيل: لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعل ههنا جعل شرعي أمري لا كوني قدري، فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلى هذين النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم كما سيأتي بيانه إن شاء الله، فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني الشرعي أي لم يشرع ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب وجعلوا ذلك ديناً له بلا علم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيجعَلَ مَا يُلقى الشَّيطَانُ فِتنَةً للَّذِينَ في قُلُوبِهِم

(١) ٥٦ شفاء.

مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه هذا جعل كوني قدري.

ومن هذا قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: **«اللهم اجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أوّاهاً منيباً»** فسأل ربه أن يجعله كذلك وهذه كلها أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: **«وسدد لساني»** وتسديد اللسان جعله ناطقاً بالسداد من القول ومثله قوله في الحديث الآخر: **«اللهم اجعلني لك مخلصاً»**. ومثله قوله: **«اللهم اجعلني أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك وأحفظ وصيتك»**.

ومثله قول المؤمنين: **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا﴾** [البقرة: ٢٥٠] فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى وهو المسئول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة.

ومثله قوله: **﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾** [النمل: ١٩] وقال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني. قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك؛ ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: كان رسول الله، (ﷺ)، موزعاً بالسؤال أي مولعاً به كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعا: كففته فاتزع عنه أي كف، وأوزعته بالشيء: أغريته به فأوزع به فهو موزع به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي: استلهمته فألهمني، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرًى به واكفني عما سواه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة إبراهيم والحمد لله رب العالمين

فهرس سورة الأنعام

رقم الصحيفة	الموضـــــــوع
٣	بحث في قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ الآية.
٣	بحث حول قوله: ﴿بربهم يعدلون﴾.
٤	بحث حول قوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾.
٥	بحث حول جمع الظلمات وإفراد النور.
٦	بحث حول قول الله: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾.
٧	معاني إطلاق الجعل على الله وعلى خلقه.
٨	بحث حول قول الله تعالى: ﴿وهو الله في السموات﴾ الآية.
٩	بحث حول قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً﴾.
١٠	بحث حول قول الله تعالى: ﴿قل أغير الله اتخذ وليًا﴾.
١١	بحث حول قول الله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ الآية.
١٢	تفنيد آراء من يرى الذكر بسم الله مفردًا أو مضمرًا.
١٣	بحث حول قول الله تعالى: ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ الآية.
١٣	بحث حول قول الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ الآيات.
١٤	استدراك على بعض آراء المفسرين.
١٦	سياق اعترافات اليهود ومشركي العرب وهرقل الروم بصدق الرسول ﷺ.
١٧	معاني إطلاق الفتنة وأقسامها.
١٩	بحث حول قول الله تعالى: ﴿ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه﴾ الآية.
٢١	الخلاف في ما المراد بقوله تعالى: ﴿ما فرطنا من الكتاب من شيء﴾.
٢٤	بحث حول قول الله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكِّروا به﴾ الآية.
٢٥	عقوبة ترك لما ذكر الله في كتابه حسية ومعنوية.
٢٧	بحث حول قول الله تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ الآية.
٢٨	بحث حول معاني الحكمة وأقوال الناس فيها.
٣٠	بحث حول قول الله تعالى: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.
٣١	علق سبحانه وتعالى المزيد بالشكر ووصف الشاكرين بأنهم قليل.
٣٢	ذكر أن الشكر هو الغاية من خلق الله وأمره.
٣٦	ذكر أن كل ما شغل العبد عن الله فهو شؤم، وكل مارده إليه فهو رحمة.
٣٧	بحث حول قوله تعالى: ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾.
٣٨	بحث حول قول الله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ ونقض المعطلة لقولهم إنه مجاز.

فهرس سورة الأعراف

فهـرس سـورة الأنفـال

فهرس سورة التوبة

فهرس سورة يونس

فهرس سورة هود

فهرس سورة يوسف

فهرس سورة الرعد

فهرس سورة إبراهيم

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الثالث
ويليه إن شاء الله المجلد الرابع